الجنرال ج. ف. س. فوللر

إدارة الحرب

أكرم ديري

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر

الجنرال ج.ف.س.فوللر



من عام ١٧٨٩ حتى أيـامنا هذه

دراسة تبرز أثـر كل من :

*** الثورتين الفرنسية والروسية والثورة الصناعية منذ بدايتها.

*** على الحرب وادارتهـا واستراتيجيتها العليا

* وآراء كلاوزفيتز ومولتكه وفـوش وبلوخ

* والحرب العالمية الأولى والثانية حتى عام ١٩٦١

تعريب وتعليق

أكرم ديري

دار اليقظة العربية

للتأليف والترجمة والنشر

١٩٧١

صدر هذا الكتاب في اللـــغة الفرنسية
تحت عنوان

LA CONDIUTE DE LA GUERRE

(1789 - 1961)

ترجمه عن الأنجليزية

ROBERT LAORTIGAU

PAYOT, PARIS

1963

تقديم المؤلف

إن إدارة الحرب كممارسة فن الطب .

فإذا كان طموح الطبيب والجراح هو وقـــاية المريض من أمراضه وتخفيف الأوجاع التي يعـــانيها ، بل وشفاء الجسم الانساني منهـــا بصورة عامة ، فإن طموح رجل الدولة وطموح القائد العسكري ينبغي أن يكونـــا وقاية الشعوب من الحروب التي تفرض عليهـــا ، وتخفيف حدة هذه الحروب إذا وقعت . الا أننا مع الأسف لم نجد من عني بوجهة النظر هذه ،وعمل لها ووضعها موضع الاعتبـــار . فعلى حين أصبح فن شفاء المريض منـــذ فترة قريبة علمـــاً متقدماً ، بقيت إدارة الحرب لغزاً بربرياً هدفه التدمير والتقتيل .

ولنا في مجريات الحربين العالميتين عبرة وعظة ، وفي نتائجهـــا المؤلمة المخربة والتي لا زالت آثارها المدمرة بين ظهرانينـــا . كـــل ذلك مما يؤيد وجهة نظرنا ويؤكد العقلية البربرية السائدة في طريقة إدارة هـــاتين الحربين ، على مستوى رجال الدولة ، وعلى مستوى قـــادة الجيوش .

إن الخوف من الدمـــار يمزق القلوب في أيامنا هذه . وليس هنـــاك من علامات تؤكد احتمال استتباب الاستقرار والشعور بالأمن في هذا العـــالم . ومرد ذلك الافتقـــار إلى الروابط الشريفة ، أو روابط الاحترام الإنساني التي توحد بين الأمم وتجمعهـــا .

لقد عرفت أوروبا كثيراً من الحروب . فخلال ألف عــام كانت الحرب الشغــل الدائم لشعوبهــا المتشاحنة . ومع ذلك لم يكن هناك حروب مدمرة ، كمــا نتوقعه في حروب القرن الحالي .

إلا أنه ينبغي علينــا أن لا نفتش عن سبب هذا الدمــار في الحرب ذاتها ، بــل ينبغي أن نفتش عنه في طريقة إدارة الحرب ، بالنسبة للثورات الكبرى التي حدثت منــذ عام ١٧٨٩ : انحطاط الارستوقراطية وزوالها ، وظهور الديموقراطية ، وتطور الصناعة والرأسمالية ، وظهور الجمــاهير باندفاعها ، وظهور الاشتراكية ، وتقدم العلم ، وتحسينات التقنيــة ، وازدياد عدد السكان ، وتزايد الضغط الشعبي ، وانحطاط الدين ، والنمو المستمر للمــادية فقد بدّلت كــل هذه التغيرات الكبرى معالم الحضارة . وحاول البعض معرفة آثــار هذه التبديلات ونتائجها على الحرب ، وطريقة تسويتهــا وحسمها فليس هنــاك من مبرر كي يغرق عــالم اليوم في هذه الفوضى المقلقة المضنية .

وجدير بنــا أن نتمثل مــا كتبه كلاوز فيتز منذ أكثر من مــائة وثلاثين عــاماً إذ يقول :

« ويشتمل أول حكم ينفذه رجــل دولة أو قائد عام ، وهو أهم حكم وأكثره حسمــاً ، على التقدير الصحيح لنوع الحرب التي يشرع بهــا ، كي لا يــأخذها على غير ما تحتمل ، ولكي لا يجعــل منها نوعاً من الحروب تمنعه طبيعــة الظروف القائمة » .

فلو أن رجال الدولة ، وجنرالات الحربين العالميتين أخــذوا هذه الكلمات بعين الأعتبار ، لمــا كان من الممكن أن ينخدعوا كمــا حدث بالفعل .

إن طبع الحرب بطابع « من المستحيــل أن تتخذه بسبب طبيعة الظروف »

مشكلة من مشاكل التاريخ ، وأثر من آثـــار التغيرات الحضارية وانعكاساتها على النزاعـــات البشرية .

إن فحص هذه التغيرات ، والتفتيش عن أثرهـــا على إدارة الحرب هو الموضوع الذي لم يعـــالج بعمق حتى الآن . وهو موضوع واسع ومعقـــد لا تشكـــل الدراسة الحالية التي قمنا بها سوى دراسة تجريبية متواضعة وغير كـــاملة في هذا المضمار .

وممـــا تجدر الاشارة إليه أن مـــا كتبناه هنا ليس تأريخـــاً للحروب التي جرت منـــذ عام ١٧٨٩ . إذ لم نعالج فيه مبدئيـــاً طريقة إدارة هذه الحروب من الزاوية العسكرية ، بـــل بالأحرى من زاوية الضغط الـــذي مارسته الأحداث السياسية والإقتصادية ، والإجتمـــاعية عليها . ولكي يكون حجم الكتاب حجمـــاً متوسطاً لم نحاول دراسة هذه الأحداث . فقد اخترنا أهمها في نظرنا . وفي الفصول التي تبحث الحروب بصورة خاصة ، لم نحاول منـــاقشتها بصورة مفصّلة . إذ فضلنا اختيار المراحـــل التي اعتبرناها صالحة لتفسير طريقة إدارة الحروب ، والطريقة السيئـــة في إدارتها في غالب الأحيان.

إن أهم فصـــل في هذا الكتاب هو الفصل الخاص بكلاوزفيتز ، أب الحرب الحديثة .. فبدلاً من تكثيف نظريـــاته ، إستشهدنا بكتابه في الحرب مرات عديدة لسببين : أولهمـــا لأنه كان أول من فهم أن الحرب هي « ميـــدان الحياة الاجتماعية » ، ويبقى كلاوزفيتز واحداً من أولئـــك الذين فهموها على هذا الشكـــل . وثانيهمـــا لأننا التقينا بكثير من القادة ، ورجـــال السياسة الـــذين استشهدوا بنظريـــاته أو نقدوها . فلم نجـــد من بينهم مع ذلك إلا ثلاثة أو أربعة درسوا كتابه الهـــام دراسة جادة . وكان الكولونيل

ف . ن . مــود ، ناشر الطبعة الانجليزية الثــانية لكتابه « في الحرب » هو الذي عرّفنا به . وكان من بين هؤلاء القلة التي فهمتــه . ولو كان هؤلاء من بين الذين تولوا مسؤولية إدارة الحرب العالمية الأخيرة من جانب الحلفــاء . لمــا وقعت تلك الأخطــاء المرعبة .

وقد استشهــدنا بكثرة تمشياً مع طبيعــة الدراسة ، بكتابــات مؤلفين آخرين ، وبصورة خاصة بمؤلفات المــارشال فوش ، ولينين ، وهتلر . وفضلاً عن أن هذه الإستشهادات قد تكون مملّة بالنسبة للقــارىء ، إلا إنني مقتنع بان من الأجدى أن نسمع هؤلاء الرجــال يتحدثون بأنفسهم بدلاً من أن نحــاول شرح نظرياتهم .

أمــا فيما يتعلق بالثورة الصناعية ، فقد أعتبرنــاها كحدث واحد منذ أن بزغ فجرها بصورة غير دقيقة إلى هذا اليوم . ولم نقسمّها إلى مرحلتين كما فعــل ذلك مؤخراً بعض الكتّاب : المرحلة الأولى وهي الثورة التي سبقت دخول الطاقة الذرية ، وسبقت تطور « الأتمتة » الآلية ، ومرحلة ثــانية لاحقه لظهور هذه الطاقة ، ولظهور الآلية .

وهنــاك نقاط أخرى سأشير اليهــا لتنوير القارىء :

يمكن تصنيف الحروب ، من أول الفترة التاريخية التي نعالجهــا — حتى آخرها ، إلى نوعين بحسب أهدافهمــا السياسية المحدودة أو غير المحدودة ، وقد كانت الحروب الأولى هي التي كانت حافلة بالميزات بالنسبة للمنتصر ، على عكس الحروب الثــانية (غير المحدودة) .

وفي الحرب ، لا تسجنوا أنفسكم أبداً في المطلق . ولا تخضعوا أنفسكم أبداً لاتفاقات أو لقرارات قطعيــة . فليس للحرب نهــاية محددة ، مثلها مثل

لعبة الصدفة . وينبغي أن يكون العمــل متلائماً مع الظروف دومــاً وفي كل مكان ، لان الظروف غير ثابتة وتتبدل باستمرار .

ومن الحكم المــأثورة أن الشراسة في الحرب لا تجدي إلاّ نــادراً . على أن لهذه الحكمــة بعض الإستثنــاءات التي تستطيع أن تجعلكم تربحون الحرب ، غير أنها تطيلهــا بالتأكيد ضد مصلحتكم .

ومن أول تاريخ الحروب إلى آخره ، من الممكن أن نــلاحظ أن الأصدقاء والأعداء يبدلون معسكرهم كثيراً بالتنــاوب . وبناء على هذا عندما تقضون على خصمكم ، من الحكمة أن تساعدوه على النهوض لان من الممكن أن نراهن أنكم ستحتاجون إلى عونه في النزاع المقبــل .

وأخيراً ، نود أن ننهي هذا التقديم بالاقتراح التــالي. هناك عدد من المؤلفات التي تعالج الحرب وتبحثهــا ، وفضلاً عن إنني لست هاوياً كبيراً من هواة الأنظمة الرسميــة التي تصدرها هيئــات التدريب في الجيوش أو وزارات الدفاع ، فقد طرأ في خــاطري عندما كتبت هذا الكتاب أن هناك إمكانية هــائلة في أن أضع له عنواناً تجاريــاً : « إدارة الحرب » . وأن يكون موجهاً لرجال الدولة العسكريين في الوقت ذاته .وأن تصبح قراءته الزامية بهــذا الشكل . وكان من المستحسن أن أقسّمه إلى جزئين : « كيف تقود حربــا من الحروب » و « كيف لا تقود .... » فبالنسبة للقسم الأخير ، هناك وفرة هــائلة في المواد الخــام ، كما سيبرهن هذا الكتاب .

ج. ف . س. فوللر

الفصل الاول

الحروب المحدودة للملوك المطلقين [1]

١ ــ حرب الثلاثين عامــاً والكوندوتييري الايطاليين

ولد عصر الملكيات المطلقة على أنقاض الحروب الدينيــة . وانتهت الحروب الدينيــة بحرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ــ ١٦٤٨) ، التي كــان نصفها الثاني صراعــاً رهيباً بين جنود المرتزقة الذين جرى تجنيــدهم بسرعة ، وكان يلحق بهم في غــالب الأحيان قبائل شعوب جائعة [2] . وفي عــام ١٦٤٨ ، عندما وضعت معاهدة ويستفالي حــداً للفوضى في أوروبا ، كانت أوروبا الوسطى قد تحولت إلى خرائب . ويقدر المؤرخون أن ثمــانية ملايين شخصاً

---

(١) « تصنف الحروب إلى حروب محدودة وإلى حروب لا محدودة . وينطبق التعبير الأخير على الحروب التي تستهدف إبــادة العدو أو استسلامه دون قيد أو شرط . وتخــاض الحروب المحدودة لاصلاح خطــأ من الأخطاء وللاستيــلاء على أرض أو ميزة معينــة أو للحصول على اعتراف بحق من الحقوق الخاصة. وقد أشار كلاوزفيتز إلى أن كل الحروب تتجه إلى التحول إلى حروب لامحدودة ، مهمــا كان هدفها الأول محدوداً ، إذا كان المتنازعان يتمتعان بقوة وعناد متعادلين »

(٢) « الانسيكلوبيديا البريطانية ، الجزء ٢٣ ، ص ٥٢٣ » .

هلكوا في هذه الحروب بالاضافة إلى ٣٥٠,٠٠٠ جريحاً . وفي قسم واحد من أقسام مقاطعة تورانج THURINGE، لم يبق من أصل ١١١٧ منزلاً تؤلف ١٩ قرية إلا ٦٢٧ منزلا . وفي بوهيميا لم يبق سوى ٦٠٠٠ قرية صالحة للسكن من أصل ٣٥,٠٠٠ قرية ، وهبط عدد السكان من ٢,٠٠٠,٠٠٠ إلى ٧٠٠,٠٠٠ مواطن . وخلال الحرب لم يكن أكل اللحوم البشرية مجهولا . وقد سيطر على المواطنين الإيمان بالخرافات وممارسة السحر إلى حد دفع أسقف فيرتزبورغ في عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٨ إلى حرق ٩٠٠٠ شخصاً بتهمة احتراف السحر كما قيل ، وفي عام ١٦٤٠ – ١٦٤١ لاقى ألف شخص المصير ذاته في إمارة نيس السيليزية .

كانت وحشية هذه الحرب المثيرة هي التي أبرزت التناقض فيما بينها وبين الممارسة الأكثر إنسانية للحرب في ايطاليا خلال القرن الخامس عشر . ففي فلورنسا ، وميلانو وفي غيرها من الامارات كان الحكام المستبدون المحليون يعتمدون في حروب الأحزاب والفئات الممزقة على المرتزقة الممتهنين لصناعة الحرب والمتمرسين فيها والتي كان يستأجرهم **الكوندوتييري** أو القادة ... وكان هؤلاء الجنود لا يقاتلون إلا بغرض الكسب المادي . وكانوا يستطيعون بيع خدماتهم في سنة من السنين لأمير ثم يبيعونها في العام التالي لخصمه الذي كان يحاربه . وكانت الحرب بالنسبة اليهم حرفة وفناً في الوقت ذاته ، وحيث يعتبر افتداء الأسرى أكثر جدوى ، وأكثر

---

(١) تحدث جندلي GINDLEY في كتابه :

History of the thirty year's War.

(١٨٤٨ في الجزء ٢ ، ص ٣٣٤) عن جيش مؤلف من ٣٨,٠٠٠ مقاتل يتبعه ١٢٧,٠٠٠ امرأة ، وولد ونصير .

ادراراً للربح من قتـــل أعداء مستخدمهم . وبمـــا أن الحرب مهنتهم ، فإن من صالحهم إطالة هذه الحرب بدلاً من إنهـــائها . وبحسب رواية المؤرخ غيسيارديني GUICCIARDINI : « كانوا يقضون صيفاً بكامله في حصار موقع محصن . ولهذا كانت الحروب لا تنتهي أبداً . وكانت الحمـــلات تنتهي بدون خسائر أو بخسائر لا تكـــاد تذكر » (١) . وفي نهاية القرن الخامس عشر ، كان عسكريون مشهورون من أمثـــال الكوندوتييري بـــاولو فيتيلي وبروسبير وكولونا يصرحون بمـــا يلي : « إن العبقرية والمهارة تربح الحروب أكثر مما يربحهـــا صدام الاسلحة الحقيقيـــة وصخبها » (٢) .

وقد كتب السير شارل اومـــان عن هؤلاء العسكريين ما يلي :

« كانت نتيجة التخلي عن إدارة الحرب ووضعها بين يدي قادة المرتزقة المـــأجورين الكبار تحول الحرب إلى مجرد تمـــارين تكتيكية أو إلى لعبة من لعب الشطرنج تستهدف جذب العدو بمهـــارة إلى وضع يستحيل عليه أن يتخلص منه وأسره ، بدلاً من انهـــاكه بسلسلة من المعارك الكثيرة التكاليف . حتى أن البعض كانوا يشكون بأن الكوندوتييري قد تفـــاهموا مسبقاً ، مثلهم مثـــل الملاكمين المجردين من الأمـــانة للقيام بمباراة متعادلة . وغـــالباً ما كانت المعارك ، إذا حدثت ، مغـــامرات حقيقية خالية من اهراق الدماء ... ويذكر ماكيافيلي حـــالات كثيرة لمعـــارك مصفوفة ، لم يسقط فيهـــا قتيلاً سوى رجلين أو ثلاثة رجـــال من حملة السلاح ، على حين كان الأسرى يعدون بالمئـــات . » (٣)

---

(١) ذكر هذا في :

The cambridge Mediaeval History, Vol, VIII, p. 656.

(٢) ذكر هذا ف. ل. تـــايلور F.L. TAYLOR في كتابه :

The Art of War in ITALY, 1494 - 1529 (1921) p. 11.

(٣)

Cambridge Modern History, Vol. VIII, p. 656.

وبدأ يبرز في هذه المعـــارك مفهوم سياسة خارجية ، وبدأ التمييز بين قوة الجندي وبين حقوق المواطن في الظهور . ولهذا السبب كانت ايطاليا بمثـــابة حقل للتجارب بالنسبة للديبلوماسيين والمشرّعين الأوائـــل في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

٢ ـ المشرعون والقيود المفروضة على الحرب :

كان غروتيوس [١] من أشهر الحقوقيين في ذلك الوقت (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥) وقد شنّ حملة قوية أثنـــاء حرب الثلاثين عـــاماً ضد الفوضى الدولية وقوة التدمير التي تسببهـــا الحرب اللامحدودة . وفي كتابه الذي تناول فيـــه القانون الدولي : « اعتراف بالحرب والسلم» «De Jure Belli Ac Pacis» يوصي بالاعتدال في المعارك ، وفي الغزو ، ونهب البلاد المعادية وفي المعـــاملات المفروضة على سكانها المدنيين . وبعد الحرب مباشرة ، طرح تومـــاس هوبس (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) كمبدأ من المبادىء في كتابه Léviathan : « إذن فهناك أمر وقـــاعدة عامة حقة ، **تحتم أن يفتش كل امرىء عن السلم بكل الجهود طالمـــا كان يـــأمل في الحصول عليه ، وعندما لا يستطيع الحصول عليه ، يصبح من الجائز بالنسبة اليه أن يفتش عن كل الوسائل التي تستطيع مساعدته، وتمهـــد السبيل أمامه في الحرب ، ليستخدمها** » . وقد وصف الاقتراح الأول الذي يتضمن ،**البحث عن السلم ومتابعته** بأنه« القانون الأساسي للطبيعة» وقال عن الثـــاني الذي هو : « جوهر قانون الطبيعة » الذي يستهدف **دفاع المرء عن نفسه بكل الوسائل التي يملكهـــا** [٢] .

---

(١) HUGO GROTIUS

(٢) توس هوبس : THOMAS HOBBES : Lèviathan : (1921) الطبعـــة الفرنسية ، ص ٢١٣ .

ولم يكن غروتيوس ، ولا أي مشرّع آخر من مشرّعي القرنين السادس عشر والسابع عشر يعارضون اعتبار الحرب عملاً غير قانوني . وكانوا حكماء في استبعاد إمكانية تحقيق هذا المطلب الطوباوي ، فأوصوا بتخفيف حدتها وقوتها المدمرة . وقد نوقش هذا الاعتدال الذي كانوا يطالبون به ، وعدّل من قبل أمريخ دوفاتيل (١٧١٤ – ١٧٦٧) في كتابه : **حق الأفراد** ، الذي طبع في نيوشاتيل في عام ١٧٥٨ . وفي هذا الكتاب طرح دوفاتيل السؤال التالي : بما أن كل المتنازعين يؤكدون عدالة قضيتهم ، فمن يكون الحَكَم بين الأطراف ؟ وكان جوابه على السؤال هو التالي : بما أنه ليس هناك حكام ، **ينبغي أن نستعين بالمبادىء التي نستطيع بفضلها الحد من غلواء الحرب وعنفها . وقد أطلق على هذه المبادىء: «الحق الأختياري للأمم».**

وقد كتب دوفاتيل حول هذا الموضوع ما يلي : « إن القاعدة الأولى من هذا الحق ، في الموضوع الذي نعالجه هي **أنه ينبغي أن ينظر إلى الحرب المتمشية مع القوانين ، فيما يتعلق بنتائجها ، كحرب عادلة بالنسبة للطرفين** . وهذا أمر ضروري جداً ... إذا أردنا أن نتيح بعض النظام ، وأن نضع شيئاً من التناسق في وسيلة عنيفة كعنف وسيلة استخدام الأسلحة ، ووضع حدود للمآسي التي تسببها ، وأن نترك الباب مفتوحاً دوماً أمام عودة السلم . ومن غير الممكن أيضاً العمل بطريقة مختلفة بين أمّة وأخرى ، لأنهما لا تعترفان أبداً بالحكام » .

« وبهذا الشكل فان الحقوق المستندة إلى حالة الحرب ، وشرعية نتائجها أو آثارها ، وصحة المكاسب التي تمت بواسطة السلاح ، لا ترتبط ابداً ، من الناحية الخارجية ، وبين الرجال ، بعدالة القضية ، بل ترتبط وتتعلق بشرعية

الوسائل في حد ذاتها ، أي بكل ما هو مطلوب لحرب نظامية متمشية مع القوانين والقواعد » [١] .

وقد كتب دوفاتيل عن الطرق الخاصة المخصصة للأستخدام في الحرب ما يلي

« اذا استثنينا الحالة التي ينبغي فيها معاقبة خصم لنا ، فان كل شيء يعود إلى القاعدة العامة التالية : كل ضرر نسببه للعدو دون ضرورة ، وكل عداء لا يستهدف تحقيق النصر وانهاء الحرب ، سلوك يدينه القانون الطبيعي للحرب » .

« غير أن هذا السلوك لا يتلقى بالضرورة أي عقاب ، وتتسامح فيه الدول إلى حد ما . فكيف نحدد بدقة ، في الحالات الخاصة ، إلى أي مدى كان من الضروري نقل العدوان للتوصل إلى نهاية سعيدة للحرب ؟ وعندما يمكن تحديده بدقة ، لا تعترف الأمم بحكم مشترك . فلكل أمة منطقها في الحكم على ما ينبغي أن تفعله للقيام بواجباتها . فاذا افسحتم المجال لاتهامات متواصلة ومبالغ فيها في الاعتداءات ، فانكم لا تفعلون شيئاً سوى زيادة عدد الشكاوي فقط ، وتشحذون الأفكار : إذ تولد من جديد نكبات جديدة ولن يتخلى الطرفان عن السلاح إلى أن يدمر أحد الطرفين . ينبغي إذن في الحرب بين أمة وأخرى أن يتمسك الطرفان بقواعد عامة ، مستقلة عن الظروف ، وأن يكون تطبيقها مؤكداً وسهلاً . غير أن هذه القواعد لا يمكن أن تكون بهذا الشكل ، إلا إذا لم تؤخذ الأمور بعين الإعتبار في حد ذاتها وبطبيعتها بشكل مطلق » [٢] .

---

(١) حق الأفراد أو مبادىء القانون الطبيعي المطبق على إدارة أمور الأمم والحكام (١٨٢٠) ، الجزء ٢ ، ص ٢٧٤ للمؤلف .
Emmerich de Vattel. **LE DROIT DES GENS. DEVATTEL.**

(٢) المرجع المذكور سابقاً جزء ٢ ، ص ٢٥٣ .

وهكذا يكون الاعتدال هو السمة السائدة ، ولا ينبغي أن نفعل شيئاً لمنع عودة السلم الذي يقول عنه دوفاتيل ما يلي :

« إن اتفاقية السلم لا يمكن أن تكون إلاّ مصالحة . فإذا أردنا أن نتقيد فيها بقواعد سلم صحيح وصارم ، بشكل يحصل فيها كل فرد على ما يملك ، فإن السلم يصبح مستحيلاً . أولاً ، بالنسبة للموضوع الذي انفجرت الحرب بسببه ، ينبغي أن يعترف أحد الطرفين بخطئه ، وأن يدين ادعاءاته غير الصحيحة ، الأمر الذي يصعب عليه أن يعمله طالما لم يصل إلى الرمق الأخير . ولكنه اذا اعترف بعدم عدالة قضيته ، فإن عليه أن يقر بإدانة كل الأعمال التي قام بها لدعمها : ولوجب أن يعيد إلى خصمه ما أخذه بصورة غير عادلة ، وأن يدفع تكاليف الحرب ، وأن يصلح الأضرار التي سببتها . وكيف يمكن حساب كل هذه الأضرار بصورة صحيحة ؟ وبماذا يحدد ثمن الدم المراق ، وموت عدد كبير من المواطنين ، وحزن عائلات كثيرة ؟ ليس هذا هو كل شيء أيضاً . فالعدالة السديدة فوق ذلك تتطلب أن يخضع مسبب حرب ظالمة إلى عقاب يتناسب مع النكبات التي سببها ، والتي يدين بالتعويض عنها وترضيته الطرف الآخر ، وأن يكون قادراً على تدارك الأمن في المستقبل للطرف الذي هاجمه . فكيف يمكن تقدير طبيعة هذا العقاب المفروض عليه ، وتحديد درجته بدقة ؟ وأخيراً ، فان الطرف الذي استخدم السلاح دفاعاً عن العدل ، ربما تجاوز حدود دفاع عادل عن النفس ، وتجاوز حدود النزاع الذي كان يقوم على أساس شرعي حتى أصبح مذنباً ، فارتكب كثيراً من الأخطاء تتطلب العدالة الشديدة اصلاحها . وقد يكون هذا الطرف قد قام بغزوات وحصل على غنائم تتجاوز القيمة التي كان يطالب بها . فمن ذا الذي سيقوم

بالحساب الدقيق ، والتقدير الصحيح؟ ثم يصبح من المخيف إذن إبقـاء حالة الحرب ، واستمرارها لمـدة طويلة ، ودفعها إلى حد تدمير أحد الطرفين تدميراً تامـاً . وعندئذ ، مهمـا كانت عدالة القضية التي نحارب من أجلها ، نجد أن الواجب يحتم تركيز التفكير في اعـادة استتباب السلم. إن التوجه والعمل لنهـاية سلمية ليست له وسيلة إلاّ تساهل الطرفين في المطالب وعدم مبالغتهما بالمظالم ، وازالة كـل الخلافات باتفاقية تتحقق فيهـا أكبر مساواة ممكنة . ويحرص الطرفان على عـدم التعرض في هذه الاتفاقية إلى السبب الأصلي للحرب ذاتهـا ، ويتحاشيا التعرض للمواضيع التي تثير الجدل ، أو تدين أي طرف من الأطراف بالظلم وانتهـاك الحرمات ، لأن كلا الطرفين يرفضان أدانتهمـا بأي عمـل من الأعمال . وكل ما يحدث أن الطرفين يتوصلان في الاتفاق على مـا ينبغي أن يحصل عليه كل منهما للتنازل عن مطالبه والقضاء على ادعاءاته »[١] .

وبالإضافة إلى هذا ، بمـا أن « نتيجة اتفاقية السلم هي وضع حد للحرب والقضاء على كـل أسبابها »[٢] ، بناء على ذلك فإن « غازيـاً شرهاً وظالمـاً يخضع أمة من الأمم ، ويفرض عليهـا قبول شروط قاسية ، ومخجلة ، وثقيلة ، فان الضرورة تضطرها إلى الخضوع . غير أن هذا الهدوء الظاهر لا يعتبر سلمـا : إنه ظلم تعانيه ، على حين تفتقر إلى الوسائل التي تسمح لها بالتخلص منه ، وسيهب الرجال الأقوياء لدى أول فرصة ملائمة ضده »[٣] .

---

(١) دوفاتيل ، المرجع المذكور سابقا ، جزء ٢ ، ص ٣٦٠ . Vattel
(٢) الملحوظة السابقة ذاتها ، جزء ٢ ، ص ٣٦٠ .
(٣) الملحوظة السابقة ، جزء ٢ ، ص ٣٧١ .

٣ – جيوش الملوك المطلقين :

إن كل ما اقترحه المشرّعون لم يكن ذا نفع كبير ، لو لم يضعف الاصلاح سلطة البابوات ويقلّل منها إلى حد كبير . ففي الماضي ، كان الملك OINT DU SEIGNEUR يعتبر وكأنه ظل الله على الأرض المفوض بكل الأمور الموقتة لمملكته . وأصبح فيما بعد أيضا نائب الاله (الرب) ووكيله على الأرض ، فيما يتعلق بالأمور الروحية في الدول البروتستانتية ، وفي الدول الكاثوليكية ، وامتنع الحكام عن الاعتراف بأن تتويج الأسقف لهم لم يكن شيئا آخر غير تكريس لألقابهم . وفي عام ١٦٦١ ، عندما تسلم لويس الرابع عشر إدارة الحكومة الفرنسية شخصيا ، ومنح نفسه سلطة وحقوق حاكم مطلق ، كان مفهومه عن الحياة مفهوما أوتوقراطيا : فقد كان يتمتع بالعصمة الإلهية كنائب عن الله ، وأصبح مع بلاطه النموذج المحتذي لكل ملوك القارة . والخلاصة كان هناك في السياسة عودة إلى استبداد الحكام الطغاة المستبدين الايطاليين .

ومع ذلك كان هناك فرق بين حكام القرن ١٥ المستبدين وملوك القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكان فرقا ذا طابع عسكري . فعلى حين كانت قوة البعض تكمن في المرتزقة المحترفين ، كانت قوة الآخرين تعتمد على جيوش محترفة دائما . وفي وسعنا حقا أن نعيد أصل الجيش الدائم **الى سرايا الحرس الملكي** التي أسسها شارل السابع ملك فرنسا من عام ١٤٤٥ – ١٤٤٨ . ولكن الجيش الفرنسي لم يصبح نموذجا لكل الجيوش الدائمة خلال أكثر من قرن إلا عندما أعاد لوفوا تنظيمه بعد هزيمة الجيش الأسباني القديم في روكروا ROCROI على يد كونديه العظيم . وبخلاف النموذج السابق ، كانت هذه الجيوش الدائمة مجهزة ، وعلى استعداد للحرب ، وتحت

تصرف حكامها مباشرة . وقد كتب أوبنهايم في كتابه « القانون الدولي » حول موضوعهم ما يلي :

« لم يكن من الممكن أن تتطور القوانين ، وتتبدل عادات الحرب وأساليبها بدون تشكيل هذه الجيوش الدائمة ... ولولا انضباط هذه الجيوش لما اتجهت ممارسة الحرب إلى الصورة الانسانية ... ولولاها أيضاً لما قام التمييز الهام بين أفراد القوات المسلحة وبين المواطنين العاديين » . (١)

ويرجع قيام التمييز بين الجندي والمدني ، إلى حد كبير إلى الشراسة التي تعرض لها المدنيون في حرب الثلاثين عاما . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن استنزاف السكان والموارد وثروات كل بلدان أوروبا الوسطى كان كبيراً إلى حد جعل الجيوش الدائمة الجديدة تتألف من قوات أقل . كما أثّرت حالة طرق المواصلات ووضع الزراعة على تشكيل الجيوش الكبيرة وحالت دون زيادة عددها » (٢) . وقد اتخذت الجيوش في كل بلد من البلدان شكل قطعة من الجنود المنضبطين الذين يخدمون خدمة طويلة ، منفصلين عن المواطنين المدنيين ، ويخضعون في سلوكهم في حالة السلم وفي حالة الحرب إلى قيود محددة.

٤ ـ الحرب المحدودة :

وقد كتب المارشال دوساكس ، وهو واحد من أكثر القادة نجاحاً في

---

(١) أوبنهايم ـ القانون الدولي (١٩٢٦) الجزء ٢ ، ص ١٣٦ .
International Law.

(٢) كان المارشال دوساكس يعتبر أن الملاك المثالي لجيش من الجيوش هو ٤٦,٠٠٠ جندي ، منهم ٣٤,٠٠٠ جندي مشاة ، و ١٢,٠٠٠ من الفرسان ، أي ما يعادل ٥٠,٠٠٠ جندي بما فيهم أفراد المدفعية الخ ..

القرن الثامن عشر ، في الجملة الأولى من كتابه «Rêveries» « التخيلات » كتب قائلاً ما يلي :

« كانوا يجندون القطعات بالتطويع أو بالتعاقد ، وبالقوة احياناً . وغالباً ما كان التجنيد يتم بالخداع والحيلة ... إذ يضعون المال سراً في جيب شخص من الأشخاص ، ثم يقال له أنت جندي ! ... » . ويتم تجنيد معظم الجنود من الطبقات الدنيا في المجتمع ، ولهذا كان الأنضباط الذي يفرض عليهم قويا وشرساً . ولما كان الشرف لا معنى له بالنسبة إليهم حسب ما يقول فريدريك الكبير « كان من الضروري تخويفهم من ضباطهم أكثر مما يخافون الخطر في الحرب » إذ « أن أقل تراخ في الضبط والنظام يؤدي إلى تحويلهم إلى وحوش برابرة » [١] .

ومن الممكن أن نناقش في النتيجة التي كان من الممكن أن يتوصلوا إليها ، لو أنهم تهاونوا في فرض الانضباط عليهم . لكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن الانضباط العنيف الذي فرض عليهم قد ساهم إلى حد بعيد في تحديد مجال التكتيك واقتصاره على عمليات النظام المنضم — وهي العمليات التي كانت تتم أمام عيون الضباط — ذلك لان الفرار من الخدمة كان الوسيلة الوحيدة للنجاة من الجنّاد . وقد انتشر الفرار من الخدمة في القرن الثامن عشر انتشاراً كبيراً ، مما اضطر فريدريك الثاني إلى وضع أنظمة دقيقة للحيلولة دون وقوعه : كتجنب المسيرات الليلية ، ومنع ذهاب الجنود في سخرة جمع العلف أو ذهابهم للاستحمام إلاّ بصحبة ضباطهم ، وعدم القيام بمطاردة الفارين إلاّ في بعض الحالات النادرة ، لأن الجنود كانوا يستغلون الفوضى التي

(١) رواد الاستراتيجية الحديثة — ادوارد ميد ايرل (١٩٤٣) — ص ٥٥.
النص الانجليزي :
Makers of Modern Strategy

تحدث للفرار من الجيش . واقترنت كـــل هذه التدابير بقيود أخرى ، وهي النفقـــات الباهظة للجيوش الدائمة ، والافتقار إلى المـــال ، والخسائر المرتفعة في معـــارك ذلك العصر ، حيث كانت نيران الفصيلة توجـــه من مسافة ثلاثين إلى خمسين خطوة . وفضلاً عن أن المـــارشال دو ساكس كتب يقول : « ولقد رأيت صليـــات كاملة (ترمى من مسافة قصيرة) دون أن تقتل أربعة رجال » [١] . وربمـــا كان سبب كل هذا وجود اتفاق سري بين جنود الخصمين المتصارعين بعدم الرمي إلا فوق الرؤوس ، لأن الخسائر كـــانت عـــادة ، خسائر مخيفة . ويذكر العقيد نيكرسون أن أحـــد المسؤولـــين الرسميين قدّر خسائر الحلفاء في مالبلاكيت بـ ٣٣ ٪ ، على حين قدرها مسؤول آخر بـ ٢٢ ٪ ، مـــع أن المعدل العادي للخسائر كـــان من ١٥ — إلى ٢٠ ٪ بصورة شائعة أثنـــاء حرب السبع سنوات — (١٧٥٥ — ١٧٦٣) . وقد خسر فريدريك الثاني في تورغو TORGAU (١٧٦٠) ٣٠ ٪ من تعداد قواته ، وخسر الروس في زورندورف ZORNDORF (١٧٥٨) ٤٢٪ من تعدادهم . ويعتبر هذا الرقم « رقمـــاً قياسياً عالميـــاً لجيش في الميدان ، يخسره في يوم قتـــال واحد ، تم خلاله سحق الطرف المهزوم وذبحه دون أن يقـــاوم » [٢] .

ويفسر هذا الأمر بكـــل سهولة ، لماذا كانوا يتجنبون المعارك ، ولماذا أصبحت المنـــاورة تقليعة من تقاليع العصر « مودة » . وقد كـــان هناك سبب آخر هو التبديلات الطـــارئة على نمط المعيشة والحياة . فقد كان من الضروري

---

(١) مارشال دوساكس : « التخيلات » (١٨٧٧) ، ص ٢٣ ، المرجع المذكور سابقـــاً .

(٢) العقيد هوفما نيكرسون : (ص ٥٩٢)
The Horde Army. 1793 - 1939 (1940).

تموين الجيوش بارتـال التموين ، التي كانت تتطلب بدورها إنشاء مخازن تموينها القواعد الداخلية ، أو شراء المواد المحلية مع سداد ثمنها نقداً ، نظراً لأن النهب كان ممنوعاً . وكانت المخازن تقام عادة في القلاع أو في المدن المحصنة . ولهذا كان من الضروري في كثير من الأحيان محاصرتها للاستيلاء عليها . وكان المحذور الرئيسي لأسلوب المخازن هو اضطرار كل جيش من الجيوش ، لكي يتمون تموينا كافياً ، أن لا يتقدم أكثر من سبعة مراحل من أقرب قلعة اليه ، وأن لا يبتعد أكثر من يومي مسير عن أقرب مخبز ميدان . وكانوا يعودون إلى اسلوب المصادرات عندما يفشل هذا النظام التمويني . وكان المدنيون منفصلين انفصالاً تاماً عن الحرب ، حتى أن لورنس ستيرن ، في كتابه « يوم عاطفي عبر فرنسا وايطاليا » كتب قائلاً ما يلي : « أثناء حرب السبع سنوات ، غادرت لندن إلى باريس على عجلة من أمري ، لدرجة لم يخطر على بالي فيها أن بلادي كانت في حالة حرب مع فرنسا » . وعندما وصل إلى دوفر لاحظ فجأة أنه لا يحمل جواز سفره . غير أن نسيانه لجوازه لم يعطل سفره . وعندما وصل إلى فرساي أرسل اليه الدوق (شوازول) وزير خارجية فرنسا جوازاً . واستقبله في باريس المعجبون الفرنسيون به ، ودعته الجالية الانجليزية في فرونتينياك FRONTIGNAC إلى المسرح (١) .

وكانت الاستراتيجية التي يعتمدون عليها تستهدف الانهاك لا الإبادة ، واستنزاف العدو ، لا قتله . وكان هدفها الطبيعي هو ضرب خطوط تموين العدو وقلاعه ، لا جيشه . ومنذ عام ١٦٧٧ لاحظ الكونت أوريري ما عبّر عنه فيما بعد بقوله : « إننا نخوض الحرب كالثعالب لا كالأسود ،

---

(١)
LAURENCE STERNE: SENTIMENTAL JOURNEY THROUGH FRANCE AND ITALY (1904, p.p. 213 et 293).

ونقوم بعشرين حصاراً من أجل معركة واحدة »[١] . وبعد عشرين عاماً كتب دانيل دوفوي ما يلي : « من المناظر المألوفة اليوم أن يتمركز جيشان يتألف كل منهما من ٥٠,٠٠٠ جندي ، على مرأى من بعضهما بعضاً ، ويقضيان حملة بكاملها متجنبين بعضهما بعضاً . ويرى الجنود خصومهم بالعين المجردة ، ثم يتوجها فيما بعد إلى معسكراتهم الشتوية »[٢] . ويقدم لنا حصار بيزيغتون pizzigheton في عام ١٧٩٣ مثلاً كاملاً للحصار « المحدود » . إذ أبرمت فيه الهدنة بين الطرفين . ونقرأ عن هذا الحصار ما يلي :

« هناك جسر (كوبري) مقام فوق الثغرة ، يصل بين المحاصرين والمحاصَرين (بفتح الصاد) . وقد أقيمت الموائد في كل مكان . كان الضباط يطعمون زملاءهم بالتبادل . وتقام الحفلات الراقصة والدعوات والحفلات الموسيقية في الداخل وفي الخارج ، تحت الخيام ، وفي ظلال الأشجار . ويهرع كل سكان المناطق المجاورة على أقدامهم ، أو على خيولهم ، أو في عرباتهم للتفرج . وكانت المؤن تصل اليهم من كل مكان بوفرة هائلة يحسها المرء فوراً . حتى أن الدجالين والمهرجين لم تفتهم فرصة حضور هذه الحفلات . وكأن كل ما يجري أشبه بمعرض جميل ، ومكان لقاء يبعث على البهجة »[٣] .

---

(١) COMTE DORRERY : A TREATISE ON THE ART OF WAR, (1677) p. 15.

(٢) HENRY MORLEY: THE EARLIER LIFE AND CHIEF WORKS OF DANIEL DEFOE (1889), p. 135.

(٣) GOLDONI: MEMOIRES DE GOLDONI POUR SERVIR A L'HISTOIRE DE SA VIE ET A CELLE DE SON THEATRE (1882) Vol. 1. p. 125.

وفي كل عمليات عصر الحرب المحدودة ، التي لا نهاية له ، كان الانهاك هو المبدأ السائد . ولما كان من النادر أن تتوفر الأموال اللازمة لإعالة جيوش دائمة ، وكان من الضروري أن تدفع رواتب جنود الجيوش الدائمة ، طيلة شهور السنة ، على عكس جنود المليشيا الذين لا يتقاضون أجوراً كاملة وطوال السنة ، كان من الطبيعي بالنسبة للعسكريين المتنورين في هذا العصر ، أن يتوضح لهم أن استنزاف العدو وسيلة فعالة لكسب الحرب ، كما أن تكاليفها أقل من محاولة تدمير جيش العدو في المعركة . وهكذا كان المال ، لا الدم ، هو العامل الحاسم . فعندما تبدأ خزانة العدو في الافلاس ، نتيجة قيام الخصم بمناورات ثابتة تتطلب مهارة كبيرة ، وحكماً صائباً ، يبدأ مفاوضة خصمه لإقرار السلم بدلاً من أن يواجه الافلاس . وهذا ما أضطر إلى التعبير عنه المارشال دو ساكس بعبارات أخرى ، عندما تحدث عن المعارك ، قال دو ساكس ما يلي :

« مع أنني أفضت بالحديث حول هذا الموضوع ، غير أنني مع ذلك ضد المعارك ، وبخاصة في بداية كل حرب من الحروب ، وانني مقتنع بأن القائد الحاذق يستطيع تجنب المعارك طيلة حياته ، دون أن يرى نفسه مضطراً لخوض غمارها . فلا شيء يدفع العدو إلى عمل المستحيل أفضل من هذه الطريقة ، ولا شيء أفضل من هذا في دفع الأمور إلى مسار أفضل »[١] .

وقد افترض النقاد المعاصرون ، وأخص بالذكر منهم المارشال فوش ، أن دوساكس كان يعارض شنّ المعارك بصورة مطلقة ، وسخروا منه لأنه يتبنى في نظرهم رأياً يخلو من الروح العدوانية . والواقع ، أنهم كانوا مخطئين في هذا المجال ، لأنهم لم يقرؤوا « تخيلاته » ، أو أنهم أغفلوا قراءة

(١) المارشال دوساكس ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٤ .

تتمة المقطع ذاته . ولهذا جانبهم الصواب في دعم ما انتهوا اليه من رأي عنه .

ولقد أدرك البطل الذي كسب معارك فونتنوي وروكو RAUCOU ، كما أدرك فريدريك الثاني وفوش أهمية المعركة . فقد أنهى المقطع الذي ورد في كتابه بهذا الشكل :

« إنني لا أدعي القول ابداً ، بأنه عندما تحين فرصة سحق الخصم ، ينبغي أن لا نهاجمه ، وأن لا نستفيد من الخطوات الخاطئة التي قد يرتكبها : ولكنني أريد القول بأنه من الممكن خوض الحرب دون ترك أي شيء للصدفة . وهذا الأمر هو ذروة كمال القائد ومهارته . ولكن عندما يبذل القائد مثل هذه الجهود في سبيل المعركة ، وتساعده الظروف المؤاتية ، من الضروري أن يعرف كيف يستفيد من الانتصار . وينبغي عليه بصورة خاصة أن لا يقنع بالاستيلاء على ساحة المعركة ، كما هي العادة في الوقت الحاضر . وقد جرى العرف أن يتبّع القواد بصورة دقيقة أقوال حكمة تقول ، بأن من الواجب صنع جسر ذهبي لتراجع العدو عليه . إن هذا خطأ فادح : إذ ينبغي على العكس دفعه ومطاردته في كل لحظة ، إذ سيتحول هذا التراجع الذي يبدو تراجعاً جميلاً ومنظماً ، إلى هزيمة إذا ما دبت فيه الفوضى ، وعانى من المضايقة والازعاج »⁽¹⁾ .

وقد شنت خلال هذا العصر ، برغم المناورات وأعمال الحصار ، معارك كبيرة عديدة ، كانت ثماني معارك منها حاسمة على الأقل . وشهد هذا العصر أيضاً عدداً كبيراً من مشاهير الجنرالات ، من أمثال فوبان ، تورين الامير اوجين ، مالبورو ، شارل الثاني عشر ، ، فيلار ، موريس دو ساكس فريدريك الثاني ، وسوفاروف ، هذا إذا إكتفينا بذكر بعضهم .

---

(١) المارشال دوساكس ، المرجع المذكور سابقاً ، صفحات ١٣٩ و ١٤٠ .

وتستحق تعليقات السيرجون فورتسكيو FORTESCUE عن فن الحرب في القرن الثامن عشر أن تذكر هنا للتدليل :

فقد كتب فورتسكيو قائلاً ما يلي : « لم يكن هدف حملة من الحملات ، في هذا العصر ، بالضرورة ، التفتيش عن العدو وقهره . فقد كان هناك حلان معروفين في هذا المجال ، هما : القتال للحصول على ميزة من الميزات ، أو الحياة برفاه . والحياة المرفهة هي الحياة بصورة أفضل ، وعلى حساب العدو . وإن الحملة التي كان يعيش خلالها جيش من الجيوش في الأرض المعادية .. . حملة ظافرة ، وتعتبر ناجحة ، حتى ولو لم تطلق فيها رصاصة واحدة . فاجبار العدو على استهلاك تموينه الخاص كان يعني الشيء الكثير . وارغامه على إعالة خصمه تعني شيئاً أهم بكثير . واحتلال معسكرات شتوية فوق أرضه ، كان ايضاً أفضل وأهم بدرجات . وهكذا ، فان اختراق حدود عدو واجتيازها واجباره على التقدم ، والتراجع طيلة أسابيع دون اتاحة أية فرصة له لتوجيه ضربة واحدة ، إن هذا لا يعد نجاحاً صغيراً ، بل يعد نجاحاً أوغر صدر القادة الصغار من أمثال غليوم دورانج ، وملأه بالسخط والغيظ ، وقادهم إلى اليأس ، وإلى الهزيمة أيضاً » (١) .

وأنهى جوجليلمو فرّورو ما كتبه حول هذه الطريقة في خوض الحرب العقلانية ، والخالية بالتالي من كل انفعال ، قائلاً ما يلي :

« كانت الحرب المحدودة ميزة من أسمى ميزات القرن الثامن عشر ، وتشبه نباتات البلاد الحارة ، التي تستطيع أن تنمو ضمن إطار حضارة اريستوقراطية ومتميزة . ونحن لسنا قادرين على إتباعها . فهي فضيلة من الفضائل التي فقدناها ، عبر الثورة الفرنسية » (٢) .

---

(١) SIR JOHN FORTESCUE: A HISTORY OF THE BRITISH ARMY (1899) Vol. 1, p. 355.

(٢) GUGLIEMO FERRBRO : LA FIN DES AVENTURES GUERRE ET PAIX: (1931), p. 98.

الفصل الثاني

العودة الى الحرب الشاملة

١ – روسو والثورة الفرنسيــــة

عندما بدأ ادوارد جيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤) في عـــام ١٧٨٢ بكتابة الجزء الرابع من تاريخه **HISTOIRE**، كان الأفق السياسي يبدو له من الهدوء والصفاء ، بحيث ذكر ما يلي ، ليبرز التناقض والتباين القائمين بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ، وسقوط أوروبا في عصره :

« ... من المسموح للفيلسوف بأن يوسع وجهات نظره ، وأن يعتبر أوروبا كلهـــا كمجموعة كبرى ، وصل عدد سكانهـــا تقريباً إلى نفس الدرجة من الثقافة والكمال . وسيستمر الرجحان والتفوق في الانتقال بالتتابع من دولة إلى أخرى . وقد يزداد رخاء وطننا في نظر الممالك المجاورة أو ينقص بالتناوب غير أن الثورات الجزئية لن تؤثر إلى حد كبير على السعادة العامة لبلادنا . ولن تدمر هذه الثورات العـــارضة أسلوب فنوننا وقوانيننا وأخلاقنا التي تميز الاوروبيين وسكان مستعمراتهم . عن أمم الأرض الأخرى ... وفي زمن السلم يزداد تقدم الفنون والصناعة بسبب المنافسة النشيطة بين عدد كبير من المتزاحمين . وفي زمن الحرب تدرب المنازعات العارضة والضعيفة الحسم

القوات العسكرية الأوروبية »⁽¹⁾ .

ومع ذلك ، وسط هذه السماء الرائعة في صفائها ، كانت تتشكل عاصفة سياسية من أكثر العواصف تدميراً ، لم يهب مثلها منذ عهد الإصلاح . وقد توقع الكونت دوجيبير (١٧٣٧ — ١٧٩٤) حدوثها . وكان هذا القائد يعتبر قبل ثماني سنوات من هبوبها في كتابه ESSAI GENERAL DE TACTIQUE إن الحروب التي تتسم بمجاملات مفرطة في الكياسة، وتتضمن مناورات لا تهرق فيهـا الدماء ، وتنتهي باستسلام مشرف لبعض الأطراف المشتركة فيها ليست قليلة التكاليف إلا ظاهرياً لأنها لا تتوصل إلى حلول سياسية هامة . وأقترح جيبون أن يقوم مكانها نوع مغاير تماماً من النزاع . وقد أضاف دوجيبير قائلا ما يلي :

« ولكن لنفترض أن شعباً يتمتع أفراده بالقوة ، ويملك الوسائـل اللازمة ، وعلى رأسه حكومة عبقرية ، لنفترض أن هذا الشعب قـام في اوروبا ، واتسم إلى جانب هذه الصفات بفضائل قاسية ، وكانت لديه مليشيا قوية ، وخطة ثـابتة للتوسع ، ولا يغيب عن ذهنه ابداً كـل هذا . ولنفترض أن هذا الشعب يعرف كيف يخوض الحرب بـأقل التكاليف ويبقى منتصباً بواسطة انتصاراته ، وأن لا يضطر إلى التخلي عن سلاحه ، بسبب إفتقاره إلى الموارد المـالية . مثل هذا الشعب سنراه يخضع جيرانه ويقوض مؤسساتنا الضعيفة ، كمـا تقوض الريح القادمة من الشمال عيدان القصب الضعيفة »⁽²⁾

---

(١)
EDWARD GIBBON: HISTOIRE DE LA DECADENCE DE LA CHUTE DE L'EMPIRE ROMAIN, EDITION FRANÇAISE (1812). p.p. 130 et 134 - 135.

(٢)
COMTE DE GUIBERT : OLURIRES MILIT AIRES, ESSAI GENERAL DE TACTIGUE (1803) Vol. 1., p. 16.

وقبل هذا ايضاً باثني عشر عامــاً ، أي في عام ١٧٦٢ ، كانت العاصفة التي ستغرق عصراً بكــامله ، والتي تثني اليوم وتحني « عيدان القصب الضعيفة » متوقعة في حالتها الجنينية ، في كتاب العقد الاجتمــاعي لجان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٥) . وقد سميت هذه العاصفة المرتقبة « بالديموقراطية » فيما بعد . وكان الأساس الذي اعتمدت عليه ، وهو مساواة كل الناس ، هو الدعــامة الذي تستند المسيحية إليها . ومنذ زمن سحيق أشار إليهــا الفلاسفة ، والاخلاقيون . ولكنهم لم يشيروا إليهــا بقدر ما أشاروا وأفاضوا في الحديث عنها في النصف الأول من القرن الثامن عشر . غير أن كل هذا التركيز لم يحدث أي تأثير إلاّ عندما نطق روسو جملته القوية المشهورة : « ولد الانسان حراً ، ومع ذلك فهو مكبل بالسلاسل والاغلال في كل مكان » . فقد أشعلت هذه الجملة فتيــل قنبلة عصر المنطق الذي كان الانفجار فيه امراً حتميــاً لا يمكن تجنبه .

وقد ادّعى روسو في مؤلف كتبه في فترة سبقت فترة كتابة كتاب العقد الاجتماعي « بحث في أصل عدم المساواة بين الأفراد » صدر في عــام ١٧٩٣ إن الانسان كان نبيلاً متوحشاً ، في طبيعته الأولى [١] . غير أنه ، في كتابه العقد الاجتمــاعي ، يجعل منه انساناً مجرداً لا علاقة له بالبيئة ، والزمن ، والظروف . ويفتتح روسو النقاش بطرح السؤال التــالي : لماذا نجد أن هذا الانسان الذي ولد حراً مستعبد في كل مكان ؟ ويرد على هذا السؤال قائلاً ما

(١) في حديث دار بعد العشاء مع روديرر ROEDERER بتاريخ ١١ من يناير (كانو الثاني) ١٨٠٣ كان بونــابرت يقول : « لقد تملكني الاشمئزاز من روسو بعد أن زرت الشرق ورأيته . ان الرجل المتوحش كلب » .
(Oeuvres de Roederer, 1854, Vol. III, p. 461)

يلي : ذلك لأن الحكومة الشرعية الوحيدة ، طبقــاً للقانون الطبيعي (الالهي) هي التي تقوم على سلطة أغلبية الشعب . وقد كتب في العقد الاجتمــاعي أن « على كل فرد من بيننــا أن يضع نفسه وسلطته كاملة تحت الإدارة العليا للإرادة العامة ... فعندما يهب كــل فرد نفسه للجميع ، لا يهب نفسه لأحد [١] — وإذا رفض فرد من الأفراد أن يفعــل هذا ، على الأغليبة أن ترغمه على فعله لإطاعة الإرادة العامة ، أو كمــا يقول روسو « أن يرغم لكي يكون حراً» وعندما خلق روسو اسطورة ان الإرادة الحاكمة للشعب هي دائمــاً على حق ، فانه كان يمنح الأمة — الدولة سلطــة شبه الهية — ويزود الثوريين بأمضى اسلحتهم .. ومع أنه تبنى تعارض المفهوم العضوي للدولة مع المسيحية المنظمة ، لان المسيحية تفصل السياسة عن الدين ، وتدمر بالتــالي وحدة الدولة ، إلاّ أنه كان واعياً بالضرورة الاجتمــاعية لدين منظم . وقد اقترح أن يقوم مقام المسيحية نوع من الإيمــان المدني الصرف ، يحدد الشعب صاحب السيــادة مبادئه ومضمونه « ولكن على أن لا يكون هذا الإيمــان مجموعة عقائد كالدين بــل مجموعة مشاعر اجتماعية ، من المستحيل على المرء إذا لم يؤمن بهــا أن يكون مواطناً صالحاً وعضواً مخلصاً لبلاده » [٢] .

ومع أن فرضيته بأن الأكثرية الشعبيــة في كل البلدان قادرة دومــاً على تمييز المصلحة العامة ، وتملك الارادة للتفتيش عنهــا ، ولايجادها ، فرضية

---

(١) روسو — العقد الاجتمــاعي ، الكتاب الأول ، الفصل الرابع (الطبعة الفرنسية)

(٢) روسو المرجع المذكور سابقاً ، الكتاب ٤ ، الفصل الثامن .

خداعة بصورة واضحة [١] ، فهي فرضية تتملق الخيال الشعبي ، وقبلتهـا الشعوب دون تمييز كمـادة للايمان . وبهذا الشكل تحررت عبقرية الشعوب من « قمقم » الاستبداد الملكي ، وتخلصت من حكم الملوك الاستبدادي لاعادة بناء برج بابل ، ولتحويل صالة المزايدات الحربية إلى مذبح .

ولكن لكي نعطي روسو حقه ، ينبغي أن يبقى في ذهننا أنه رسم مثله الأعلى مستوحياً هذا المثل من حكومـات المدن التقليدية ، ونادى بأن مبدأ الأكثرية الشعبية ليس مبدأ عمليـاً إلا في البلدان المحدودة المساحة والسكان ، ولم يقترح ابداً تطبيق هذا المبدأ على بلد كبير كفرنسا مثلا .

وقد كتب ب. ف. فيللرت p.F. Willert ملخصاً الفصـل الذي كتبه روسو عن « فلسفة الثورة » قائلا ما يلي :

« كانت الثورة محاولة لتطبيق مبدأ الحرية الفردية تطبيقـاً عملياً : وهو مبدأ سلبي ، وثمين جداً بصورة خاصة كـأداة لالغاء القيود التي فقدت فائدتهـا ومعناها وأصبحت قيوداً مؤذية [٢] . ولكن يجدر أن نلاحظ أن هذا المبدأ السلبي طبق بحماس إيمـان ديني . وكان أعظم عمـل للفلاسفة هو

---

(١) كان بنيامين فرانكلين .يتبنى نفس الرأي . وقد كتب ما يلي : « .. إن حكم كـل الشعب ، وبخاصة حكم شعب حر ، حكم يعتبر منزهـاً عن الهوى » راجع
LORD ACTON. LECTURES ON THE FRENCH REVOLUTION (1932) p.p. 21 - 22.

(٢) وقد قال سقراط قبـل الفي سنة الشيء نفسه تقريباً لفيليب المقدوني « عدهم بالحرية « يقصد المدن الأيونية » وانشر هذه الكلمة في آسيا . فعندما نشرت هذه الكلمة بين الاغريقيين حطمت امبراطويتنا وامبراطورية اللاسيديمونيين (اسبارطة) .. « حديث سقراط » .

النصيب الذي أسهموا فيه لإثـارة هذا الحماس . وقد قبلت هذه العقيدة بحماس لأن هنـاك بعض الآراء التي لم تنتشر في هذه العقيدة » . (١)

وفي ١٤ من يوليو (تموز) ١٧٨٩ انقض رعـاع باريس على الباستيل وذبحوا حاميته . وعندما نقـل إلى لويس الرابع عشر هذا النبـأ قال متعجباً : « اذن فهنـاك تمرد ! » فأجابه دوق ليانكور LIANCOURT : « كلا يا مولاي ، إنهـا ثورة ! » (٢) . وعندما وصل نبـأ توقيف لويس السادس عشر في فارين VARENNES يوم ٢١ من يونيو (حزيران) ١٧٩١ إلى ليوبولد الثاني (١٧٩٠ – ١٧٩٢) ، هذا التوقيف الذي وضع حداً لفراره من فرنسا ، صرح بأن هذه البادرة السيئـة أساءت إلى شرف كل الملوك ، ودفعت غليوم الثاني ملك بروسيا (١٧٨٦ – ١٧٩٧) إلى تقديم المساعدة إلى لويس السادس عشر وإلى الملكة مـاري انطوانيت شقيقة ليوبولد الثاني . وكنتيجة لمـا حدث أعلنت فرنسا الحرب على النمسا في ٢٠ من أبريل (نيسان) ١٧٩٢ ، وهي الحرب التي استمرت حتى عـام ١٨١٥ ، ولم يتخللهـا سوى فترة توقف قصيرة . وقبل إعلان هذه الحرب بسنتين ، وفي ٢٠ من مايو (مايس) ١٧٩٠ ، وكان ميرابو قد تنبـأ ، في المجلس الوطني ، ببصيرة رائعة عن نوع الحرب التي ستنشب ، إذ قال :

« إني أوجه السؤال اليكم لتقدروا ما إذا كنا سنكون أكثر يقينـاً في أن لا نخوض سوى حروب عادلة ، ومتساوية ، اذا مـا فوضنا المجلس الوطني فقط ، المؤلـف من ٧٠٠ عضواً بممـارسة حق خوض الحرب ؟ وهـل توقعتم إلى أي مدى يمكن أن تقودنا الحركات الانفعالية ، وإلى اين

---

(١) The Cambridge Modern History (1904) Vol. VIII. p.p. 34 - 35.

(٢) ذكرها توماس كارلايل في :
The French Revolution, livre (book), chapitre VII

يقودنا تحريك الشجاعة ورفعة الشأن الكـاذبة ، وإلى أية درجة من الدرجات يمكن تبرير التهور ؟ فعلى حين يطلب أحد الأعضاء أن نتشاور بفتح بـاب النقاش حول الموضوع ، يطلب الآخرون بأصوات عالية إعلان الحرب . وسترون حولكم بعد قليل جيشاً من المواطنين . وهكذا فـان الوزراء لن يخدعونكم : ولكن الا تخدعون أنفسكم الآن ؟ .... انظروا إلى الشعوب الحرة : فقد تميزت دائمـاً بحروب أكثر طموحاً وأكثر وحشية . وانظروا إلى المؤتمرات السياسية : انهـا تصدر مرسوم اعلان الحرب تحت سحر الانفعال والعواطف المتأججة » [١] .

٢ — التجنيد والعودة الى البربرية

من المؤسف أن فرنسا لم تكن مستعدة للحرب : فقد كانت خزانتهـا خاوية وكان جيشهـا مفككاً ، وشعبها مستسلمـاً للوساوس الهيستيرية . وكان رصيدها الوحيد هو كتلة جنودها ، الذين يفتقرون إلى التجربة والممارسة كي يحـاربوا بما يتفق مع القواعد التي كانت تحكم « رياضة الملوك » . وقد توفر لهم الذكـاء الذي يسمح لهم بتخيل قواعد حربية عملية أكثر من القواعد التي تكدح زنـاد عقلهم . وكان للثورة ايضاً كثير من المعجبين في البلدان المجاورة ففي انجلترا ، انجرف شارل جيمس فوكس بتيـارها إلى حد كبير ، ووجد اعذاراً للجرائم التي اقترفهـا . وفي المانيا كان انصار الثورة كثيرون . وقد رحب كل الناس في البلاد الواطئة بمذهب حرية الانسان بحماس منقطع النظير ، إذ نفذ صبر مواطني هذه البلدان للتخلص من سيطرة النمسا .

---

(١)
Citë par ARNOLD J. TOYNBEE dans: A STUDY OF HISTORY (1939) Vol. IV., p. 150.

ذكرها ارنولد توينبي في كتابه « دراسة التاريخ » .

وقد تم أول اختيار لنموذجي الحروب . الحرب المحدودة التي تعتبر الآن عتيقة وبالية ، والحرب الشاملة التي ما زالت حتى الآن في حالتها الجنينية ، تمّ أول اختبار في فالمي يوم ٢٠ من سبتمبر (ايلول) ١٧٩٢ . عندما تصادم البروسيون بقيادة الدوق شارل غليوم فريدريك دوبرانسويغ مع الفرنسيين بقيادة شارل فرنسوا دوموريز DUMORIEZ وكان برانسويغ ابن أخ فريدريك الأكبر ، مثقفاً إلى حد كبير ، مع أنه كان يتيه بمعارفه ومعلوماته . وكانت شهرته تعتمد إلى حد كبير على حملته في هولندا عام ١٧٨٧ ، التي تمت بكاملها دون اهراق للدماء . ويعتبر برانسويغ في نظر معاصريه من أكبر العسكريين في أوروبا . أما دو موريز ، الذي كان ابن أحد مفوضي الحروب في الجيش الملكي ، فكان يعتبر نفسه ايضاً من كبار العسكريين المشهورين . فقد كان يتمتع بجرأة هائلة ، وفيما يتعلق بالمبادىء التي كان يعتنقها ، لم يكن هناك بالنسبة اليه في الحقيقة سوى مبدأ واحد : هو الانتهازية . فعندما تقابل الرجلان في القتال ، ناور برانسويغ بمهارة لطرد دو موريز من مواقعه في الارغون ARGONNE ، حتى أن كلا الجيشين كان يواجه قاعدة الآخر عندما دارت المعركة . ومن الناحية العملية لم يحدث قتال ، فيما عدا تراشق عنيف بالمدفعية . وفي نهاية القتال ، وفي اللحظة التي كان البروسيون يستعدون فيها للانقضاض على ذرى هضبة فالمي ، جمع برانسويغ فجأة مجلس الحرب ، وأصدر القرار الوحيد الذي اتخذه خلال الحملة ، وكان هذا القرار هو التالي :

«Hier Schlagen Wir Nieht»

« اننا لن نقاتل هنا » وبعد ذلك عسكر بجيشه . وفي ليلة ٣٠ من سبتمبر (ايلول) ، سحبه بمهارة من آخر ساحة من ساحات القتال التي لم يحدث فيها أي سفك للدماء .

وفي مساء ٢٠ من سبتمبر (ايلول) التفت غوته الذي كان يحضر المعركة في الجانب البروسي إلى رفقائه ، الذين خـارت عزيمتهم وأجاب على سؤال أحدهم قائـلاً : « من هذا المكان ، وفي هذا اليوم ، يبدأ عصر جديد في تـاريخ العالم . وفي وسعكم جميعاً أن تقولوا أنكم كنتم حاضرين عندما أشرق هذا العصر » (١) . وبعد مـائة عام لخص المارشال فوش تأثير هذا التراشق بالمدفعية بالكلمـات التالية : « انتهت حروب الملوك ، وبدأت حروب الشعوب » (٢) .

وفي ٢١ من يناير (كانون الثاني) ١٧٩٣ « انهـال الفأس محدثاً صوتاً صامتـاً مكتوماً وحسمت حياة ملك » بحسب التعبير الذي أطلقه كارلايل . وكانت حياة الملك التي انتهت هي حيـاة لويس السادس عشر . وبحسمهـا صاح دانتون قـائلاً : « إن تحالف الملوك يهددنا . ونحن نلقي بين أقدامهم برأس ملك كرهينة للمعركة » (٣) . ولكن أين هم الجنود الذين ترتب عليهم تنفيذ هذا التحدي المحزن ؟ لم يكن هنـاك سوى عدد قليل منهم حتى إن الـ Convention « مجلس التوفيق » أصدر مرسومـاً بتجنيد ٥٠٠,٠٠٠ جندي ، بصورة الزامية . وبسبب هذا ، انفجر العصيان في الفـاندى ، وسارت الجمهورية إلى الحرية على اشلاء جثث رعـاياها (٤) . وكانت هذه الخطوة

---

(١) طبعة فرنسية :
Goethe : Campagne de France de l'année 1792.

(٢) ص ٢٨ .
Maréchal Foch: des principes de la guerre (1918)

(٣) الثورة الفرنسية ، الكتاب الثاني ، الفصل الثامن
THOMAS CARLYLE

(٤) كتب الجنرال ويسترمان في تقريره عن الفاندي ما يلي :
« لقد سحقت الاطفال تحت سنابك الخيول ، وذبحت النساء..اللواتي لن ←

المرحلة الأولى من مراحل التجنيد : أي مرحلة العودة إلى الحروب القبلية .

إن العشائر البدائية جماعات مسلحة . كل فرد فيها محارب من المحاربين وبما أن العشيرة كلها تدخل الحرب ، فان الحرب بالنسبة للعشيرة حرب شاملة . ولكن ، منذ أن تخلى الانسان عن حياة القنص وحياة الترحال والتنقل فيما عدا بعض الاستثناءات ، قام هناك تمييز بين المحارب ، والمزارع غير المقاتل ، وبالتالي بين الحضارة الزراعية التي قامت مكان الحضارة البدائية . وفي المدن ـ الدول ـ التقليدية كان المواطنون الشرفاء هم الوحيدون الذين يجندون في ميلشيا المدن .

وفي عصر الاقطاع ، كان الفرسان ومساعدوهم لا يشكلون عندما يدعون إلى خدمة السلاح ، إلا مفرزة صغيرة جداً من مجموع السكان ، وكما أشرنا إلى ذلك ، كان السكان المدنيون ، في عصر الملوك المستبدين ، الذين يتمتعون بسلطات مطلقة ، مستبعدين من المساهمة في الحرب . وقد ألغيت هذه الفوارق في هذا العصر ، وعادوا إلى نظام القبيلة المسلحة ، ولكن على أساس قومي في هذه المرة .

لم تكن فكرة القبيلة المسلحة فكرة جديدة ، كما ينبغي أن لا نخلط بينها وبين الفكرة التي تشكل أساس التجنيد القومي القديم ، كالوحدات الأنجلو ـ سكسونية المؤقتة ، التي لم تكن تدعى تحت السلاح الا زمن الحرب ، على حين كانت الجيوش المجندة جيوشاً دائمة . ونحن لا نعرف بالتأكيد حتى الآن ما إذا كان ماكيافيلي هو أول من اقترح هذه الفكرة ، ولكننا نعرف أنه وضع

ـــ يلدن لصوصاً بعد الآن . ولم آخذ أسيراً واحداً يوجه لي اللوم . فقد أبدتهم كلهم ان الطرق مزروعة بالجثث ... ونحن لا نقبل مبدأ الاسر ، لأننا لو أسرناهم لاضطررنا إلى تغذيتهم بخبز الحرية . »

(ذكرها نيكرسون في المرجع المذكور سابقاً) .

المذكرة التي صدر بناء عليها قانون عام ١٥٠٦ ، ORDINANZA وهو القانون الذي فرض الخدمة الالزامية في فلورنسا على الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين سن ١٨ و ٣٠ عـاماً . وقد هاجم فرنسيس بيكون فيمـا بعد هذه الفكرة واعتبر في دراسته التي سماها : « **محاولة في وحدة الدين** » ، أن « وضع « السيف مؤقتـاً » بيد عامة الشعب عمل خطير » . ولكن دو جيبير جعـل من نفسه الداعية الأول لهذه الفكرة في القرن الثامن عشر – كمـا أشرت إلى ذلك من قبل – كمـا أن المارشال دوساكس أيّدها ودعّمهـا ، عندما استشهد بتجنيد القطعات في **تخيلاته** REVERIES ،وطرح السؤال التالي : « أليس من الأفضل وضع قانون يلزم كـل فرد من الأفراد ، مهمـا كان وضعه ، على خدمة أمـيره ووطنه لمدة خمس سنوات ؟ » وتحدث مطولاً عن تطبيق هذا القانون ومميزاته . ولكن لم يصبح التجنيد العام في حيز التنفيذ الكامل إلاّ في ٢٣ من أغسطس (آب) ١٧٩٣ عندما صدر مرسوم مجلس التوفيق CONVENTION . وقد صيغت المادة الأولى من هذا القانون على الشكل التـالي :

« من هذه اللحظة ، وإلى أن يتم طرد كل الأعداء من أرض الجمهورية ، يعتبر كل الفرنسيين مصادرين بصفة دائمة » .

« وسيذهب الشبان إلى القتال ، وسيصنع الرجـال المتزوجين الأسلحة ، وسينقلون التموين والإعـاشة ، وستصنع النساء الخيام والملابس ، وسيخدمن في المستشفيات ، وسيحول الأطفال المـلابس القديمة إلى ضمادات صحية ، وسينقـل المسنون إلى الميادين العامة لتأجيج شجاعة المقاتلين ، واثارة الحقد ضد الملوك وللدعوة إلى وحدة الجمهورية » .

« وستحول المبـاني القومية إلى ثكنات ، والميادين العـامة إلى ورش لصنع السلاح . وستغسل أرضية الأقبية لاستخلاص ملح البارود منهـا » .

« وستخصص الأسلحة ذات العيارات المناسبة لتسليح المواطنين الذين سيسيرون لملاقاة العدو . أمـا رجال الأمن الداخلي فسيسلحون ببنادق الصيد وبالسلاح الأبيض » .

« وستصادر كل خيول الركوب لصالح قطعات الخيالة . أمـا خيول الجر التي لا تستخدم في الزراعة فإنها ستجر المدفعية وعربات التموين » (١) .

وقد كتب توينبي قـائلاً ما يلي : « أثارت هذه المادة حماسة النواب إلى درجة هـائلة ، حتى أنهم طلبوا من مقرر المجلس اعـادة قراءتها كاملة مرتين . وفي كـل مرة منهما كانوا يهللون لهـا ويصفقون ، وهم يؤمنون بإخلاص بأنهم يحررون أنفسهم من الطغيـان » (٢) . وقد علّق العقيد (الكولونيل) ف. ن. مود على هذا الموقف في مقـالة له عن « التجنيد» في الطبعة الحادية عشرة **للانسيكلوبيديا البريطانية** ، بالطريقة التـالية : « ربما ليس هنـاك قانون من بين قوانين العالم كان له أثر ، أو كـان مخصصاً

---

(١)
Réimpression de l'Ancien Moniteur depuis la réunion des Etats gèneraux jusqu' au consulat, 25 acout 1793 (Paris, 1840 - 1945), Vol. XVII p. 478.

« سأل بارير BARRERE في تقريره عن هذه المصادرة «ماذا تريدون».. «قرعة من المجندين ..؟ إن القرعة الفرنسية المجندة من أجل حريتها ، تتألف من كل المواطنين الفرنسيين ، ومن كـل صناعاتهم ، ومن كل أعمالهم ، ومن عبقريتهم ... فلنعلن حقيقة كبرى : إن الحرية أصبحت أمراً محققـاً لكل المواطنين ، ويدين البعض لها بصناعتهم ، والبعض الآخر بثروتهم ، ويدين الكل لها بالدم الذي يجري في عروقهم . » .

(Citè par TOYNBEE dans A STUDY OF HISTORY, Vol. IV, p. 151).

(٢) توينبي ، المرجع المذكور ، الجزء ٦ ، ص ١٥١ .

ليهـارس أثراً بعد صدوره على مستقبل البشرية أكثر من هذا المرسوم الفرنسي لعام ١٧٩٣ ، المجهول تقريبـاً » .

وابتداءً من شهر أغسطس (آب) من هذا العام ذاته ، لم تتحول الحرب إلى حرب غير محدودة فحسب ، بـل إنها أصبحت حرباً شاملة في النهـاية . وفي الأربعينات من القرن العشرين، كانت الحيـاة قد اعتبرت رخيصة جداً لدرجة أصبح فيهـا ذبح السكان المدنيين على نطاق واسع هدفاً استراتيجياً مقبولاً كمـا كانت المعارك في الحروب السابقة مقبولة . ففي خلال ١٥٠ عاماً أعـاد التجنيد العالم إلى بربرية ووحشية القبائل البدائية .

٣ — التغيرات التي احدثها التجنيد

كانت الديمقراطية ، نظرياً ، هي التي ساوت بين الأفراد . **ولكن التجنيد هو الذي جعل الناس سواسية من الناحية العملية** . ويبدو أن كوندورسيه قد أحسّ بذلك ، في مؤلفه : « **خلاصة اللوحة التاريخية لتقدم الفكر البشري**»[1]. فقد ربط تطور المشاة ونموها بتطور الديمقراطية . وقد كان الأصح ، لو انه قلب هذه العلاقة ، لأن البندقية ذات الفتيل هي التي أنشأت جندي المشاة ، وجندي المشاة هو الذي خلق الديموقراطية : فلكي يفرض جنـدي المشاة المساواة برأس الحربة ، كـان ينبغي في الواقع أن يتحلى بالقدرة على القتل ، وهنـا يكمن جوهر الموضوع . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح رجل واحد وبندقية واحدة يعنيـان رجلاً وصوتـاً ، إلى أن أصبحت الأصوات والبنادق تعدّ

---

(١) Esquisses d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain.

بالملايين . وقد أدّت هذه النتيجة إلى أكبر تحول عرفه العالم حتى ذلك الوقت ، والذي علّق عليه كلاوزفيتز بما يلي نقلاً عن المارشال فوش :

« **لقد ألقت الثورةالفرنسية بكل وزن هذا الشعب ، ووزن كل قواته في** الميزان الذي لم يوزن فيه حتى الآن سوى ثقـل **جيش محدود** ، ووزن **الواردات المحدودة للدولة** ، وذلك كله بفضل الثورة الفرنسية وقوة وطاقة مبادئها والحماسة التي قادت الشعب فيها . » .

« كان الجيش الفرنسي يتقدم متغطرساً ، عبر أراضي البلدان المختلفة ، تعتريه الدهشة ، كما تعتري أعداءه ، وهو يرى كم تتفوق القوة الطبيعية للدولة ، ومصلحة كبرى بسيطة على تحالف مصطنع ، تجد فيه الدول بعضها إزاء البعض الآخر ، وهو لا يهتم اهتماماً جدياً في حسابه وتقديراته بالتحالفات السياسية ، التي تزن فيها الحكومات الحرب أو التحالف بقلق ، مع أن هذا الحساب هو الذي يضعف قوة الدولة ، ويخضع عنصر القتال الشرس للتحفظات الديبلوماسية . »

« ولا يعزى الأثر المعجز للثورة الفرنسية إلى استخدام طرق حربية جديدة ، بل يعزى الأثر الأكبر الى نظامها السياسي والإداري الذي انطبع بكامله بطابع الحكومة ، وبوضع الأمة الخ ... وإذا كانت الحكومات الأخرى لم تعرف كيف تقدر هذه الشروط الجديدة ، وإذا أرادت أن ترد على إنتشار القوات الساحقة ، بوسائل عادية ، فإن كل هذا يشكل أخطاء سياسية .. »

ويفسر فوش هذا الحكم قائلاً ما يلي :

« أجل ! لقد بدأ عصر جديد ، هو عصر الحروب القومية المتسمة **بايقاع جنوني** ، لأن هذه الحروب ستلتهم في المعركة كل موارد الأمة ، ولأنها لن تستهدف مصلحة الأسر الحاكمة ، ولا غزو مقاطعة من المقاطعات والاستيلاء

عليهـــا ، بل إنها ستستهدف الدفاع عن افكار فلسفية أولاً ، أو نشرها ، والدفاع عن مبـــادىء الاستقلال ، والوحدة ، والدفـــاع عن الميزات اللامادية المختلفة الأنواع ثانياً . ولأنهـــا ستزج في الصراع بمصلحة كل جندي من الجنود وبوسائله ، ومشاعره وانفعالاته » ، أي أنهـــا ستستخدم عناصر القوة التي لم تستغـــل حتى الآن » (١) .

ولكي نجذب آلاف المجندين الذين كانوا يتوافدون إلى مراكز التدريب ، كنا نعتمد على مـــا يسمى اليوم « الدعـــاية » . وفي ٢٥ من أبريل (نيسان) ١٧٩٢ ، ولأول مرة ، أخذ الجميع يغنون في فرنسا نشيد المـــارسيلييز الذي ألفه روجيه دوليسل ، وهو أكثر الأناشيد الحربية إثارة للمشاعر ، بغرض إثارة حماس الجماعـــات . ولم يهمل الزعماء الديماغوجيون أية حركة من الحركات التي تستطيع إثـــارة المزاج القتالي للجنود ، وتغذية الحقد على أعدائهم إلاّ واتبعوها . فقد كتب جورج سيلفستر فيريك مـــا يلي : « بدون الحقد ، لا يمكن أن يكون هناك دعـــاية . أعطوني شيئـــاً أحقد عليه ، وأنا أعدكم بتنظيم حملة دعـــاية هائلة ضده في أي مكان ، خلال أربع وعشرين ساعة (٢)

وقد حررت الدعاية قوة كانت كامنة في الفرد ، وسمّاها أحد الملكيين الفرنسيين ، ماليه دوبان MALLET DU PAN بأنها « تكتيك خبيث..جدير

---

(١) المارشال فوش : مبادىء الحرب ، ص ٢٨ — ٢٩ . لم يذكر فوش المصدر الذي استقى منه عبارات كلاوزفيتز . ولما كانت هذه العبارات غير موجودة في كتابه الشهير « في الحرب » فلا بد من وجودها في مصدر آخر من مؤلفات كلاوزفيتز .

(٢) GEORGES SYLVESTER VIERECK: Spreading germ of Hate (1931) p. 16.

بالوحوش التي اخترعته ... إن خمسين ألفاً من الوحوش الضارية ، يتصاعد الزبد من افواههم غضباً وشراسة ، يصرخون كما يصرخ أكلة اللحوم البشرية ، وينقضون بأقصى سرعتهم على الجنود ، الذين لا يحرك الانفعال شجاعتهم [١] » .

وقد عدّل التجنيد أسس الحرب . فإلى أن تم ، كانت تكاليف الجيوش مرتفعة جداً . وبتطبيقه أصبح تجنيد الجنود يتم بسعر منخفض . وكانوا في الماضي يتجنبون المعارك ، فأصبحوا بعد التجنيد يفتشون عنها ، إذ مهما كانت الخسائر كبيرة ، فان في وسعهم تعويضها ، وذلك باصدار مراسيم الدعوة إلى خدمة العلم لأفراد جدد . ولقد سمح التجنيد لوحده بسياسة الفتح التي اتبعها نابليون . وفي عام ١٨٠٥ ، كان نابليون يتبجح في شونبروم SHOENBRUM ،أمام مترنيخ بأنه يستطيع أن يسمح لنفسه بخسارة ٣٠,٠٠٠ جندي شهرياً ، فقد كان سعر الجنود رخيصاً برخص روث الحيوانات .

وتطلبت الجموع المسلحة تغييراً جذرياً في الادارة العسكرية واللوجيستيك (الشؤون الادارية) . فحتى ذلك الوقت ، كانت الجيوش تستخدم الخيام ، وكانت تسير في أرتال الطرق المتواصلة . وكانت تحشد بصورة منهجية قبل شن المعركة ، معتمدة على ارتال التموين ، والمخابز الميدانية ، وقوافل الخبز ، وعلى مستودعات لجعالات الاطعام وعلف الرواحل . وقد عدل هذا التنظيم أو ألغي بجرأة . واختفت الخيام معها مئات العربات التي كانت تنقلها . وبدلاً من المبيت في الخيام ، أصبح الجنود يبيتون في العراء . وجزئت الارتال الطويلة للمسير البطيء إلى ارتال فرقية [٢] منضمة ، تشتمل على كل صنوف الاسلحة : كانت هذه الارتال تشكل جيوشاً مصغرة . ومكن

---

(١) ذكر ذلك نيكرسون في The Armed Horde ، ص ٩١ .

(٢) DIVISIONNAIRE

هذا من إجراء الحشد ، سواء قبل المعركة أو أثناءها . وضغطت ارتـال النقل إلى حد كبير ، وحلّ التموين المنظم المنهجي محل المصادرات التي كانت تتم بنهب الأرياف . وقد زادت هذه التغيرات التي قللت من حجم عربات النقل وطول ارتالها ، ومن عدد الرواحل المخصّصة للجر ، زادت إلى حد كبير من الحركية الاستراتيجية والتكتيكية للجيوش الثورية . وبالرغم من أن ازدياد مسافات مسير هذه الجيوش ، وتخييمها في العراء أدّيا إلى خسائر في الجنود ، أكبر من الخسائر التي كانت تتم في الأسلوب القديم المريح ، إلا أنه كان في وسع التجنيد تدارك كل هذه الخسائر وتعويضها .

وكان للتجنيد أيضاً أثر آخر على الحرب . ذلك لأن ذكاء المجندين أكبر من ذكاء جنود الجيوش الملكية القديمة ، لأن تجنيدهم يتم من بين كل طبقات المجتمع ، بالرغم من أنهم لم يكونوا يتمتعون بنفس قوة انضباط الملكيين . وبما أنهم لم يدربوا لتنفيذ التطورات الميكانيكية التي تمت في عصرهم ، فقد تخيلوا بسرعة التكتيك الملائم لمزاجهم القتالي **ولاندفاعهم** . فكانوا لا يستخدمون نيران الفصيلة أو أنهم كانوا يكملونها بنيران محكمة التوجيه إرادياً. وأضيف النظام المنتشر إلى النظام المنضم ، وشكلت كتائب **الرماة** ، التي كانت مهمتها سبق أرتال الانقضاض وتمهيد الطريق أمامها . وقد قال السير روبرت ويلسون عن هؤلاء الرماة ما يلي : كان الرماة « يتمتعون بحدّة الرؤية كالنمس » وكانوا ايضاً « يتمتعون بنشاط السنجاب » (١) . وقد كتب المرافق العسكري لدوق يورك ما يلي : « كنا نتملص من الحصار كالثعالب التي يطاردها الصيادون ، وفعلنا أكثر مما تفعله هذه الثعالب المطاردة » (٢) .

---

(١)
H. RANDOLPH: Life of Sir Robert Wilson (1862) Vol. I, p. 86.

(٢)
JOURNALS and CORRESPONDENCE of Sir HENRI CALVERT (1853), p. 220.

وكتب ضابط بروسي عن المجندين مـــا يلي : « كان الفرنسيون ما زالوا غير مدربين ، ولكن في الغابـــات ، حيث لا يحتفظ الجندي بمكانه في الصف ولا ينفذ أيـــة تدابير يفرضها النظام ، وحيث تغطيه الاشجار ، ولا يحتاج إلا إلى اطلاق النـــار ، وسط هذا الجو ، لم يكن المجندون الفرنسيون متكافئين معنا فحسب ، بـــل كانوا متفوقين علينـــا . وكان جنودنا الذين تمرسوا على القتال في أرض مكشوفة ، وعلى صفوف منظمة ، يجـــدون صعوبة في القتال وسط هذه الفوضى الظاهرية ، التي تعتبر ضرورية إذا أرادوا أن لا يكونوا هدفـــاً لرمايات العدو » (١) .

وبالرغم من هذه المزايـــا الاستراتيجية والتكتيكية الساحقة التي تمتعت بها جيوش المجندين على الجيوش الملكية القديمـــة ، فإن جيوش المجندين الذين جـــاءت بهم الثورة كانت تتسم بعيب يلغي كل هذه الميزات دون إستثناء . وكان هذا العيب هو الصعوبة التي تعانيهـــا أمة خاضعة للتجنيد أي أمة مسلحة ، أمة تغذيهـــا دعاية عنيفة ، في تحقيق سلم دائم . وكانت معاهدات السلم المغتصبة من الطرف المغلوب مجحفـــة بحقه إلى حد لم تكن تشكـــل إلاّ اتفاقيات هدنة مزعزعة . وكان المهزومون لا يوقعونها الا تحت الاكراه ، وهم ينوون جازمين نقضها لدى أول فرصة سانحة .

وقد كتب فريرو **FERRERO** قائلاً مايلي : « إن أصل الحرب الرومانطيقية هذه الحرب « ذات الايقاع الجنوني » ، التي فرضتهـــا الثورة والامبراطورية على اوروبا ، خطـــأ بسيكولوجي : ويتجسد هذا الخطـــأ في الوهم الذي يتصور أن من الممكن الحصول على السلم بسرعة وسهولة بانتصارات صاعقة وساحقة ، على حين يزيد هذا الاسلوب من صعوبة الحصول على السلم ويجعله

---

(١)
A. CHUQUET: Les guerres de la rèvolution Vol. X: Valenciennes. p. 96.

مستحيلاً ، إن هذا الخطـــأ هو مفتاح كل تاريخ الثورة ، وتاريخ الامبراطورية والقرن التاسع عشر حتى عصرنا المضطرب الحاضر الذي نعيشه » (١) .

٤ ــ الديمقراطية والاخلاق القبلية

كانت الحروب في اوروبا « ذات الايقاع الجنوني » ــ باستثنـــاء الحروب الدينية التي كانت متشابهة كلهـــا تقريباً ــ نزاعات ديموقراطية تستمد **اندفاعها** من « الارادة العامة ».واذا استشهدنا بالاستاذ آ.ف.فريمان A.F. FREEMAN وجدنا أن الحروب المتواصلة للمدن ــ الدول الديموقراطية اليونـــانية التقليدية كانت تجلب معهـــا « الدمـــار والخراب » و « كل انواع التخريب الذي لا يجدي » (٢) . ونجد « شراسة مرعبة ولا مبـــالاة وقحة ازاء حقوق كل الدول المجاورة ..» في حروب القرون الوسطى التي خاضتهـــا سويسرا الديموقراطية، تبعـــاً لأقوال السير شارل اومـــان ، كما تميزت « (هذه الحروب) بالوحشية المتعمدة ، وخلوها من أية شفقة أو رحمة » (٣) . ولم يكن سلوك الجيوش الديموقراطية التابعة للثورة الفرنسية ــ رالتي كان سلوك ويسترمـــان في الفاندي مثلاً لها ــ مختلفـــاً ابداً . فمن المدهش إذن أن نكتشف أن الاستاذ آرنولد وينبي عانى جهداً في فهم سبب إهمال الديموقراطية ، النـــابعة من الثورة

(١)
GUEGLIEMO FERRERO: La Fin des aventures. Guerre et paix (1931), p. 181.

(٢)
A.E. FREEMAN: Historical Essays, second series (1875), p.p. 173 - 174.

(٣)
SIR CHARLES OMAN: The Art of War in the Middle Ages (1924) Vol. II, p. 253.

الفرنسية ، الكفاح ضد الحرب . حتى انهـا لم ترتكب هذا العمل فحسب « بل انهـا ... رضعت ايجابيـاً كل (طاقتها) في الحرب » . فكيف يمكن تفسير ذلك ؟ ويتساءل توينبي فيمـا بعد قائلاً : « وكيف يكون من الممكن ، **بصورة مسبقة** ، أن تعمل الديموقراطية كقوة معـادية للمجتمع Anti - sociale لأن الديموقراطية « تتنفس روح الأناجيل ... وقوتها المحركة هي الحب » [١] .

والحقيقة أن هذه الاسطورة كبيرة كأسطورة « النبيـل المتوحش » لروسو ، ولن نستطيع إعطاء جواب منطقي على سؤال توينبي طالمـا بقيت هـذه الاسطورة ، ومـا دمنا نعتبر الديموقراطية مؤسسة سلمية . ومع ذلك ، فإن للسؤال قيمته لأن فهم مشكلة الحرب مرتبط بصورة وثيقة باعطـاء جواب صحيح ، وإلى أن نرد على هذا السؤال رداً وثيقـاً وصحيحاً ، فإن امكانات تخفيف الحرب وجعلها حربـاً معتدلة امكانيات ضعيفة ، كمـا أنه لا توجد أية وسيلة لالغـاء الحرب .

والواقع أننـا لن نجد الجواب الصحيح من الدراسات النظرية المجردة ، بل نجده في الطبيعة البشرية التي قـال عنها هربرت سبنسر في يوم من الأيام : « إنني اعتقد أنه يمكن أن يكون لديك نفس الأسباب التي تسمح لك بـأن تفهم طبيعة رجل بـالغ ، وذلك بمراقبته لمدة ساعة واحدة (مع جهلك بالسوابق التي ارتكبها) ، من أن تفترض أن في وسعك سبر أغوار الانسانية بدراسة آلاف السنين الأخيرة من تطورها » [٢] .

---

(١) آرنولد توينبي ، المرجع المذكور ، جزء ٦ ، صفحات ١٥٦ — ١٥٧
والعبارات منقولة من كتاب هنري برغسون :
Les deux s ources de la Morale et de la religion.

(٢)
D. DUCAN: Life and letters of Herbert Spencer (1908), p. 62.

وفي عـــام ١٨٩٢ ـــ ١٨٩٣ ، أنهى سبنسر أسلوبه الفلسفي الواسع المؤلف من مجلدين عن **أسس الأخلاق التطورية** The Principles of ETHICS. وقد كان يـــأمل خلال دراساته عن التطور ، إيجاد قانون يضع السلوك البشري (المتعلق بعلم الأخلاق) على أساس علمي . ولكنه اكتشف أن التطور كمـــا نراه يتم في المجتمعات البشرية ، يتحدث بلغتين ، تعبر كلتاهما عن قانونين متميزين ، فـــأطلق على أحدهما إسم « قانون الصداقة » وأطلق على الآخر إسم « قانون العداء » . وكتب عنهما ما يلي :

« من الممكن أن نؤكد أنه كان على القبـــائل المتوحشة دوماً وباستمرار ، مثلها مثـــل المجتمعات المتحضرة أن تتابع في الخارج عملاً دفـــاعياً ، وعملا تعاونيـــاً في الداخل ، بالرغم من وجود عدد صغير من الاستثناءات الناجمة عن الظروف الخاصة . وتبعـــاً لذلك كان اعضاء هذه القبائل يحتاجون إلى نوعين من العواطف والأفكار الخاصة بهذين النوعين من الأنشطة » (١) .

« وتولّد حيـــاة العداء المستمرة في الخارج قانونـــاً اخلاقياً يلقن ويرسخ العدوان ، والغزو ، والانتقام ، ويستنكر ويرفض الاهتمامـــات السلمية . وعلى العكس ، تولّد حياة تسود فيها الصداقة الداخلية المستتبة برسوخ قانوناً اخلاقياً يلقن ويرسخ الفضائـــل الانتاجية لتعاون منسّق ، وتلقن العدالة ، والأمـــانة ، والصدق ، واحترام حق الآخرين » ٢) .

« ولمـــا كان من الواجب أن يتعايش قانون الصداقة مع قانون العداء في

---

(١)
Herbert Spencer: La morale des diffèrents peuples et la morale personnelle (1896), édition frnçaise de la 2° partie: The Induction of ETHICS, des principles of ETHICS, p. 29.

(٢) سبنسر ، المرجع المذكور ، ص ٣٨ .

الوقت ذاته ، لانهمـــا ولذا ضمن إطار كل مجتمع من المجتمعات رداً على ضرورات داخلية أو خـــارجية ، فان لقاءهما قد أفسح المجال لمجموعة مركبة من المشاعر والأفكار غير الثابتة » [١] . وبهذا الشكـــل « توصلنا إلى معرفة مجموعتين من الواجبـــات والفضائل التي تستصوب أو ترفض تبعـــاً لأسلوب واحد ، ولكننا نربط الأولى (قانون الصداقة) بالمفاهيم الأخلاقية ، على حين تبقى غريبة عن المجموعة الأخرى (قانون العداء) » [٢] .

وبناء على هذا ، فإن الفرد يتـــأثر بمجموعة مزدوجة من الدوافع : تلك التي تمده بهـــا الطبيعة ، وهي دوافع وراثية تصبح غريزية ، وتلك التي يكتسبها من أثر وسطه الاجتمـــاعي عليه . فلكي تبقى القبيلة على قيد الحياة ، ينبغي على الفرد الذي يشكل جزء منهـــا أن يملك ارادة التضحية بنفسه في لمعركة ، ولكي تستطيع القبيلة المحافظة على تماسكها ، يجب عليه أن يطيع نواهيهـــا ومحرماتها. ويشير دافي DAVE إلى أن العلاقـــات بين القبائل تقوم على الانعزال ، والشك ، والعداء . ولكن مصلحة الافراد المشتركة في داخل القبيلة ذاتهـــا ، المتعارضة مع مصالح القبائل الأخرى ، تضطر أفرادهـــا إلى الاتحاد فيمـــا بينهم للحفاظ على بقائهم . وهكذا ينشأ تمييز بين قبيلة خاصة – « الجمـــاعة الداخلية » – وبين القبائل الأخرى – « الجمـــاعة الخارجية » – ونجد أن السلم والتعاون ضروريان بين أفراد الجماعة الداخلية ، كمـــا نجد أن مشاعرهم الفطرية الموروثة تجـــاه كل الأجانب مشاعر حقد وعداء . وهاتان العلاقتان مرتبطتان ببعضهما . وقد استشهد دافي بالعبارات التالية من كتاب « الطرق الشعبية FOLK WAYS » لسوسنر لكي يدعم حججه :

---

(١) سبنسر ، المرجع المذكور ، ص ٣٩ .

(٢) سبنسر ، المرجع المذكور ، ص ٣١ .

« إن مطالب الحرب التي ينبغي خوضها ضد الجماعة الخارجية هي بالتأكيد المطالب التي تصنع السلم في الداخل ، إلا إذا كانت الخلافات الداخلية تضعف الجماعة الداخلية في الحرب . وتصنع هذه المطالب أيضاً الحكومة والقانون في الجماعة الداخلية بسبب الحاجة إلى منع المنازعات وتداركها وفرض النظام في الداخل . وبهذا الشكل ، أثرّ الحرب والسلم كلاهما على الآخر وطور كل منهما الآخر ، أحدهما داخل الجماعة ، والآخر في العلاقات بين الجماعات . وكلما زادت قوة الجيران ، كلما زادت حدة النشاط الحربي ، وكلما تعزز التنظيم الداخلي والانضباط لكل منهما » [١] .

وهكذا ينجم إذن مجموعتان من الاخلاقيات — De mores — اخلاقية الجماعة الداخلية واخلاقية الجماعة الخارجية . وتنجم كلتا المجموعتين من المصالح المتماثلة . « فعند أفراد الجماعة الخارجية ، يعتبر كل فرد يقتل وينهب ويمارس الانتقام ، واختطاف النساء والعبيد ... فرداً جديراً بالاحترام » ، على حين يعتبر هذا الفرد الذي يقترف مثل هذه الجرائم على عكس ذلك بالنسبة لأفراد المجموعة الداخلية [٢] .

وقد عرفنا هذا الموضوع منذ قرون عديدة في مضامين مختلفة ، فمثلاً ، حرّض كزينوفون سيروس CYRUS ضد رأي أبيه القائل بأن القائد ينبغي أن يبرهن **على أنه متآمر ، ومخادع ، ولص كي يستطيع خدع خصمه وسحقه في كل مناسبة** . وعندما نفّذ سيروس هذا الاعتراض مدعياً أن هذا الرأي يخالف للدروس التي تلقاها عن طريقة السلوك ، أجابه أبوه بما يلي : « كانت هذه

---

(١)
MAURICE DAVIE: La guerre dans les sociètès primitires. son Rôle et son évolution (édition française, Payot, Paris, (1931), p. 35, et W.G. SUMNER, FOLKWAYS (1906), p. 12.

(٢) دافي ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٣٧ .

الدروس تخص اصدقاءك ومواطنيك ، وهي صالحة للتطبيق ، بالنسبة اليهم ، غير أنه بالنسبة **لاعدائك .. أفلا تتذكر بأنك تعلمت بأن توقع بهم أشد الأضرار؟** »[1] .

وقد أجاب افلاطون ، في **الجمهورية** باسان بوليمارك ، على سؤال سقراط : « ما هي **العدالة؟** » « **إن العدالة هي مساعدة الاصدقاء، والاضرار بالأعداء**»[2]

وقد صرح هوبس في كتابه Léviathan : « بان القوة والخديعة هما الفضيلتان الرئيسيتان في الحرب »[3] ، وهذا يعني أنهما رذيلتان رئيسيتان في السلم . وكتب دافيد هيوم في كتابه Essays and Treatises : إننا في الحرب « نتحول عن مشاعر العدالة والتعاطف ونسمح للظلم والعداء بأن ايتخذا مكانهما »[4] . ويكفي أن نلقي نظرة خاطفة على معظم الجرائد الصادرة أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية لنُقنع القارىء الذي يشك فيما نقول أن الوضع كان على هذه الشاكلة التي وصفناها منذ قرنين .

لقد كان أخطر أعداء الإنسان البدائي هم من نفس نوعه . أما اليوم ، فما زال الإنسان عدو الإنسان الوحيد و « الانسان ذئب على الانسان » homo homini lupus ، هذا التعبير اللاتيني ما زال صحيحاً كما كان منذ نصف مليون سنة . فالحرب والصيد تملكان جاذبيتهما القديمة : ولهذا فإن كل طفل يحب غريزياً اللهو بالبندقية ويطرب لها ، كما أن كل بالغ تحركه حوادث القتل .

---

(١) Xénophon : Cyropédie, I, VI, p.p. 27 - 28.

(٢) Platon : République, I., p. 334.

(٣) المرجع المذكور سابقاً ، جزء اول ، فصل ١٣ HOBBES

(٤) DAVID HUME: ESSAYS and TREATISES (1772), Vol. II, p. 273.

ولم تكن الحرب ، بالنسبة لرجـال العصر الحجري عمل الأقلية المختارة . فقد كانت موضع اهتمـام كل ذكر بالغ ، وهي مـا زالت كذلك حتى الآن ، مع اضافة عدد من النساء زاد اهتمـامهن بها . وكانت الحرب التي يمـارسها المتوحشون تستهدف قتل الأعداء الذكور ، واختطـاف النساء والأطفال . وقد تطورت هذه الغاية وتحسنت باختراع الأسلحة التي جعلت من المستحيل اجراء أي تمييز بين الضحايا : **فالمذبحة تتم اليوم بصورة شاملة .**

ولا يمكن أن يعرف الانسان على حقيقته إلاّ الإنسان ، كمـا كان ، لا الانسان كمـا نريد نحن أن يكون تبعـاً للفكرة الغريزة على أتبـاع النزعة السلمية . إن الانسان هو محصلة الآلاف المؤلفة من الاجيـال التي تكوّن أجداده المتوحشين والدمويين ، الذين أورثوه غرائزه . وغريزة الخوف ، التي تعتبر من أقوى الغرائز ، تحرس الانسان المتوحش ، والمتمدن في الوقت ذاته . ويبقى الخوف أقدم أساليب الحمـاية ، وتبدو غريزة الخوف واضحة لدى الطفل قبل نهـاية شهره الثالث [١] . وقد كانت الإبـادة أكبر رعب يعانيه الفكر القبلي . ولكن هذا الخوف لم يتحكم بفكر الانسان ، في أي عصر من العصور السابقة كمـا يتحكم به في عصرنا اليوم .

وللسؤال الذي طرحه توينبي جوابه اليوم . إن القوة المحركة للديموقراطية ليست حب الآخرين . إنهـا الحقد على كل مـا هو خارجي عن القبيلة ، أو العصبة ، أو الحزب ، أو الأمة . إن « الإرادة العـامة » تنادي بالحرب الشاملة ، والحقد هو أقوى عـامل للتجنيد بالإكراه او بالإختيار .

---

(١) CHARLES DUFF: This Human Nature (1917), p. 41.

الفصل الثالث

الحرب النابليونية

١ نابوليون بونابرت :

تستند سلطة حكومة من الحكومات ، مهما كانت طبيعة هذه السلطة ، على قوتها المادية [١] . ولهذا فإن الهدف الاساسي لأية ثورة من الثورات هو كسب دعم القوات المسلحة لها أو حلها وتفتيتها . وتتخذ الثورة ، في الحالة الأولى ، شكل **انقلاب** ، ولا تسبب إلا فوضى محدودة ، فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية . وفي الحالة الثانية ، تقوم الفوضى . ومهما كان حماس الشعب في استقبال الثورة ، وتدعيمه المثل العليا الثورية من خلالها ، فإن الفوضى هي الشيء الوحيد الذي لن يتسامح فيه الشعب لمدة طويلة . وعندما تسود هذه الفوضى ، يفتش الشعب ويبحث عن الرجل الذي سيخلصه منها ، وعندما يظهر هذا الرجل المنتظر ، تتوجه الطاقة المتولدة من الفوضى في اتجاه خارجي ، وتتخذ شكل حرب خارج الحدود . وتوحد هذه الحرب بدورها الشعب ، وتؤدي بصورة طبيعية إلى إقامة نظام حكم قسري ، يقوم مقام الحكومة الاصلية ، مدعوماً دعماً كاملاً من القوات المسلحة .

---

(١) لقد عبّر نابليون عن هذا المعنى عندما قال : « بدون جيش ... لن يكون هناك استقلال سياسي ، ولا حرية مدنية » .

(Correspondence de Napoléon 1er (1858-1869) III, No. 1800).

وقد كتب جيبير قبل الهجوم على الباستيل في عـام ١٧٨٩ بعشر سنوات متنبئـاً بما يلي :

« سيقوم رجـل ، ربما ما زال حتى الآن مجهولا وسط الجماهير ، رجل غير معروف حتى الآن من خطبه ولا من كتاباته ، رجل قد تـأمل وفكر بصمت ، رجل ربمـا يجهل موهبته ، ولم يحس بهـا حتى الآن ، ولن يحس بهـا الا عندما سيمارسها ، رجل لم يدرس كثيراً . وسيستولي هذا الرجل على العقول ، وسيتحكم بالظروف ، وسيستولي على الثورة ، وسيقول للمنظر الكبير ، كمـا قال المهندس المعمـاري العملي ، للمهندس الخطيب ، أمام الآثينيين : « سأنفذ كـل ما قاله خصمي لكم » [١] .

كـان هذا الرجل هو نابليون بونـابرت (١٧٦٩ — ١٨٢١) ، الذي ظهر أمـام سكان مدينة باريس ، في يوم ١٣ من فنديميير من العـام الرابع للثورة (اي يوم ٥ من اكتوبر ١٧٩٥) مع « تفريغات الشظايا » . « وكان لهذا الرجل عين حادة النظر ، ودمـاغ خلق للتحدي والعمل . وقد وصل بصورة طبيعيـة ليكون ملكـاً . واعترف به الجميع بأنه **سيغدو كذلك** » [٢] .

وكان نـابليون هو المهندس المعمـاري الأناني المتطرف ، والرجل المنعزل إانعزالاً تـاماً ، والذي يعتبر نفسه محور العالم ومركزه ، والذي لا يعتمـد لا على نفسه ، ويركّز كـل الامور بين يديه . وقد قال عنه مينيفـال ما يلي : « لم يكن يملك مبـادأة التصورات فحسب ، بل كان يحتفظ لنفسه ايضـاً بتفاصيل كل الأعمال ... وقد جرفته عبقريته ونشاطه الذي يفوق نشاط البشر ، الى مسافات بعيدة . وكان يحس بـأنه يمتلك « الوسائل » و « الوقت » الكافيين

---

(١) Comte de GUIBERT: oeuvres militaires (1803), Vol. IV, p. 74.

(٢) T. CARLYLE: «Le Héros Roi» Heroes and Hero-Worship

لكل شيء ... والواقع انه هو الذي كان يفعل كل شيء » [١] .

وقد قال كولانكور COULAINCOURT ، وهو من ألمع المؤرخين الذين كتبوا عنه ، الشيء ذاته ، ولكن بشكل أكثر تعمقاً : « انه لم يدخر جهداً ، ولا اهتماماً ، ولا تعباً للوصول الى هدفه ، وينطبق هذا الأمر على الامور الصغيرة كما ينطبق على الامور الكبيرة . فقد كان مجنداً بكامله ، اذا امكننا القول ، لغرضه . وكان يجمع دائماً كل وسائله ، وكل قدراته ، وكل اهتمامه للغرض الذي كان يعمل على تحقيقه ، او للمسألة التي كان يعالجها . وكان يعمل كل شيء باندفاع وحماس . وفي هذا تكمن ميزته الهائلة على خصومه ، لأن هناك قليلاً من الناس الذين تمتصهم فكرة من الافكار امتصاصاً كاملاً فيركزون عليها ، او يشغلهم عمل واحد يقومون فيه في لحظة واحدة » [٢] .

لقد كان رجلا مهتماً بمصيره فقط . وقد تحدث عن ذلك ، عندما كان في طريقه الى موسكو عام ١٨١٢ قائلا : « احس بانني منقاد الى هدف لا اعرفه . وعندما ابلغه ، وعندما لا تكون هناك حاجة الي ، تكفي ذرة واحدة لتحطيمي . والى ان يتحقق ذلك لن تستطيع كل القوى البشرية ان تفعل شيئاً ضدي » [٣] .

---

(١)
BARONDE Mèneval: Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon 1ér (1894) Vol. III, p.p. 50 - 51.

(٢)
Génèral de CAULAINCOURT, duc de VICENCE, Grand ECUYER de l'Empereur: Mémoires (1933), p. 315.

(٣)
Cite par Osewald spengler dans **The Decline of the West** (1925), Vol. I, p. 144.

وقد ذكر اوليفيه كرومويل ملاحظة مماثلة واعطى كسبب لارتقائه الى هذه المكانة العالية بأنه لم يكن يعرف ما هو مصيره .

وقد بدا لمعاصريه ان مهمته كانت القيـام بالغزوات ، غير ان مهمته التي خفيت عليه وعليهم هي الخلق والابداع . فقد بنى على انقـاض عصر ، عصراً آخر ، أو اذا جارينـا التعبير الذي استخدمه سبنفلر : « كان لحيـاة نابليون نتائج هـائلة ، لا بالنسبة اليه فقط ، وبالنسبة لفرنسا ، بـل ايضاً بالنسبة للمستقبل » [١] .

كانت الحروب التي خاضها نابليون حروب فتح وغزو على نطاق واسع ، لم يكن لها أمثلة مماثلة منذ عصر شارلمان الذي اعتاد نابليون ان يقارن نفسه به .

ففي أول حملاته في ايطـاليا (١٧٩٦ — ١٧٩٧) ، كان هدفه هو التفتيش عن العدو وإبـادته في المعركة . وقد خرق في هذه الحملة حرمـة الاراضي المحايدة ، وعـاش على حساب الارض التي اجتاحها ، وغطى نفقات الحرب من السلب والغنائم ، واستثمر انتصاراته الى اقصى الحدود بأن طـارد خصمه دون شفقة . كـل هذه الاعمال كانت تصدم معاصريه الذين كانوا يعتبرون هذه الانشطة مجردة من اللياقة ، واعتبروها اعمالا حربية غير شرعية ، بـل حتى انها كانت في نظرهم تشبه غزوات المتوحشين وقد وضح رد الفعل هذا ، إن لم نقل وضح هذا الاشمئزاز في الرسوم الكاريكاتورية لهذا العصر : ففي صورة رسمها كرويكشانك CRUIKSHANK بتاريخ ١٤ من ابريل (نيسان) ١٧٩٧ ، مثل الجيش الفرنسي بتنين ينفث الدخـان ، والنـار ، والمدافع ، وعلى ظهره يجلس شخص ضخم وكثيب يرتدي قبعـة قديمة من القبعات التي كان يرتديهـا سكان آسيا الصغرى ، وعليهـا الكتابة التالية : « بونابرت » ، وامام التنين يتراجع جيش وجنرالان [٢] . وكانت هذه تمثل بتشاؤم اولئك الذين يدافعون عن عصر الحرب اللامحدودة .

(١) سبنفلر : المرجع المذكور سابقاً ، جزء ١ ، ص ٣٦٣ .

(٢)
A.M. BROADLEY: Napoléon in caricature, 1795 - 1821 (1911) Vol. I, p.p. 99 - 100.

٢ ـ عناصر الحرب النابوليونية

إن عناصر الحرب النابوليونية التي سنضعهـا هنا موضع الإعتبار ، بأنهـا أكثر العناصر تميزاً هي التـالية :

١ ـ وحدة القيادة .

٢ ـ نوعية القيادة والقطعة .

٣ ـ أسلوب نابليون التنظيمي .

فقد كان نابليون يعتبر أن وحدة القيادة هي «أولى الضروريات في الحرب»(١) وينبغي ان يكون مـاثلاً في الأذهان ، أنه مع قبولنا بهذا التعبير قبولاً تاماً ، نرى أن وحدة القيادة غير ممكنة إلاّ عندما تكون الإدارة السياسية والعسكرية بيد رجـل واحد ، كمـا كانت في يد نابليون ، منذ أصبح القنصل الأول في ينـاير (كانون الثاني) ١٨٠٠ . ولا تتحقق هذه الوحدة الشاملة، عندما تكون القرارات السياسية منفصلة عن العمليـات العسكرية كمـا هو شائع في الحرب. وكانت هذه الحالة هي الحالة السائدة في ظـل حكومة المديرين . ولمـا كان نابليون يعرف هذا الوضع معرفة جيدة عندما تولى قيادة جيش ايطاليا ، فقد عرف وحدد مـا تشتمل عليه وحدة القيادة . فقد كتب إلى حكومة المديرين في ١٩ من ينـاير (كانون الثاني) ١٧٩٦ مـا يـلي : « **ينبغي ان تكون الحكومة واثقـة ثقة تامة بقائدها ، وأن تترك له حرية عمل واسعة ، وأن تحدد له الهدف الذي تريد تحقيقه فقط .** »(٢) ويعتبر هذا التحديد كـاملاً إذا كان الهدف المحدد عقلانيـاً . وقد كتب نابليون عن وحدة القيادة مـا يلي : « لم أكن أستشير أحداً في العمليات العسكرية إلاّ

(١) Correspondance, XXXI, p. 418

(٢) " " I, No. 83

نفسي . امـــا في العمليات الديبلوماسية فقد استشرت الجميع . »(١) وكتب عن حملة عـــام ١٧٩٦ ما يلي : « قمت بالحملة دون استشارة أي انسان . ولو أنه كان من واجبي أن أستشير أي فرد آخر لما حققت شيئاً ذا أهمية »(٢) .

وتفرض وحدة القيادة ، بقدر مـــا تسمح بـــه الظروف ، حشد **كـــل** القوى الجاهزة ، بقيادة **قائد واحد** على مسرح العمليـــات **الرئيسي** . غير أن الاتجاه المشترك لكـــل حكومة ضعيفة أو حكومة لا تتمتع بالكفاءة هو توزيع قواتهـــا لحماية كل النقاط الحيوية . وقد كان هذا مـــا فعله جوزيف بونابرت ملك نـــابولي في عام ١٨٠٦ ، والذي كتب اليه نابليون في ٧ من يونيـــو (حزيران) بأسلوب تهكمي : « إذا كنت تريد أن تحرس كـــل النقاط في مملكتك ، فلن يكون لدى فرنسا قوات تكفي لتحقيق ذلك »(٣) .

وقد كانت وحدة القيادة اساساً في حملات نـــابليون العديدة الظـــافرة . والأمر الغريب ، كما سنرى فيمـــا بعد ، إن وحدة القيادة أصبحت أحد اسباب انهيـــاره النهائي . ومع ذلك ، فإن حكمه المـــأثورة تقول ... : « إن الرجال لا قيمة لهم في الحرب ، ولكن رجلاً واحداً هو كـــل شيء فيها »(٤) « ان قائداً سيئـــاً (القائد العام) يقود بمفرده ... أفضل من قائدين جيدين»(٥)

---

(١) Correspondance, XII, 399

(٢) " " " 420

(٣) " " " No. 10329

(٤) " " , XVII, No. 14283

(٥) " " , XXIX, p. 107

وتبقى هذه الحكم المأثورة حقيقة وصحيحة في عصرنا اليوم كما قالها نابليون لأول مرة .

وفي وسعنا أن نميز مـا كان يتوقعه من جنرالاته وجنوده ممـا كتبه وقاله عن صفات القائد والجندي .

ففيمـا يتعلق بالأول ، كانت « الصفة الأساسية للقائد هي الحزم (وهي موهبة من السماء) » (١) . « يجب أن يشبه فكر القـائد ، في صفائه ، صفاء زجاج التلسكوب ، هذا الزجاج الذي صقله المسن وزاده لمعـاناً بشكل تبدو فيه الرؤية خالية من إي تشويش » (٢).

« إن القائد الذي يرى بواسطة عيون الآخرين ، لن يقود جيشاً كمـا ينبغي أن تكون عليه القيادة » (٣) . « يتعلق النجاح في الحرب باللمحة العـامة ، وبفهم اللحظة البسيكولوجية للمعركة » . « ولو انني هاجمت في اوستيرليتز ، قبل ست ساعات ، لكنت خسرت المعركة » (٤) « إن الإرادة ، والشخصية ، والجهد ، والجرأة هي التي صنعت مني ما انا عليه الآن » (٥). وقد قال ايضاً : « **إن جيشاً من الأسود يقوده غزال لن يكون ابداً جيشاً من الأسود** » (٦) .

(١)
Général baron GOURGAUD: Saint-Héléne. JOURNAL Inédit de 1815 - 1818. (1899). Vol. II, p. 423.

(٢) طبعة فرنسية ، ص ٢٩١
BARYE O'MERA. NAPOLEON en exil (1824)

(٣) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ٣٩٦ O'MERA

(٤)
Comte de LAS CASES: Mémorial de Saint-Héléne (1823) Vol. II, p. 210.

(٥)
Correspondance, X, No. 8832

(٦)
" " , XXX, p. 176

وفيمـــا يتعلق بجنوده ، لم يكن نـــابليون يدع فرصة من الفرص تفلت منه لإثـــارة كبريائهم وأنفتهم ، وزيادة إيمـــانهم وتبديد مخاوفهم لزيادة ثقتهم بأنفسهم . وبهذا الشكل كان يحوّل الجندي الحذر المتشكك إلى مقـــاتل ، وإلى رجل يملك إرادة التضحية بحيـــاته في سبيل قضية ، كان لا يفهمها في كثير من الأحيـــان . وقد قال ما يلي : « كل رجل يعطي لحياته قيمة أكبر من قيمة المجد القومي ، وأكبر من تقدير رفاقه ، ينبغي أن لا يكون فرداً من افراد الجيش الفرنسي . » [1] وكان نابليون ايضاً يثير حماسة جنوده عن طريق اغداق الأموال عليهم . وقد قال في هذا الصدد : « ينبغي أن لا نعوّد القطعات على المكافآت المـــالية التي توزع على اعمال شجاعة قـــام بهـــا بعض الأفراد . وبدلاً من هذا يكفي أن توجه اليهم اوامر « الثنـــاء » [2] . وبدلاً من هذا ، كان يحرك فيهم الشعور بالمجد والتطلع إليه . « وعندما كان الامبراطور نابليون يستعرض صفوف جيشه ويقول وسط نيران المعـــارك : « انشروا الأعلام ! فقد جاءت الفرصة الحاسمة ! » ، كانت الإشارة ، والعمل ، والحركة كافية ليضرب الجندي الفرنسي الأرض بقدميه متوثباً للقتال » [3] . « كان افراد نصف اللواء ٣٢ مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيلي ، لأنني كتبت بعد معركة لوناتو : « كنت أحس بالطمأنينة لأن نصف اللواء ٣٢ كان هناك » . « إن قوة الكلمـــات وأثرها على الرجال يثير الدهشة [4] وفي ايطاليا كان ميزان القوى العددي دومـــاً ١ الى ٣ ، وهي نسبة ليست

---

(١) Correspondance, I, No. 925.

(٢) Correspondance, IX, No. 7527.

(٣) Correspondance, XXXI, p. 416.

(٤) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ١٠٩ GOURGAUD

لصالحنا ، غير أن الجنود كانوا يثقون بي . فالقوة المعنوية هي التي تقرر النصر أكثر من القوة العددية »[١] ، « وليس عدد الجنود هو الذي يصنع قوة جيش من الجيوش ، وإنما الذي يصنع قوته هو اخلاصهم ومزاجهم الطيب »[٢] ،
وكان نابليون مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الإتصال الشخصي بين الضباط والجنود هو سر النجاح في القيادة . ونقرأ في أمر من أوامره اليومية ما يلي : « يجب على قائد الكتيبة أن لا يرتاح ابداً قبل ان يستكمل معلوماته عن كل حركات كتيبته . **وينبغي عليه ايضاً ان يعرف اسماء ضباط وجنود كتيبته ، وكفاءاتهم بعد ستة اشهر من توليه القيادة** »[٣] . وعليه أن يهتم ايضاً بصحة جنوده إلى حد كبير ، فقد كتب قائلاً : « إن المرض هو أخطر الأعداء »[٤] ، « من الأفضل خوض أكثر المعارك دموية على تخييم القطعات في مكان لا تتوفر فيه الشروط الصحية »[٥] .
وكان يقول عن جنوده بصورة عامة : « اذا كانت الشجاعة هي الصفة الأولى للجندي ، فإن المواظبة هي الصفة الثانية »[٦] . وعند ما سألته السيدة دومونتولون في سانت هيلانه عن أفضل القطعات في نظره ، أجابها قائلاً : « سيدتي ،

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، جزء٢ ، ص ١١٩ GOURGAUD

(٢)
Léon Lecestre: lettres inédites de Napoléon 1ér (1897), No. 155.

(٣)
ERNEST - PICARD et LOUIS TUETEY: Correspondance inédite de Napoléon 1er conservé aux archives de la guerre (1912), No. 247.

(٤)
Correspondance, XI, No. 9105.

(٥)
Correspondance, XXII, No. 18041.

(٦)
Correspondance, VII, No. 4855.

انها القطعات التي تربح المعارك »[١] .

وقد نتجت نجاحات نابليون في تنظيم حملاته من وضعه الواضح كحاكم أوتوقراطي ، مطلق السلطات ، ممـــا اتاح له ان يجمع في شخصه الإدارة السياسية والاستراتيجية للحرب . وقد سمحت له هذه الميزة ، مضافـــاً اليها وحدة النوايا ، وعمله الضخم ، بأن يطبع خططه بطابع عبقريته النافذة ، حتى إن خططه كانت تتجاوز احياناً فهم جنرالاته، وتتجاوز طاقتهم العقلية . وما ان طالت الحرب ، وازدادت مشكلاتها تعقيداً حتى أحس نابليون بالنقص في القادة المرؤوسين وخطورة هذا النقص . وبلغ هذا الاحساس ذروته خلال حملات لايبزيغ وواترلو التي افسد فيهـــا غباء مارشالاته مناوراته الرائعة . ولهذا قال في سانت هيلانه :« لو كان عندي رجل مثل تورين TURENNE يعاونني في حملاتي ، لكنت الآن سيد العالم »[٢] .

وكان تنظيم الحملة بالنسبة اليه عملاً فنيـــاً الزامياً ، ويشهد على ذلك اقواله التـــالية : « في وقت الحرب ، هنـــاك كثير من الاشياء التي يعتبر من الحكمة أن تتم مسبقاً وقبل عدة سنوات ..»[٣] « لقد اعتدت ان افكر قبل ثلاثة او اربعة اشهر فيمـــا يجب عليّ ان افعـــل ، واضع حساباتي وفرضياتي مستنداً الى اسوأ الحلول ..»[٤] « في الحرب ، لا يمكن أن يتحقق أي شيء إلاّ

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٦ ، ص ٨٥ ,LAS CASES

(٢) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ١٣٥ GOURGAUD

(٣) Correspondance, X, No. 8075.

(٤) Correspondance, XIII, No. 10810.

بالحساب .. »[١] « اذا كنت اتخذ كثيراً من الاحتياطات ، فذلك لانني اعتدت ان لا اترك أي شيء للصدفة »[٢] « لا نربح في الحرب الا اذا كانت الخطط قد وضعت نتيجة تفكير وتصميم عميقين »[٣] .

وقد كشف كل هذه الأسرار لروديرر ROEDERER عندما كان يقول له : « إذا كنت أبدو دائمـــاً مستعداً للرد على كل شيء ، فذلك لأنني أكون قد اطلت التفكير والتأمل ، وتوقعت مـــا يمكن ان يحدث قبل الشروع في أي عمل من الأعمال . فليست العبقرية هي التي تكشف لي فجأة مـــا ينبغي ان اقوله او ما ينبغي ان افعله في ظرف لا يتوقعه الآخرون ، إنه التفكير ، والتأمل[٤]

وكان نابليون يبدأ كل حملة من حملاته ، بخطة عمليـــات مصممة إلى حد الكمـــال ، وتقبل حلولا بديلة ، يتضمن كل حل منهـــا فرضية وضعها عن حركات العدو الممكنة والمحتملة . وكانت الخطة تتضمن ما كان يقترح القيام به . امـــا الحلول البديلة فكانت تتضمن التعديلات التي يستطيع ان يقوم بها كحلول طارئة على الخطة . وعندما توضع الخطة موضع التنفيذ ، يصبح الاستطلاع والتنقيب اهتمامه السياسي .

وكانت استطلاعات الخيالة هي الشائعة للبحث عن العدو والتفتيش عنه والتقاط المعلومـــات عنه . غير ان نابليون كان يهتم بخطته الخاصة أكثر من اهتمامه بوضع العدو ، الذي تبدل بصورة طبيعية . وكان هدف اساوبه في

---

(١) Correspondance, XII, No. 10325

(٢) Correspondance, XVI, No. 13652

(٣) Correspondance, XVII, No. 14307

(٤) ذكر ذلك الكولونيل Vachée في كتابه : ص ٥
Napoléon en Compagne (1913)

البحث والتفتيش عن المعلومات ، الذي كان يستخدم الجواسيس ، والعملاء ، والاستيلاء على الرسائل من مكاتب البريد الخ .. كان هدف اسلوبه هو تأكيد فرضياته عن العدو ، او الغاؤها ، ولهذا كان يرسل خيالته ، وعملاءه الخ ... في اتجاهات معينة ، ليستوضح النقاط المشكوك فيهـا ، والتي كانت معرفتها ضرورية لتأكيد او نفي احدى الفرضيات . وبهذا الشكل ، وبتقليله عـامل الشك الى ادنى حد ممكن ، وبتأكيد فرضياته او نفيها ، فانه لا يبسط خطته الخاصة فحسب ، بل إنه يكشف خطة العدو في الوقت نفسه . وكان اكتشاف نوايا العدو أكثر من اكتشاف مواقعه ، هو هدف عمليات الاستطلاع التي كان نابليون يقوم بهـا .

٣ – مبادىء الحرب النابولونية

بالرغم من ان نابليون قد كتب او تحدث مراراً عن مبـادىء الحرب ، الا أنه لم يعددها في اي مكـان . وقد قال ذات مرة على مسمع من غوفيون سان – سيرانه « لو وجد الوقت الكـافي في يوم من الأيام ، لألف كتاباً يوضح فيه مبـادىء الحرب ، بصورة دقيقة جداً ، بسيطة ، حتى يكون في متناول كل العسكريين . وبواسطته يصبح من الممكن والسهـل تعليم الحرب كأي علم آخر » (١) . ولسوء الحظ فانه لم يفعل هذا . ومع ذلك فان دراسة حملاته تكشف الأمور التالية :

١ – ثقته التي لا تتزعزع – في الهجوم .

٢ – ايمـانه بالسرعة لكسب الوقت ولتحقيق المفاجآت الاستراتيجية .

٣ – اصراره والحاحه على حشد قوات متفوقة في ساحة المعركة ، وبخاصة في مكان الهجوم الحاسم .

---

(١) Maréchal GOUVION Saint-Cyr: Mémoires pour servir à l'histoire Militaire Sous le directoire, le consulat de l'Empire 1831), Vol. IV, p. 149.

٤ – ترتيب أمنه المدروس باعتناء بالغ الدقة .

الهجوم : قال نابليون عن الهجوم : « انني اؤمن كما يؤمن فريدريك ، بان من الواجب ان نكون دوماً البادئين بالهجوم » [١] ، وقال ايضاً : « من الخطأ الكبير ان تسمح للعدو بأن يهاجمك .. » [٢] ، وقال ايضاً : « قم بالحرب الهجومية ؛ على غرار ما كان يفعل الاسكندر ، وهانيبال ، وقيصر ، وغوستاف أدولف ، وتورين ، واوجين ، وفريدريك ... وخذ نموذج هجومك منهم ، فان هذه الوسيلة هي الوحيدة لكي تصبح قائداً كبيراً ، ولكي تقتحم اسرار فنهم الحربي » [٣] .

ولم يكن نابليون قائداً متهوراً ، على عكس ما كان عليه شارل الثاني عشر . قال نابليون ايضاً : « في بداية كل حملة ، ينبغي ان نفكر ملياً فيما اذا كان من الواجب ان نتقدم ام لا ، ولكن عند تنفيذ الهجوم ، لا بد من دعمه حتى نهايته الأخيرة » [٤] ، وكذلك ايضاً : « عندما نريد غزو بلد من البلدان ، ينبغي ان لا نخشى خوض المعركة وعلينا ان نفتش عن العدو في كل مكان لمقاتلته » [٥] .

ومع ان نابليون لم يكن هو الذي اخترع المطاردة ، الا انه يمكننا القول بأنه هو الذي وضع اسلوبها ، لأنه ربطها بالمعركة وجعل منها ميزة اساسية

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ٣٣٦ GOURGAUD

(٢) Correspondance XXVII, No. 21428.

(٣) Correspondance XXXI, p. 418.

(٤) Correspondance XXXII, p. 209.

(٥) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ١ ، ص ٣٢٧ GOURGAUD

لتكتيكه . وفي ١٧ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٨٠٥ ، في حملة اولم ، ارسل الى مورا بالبرقية التالية : « أهنئك على النجاح الذي حققته . ولكن لا تسترح ابداً . طارد العدو ، وسيفك في ظهره ، واقطع عليه كل خطوط المواصلات »[١] . ومع ذلك ، لما كانت المطاردة المستمرة عملية من أصعب العمليات ، فان نابليون لم ينجح نجاحاً كاملاً في المطاردة الا في اربع معارك : في ريفولي (١٧٩٧) ، في اوسترليتز (١٨٠٥) وفي يينا (١٨٠٦) وفي اكموهل ECKMUHL (١٨٠٩) .

الحركية : كتب المقدم كولان ما يلي : « ان السرعة عنصر رئيسي واساسي في الحرب النابوليونية » . ولكي يدعم كولان قوله هذا ، يستشهد بما قاله الكونت دو درفيو DERVIEU عن خفة الحركة في كتابه : **مفهوم الانتصار لدى القادة الكبار ،**

La Conception de la victoire chez les grands généraux

« ان الحركة هي روح الحرب النابوليونية ، كما ان المعركة الحاسمة تشكل اداتها . وكان بونابرت يحرك قطعاته بسرعة محسوبة ... ومن الحكم التي كان يرددها دوماً ... إن السرعة تضاعف العدد ... ان سرعة المسيرات تعوض عن العدد . وقد قال ايضاً : « ان المسيرات هي الحرب ... وان القدرة على الحرب هي القدرة على الحركة .. **ان الانتصار نصيب الجيوش التي تناور** »[٢].

وهناك حكمتان مأثورتان تدعمان هذا الحكم الذي اطلقه نابليون : في فن الحرب ، كما في علم الميكانيك « يعتبر عامل الزمن اكبر العناصر

---

(١)

Correspondance XI, No. 9386

(٢)

COMMANDANT COLIN Les Transformations de la guerre (1911) pp. 216 - 217.

بين الوزن والقوة »[١] ، « ان خسارة الوقت لا تعوض في الحرب ان الاسباب التي تتذرع بهـا لخسارته اسباب سيئة دوماً ، لان العمليات لا تتوقف الا بسبب التأخير »[٢] . ومن سوء حظ نابليون ، ان تـأخر جنرالين من جنرالاته الأول في لايبزيغ ، والآخر في ليني ، ساهمـا في خسارته أولى هـاتين المعركتين ، وحولت المعركة الثـانية الى معركة مشكوك بحسمها . وعلى العكس كان جنود نابليون يقولون في معركة اولم : « لقد وجد الامبراطور طريقة جديدة في خوض الحرب . فهو لا يستخدم حرابنا ، بل يستخدم ارجلنـا للمسير »[٣] .

المفاجأة : ونادراً مـا كانت الهجمات المباغتة لنابليون — باستثناء حشد القوات غير المتوقع فوق ساحة المعركة — هجمات تكتيكية . فقد كان معظمها تقريباً هجمات استراتيجية ، ونخص بالذكر منها معارك مارانغو MARENGO « ١٨٠٠ » ، واولم (١٨٠٥) ، وييـنـا (١٨٠٦) ، والمرحلة الأولى من حملة واترلو . وقد كتب الى ستينSTEIN في ٧ من يناير (كانون الثاني) (١٨١٤) قـائلاً ما يلي : « ان الاستراتيجية هي فن استخدام الوقت والمدى ESPACE . وانني أقل اقتصاداً بالمدى من الوقت ، لان في وسعنا ان نغزو الارض من جديد ، امـا الوقت الضائع ، فلا يمكن ان يعود ابداً . »

الحشد : كان نابليون يقلل كـل العمليات الثانوية ، كي يستطيع حشد اكبر عدد من القطعات . من اجـل المعركة الرئيسية الحاسمة . وينقل كولان

---

(١) Correspondance XVIII, No. 14707.

(٢) Correspondance XII, No. 9997.

(٣) Correspondance, XI, No. 9392

عنه قوله : « يجب ان يبقى الجيش مجمعـاً ، وحشد معظم القوات التي يمكن حشدها في ساحة المعركة » (١) .

وان هنـاك فرقاً هاماً بين مدلول « الجمع » ومعنـاه ، وبين مدلول « الحشد » ... CONCENTRATION . وقد فسر نابليون معنى الجمع في رسالة كتبهـا الى ملك نابولي ، في ٨ من اغسطس (آب) ١٨٠٨ ، : « ان فن ترتيب القطعات هو اكبر فن في الحرب . ضع قواتـك بشكل تجد فيه جيشك مجموعـاً في خلال بضعة ايام ، مهمـا فعل العدو » (٢) . فالجمع هو توزيع القطعات او الفرق في منطقة القتال ، على حين يتم الحشد في ساحة المعركة . وفي ١٤ من فبراير (شباط) ١٨٠٦ ، كتب نابليون الى اخيه جوزيف قائلاً ما يلي : « ان جيشك موزع توزيعـاً كبيراً . فعليه دوماً ان يسير بشكل يستطيع فيه التجمع في يوم واحد ، فوق ساحة المعركة » (٣) . ان منطقة التجمع ، التي تضم ارتـال المسير ، والأرتال في حالة التوقف ، تضيق ، كلمـا زاد اقترابنا من العدو ، الى اللحظة التي يصبح فيهـا من الممكن تنفيذ حشد كل الارتال في بضع ساعات . « ان مبدأ الحرب الأول هو ان لا نخوض المعركة الا بكـل القطعات التي نستطيع جمعهـا في ساحة العمليات » (٤) و « ان الفن الكبير للقـائد هو التفوق على الخصم في ساحة المعركة ، عندما

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٠٨ . COLIN

(٢) Correspondance XIII, No. 10629.

(٣) Correspondance XII, No. 9808.

(٤) Correspondance XXXII, p. 227.

يجد قوته اقــل عدداً من قوة خصمه » (١) . وينتج عن هذا اذن انه اذا تجمعت قوة اقــل عدداً بصورة صحيحة ، فانها تهزم بصورة عــامة قوة اكبر منها اذا لم تكن متجمعة بشكل صائب .

الحماية : منذ تــاريخ ١٦ سبتمبر (ايلول) ١٧٩٣ ، عندما كان نابليون نقيبــاً ، خالي الوفاض ، ولا يمارس اي عمل من الأعمال ، الى ان واتته الظروف لقيادة مدفعية اليعاقبة في حصار طولون ، وحتى ٨ من يونيو(حزيران) ١٨١٥ ، عندما ترك ساحة المعركة ، وكان آنئذٍ وسط مربعات لواء الحرس وامبراطوراً لفرنسا ، لم يخض نابليون معركة دفاعيّة بحتة .

حقاً انه اضطر الى القتال الدفاعي في لايبزيغ (١٨١٣) وفي الروتيير LAROTHIERE (١٨١٤) وفي آرسيس — سور—أوب - ARCIS - SUR AUBE (١٨١٤). وحقاً ايضاً إنه بسبب قلة تعداد قواته بالنسبة لخصمه ، كان عليه ان يمــارس استراتيجية دفــاعية طيلة كل حملة عام ١٩١٤ . غير ان هذه الاستراتيجية الدفاعية كانت تشتمل مع ذلك على سلسلة من المسيرات السريعة والهجمات الشرسة . ومع هذا ، وبالرغم من اهتمامه الكامل بتجنب المعركة المصممة طبقــاً لخطة دفاعية ، كانت كل عملياته الهجومية مستندة الى مبدأ الأمن . وقد عرف هذا المبدأ وحدده على الشكــل التالي : « **يشتمل كل فن الحرب على دفاع مصمم بصورة معقولة ، يسوده الاحتراس والحذر الكاملين ، وعلى هجوم جريء وسريع** » (٢)

ويقوم جهاز الأمن هذا على اقامة موقع ميداني (٣) أو قاعة ، أو مدينة

---

(١) GOURGAUD, Vol. II, ص ٣٢

(٢) Correspondance, XIII, No. 10558.

(٣) Place de Compagne.

محصنة ، على مؤخرة جيشه ، لا يمكن مبــاغتتها ، تجمع فيها مخازن الجيش ، وورشاته ، ومستشفياته . وكان هذا الموقع هو قــاعدة عملياته . وعندما يتحرك الجيش إلى الامام ، كان هدف خيّــالة الأمن اخفــاء خطة نابليون وحركات جيشه ، تمــاماً كهدف خيّالة الاستطلاع التي تحدثنا عنهــا سابقاً ، وهو سبر خطة العدو وكشفهــا للسماح لنابليون بتعديل خطته . وعندما لا يصبح من الممكن اخفاء الحركة الى أمام بواسطة ستــارة خيالة الأمن ، مدة أطول كمــا حدث خلال المسيرات التي سبقت معركتي يينــا واكموهل ECKMUHL ، كان يحقق كتمان عملياته بسرعة الحركة .

وقد كان لنــابليون مفهوم عــام للهجوم والدفاع يتسم بالحس السليم . فقد قــال : « ان الحرب الدفــاعية لا تستبعد الهجوم ، كمــا ان الحرب الهجومية لا تستبعد الدفاع » (١) ، وقال ايضاً : « عندما تستخدم قطعات ضعيفةفي قدرتهــا القتالية ، يجب ان تحفر الارض كثيراً»(٢). وكان يعني بهذا القول ان من الواجب زيــادة ثقة الجنود بأنفسهم ، وذلك بأن نطلب اليهم حفر الخنادق والاحتمــاء فيها . وكان هذا المبدأ ينطبق ايضاً على المفــارز المنعزلة : « ان من المبادىء العسكرية ان تتخندق كل قطعة منعزلة ، كما ان حفر الخنادق هو أول الاهتمامــات التي ينبغي ان نوليها انتباهنا عندما نحتل موقعــاً من المواقع » (٣) . ولكن الموضوع كان مختلفــاً كل الاختلاف بالنسبة للجيش . فمنذ اغسطس (آب) ١٧٩٣ — اي قبل ان يتولى نابليون قيادةالمدفعيةفي طولون — كتب في كتيبه السياسي : Le Souper de Beaucaire

---

Correspondance XXXI, p. 347.

(٢) Correspondance XIV, No. 12111.

(٣) Correspondance V, No. 4083.

مـــا يلي : « **من حكم فن الحرب ان من يبقى في خنادقه يهزم : وان التجربة العملية والنظرية متفقتان في هذه النقطة** » [١] . فقد كانت الحرب الثابتة بالنسبة لنابليون مرفوضة رفضاً قاطعـــاً .

٤ ــ مساوىء الحرب النابوليونية

لم يخفق نـــابليون في الحصول على الانتصار ، وحيازة سلم نافع لفرنسا فحسب ، بـــل انه أخفق ايضاً في الحصول على سلم مقبول من خصومه . ويعزى فشله الى ثلاثة عيوب في إدارته للحرب . العيب الاول ، ذو طابع عسكري ، وهو تركيز القيادة بيده تركيزا قويـــاً ، والعيب الثاني ، ذو طبيعة سياسية ، ويتمثل في سياسته غير الواقعية . أمـــا العيب الثالث ، فمن طبيعة تتعلق بميدان عمـــل الاستراتيجية العليا ، وقد تجسد هذا العيب في عجز الوسائل التي اعتمد عليهـــا لانجـــاز سياسته على الوجه الأكمل ، اذ لم يكن في وسع تلك الوسائل الا ان تؤدي الى الهدنة على الافضل .

القيادة : وفيمـــا يتعلق بتركيز القيادة في شخصه ، قلنا في مطلع هذا الفصل ان الحـــاح نابليون على توحيد القيادة وحصرها في شخصه ، قد أدت الى سلسلة كبيرة من الانتصارات غير انها شكلت في النهاية عاملا من عوامل سقوطه . فكيف حدث ذلك ؟

هناك جوابـــان على هذا السؤال . أولهما ، ان الحرب عندما طالت ،

---

(١) راجع :
PANCKOUCKE: OEUVRES DE NAPOLEON BONAPORTE, Vol. 5

اتسعت رقعتها ، وازداد تعقيدها ، وأضحت القوات المشتبكة فيها هائلة جداً وكبيرة لدرجة لم يعد معها من الممكن قيادتها برجل واحد ، مهما كانت عبقريته ، بدون هيئة اركان تقودها بشكل فعال .

وفي المقام الثاني ، توصل خصوم نابليون تدريجياً الى فهم سبب فشلهم ، كل على حدة ، وادركوا ان سبب **ذلك هو افتقارهم الى الوحدة فيما بينهم** ، إذ منع افتقارهم اليها من توحيد جيوشهم ، وفهموا بالتالي بأنهم **إذا لم يبادروا الى تحقيق الوحدة ، فإنهم لا بد منهزمون واحداً اثر الآخر** .

واخيراً ، اثناء هدنة الصيف ، التي حدثت وسط حملة لايبزيغ ، تحققت الوحدة فيما بين خصوم نابليون بمعاهدة رايخنباخ [١] . وتطبيقاً لأحد شروطها ، اتفقت الدول المتحالفة – روسيا ، النمسا ، بروسيا ، والسويد على ان لا يغامر اي جيش من جيوشها في معركة تصادمية منفردة مع نابليون شخصياً ، وانه يجب على كل جيش يتلاقى معه ان يقوم بقتال تراجعي فوراً ، حتى تتمكن الدول المتحالفة من جمع كل القوات وحشدها ضده في المعركة . وقد أدت هذه الشروط الى تجريد استراتيجيته الهجومية من كل فاعلية .

وكانت هيئة أركان نابليون تتألف من ادارتين : مكتب رئيس الأركان العامة ، والأركان العامة . وكان مكتب رئيس الأركان برئاسة المارشال برتييه BERTHIER ، أمير نوفشاتيل Neufchâtel ويتألف من امانة سر ، ومن المرافقين العسكريين للامبراطور ، الذين يتألف منهم ضباط

---

(١) REICHENBACH

الارتباط [١] . وكانت الثانية تتـــألف بصورة طبيعية من ثلاث مساعدين لرئيس الأركان العامة ، وكانت وظائفهم ممـــاثلة لوظيفة المعتمد العام (رئيس هيئة الشؤون الادارية) اليوم ، وقسم للطوبوغرافيا .

وقد كتب العقيد فاشي قـــائلاً : « لم يكن لهيئة الاركان العامة اي دور تساهم فيه في التصميم الفكري للامبراطور . ولم تكن تتلقى منه اي توجيه ، إذ لم يكن عليها إلا أن تطيع لدى أول إشارة تتلقـــاها من اصبعه او من عينيه . وكان الامر الذي تلقـــاه برتييه من نابليون هو الأمر التالي : « نفذ الأوامر التي اعطيهـــا ، فانا وحدي ، الذي يعرف ماذا عليّ أن أفعل » . وكان برتييه ينظر الى محو شخصيته هذا كشيء طبيعي. فقد كتب الى سولت **SOULT** من أوستيرود **OSTEROD** بتاريخ ١ من مارس (آذار) ١٨٠٧ يقول: « انني لا شيء في الجيش . فأنا اتلقى ، باسم الامبراطور ، تقارير المـــارشالات واوقع اوامره بتفويض منه ، وانا لا شيء في كل ما يتعلق بشخصي » . وقد كتب برتييه الى ني **NEY** ، من فـــارسوفيا بتاريخ ١٨ من يناير (كانون الثاني) ١٨٠٧ [٢] قائلاً : « يا سيدي المـــارشال ، ان الامبراطور لا يحتـــاج الى نصائحنا ، ولا الى خططنا الميدانية ولايعرف اي فرد منـــا ما يجول في فكره ، وواجبنـــا هو ان نطيع » . وقد اضاف فاشي الى هذا قائلاً مـــا يلي : « لقد قال الامبراطور نفسه ان هيئة الاركان العامة كانت اقـــل الاجزاء ضرورة

---

(١) كان بعضهم من مرتبة الجنرالات ، والبعض الآخر عقداء ، ونقباء أيضاً ، ويستخدمون في مهمات خاصة ، او لنقـــل الاوامر الى مارشالات نابليون في الحملة أو في المعركة . وكانت بعض هذه المهام مهمات فوق العادة راجع المهمة التي اعطيت للجنرال بارون لوجين **BARON LEJEUNE** في فبراير (شباط) ١٨١٠ ، التي اشار اليها في مذكراته .

(٢) المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٥ **COLONEL VACHEE** .

في المقر العام . »[١] ومما يؤسف له ان مارشالاته كانو يتعرضون لمعاملة استعلاء ايضاً شبيهة بما لاقته هيئة اركانه .

واليكم في هذا الموضوع تعليق الدوق دوفيزنساك :

« كان من الواجب تنفيذ الأمر مهما كانت الوسائل ... إن هذه العادة في محاولة كل شيء بأضعف الوسائل ، وهذه الارادة في عدم رؤية اي شيء يستحيل تنفيذه ، وهذه الثقة المتناهية في النجاح ، التي كانت في اول الامر سبباً لكل المزايا التي حصلنا عليها ، اصبحت في النهاية اسباباً مميتة لنا [٢]»

وقد ادعى بعض المؤرخين الى أن عدم نجاح الامبراطور في حملاته الاخيرة ، يرجع الى سوء حالته الصحية او الى انحلال قواه البدنية . والواقع ان المبررات التي تدعو الى قبول هذا السبب مبرارت ضعيفة . والحقيقة ان نشاطه [٣] لا خموله ، هو الذي كان سبب سقوطه ، كما كان سبب صعوده الى القمة . لأن هذا النشاط كان يحمله على الاعتقاد بان في وسعه ان يجمع بين وظيفتي القائد العام ورئيس هيئة الاركان العامة . وعندما احتاج الى ضباط اركان مجربين ، لم يجد واحداً منهم . ويقص علينا كولانكور انه في عام

---

(١) المرجع المذكور ، العقيد فاشي ، ص ٩٥ .. النص الفرنسي .

(٢)

GENERAL DUC DE FEZENSAC: SOUVENIRS MILITAIRES DE 1804 à 1814 (1863).

(٣) فيما يتعلق بامثلة ١٨١٢ ، راجع كولانكور ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ١ ، صفحات ٣٧٨ ، ٣٨٧ ، جزء ٢ ، ص ٣٧ ، وللامثلة عام راجع الجنرال بارون دودليبن

Relation Circonstanicée de la compagne de: D'ODELEBEN 1813 en SAXE.

الطبعة الفرنسية (١٨١٧) ، جزء ١ ، ص ٢٢٤ الخ ..

١٨١٢ « لم تكن هيئة الاركان العامة تتوقع شيئـــا ، لان الامبراطور كان يريد ان يقوم بنفسه بكل شيء ، وان يصدر كل الاوامر . وهكذا ، لم يتجرأ أي فرد في الاركان العامة ، حتى المعتمد العام ذاته على ان يتحمـــل مسؤولية اصدار اي امر من الأوامر حتى ولو كان امراً تافهــاً لا قيمة له . » [١] .
ويقول لنا دودلين انه في عـــام ١٨١٣ كانت هيئة الأركان العامة اقـــل كفاءة مما كانت عليه في العـــام السابق ، بل ان الجيش « بكامله » ، في هذه الحملة ، كان آلة مفرطة في التعقيد ، وغير كاملة ، حتى يمكن اقامة تعاون فيمـــا بين مختلف اجزائه ... وولدت كثرة الحركات التي جرت فيما بعد صعوبات لم تكن كل سلطة نابليون قادرة على التغلب عليها دائماً » [٢] .

ولم يكن مارشالات نابليون قد دربوا على القيادة بـــل اعدوا فقط لاطاعة الأوامر . فقد كانوا رفـــاق سلاح ، لا قادة ، وامراء اقطاع رقي الكثيرون منهم الى هذه الرتب لاسباب تتعلق بانتمـــائهم الى الأسر النبيلة ، ولاسباب سياسية وشخصية . وقد قال نابليون لكولانكور بعد انهيـــاره ، وقبل نفيه الى جزيرة البـــا انه « ينتقد نفسه لانه استخدم هذا العدد من المـــارشالات في هذه الايام الاخيرة ، مع انه لم يستفد منهم لانهم اصبحوا اغنيـــاء جداً ، واسياداً كبـــاراً ، اتعبتهم الحرب . وكان من الافضل في رأيه لو انه ولّى القيادة لقادة الفرق الذين كان يطمحون بالحصول على عصا المارشالية . [٣] »
ولقد كان على حق فيمـــا قاله ، غير ان طريقته في القيادة ، كانت على هذا الشكل ، وكانت خـــاطئة لهذا السبب ، ولا يمكن ان يعزى الخطأ فيها الى عيوب او نقائص حدثت من اسلوبه في القيادة .

---

(١) كولانكور ، المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٨٣ .
(٢) دودلين ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ١ ، ص ١٩٦ .
(٣) كولانكور ، المرجع السابق ذكره ، جزء ٢ ، ص ٤٦٢ .

السياسة : كانت انجلترا ، هذه الدولة التي قدمت لحلفائها في القارة كل المساعدات الممكنة ، والتي نظمت التحالف اثر التحالف ضده ، هي عدوه الرئيسي ، ولم يكن الكفاح الذي خاضه ضدها كفاح العدل ضد الظلم . بل كان كفاحاً للبقاء على قيد الحياة بين دولتين بعثتهما طلائع الثورة الصناعية . فقد كانت انجلترا مضطرة لتصدير منتجاتها لكي تبقى دولة قوية يسودها الرخاء . اما فرنسا ، فلكي تبقى دولة يسودها الرخاء ، ولكي تحافظ على قوتها ، كان عليها ان تحمي صناعاتها الوليدة . وكان مترنيخ يعرف هذ معرفة جيدة ، إذ كان يقول : « كل منا يعرف ان انجلترا لم تستطيع ان تتنازل في هذه المسألة (المشكلة البحرية) التي هي بالنسبة اليها مسألة حياة او موت . » [١] وهكذا تصور نابليون ما دعي بالحصار القاري ، لان نابليون يفهم معنى حرية البحار بالنسبة لانجلترا . وكان اغلاق كل موانىء القارة في وجه البحرية البريطانية لخنق التجارة البريطانية ، ولضرب رصيدها المالي والتجاري الذي بدونه لن تستطيع تأليب الاعداء ضده » [٢] .

وقد قال نابليون : « ان قوة انجلترا لاتستند الا الى الاحتكار الذي تمارسه ضد الامم الاخرى ، ولا تقبل ان تمارسه اية دولة اخرى . فلماذا تجني انجلترا هذه الارباح التي يستطيع مشاركتها فيها مئات الملايين من الافراد » [٣] وقال ايضاً : « ان مصلحة اوروبا هذه ، والتي تحتكر انجلترا كل خيراتها لا قيمة لها بالنسبة لتجار لندن . انهم يضحون بكل الدول الاوروبية ، وبالعالم كله مقابل مضاربة مالية واحدة . فلو ان دين انجلترا كان اقل ، ربما كانت اكثر عقلاً ورصانة . فالذي يدفعها دفعاً في هذا السبيل هو حاجتها

---

(١) كولانكور ، المرجع السابق ذكره ، جزء ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) كولانكور ، المرجع السابق ذكره ، جزء ٣ ، ص ٥ .

(٣) كولانكور ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ، ص ٢٣١ .

الى دفعه ، والاحتفاظ برصيدها المـــالي وتحسينه ... » [١] .

وكان نابليون يرى في كفاحه ضد انجلترا « اعماق كــل المسائل التي تحرك العالم والأفراد » [٢] . وكانت انجلترا بناء على هذا ، كمـــا قال كولانكور عدوه الاول : « فهو لم يطارد الا انجلترا . ونظراً لان تجارتها ممثلة في كل مكان وتحت كــل الاشكال ، فانه كان مضطراً لمتابعتها في كل مكان » [٣] . ومن هذه الاهداف انبعثت فكرته لاقامة امبراطورية عالمية . فقد تحول الحصار القاري ، من سلاح مخصص لتدمير انجلترا ، الى اداة يتحقق بفضلها تصميم جديد للعالم : مشروع اوروبا الموحدة بالاتفاق .

وفي سانت ــ هيلانه ، انبـــأ العالم كله ، بواسطة لاس كاسيس ان هدفه كان وحدة الأمم الاوروبية الكبرى التي كانت حتى ذلك الوقت « مجزأة ومقسمة نتيجة للثورة وللسياسة » في اتحاد كونفيدرالي توحد فيه « القوانين ، والمبادىء ، والآراء ، والمشاعر ، والمصالح » . وكان يحلم في اقامة مجلس مركزي مستوحى من « الكونجرس الامريكي او مجلس الاشراف الاغريقي . على راس هذا الاتحاد الفيدرالي ، وتحت ظل وحماية امبراطورية ، لكي يسهر على الاموال العامة « للاسرة الاوروبية الكبرى » . وقد بدد انهياره حلمه هذا ، ومع هذا فقد قال : « مهما يكن من امر ، فان هذا التجمع سيحدث عاجلاً ام آجلاً . فقد دفعت بهذه الفكرة ولا اعتقد انه سيكون هناك توازن آخر عظيم وممكن بعد سقوطي وزوال نظامي غير التجمع ، وتوحيد الشعوب

---

(١) كولانكور ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ، ص ٢١٨ .
(٢) كولانكور ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ، ص ٣١٦ .
(٣) كولانكور ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ، ص ٢٢٣ .

الكبرى . وان اول حاكم سيعمل باخلاص لصالح قضية الشعب ، وسط اول صراع كبير ، سيجد نفسه على رأس اوروبا كلها ، وسيكون في وسعه ان يحاول تنفيذ مـــا يريده » [١] .

الاستراتيجية العليـــا : لو ان اوروبا اتحدت فيدارلياً ، فان هذه الوحدة الفيدرالية ستكون نقمة ولعنة على انجلترا ، لان انجلترا لا تستطيع ان تواجه اوروبا المتحدة كدولة بحرية ذات سيادة . وسيكون الصراع بينها وبين فرنسا صراعـــاً حتى الموت . وكان نابليون ما يكاد يحطم حلفـــاً من احلافها ، حتى يواجه حلفـــاً آخر ، ينبعث على انقاض الحلف الأول . فلكي يحقق نابليون هدفه ، كان من الضروري ان يخضع بريطانيا دون ان يعادي او يزعج الدول الاوروبية . فلو انه ضايق احدى هذه الدول او عاداها تحالفت مع انجلترا بسرعة . وقد ادى الحصار القاري الى هذه النتيجة . فلم يحرم هذا الحصار امم القارة من البضائع التي كان في وسع بريطانيا وحدها تزويدهم بهـــا فحسب ، بل قادها ايضاً ، وبدون استثناء ، الى حرب ضد انجلترا . وهكذا كانت استراتيجيته العليا استراتيجية خاطئة . اذ لم يكن الحصار القاري سوى بديل للاسطول الذي خسره في معركة الطرف الأغر في عام ١٨٠٥ .

وقد نفّذ الامبراطور الحصار القاري ، بموسوم برلين ، بعد معركة يينـــا مباشرة . وقامت انجلترا فوراً بعمل انتقامي اذ اصدرت مرسوماً منعت بموجبه تجارة الدول المحايدة مع فرنسا وحلفائها . وبهذا الشكل نشبت الحرب الاقتصادية وبعد هزيمة الروس في فريد لاند بتاريخ ٧ من يوليو (تموز) ١٨٠٧ ، قبلت روسيا وبروسيا ان تتوحدا مع فرنسا ضد انجلترا ، فوسع نابليون الحصار في وجه التجارة الانجليزية حتى شمل الدانمارك والبرتغال واسبانيا ، وهولندا فيما

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ، ص ١٥٧ .

بعد مستفيداً من هذا النجاح الجديد . وفي مــارس (آذار) ١٨٠٩ ، نصّب شقيقه جوزيف ملكــاً على عرش اسبانيا ، فنشبت الحرب الاسبانية نتيجة لذلك . وبعد هذا قامت الحرب مع النمسا . وبعد انتصارات ايكموهل وفاغرام بقليل ، بدأ التحالف الفرنسي — الروسي يضعف . وفي عام ١٨١٠ ، سمح القيصر الكسندر للسفن التجارية الانجليزية بدخول الموانىء الروسية . وهكذا اخذ الموقف يسوء بسرعة هائلة ، حتى ان نابليون تعرض في حديثه مع كولانكور لهذا الموضوع فقال : « حدثت الحرب بالرغم مني ، وبالرغم من الامبراطور الكسندر ، وبالرغم من مصالح فرنسا وروسيا ، وقد لاحظت ذلك مراراً ، لان تجربتي الخاصة المــاضية هي التي تكشف لي استار المستقبل ... لقد كان ما حدث فصلاً من مشاهد فصول الاوبرا التي تشرف بريطانيا على اخراجه » . وفي سانت هيلانه قال للاس كيسيس : « كانت روسيا المورد الاخير لانجلترا . وكان سلام العالم كله يستند اليها . ومن المؤسف ان الذهب الانجليزي قد برهن انه اقوى من خططي . » .

وجاءت فيما بعد حملة نابليون على روسيا . ففي عام ١٨١٣ ، هزمته روسيا ، والنمسا ، وبروسيا ، والسويد في لايبزيغ بصورة حاسمة . وفي ١١ من ابريل (نيسان) ١٨١٤ ، تنازل عن العرش . وبهذا الشكل فشلت سياسته واستراتيجيته العليا فشلاً تاماً . فطالما كانت انجلترا داخلة في الصراع ، كان لا يستطيع ان يربط اوروبا التي تمكن من غزوها واحتلالها الى عرشه ، لانه بالفتح الذي يقوم به ، كان يبيع حق الولد الاول (١) الى شعوبها .

وفي عام ١٧٩٢ ، اصبحت الروح القومية الفرنسية ، التي ايقظتها الثورة ، روح الجيوش الفرنسية كلها . ولو ان هذه الروح لم تستيقظ ولم تبعث ، لمــا

---

(١) في اوروبا كان الولد البكر يرث اكثر من اخوته (المعرب) .

كان هناك ابداً وجود لنابليون . وقد بدأ زابليون بعد معركة يينا يبدد ميراثه . فقد ايقظت اعمال النهب والسلب التي قام بها جنوده، اسبانيااولا ، ثمالنمسا ، ثم بروسيا فيما بعد . ومن ثم استيقظت في كل اوروبا روح مماثلة للروح التي دفعت بجيوشه عبر القارة الاوروبية . ففي اسبانيا جمدت العصابات الاسبانية ، والجيش الصغير الذي كان يقوده ويلتغون عدداً كبيراً من جنوده . وفي عام ١٨٠٩ ، طبقت النمسا نظام التجنيد ، وفي ١٣ من مارس (آذار) ١٨١٣ ، عندما اعلنت بروسيا ، بعد تحالفها مع روسيا الحرب عليه ، اصدرت قانونـــاً بتجنيد الشعب للدفاع Levée en masse. فكل مواطن لا يخدم في الجيش النظامي او في « اللاندوهر » عليه ان يعاون الجيش ، بالعمل ضد مواصلات العدو ومؤخراته . وعلى السكان ان يحاربوا حتى الموت ، بكل الوسائل التي يملكونها . ومن الواجب ازعـــاج العدو ومضايقته ، وقطع تموينه ، وذبح المتخلفين من جنوده . وكان من الواجب عدم ارتداء بزة عسكرية . وعند اقتراب العدو ، كان يترتب على المواطنين اخلاء القرى والتفتيش عن الملاجىء في الغابات والتلال ، بعد تدمير كل مخزون المؤن وحرق الطواحين ، والجسور ، والمراكب ، وقد كتب (فان) مـــا يلي : « تلك كانت الوسائل الجديدة التي استخدمها اعداء نابليون ضده » (١) ولا بد انها كانت تكراراً لما حدث في عام ١٧٩٢ .

بهذا الشكل ، قام نابليون بالدعوة والتبشير ، كواحد من الدعاة — وكان

---

(١)
BARON FAIN: MANUSCRIT DE MIL HUIT CENT TREIZE (1824) Vol, p. 39.

كان فان سكرتيراً في حكومة نابليون .

داعية بالفعل ، يحمل سيفاً ومدافع — لا انجيل الامة المسلحة ، وجاب اوروبا طولاً وعرضاً ، ومن مكان الى آخر ، فاصبحت دعوته ، مع الزمن ، العقيدة العسكرية لكل شعوبها المشاغبة ، وهنا يكمن رباط لا مادي مع ما يقصّه ستانيسلاس جيراردان في مذكراته عن زيارة نابليون لقبر جان — جاك — روسو فقد اجاب على سؤال وجهه اليه جيراردان قائلاً ما يلي : « حسناً ! سيقول المستقبل ما اذا كان من الافضل لهدوء الارض وراحتها لو انني لم اخلق ولم يخلق روسو »[1] .

---

(١) ذكر ذلك جون هولاند روز في
The LIFE of NAPOLEON (1913)
Vol. p. 21.

الفصل الرابع

نظريات كلاوزفيتز

١ ـ كارل فون كلاوزفيتز

ولد كارل فون كلاوزفيتز عام ١٧٨٠ في بورغ ، وهي قرية صغيرة قريبة من ماجد بورغ ، وعين مدرساً للجيش البروسي في عام ١٧٩٢ [1] . واشترك في حملة الراين من عام ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤ ، وفي عام ١٨٠١ ، انتسب الى الاكاديمية العسكرية في برلين ، التي كان يديرها آنئذ « الكولونيل » المعروف والمشهور العقيد شارنهورست . وفي عام ١٨٠٦ جرح وأسر في حملة يينا ، التي كان يعمل فيها مرافقاً عسكرياً للأمير اوغوست البروسي . وفي المرحلة النهائية من تقهقر نابليون في روسيا ، كان مفاوضاً في اتفاقية

(١) لدراسة حياة كارل فون كلاوزفيتز ، اقرأ مقدمة كتاب « في الحرب » المترجم الى اللغة العربية مطبوعات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (دار الكاتب العربي ـ القاهرة) ، وقد صدر هذا الكتاب على ثلاثة اجزاء ، ويتألف من ثمانية كتب . (المعرّب)

توروجين TAUROGGEN[1] التي أدت الى حرب التحرير البروسية. وفي حملة عام ١٨١٣ ، عين رئيساً لاركان الكونت فالمودن . وفي عام ١٨١٥ ، ساهم بصفته رئيساً لاركان الجنرال تيلمان THIELMAN في معارك ليني وفافر. ومات في عام ١٨٣١ في برسلاو اثر اصابته بمرض الكوليرا .

ينتج من هذا التاريخ الموجز لحياة كلاوزفيتز انه لم يمارس طيلة مدة خدمته العسكرية اية قيادة . ومن المحتمل انه لم يكن اهلاً لتسنم اية قيادة [2] .

---

(١) لعب كلاوزفيتز دوراً هاماً في هذه الاتفاقية التي تمت بين الجنرال يورك الذي كان يقود المفرزة البروسية في الجيش النابوليوني الكبير وبين الضباط الروس ، وقد امنت هذه الاتفاقية حياد الجنود البروسيين — راجع كتاب « في الحرب » المرجع المذكور سابقاً . (المعرب)

(٢) هذا الحكم الذي يصدره فوللر حكم جائر ، ولا يستند الى اي منطق ، فمن المعروف ان كلاوزفيتز ساهم في كل المعارك الدائرة ضد نابليون ، ومن المعروف ايضاً انه هو الذي عدل الخطة الروسية للدفاع عن البلاد امام غزو نابليون . فعدم استلامه قيادة فعلية كبيرة كان بسبب الحقد الذي يكنه له امبراطور بروسيا لانه رفض استسلام بلاده للفرنسيين . كما ان عدم استلامه اية قيادة فعلية لا يقلل من اهمية كتبه ومعلوماته . فيدل هارت يعتبر من اشهر النقاد والمعلمين العسكريين ، ومع ذلك فهو نقيب احتياط يكتب مقدمات لكتب يؤلفها جنرالات في اوروبا الآن . ومن المعروف ان الذين يتأملون الحروب ، ويستخلصون دروسها ، ويستفيدون منها ، هم بعض من ليس له صلة بالمعارك الدائرة فعلياً فوق ارض المعركة. فكثير من العسكريين الكبار يخوضون المعارك غير انهم لا يخرجون منها بدروس ، ومثلهم مثل الضابط الذي ارسل الى نابليون يشتكي من عدم ترفيعه ، مع ان رفاقه رفعوا الى جنرالات ، وقال في رسالته لنابليون تبريراً : « لقد خضت معك عشرات المعارك وعبرت معك جبال الالب مرتين » فأجابه نابليون قائلاً ما يلي : « لقد عبر بغلي معي جبال الالب ايضاً » !..(المعرّب)

وقد انكب على دراسة الحرب اساساً . وبعد موته طبعت كل مؤلفاته في عشرة أجزاء . امـــا الأجزاء الثلاثة الاولى فيتألف منها مؤلفه العظيم ، « في الحرب » VOM KRIEG ، الذي قضى في كتابته اثنتي عشرة سنة . غير انه لم ينهيه ، ولم يراجع جزء كبيراً منه .

وقد اعترف في مذكرة مؤرخة بتاريخ ١٠ من يوليو (تموز) ١٨٢٧ ، اكتشفت بين اوراقه بعد موته ، بان الفصل الاول من الكتاب الاول قد انتهى ، وان من الواجب مراجعة الكتب ٢ ، و ٧ ، وان الكتاب الثامن وهو الاخير « لم يكن سوى مسودة لموضوع الكتاب ، كمـــا أكد ذلك في مذكرة اخرى يبدو انه كتبهـــا في تاريخ لاحق لتاريخ المذكرة الأولى . وفي أول هاتين المذكرتين ، أشار الى انه كان ينوي ، عند قيامه بالمراجعة النهـــائية ، اقامة حد فاصل واضح بين النوعين من الحرب التي تصورها : الحروب ذات الهدف الشامل ، الذي يبحث عن تدمير الخصم ، والحروب ذات الهدف المحدود ، كهدف تعديل الحدود . وبالاضافة الى ذلك ، كان ينوي ان يستخلص من كل ما كتبه ، واكثر ممـــا فعل ، ان « **الحرب ليست شيئـــاً آخر غير استمرار سياسة الدولة بوسائل اخرى** » .

والكتاب على ما هو عليه — لم يراجع ، ولم ينته بعد— وفيه حشو واطالة وخليط من الاحاديث الطويلة ، والملاحظات ، والمذكرات المجموعة بدون مخطط دقيق . وهو كمـــا هو مطول جداً ، تتكرر فيه الافكار ويمتلىء بالاسفاف وبالبديهيـــات . وهو أيضاً كتاب مكثف جداً ، تكثر فيه المتناقضات ولا يعتبر في نظري ، دراسة مستندة الى الحروب النابوليونية كمـــا ادعى البعض . انه بالاحرى عرض فلسفي — كاذب عن الحرب ، تختلط فيه ملاحظات مشبعة بالحس السليم لهـــا قيمتها . وبما ان مؤلفه كلاوزفيتز كان يعيش في عصر كانت الفلسفة فيه هي « التقليعة » السائدة ، فقد بدا انه قبـــل وجود

شكل من اشكال الحرب هو الحرب المطلقة ، والتي ينبغي ان ترجه كل العمليات العسكرية بموجبها ، تمشياً مع مبادىء كانت . (١)

والخلاصة ، ان ما يدعو اليه كلاوزفيتز هو المثـل الاعلى للجوهر الشامل للحرب ، الذي يربطه في ذهنه « بالشيء في حد ذاته » والذي يدعو اليه كانت . سواء أكان ذلك حقيقة ام شيئـاً مختلفاً ، فمن الواضح انه اعتبر مفهومه المطلق للحرب كآلة قياس تسمح بقياس كـل الأنشطة العسكرية . وقد استعان بهذا المفهوم المطلق في مناسبات عديدة . وكثيراً مـا نراه يستخدم هذا المفهوم فيختلط اختلاطاً تامـاً في قياساته ، ثم ما يلبث ان يتخلى عنه فيما بعد ليستخدم الحس السليم . ومن الضروري ان يبقى ماثلاً في ذهن قارىء كتاب **في الحرب** هذه الخاصية . فاذا لم يضعها القارىء نصب عينيه من المحتمل ان يتشوش فكره ، كمـا تشوش فكر كلاوزفيتز نفسه وان يضل طريقه ، وهو امر اسوأ .

والواقع أن كلاوزفيتز ، بالرغم من تجربته التي استمرت عشرين سنة من الحروب النابوليونية ، غير انه ، كمـا سنوضح ذلك في آخر هذا الفصل ، لم يحصل من هذه التجربة الا على فهم غامض لها . فبسبب مبدأ الهجوم لدى نابليون ، اوجد كلاوزفيتز مفهومه عن الحرب المطلقة . وبهذا الشكل لم يضلل كلاوزفيتز عدداً من تلاميذه المقبلين فحسب . بـل كان مسؤولا

---

(١) كان كلاوزفيتز ، بحسب رأي الكولونيل جراهام ، الذي ترجم في الحرب ، الى اللغة الانجليزية ، تلميذاً لكيسفيتر KISEWITTER الذي لقنه فلسفة كانت « على جرعـات طبية » «ON WAR, Vol. p. XXXVII»

بصورة غير مباشرة عن الامتداد الهـائل للحرب الشاملة في القرن العشرين . ومن ناحية اخرى ينبغي ان نعترف بان تحليله العميق للعلاقات بين الحرب والسياسة ، لم يتفوق عليهـا ولم يتجاوزها احد حتى الآن ، ومـا زالت اكثر اهمية في ايـامنا هذه ، ممـا كانت عليه عند مـا طرحت لأول مرة . وهنـاك أمر غريب ينبغي ان نذكره ، وهو ان افتقار كلاوزفيتز للفكر النقدي كان ايضاً عاملاً اكثر فعالية في امتداد الحرب الشاملة وتوسعها من مفهومه للحرب المطلقة .

ولهذا السبب ، ونظراً لأن الجزء الاكبر من كتاب **في الحرب** لا يتضمن سوى روابط بعيدة مع ادارة الحرب المثلى ، ويعتبر قديمـاً وعتيقاً ، فان الهدف من هذا الفصـل هو ان نقتصر ملاحظاتنا على نظريات كلاوزفيتز ، وعلى هذه النظريات فقط التي كان لهـا تأثير مباشر على الحروب اللاحقة لعصره .

٢ ـ مـا هي الحرب ؟!!!

يشبّه كلاوزفيتز الحرب « بمبارزة على نطاق واسع » (ص. ٨) [١] ، ويقارنها بصراع بين اثنين من المتبارزين . ويستنتج من ذلك ان الحرب « اذن وبهذا الشكل عمـل من اعمال العنف يستهدف اكراه الخصم على فرض ارادتنا » [٢] و « العنف هو الوسيلة اذن ، امـا **الغاية** فهي فرض ارادتنا على

(١) راجع كتاب « في الحرب » تأليف كارل فون كلاوزفيتز ، الترجمة العربية ، منشورات دار الكتاب العربي ـ القاهرة .

(٢) المرجع المذكور ، الجزء الاول ، ص ٨٠ .

الحصم »[١] « وليس هناك من حدود للتعبير عن هذا العنف »[٢] ، « ومن هذا نستنتج ضرورة أن يكون الهدف من كل عمـــل عسكري هو هزيمة العدو او نزع سلاحه »[٣] . ويسخر كلاوزفيتز من النظرية القديمة القائلة « بالحرب دون اهراق الدماء » اذ علق عليهـــا قائلاً « وجعلوا من نظرية الحرب هذه مذهباً حقيقيـــاً لتعاليم هذه الطريقة »[٤] . ويعتبر كلاوزفيتز انه « ليس بالامكان ادخال مبدأ معدل في فلسفة الحرب نفسهـــا دون ان نرتكب خطيئة . »[٥] وكتب ايضاً يقول : « لا تحدثونا عن قادة ينتصرون دون سفك دماء »[٦] .

وقد ضلل الحاحه على ضرورة استخدام العنف عدداً من تلاميذه الذين قبلوا هذه الضرورة بمعنـــاها المطلق . ومع ذلك عندما تخلص كلاوزفيتز من مصائد فلسفته ، ابتعد عن طريقه ليفسر ان الحرب ليست مؤلفة « من تجريد بـــل من حقيقة » وانه « لا يجـــد العنصر المطلق الرياضي للحرب اية قاعدة مؤكدة تستند اليهـــا حساباته المتعلقة بفن الحرب »[٧] ، و « ان الحرب هي

---

(١) المرجع المذكور ، الجزء الأول ، ص ٨٠ .
(٢) المرجع المذكور ، الجزء الاول ، ص ٨٣ .
(٣) المرجع المذكور ، الجزء الاول ، ص ٨٣ .
(٤) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٣٣٦ ... وكتب ايضاً : « فهذه المراوغـــات ، وهذه الاستعراضات وانصاف واربـــاع ضربات الحروب القديمة هي بالنسبة اليهم هدف كل نظرية ، وتفوق للفكر على المادة ، لذا تبدو لهم الحروب الحديثة ضربـــات صاعقة لا تعلم شيئـــاً بالاضافة الى اعتبارها عودة الى البربرية » ، ص ٣٨ ، الجزء الاول .
(٥) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٨٣ .
(٦) المعرّب
(٧) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٩٦ .

النشاط البشري الذي يشبه لعبة الورق بصورة اكثر » [١] . وقد كتب ايضاً : « وينطبق فن الحرب على قوى حية ومعنوية ، فهو لا يستطيع ابداً ان يبلغ المطلق والمؤكد . اذ يبقى لدينا دائماً هامش للحوادث العارضة سواء في الاشياء الكبرى او الصغرى » [٢] ، « الحرب مجـــال الخطر » [٣] ، « ان الحرب مجال الشك » [٤] « الحرب مجـــال واسع للصدفة . وليس هنالك مجال من مجالات النشاط البشري يترك مكاناً فسيحـــاً لهذه الزائرة الغريبة كالحرب » [٥] .

وبالاضافة الى هذا ، « اذا اردنا تجنب كل الصعوبـــات بتأكيد بسيط ، مع تمسكنا بالاشياء المطلقة ، ودعمنا من وجهة نظر منطقيـــة ضرورة استعدادنا الدائم لكل طارىء ومجابهة التطرف الى الحدود القصوى ، في احتـــداد من الجهد ، فان تأكيدنا قد يبقى حرفاً ميتـــاً ، لا تطبيق له في عالم الواقع » . [٦] « ان الحرب لا تخص ميدان العلوم والفنون ، ولكنهـــا تخـــص الوجود الاجتمـــاعي . انها نزاع بين المصالح الكبرى يسويه الدم . وبهذا فقط تختلف عن النزاعـــات الاخرى » [٧] . ومع ذلك نراه في المقطع التالي يستخدم تعبير « الحرب المطلقة » للدلالة على الحرب النابوليونية ، التي يشبههـــا بصورة فلسفية « بنزاع القوات التي ترك زمامهـــا لنفسها ، والتي لا تخضع الا لقوانينها

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٩٦ .
(٢) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٩٦ .
(٣) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ١١٧ .
(٤) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ١١٨ .
(٥) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ١١٩ .
(٦) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٨٥ .
(٧) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ١٨١ .

الخاصة » [١] . وهذا المفهوم هو الذي قبله اتبـاعه دون تفكير وكانوا ضحايا تقديسه للعنف . [٢] .

٣ ـ الحرب المطلقة والحرب النابوليونية

عالج كلاوزفيتز موضوع هذا المقطع في الفصـل الثاني من كتابه الثامن الذي استشهد فيه بالفصل الاول من الكتاب المذكور . ويشير كلاوزفيتز فيمـا بعد على انه فضلاً عن انه لا يمكن ان يكون هنـاك « حقيقة اخرى » [٣]

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٨٥ .

(٢) لا بد هنـا من تعليق بسيط على رأي فوللر في كلاوزفيتز . ان كلاوزفيتز يسمي « المعركة الرئيسية بأنهـا الحل الدامي ، ولكنها ليست مجرد قتل متبـادل . وينصب تأثيرها على قتل الشجاعة اكثر من ابادة مقاتلي العدو.. » ويقول في مكان آخر : « ولكن هذا لا يمنع الدم من ان يكون ثمن المعركة » . وهذا كلام صحيح ولا يتعارض مع ايـة استراتيجية حديثة ، حتى الاستراتيجية غير المبـاشرة التي تستهدف قتـل شجاعة الجهاز العصبي للخصم والتي لا تعتبر اليوم استراتيجية دموية .

راجع كتاب كلاوزفيتز « في الحرب » ، الجزء الاول ، ص ٣٣٥ .

وهذا يدل على ان فوللر لم يتنبـه الى هذه الجملة التفسيرية ، شأنه شأن كثير من النقاد . (المعرّب)

(٣) يطلب كلاوزفيتز في هذا الموضوع ان يعود القـارىء الى الفصل السادس عشر من الكتاب الثـالث الذي يتحدث عن « ايقاف عمل الحرب » ، ويمكن للقارىء العربي مراجعة هذا الفصل في الجزء الاول ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، يقول كلاوزفيتز : « ان ايقاف العمـل الحربي يتعارض مع طبيعة الحرب الخاصة ، لان على الجيشين كعاملين متناقضين ، ان يفترسا بعضهما دون ←

من النـاحية الفلسفية للحرب ، غير « سحق الخصم » ، نـلاحظ ان سحق الخصم لا يحدث في كـل مرة ، فلماذا نجد ان هذا لا يحدث ؟ ونحن لسنا مضطريـن الى قبول جوابـه ، المشوش ، لان الحس السليم يجيب بـأن أحد الخصمين يتخلى عن القتـال لانه قاتل بما فيه الكفاية . ولكن هذا الجواب ابسط من ان يكون رداً بالنسبة للفيلسوف كلاوزفيتز ، الذي يطرح السؤال التالي : بمـا ان الحقيقة هي كذلك بدون شك ، فهـل نجد حقاً في الواقع مفهوم الحرب المطلقة ؟ والجواب ، بالايجـاب ، لاننا « رأينا في ايامنا هذه الحرب الحقيقية في كمـالها المطلق . وبعد مقدمة قصيرة عن الثورة الفرنسية ، وظهور نابليون الذي لا يرحم ، يتـابع كلامه قائلاً : « دفع بونابرت بالحرب بسرعة الى هذه النقطة . ولقد قـاد بونابرت الحرب دون ان يخسر لحظة واحدة الى ان تم له سحق خصمه وتدميره ... » [1] .

← رحمة ، فهما كالماء والنار عاملان لا يمكن ان يتوازنا ابداً . ولكنهما يعملان الواحد ضد الآخر حتى يزول احدهمـا . فماذا نقول عن متصارعين يبقيـان ساعات طويلة دون ان يترك احدهما الآخر ودون ان يقوما بأيـة حركة ؟ ! . (ص : ٢٧٨) . (المعرّب)

(١) ص ٦٧٢ ، في النص الفرنسي لاننـا لم نستطع متابعة هذا الكلام في الجزء الثاني والثالث المتضمنين الكتاب الخامس ، السادس ، السابع ، الثامن فهمـا قيد الطبع في دار الكاتب العربي – القاهرة ، اثنـاء ترجمة هذا الكتاب . (المعرب)

يوضح هذا بجلاء الاضطراب – الذي قـاده اليه مفهومه عن الحرب المطلقة . ففي المقاطع من ٦ – ٩ من الفصل الاول من الكتاب الاول (٨٤ ٨٨ في النص العربي) .. يلاحظ كلاوزفيتز ان الحرب لا يمكن ان تكون مطلقة . ويصرح الآن بان اسلوب نابليون الحربي كان « كاملاً بشكل مطلق » . ومن المحتمل انه يريد ان يقول ، ان اسلوبه الحربي يقترب من المثـل الاعلى الى غاية مـا يمكن .

ثم يسأل كلاوزفيتز فيمـا بعد : فهـل نحن راضون بهذا ؟ هـل ينبغي ان تكون الحرب من هذه الطبيعة ام انهـا من طبيعة اخرى ، وبعد نقـاش طويل يمكننـا ان نتجاوزه ، لان هنـاك فائدة في القفز عليه يجيب على السؤال قـائلا مـا يلي : « ان على النظرية ان تقبـل كل هذا ، ولكن واجبهـا يفرض عليها ان تعطي المكانة الاولى الى الشكـل المطلق للحرب . وتعتبر هذا الشكـل نقطة علاّم لكل الامور ، بحيث يتوجه اليهـا كل من يود ان يتعلم شيئاً عن الحرب ، ويضعهـا نصب عينيه ويعتبرها الحد الاساسي لآمـاله ومخاوفه حتى يتقرب من المكان الذي يستطيع الوصول اليه او المكان الذي ينبغي عليه بلوغه » [١] .

٤ ــ الحرب اداة للسياسة

يتضمن ابرز مـا ساهم فيـه كلاوزفيتز في نظرية الفن العسكري في الحاجه على العلاقات بين الحرب والسياسة . فقد كتب ما يلي : « اننا نرى ان علينا في كـل الظروف اعتبـار الحرب اداة سياسية ، لا شيئـاً مستقلاً بحد ذاته . وبهذا يمكن ان نتحاشى التنـاقض مع كل تاريخ الحرب . وتكفي هذه الفكرة لان تفتح امامنا كتاب التاريخ الكبير وتجعلنـا نقدر تجاربه بشكـل ذكي . وهي تدلنا كم تختلف الحروب بنـاء على طبيعة دوافعهـا والظروف التي تولدها » [٢] .

---

(١) الجزء الثالث من كتاب « في الحرب » ــ الكتاب الثامن ــ الفصل ٢ المقطع ١٢ (قيد الطبع في اللغة العربية ــ دار الكاتب العربي ــ القاهرة) .

(٢) الجزء الثالث ، المرجع المذكور سابقاً ، الفصل السادس ، من الكتاب الثامن ــ الفقرة « ب » .

ونجد التأكيد على هذه الملاحظة في الفقرة (ب) من الفصـــل السادس من الكتاب الثامن [١] واليكم نصها الحرفي :

يفتح كلاوزفيتز الحوار في هذا الموضوع قائلاً ما يلي : « ونحن نعرف ولا شك ان العلاقات السياسية بين الحكومات والأمم هي التي تؤدي الى الحرب . ولكننا نتصور أحياناً ان هذه العلاقات تنقطع مع اندلاع الحرب . وان وضعاً جديداً يظهر آنذاك وهو مختلف تمام الاختلاف عما سبقه ويتبع قوانين خاصة به

ويستمر كلاوزفيتز في الحوار فيقول ان هذا الاعتقاد خطـأ : « ولكننا نؤكد على العكس بان الحرب لا تشكـــل شيئاً سوى استمرار العلاقات السياسية بمعونة وسائل جديدة اخرى » . ويلح على كلمة « معونة » ليوضح ان العلاقات السياسية لا تنقطع ابداً ، وإن كانت تتعـــدل وتتخذ صوراً اخرى ... « وان الخيوط الرئيسية التي تجري عبر احداث الحرب ، والتي ترتبط بهـــا ليست سوى خيوط سياسية تتابع مسارها عبر الحرب حتى تحقيق السلم ...

« وهل يمكن ان نتصور الامور بشكل آخر ؟ وهل انتهت العلاقات السياسية بين الامم والحكومـــات في ظرف من الظروف بتبـــادل المذكرات الديبلوماسية أفليست الحرب شكلاً من اشكال الكتابة والقول للتعبير عن الفكرة ؟ ان لهذه الحرب بلا ريب مفرداتهـــا وقواعدها الخاصة ولكنها لا تملك منطقاً خاصاً بها .

« اذن فمن المتعذر فصل الحرب عن العلاقـــات السياسية . ولو وقع هذا الامر في نقطة مـــا من نقاط دراستنا ، لانقطعت كـــل خيوط هذه العلاقات تقريباً ، ولنشأ لدينا شيء جديد لا معنى له ولا يقدم اية فائدة » .

---

(١) المرجع المذكور سابقاً .

ثم ينساق كلاوزفيتز بعد كل هذا الى نوع من الفلسفة . ثم يعود الى موضوعه فيقول :

« ان تعلق الحرب بالسياسة يجعلها تأخذ بالضرورة صفتها . فاذا كانت السياسة عظيمة قوية ، كانت الحرب كذلك . وقد تبلغ في بعض الحالات ذروتها حيث تأخذ **شكلها المطلق** » .

« ولا تأخذ الحرب وحدتها الا من هذا المفهوم ، فهو وحده قادر على جعلنا نعتبر جميع الحروب كأشياء من نوع واحد . وهو وحده الذي يعطي الحكم الاساسي الدقيق الصحيح وجهة نظر تسمح بانشاء خطط واسعة ، والحكم عليها بشكل ملائم » .

« ونحن نعرف ان اهم شيء في الحياة هو ايجاد وجهة النظر التي يجب ان نرى الامور ونحكم عليها من خلالها ، والتمسك بوجهة النظر هذه لاننا لا نستطيع رؤية كتلة الاحداث في وحدتها الا عبر وجهة نظر واحدة ، كما ان التمسك بوجهة نظر واحدة يقينا من التردد وتبديل الرأي » .

ويلح كلاوزفيتز على انه من الاهمية بمكان كبير ، ان يبقى الهدف الرئيسي للحرب ماثلاً في الاذهان ، وباستمرار ، لا من وجهة النظر العسكرية ، او من وجهة نظر الاداري او السياسي ، بل من وجهة نظر السياسة التي ينبغي ان تجمع ما بين كل المصالح . ولا يمكن باي حال من الاحوال ان يعتبر فن الحرب وكأنه مشرعها ، لان السياسة تمثل مصالح الجماعة بأكملها . « والحاق الحرب بالسياسة سخف اكيد ما دامت السياسة سبب وجود الحرب . فالسياسة عمل فكري ، وما الحرب الا اداتها اما العكس فغير صحيح . والشيء الوحيد الذي نستطيع ان نفعله هو : الحاق وجهة النظر العسكرية بالسياسة » .

وعندما يفهم المرء بان الحرب ينبغي ان تصدر عن السياسة ، بصورة تختلف عن الفوضى « تأتي الخطط من وجهة النظر السياسية هذه وكأنها مصبوبة داخل قالبها » . ونتجنب النزاعات بين المصالح السياسية والعسكرية . ومع ذلك « عندما تتطلب السياسة من الحرب ما لا تستطيع تقديمه يكون عملها مخالفاً لمفاهيمها ومقدماتها ..» « ولكن اذا قدرت السياسة اتجاه احداث الحرب تقديراً صائباً ، يصبح عندئذ من حقها ان تحدد بصورة كاملة ما هي الاحداث ، وما هو اتجاه الاحداث التي تتلائم مع غايات الحرب . وبكلمة واحدة ، يغدو فن الحرب سياسة في اعلى مستوياته ، ولكنها سياسة تستخدم الحرب بدلاً من توجيه المذكرات » .

« ان السياسة لا تؤثر تأثيراً سيئاً على الحرب ، عندما تقدم لها النصيحة للسير بشكل معين ، الا اذا ارادت ان تحقق ببعض الوسائل والتدابير العسكرية اهدافاً وتأثيرات متناقضة مع هذه الوسائل والتدابير . » وكذلك ، فان السياسة اذا لم تفسر طبيعة الأحداث تفسيراً صحيحاً ، فانها تتبدى عند التنفيذ ضارة ومحملة بالمآسي . ولتفسير هذا الموضوع ، يستشهد كلاوزفيتز بالثورة الفرنسية ، فيقول :

« لقد كانت السياسة وحدها اهلاً لان تقدر بشكل صحيح القوى التي انتفضت وظهرت في فرنسا آنذاك ، كما ان العلاقات الجديدة للسياسة الاوروبية كانت في وضع يسمح لها بالتنبؤ بالآثار المرتبطة بالعناصر الكبرى للحرب ، كما كانت الشيء الوحيد القادر على اجراء تقدير سليم لحجم الوسائل الضرورية وضرورة استخدامها الافضل . ويمكن اذن ان نقول : ان انتصارات الثورة خلال عشرين عاماً ترجع قبل كل شيء الى السياسة الخاطئة التي حاولت الدول الاخرى مجابهتها بها .

وعلى العكس ، فلقد تم ذلك ، لأن سياسة الثورة الفرنسية « استخدمت وسائل وقوى جديدة ، سمحت لفرنسا بادارة الحرب بفاعلية لم تخطر على بـــال احد من قبـــل » .

« ان تحولات فن الحرب هي اذن نتيجة من نتائج تطور السياسة ولا يمكن اعتبـــارها مبرراً او حجة لتفريق الحرب عن السياسة ، بـــل انها على العكس الدليل الواضح القوي على ترابطهمـــا وتلاحمهما العميقين » .

« لذا فاننـــا نكرر القول : ان الحرب اداة من ادوات السياسة ، وهي تحمـــل بالضرورة طابع هذه السياسة . وعلينـــا ان نقيس كل الامور بالمقياس الذي تستخدمه السياسة . وليست ادارة الحرب في خطوطها العريضةولكنها سياسة تحمل السيف بدلاً من القلم ، دون ان يمنعها ذلك من ان تفكر بنـــاء على قوانينهـــا الخاصة . »

ومن ملاحظاته الاخرى عن السياسة والحرب ، التي ليست سوى تكرار لمسائـــل عالجها سابقاً ، تلقي الخلاصات التالية ضوء اضافياً على الموضوع :

« ولا تبدأ اية حرب من الحروب ، او يجب على الاقـــل ان لا تبدأ ... دون ان نجد جوابـــاً للسؤال التالي : مـــا هو الامر الذي نسعى للوصول إليه بواسطة الحرب ومن خلالها ؟ »[1] .

« وهكذا تتطلب النظرية منـــا ان نحدد في بداية كل حرب ، صفة هذه الحرب ، وشكلهـــا العام بنـــاء على الاحتمالات التي تقدمهـــا الشروط والعلاقـــات السياسية . وكلمـــا اقتربت صفات الحرب المحتملة من الشكل

---

(١) الكتاب الثامن — الفصل الثاني (الجزء الثالث — المرجع المذكور سابقاً)

المطلق للحرب ، كلمــا لامس التخطيط كتلة الدول المتحاربة وجذبهــا معه الى الدوامة ... وكلما ازداد ترابط الأحداث صار علينا ان نفكر بالخطوة الاخيرة قبل البدء بالخطوة الاولى » (الجزء الثالث — الكتاب الثامن — الفصل ٣)

« وللتحقيق من عدد الوسائل التي ينبغي تجنيدها للحرب ، لا بد لنــا من تقييم الهدف السياسي من وجهــة نظرنا ، ومن وجهة نظر العدو وتحديد قوة ووضع الدولة المعــادية بالاضافة الى قوة ووضع دولتنا . وعلينــا ان نعرف شخصية حكومة العدو وشعبه وقدراتهمــا ، والصفات المماثلة لحكومتنا وشعبنــا . كما ان علينا ان نأخذ بعين الاعتبــار العلاقات السياسية للدول الاخرى والاثر الذي ستحدثه الحرب في مختلف الدول .. » (الجزء الثالث — الكتاب الثامن — الفصل ٣ — فقرة « ب ») .

٥ — الاستراتيجية العليــا ومركز الثقــل

بمــا ان الاستراتيجية العليــا هي في اساسها تابعة للسياسة مهمــا كان شكلهــا ، فان الاستراتيجية العليــا ينبغي ان تسمح للسياسة بتحقيق غاياتها . وبنــاء على ذلك ، وكمــا قال كلاوزفيتز : « فالهدف السياسي ، ليس لهذا السبب مشرّعــاً ديكتاتورياً ، إذ عليه ان يتلاءم مع طبيعة الوسائط التي يملكها ، وهذا مــا يدعوه غالباً الى التحول تحولاً كاملاً » . ومع ذلك ، ومهما كانت التعديلات الطارئة ، تبقى السياسة « دوماً في المقام الاول من تقديراتنا » (في الحرب — الجزء الاول — الكتاب الاول — ص ٩٨ عربي) .

ويضيف كلاوزفيتز فيمــا يتعلق بهذا الاثر المتبادل قائلاً مــا يلي :

« ان اول واهم محاكمــات القائد العام ورجل الدولة كامنة في التقدير الصحيح لنوع الحرب التي يقومان بها ، حتى لا يعتبرانهــا غير ما هي عليه حقــاً . ولكي لا يحاولا ان يجعلا منهــا شيئاً لا تسمح به [illegible]

هذه هي اذن اول واوسع المسائل الاستراتيجية» (المرجع المذكور ص ٩٩–١٠٠)

وقد تابع كلاوزفيتز قائلاً ما يلي :

« اذن ليست الحرب مجرد حرباء تبدل طبيعتها في كل حالة ملموسة ، ولكنها ظاهرة عامة تخضع لعدة ميول تجعل منها ثالوثاً عجيباً مؤلفاً من : **العنف** الاساسي في عنصرها ، ويتمثل بالحقد والغضب اللذين نعتبرهما دفعة طبيعية عمياء ، **ومن لعبة الصدفة والاحتمالات** التي تجعل منها عملاً حراً من اعمال الروح . ومن طبيعتها **كتابع للسياسة واداة من ادواتها** ، تلك الطبيعة التي تجعلها مرتبطة بالاتفاق الفكري المجرد » . (المرجع المذكور ، ص ١٠٠) .

« ويهتم الشعب بالصفة الاولى ، وتهتم القيادة والجيش بالثانية ، اما الصفة الثالثة فهي امر يخص الحكومة » . (ص ١٠٠) .

وكتب في الصفحات التالية فيما بعد ما يلي :

« وللوصول الى نتائج ناجحة في الحرب ، او على الاقل في اهم اعمالها (الحملات والمعارك) ينبغي ان نتمتع بمعرفة عميقة بالمعطيات السياسية العليا للدولة . وهنا تنطبق ادارة الحرب على السياسة . ويصبح القائد الاعلى رجل دولة بالاضافة الى عمله ...

« ولكن ! ان على القائد الاعلى الذي اعتبرناه رجل دولة ان يبقى قائداً ، فهو يحيط من جهة بكل الظروف المادية المؤثرة عليه . كما يعرف من جهة اخرى الى أي مدى يستطيع الوصول بالوسائل التي يملكها ... .

« ولقد قال بونابرت في هذا الصدد : ان كثيراً من القرارات التي يطلب

من القائد الحربي اتخاذها ، لو تحولت الى مسائل رياضية لطرحت معضلات تستحق ان يدرسها نيوتن او اولر » . (١)

وبمفهوم الاستراتيجية العليا لكلاوزفيتز ، ترتبط نظريته بصورة وثيقة بمركز ثقل هذه النقطة الحساسة من الجهاز – العسكري والسياسي والاجتماعي الخ .. – للعدو ، هذه النقطة التي اذا هزمت ، او خسرها ، ينهار بسبب ذلك كل بنية طاقته القومية . وهذه النظرية هي اهم نظريات كلاوزفيتز لانها تتحكم بهدف الاستراتيجية العليا للحرب ، وقد كتب قائلا :

« ان اكتشاف **مراكز الثقل هذه CENTRES DE GRAVITE** للقوة المعادية ، وتمييز دوائر عملها هو احد الوظائف الرئيسية للحكم الاستراتيجي ».

ثم تابع كلاوزفيتز كلامه قائلاً : « لقد كان مركز ثقل الاسكندر الاكبر كامناً في جيشه ، كما هي الحالة بالنسبة لغوستاف ادولف ، وشارل الثاني عشر وفريدريك الكبير . وكان من الممكن انتهاء خدمة كل واحد منهم عن طريق تدمير قواته المقاتلة . وتشكل العاصمة مركز الثقل في البلاد المضطربة بسبب الاختلافات الداخلية . اما البلاد الصغيرة المرتبطة ببلاد كبيرة ، فان مركز ثقلها ممثل بجيش حلفائها . ويكون مركز ثقل الاتحاد ماثلاً في المصالح . ويتركز مركز الثقل في التمرد القومي (الثورة الشعبية) بالرأي العام ، وبشخص القائد الأعلى . ومن الضروري توجيه الضربة ضد هذه النقاط . » (الجزء الثالث – الكتاب الثامن – الفصل الرابع) .

« ويكمن مركز ثقل الدولة الفرنسية في قوتها المسلحة وفي باريس . وهزيمة

---

(١) راجع « في الحرب » الجزء الأول – الكتاب الأول – ص ١٣٤ – منشورات دار الكاتب العربي – القاهرة .

هذه القوات في معركة أو عدة معارك كبيرة ، واحتلال باريس وطرد القوات الفرنسية الى مــا وراء نهر اللوار ، يشكلان هدف الحلفــاء الحقيقي . وتكمن نقطة ضعف الدولة الفرنسية بين باريس وبروكسل (المرجع المذكور — الكتاب الثامن — الفصل ٩) .

وفي الحرب التي تتم ضد حلف من الدول ، كالحرب التي دارت بين نابليون وانجلترا ، اظهر كلاوزفيتز في دراسته بديهة رائعة ، اذ قال :

« فاذا مــا اتفقت دولتان او اكثر ضد دولة ثالثة ، لا يشكــل هذا الأمر من الناحية السياسية الا حرباً واحدة ... ويدفعنــا كل هذا الى صياغة المبدأ التالي : اذا كان تحطيم جميع الاعداء يتم بتدمير عدو واحد منهم . فان من الواجب اعتبــار هزيمة هذا العدو هدفاً للحرب ، لأن الضربة المسددة اليه تصيب في هذه الحالة مركز الثقــل المشترك للحرب كلهــا » (الجزء ٣ الكتاب الثامن — الفصل ٤) .

ولقد كان نابليون يعرف هذا الموضوع معرفة تامة . لذا رأيناه يلجــأ الى استخدام الحصار القاري ليفلس بريطانياً مــالياً ، وليجعلها عاجزة عن اقامة الاحلاف ضده لأنه كان يفتقر الى قوة بحرية كافية . تسمح له بالسيادة على المانش ، وتوجيه ضربة مباشرة لها .

٦ — مبــادىء الحرب

وعندما يحدد هدف الاستراتيجية العليا ، تصبح المشكلة الجديرة بالتقدير بعد ذلك فوراً هي معرفة المبــادىء التي ستتحكم بخطة الحرب وتنفيذهــا . وقد ذكر كلاوزفيتز مبدأين كــان يعتبر انهما مبدآن اساسيان ، وهما :

« المبدأ الاول هو التالي : اعــادة وزن القوة المعادية الى مراكز ثقل عديدة قدر الامكان ، والى مركز ثقــل واحد ، اذا امكن . ومن ثم تحديد الهجوم ضد مراكز الثقل هذه الى عدد من الهجمــات الرئيسية العديدة قدر الامكان ، والى هجوم رئيسي واحد ، اذا امكن . واخيراً ، ابقــاء كل الهجمات الثانوية تابعة لهــا بقدر الامكان . اي ان المبدأ الاول هو : **التجمع ما امكن**».

« والمبدأ الثــاني هو العمل **باكبر سرعة ممكنة** ، وعدم السماح للعدو بأية مهلة او تحول دون سبب وجيه جداً » (جزء ٣ — الكتاب الثامن) .

فاذا مــا تضافر هذان المبدآن ، فانهمــا يتيحان تشابهاً كبيراً مع حكمة نابليون القــائلة بما يلي : « في فن الحرب ، كمــا في علم الميكانيك ، يعتبر عامل الزمن اكبر العناصر بين الوزن والقوة » .

وقدم صاغ كلاوزفيتز ، بالاضافة الى هذين المبدأين ، سلسلة من المبــادىء العامة استنتجهــا من اهدافه الحربية الرئيسية الثلاثة وهي :

أ) « قهر الجيش المعادي وتدميره » .

ب) « الاستيلاء على موارد العدو المــادية ، وموارد وجود الجيش المعادي الاخرى» .

جـ) « كسب الرأي العــام » .

« ولتحقيق الهدف الاول ، يوجه القائد دومــاً عمليته الرئيسية ضد الجيش الرئيسي للعدو » [١] الذي ينبغي ان يهزم قبــل هزيمة الهدفين الآخرين .

---

(١) المذكور هنــا مع ما يليه مستقى من مذكرات اعدها كلاوزفيتز لتدريب الامير ولي العهــد ، الذي اضحى فيمــا بعد فريدريك غليوم الرابع ، في الاعوام : ١٨١٠ ، ١٨١١ ، ١٨١٢ ، غير ان هذه المذكرات لم تطبع كملحق للطبعة الفرنسية التي تعتبر من احدث واصدق الطبعات والتي نقل عنها الى العربية كتاب « في الحرب » منشورات دار الكاتب العربي — القــاهرة راجع مقدمة المعرّبين في اللغة العربية) . (المعرّب) .

« وللاستيلاء على الموارد المادية للعدو – يوجه القائد عملياته الى النقاط التي تتركز فيها هذه الموارد . وهي : العواصم ، المستودعات ، المواقع المحصنة الكبرى » . اما فيما يتعلق بالهدف الثالث « فمن الضروري كسب الرأي العام بواسطة انتصارات كبرى ، وبالاستيلاء على عاصمة العدو) .

وينصح كلاوزفيتز فيما بعد باتباع المبادىء التالية لتحقيق هذه الاهداف :

١) « استخدام **كل القوى** التي نملكها ، حتى **آخر مورد** من الموارد » .

٢) « حشد قواتنا قدر الامكان في المناطق التي ينبغي ان توجه منها الضربات الحاسمة » .

٣) « عدم تبديد الوقت والسرعة في التنفيذ .. وتخنق هذه السرعة في المهد كثيراً من تدابير العدو ، وتتيح لنا الافضلية في كسب الرأي العام .. وتعتبر المفاجأة اكثر مبادىء الانتصار فاعلية .. » [1] .

٤) « واخيراً متابعة كل نجاح نحصل عليه باكبر طاقة ممكنة . فمطاردة العدو المهزوم تستطيع لوحدها تحقيق النصر » .

« ان المبدأ الأول من هذه المبادىء هو قاعدة المبادىء الثلاثة الاخرى .. »

---

(١) وقد قال كلاوزفيتز ايضاً في صدد المفاجأة ما يلي : « ان المفاجأة هي اساس كل المشاريع بلا استثناء ، ولكن درجتها تختلف حسب طبيعة المشروع والظروف المرافقة له .. والمفاجأة بناء على ذلك وسيلة لاكتساب التفوق ، ولكن اثرها المعنوي يدفعنا الى اعتبارها مبدأ مستقلا » .. « ويعتبر السر والسرعة عاملا هذا الحاصل .. » راجع « في الحرب » الجزء الاول – ص ٢٥١ – منشورات دار الكاتب العربي – القاهرة . (المعرّب) .

« فعندما نتقيد بالمبدأ الاول ، يمكننا ان نعتمد على المبادىء الاخرى للتغلب على كل المخاطر ، دون تعريض وجودنا للخطر » .

وكثيراً ما يستشهد الكتّاب العسكريون بمبادىء الحرب ، غير انهم نادراً ما يعرفونها : حتى ان كلاوزفيتز ذاته يبدأ مؤلفه بالتصريح بأن « الحرب ليست شيئاً مختلفاً عن المبارزة على نطاق واسع » (الجزء الاول — ص ٨٠) ، ومن الغريب انه لم يحاول استنتاج هذه المبادىء من هذا التعريف . فلو انه اوضح وابرز شكل الحرب البسيط هذا معتمداً على مثل الملاكمة ، لا على مثل قتال الالتحام ، لكان في وسعه ان يلاحظ ان من واجب الملاكمين القيام بفعل اربعة اشياء : التفكير ، الاحتراس ، الحركة ، والضرب .

فمن واجب كل ملاكم قبل القتال ان يقرر افضل طريقة لطرح خصمه على الارض . وفضلاً عن انه مضطر الى تغيير تكتيكه اثناء القتال ، الا انه ينبغي عليه ان لا يغيب هدفه عن ذهنه . فعليه في البدء اتخاذ موقف دفاعي الى ان يتمكن من تقدير قوة خصمه . وعليه فيما بعد ان يتقدم نحوه ، مستعداً لصد ضرباته وتحاشيها . ولكي ينهي تقدمه ، عليه ان يتخذ المبادأة بالهجوم ليوجه الضربة القاضية الى خصمه مستفيداً من حركة ساقيه ، ومستعداً دوماً للصد وتحاشي الضربات . وبهذا الشكل نتوصل الى المبادىء الاربعة الاساسية التالية :

١) المحافظة على الهدف ، واستمرار التقدم نحوه .

٢) أمن العمل .

٣) الحركية .

٤) استخدام القوة الهجومية .

فاذا كان الملاكمان متمرسين ومدربين ، فانهما سيكتشفان قيمة ثلاثة من المبادىء المذكورة . وسيحافظان على قواهما ، بشكل لا يستنزفانها مسبقاً وقبل الاوان . وسيركزان ضرباتهما على النقطة التي اختاراها . الفك الايمن او الايسر لخصمهما الخ .. وسيحاول كل منهما مفاجأة خصمه ، اي ان كلاً منهما سينتهز فرصة عدم احتراس خصمه ، او يقوم كل منهما بتوجيه ضربة لا يتوقعها الآخر ، او لا يستطيع منعها او تحاشيها . وبهذا الشكل نصل الى المبادىء الاخرى التالية :

٥) الاقتصاد بالقوى .

٦) حشد القوى .

٧) المفاجـأة .

وسنرى ان هذه المبادىء السبعة تتشابه الى حد كبير مع المبادىء التي استنتجناها من الحرب النابوليونية .

* * *

٧ ــ الدفـاع ، هو الشكل الأقوى للحرب

عندما يمثل في ذهننا اصرار كلاوزفيتز على ان « الحرب عمل من اعمال العنف يتمدد الى نهاياته القصوى » . وقبوله بشكل الحرب التي خاضها نابليون كدليل على نظريته للحرب المطلقة . نجد ان مما يثبط العزيمة انه كرس اكثر من ربع كتابه « في الحرب » للدفاع . والح في مناسبات

عديدة على انه شكل من الحرب اقوى من الهجوم [١] .

وقبل ان نحلل نظريته ، قد يكون المجال متسعـاً للتأمل في ملاحظتين من ملاحظاته عن الهجوم . الملاحظة الاولى موجودة في الفصل التاسع من الكتاب السابع ، خطة الحرب ، الجزء الثالث ، وعنوانه : « خطة الحرب عندما يكون الهدف تدمير العدو » . يقول كلاوزفيتز مـا يلي : « ومن المهم جداً ان نتذكر بـأن الهجوم يجد ميزته الوحيدة تقريباً في المفاجأة الفعلية في بداية العمل . فالمفاجأة ، والعنف الذي لا يقاوَم ، هما جناحا الهجوم القويان . ونادراً مـا يستغنى الهجوم عن هذين الجناحين عندما يستهدف هزيمة العدو الكاملة » . وفي الفصل الخامس عشر – الكتاب السابع – الجزء الثالث « هجوم على مسرح حرب مع البحث عن حسم » – وهو عنوان مماثل تقريباً – ينقض هذه الحجة اذ يقول :

« النصر هو الغاية الاولى للهجوم . ولا يستطيع المهاجم ان يضع ضد الميزات التي يملكها المدافع سوى ميزة واحدة هي التفوق العددي ، بالاضافة الى تفوق

---

(١) للتأكد من صحة نظريـات كلاوزفيتز يمكن للقـارىء ان يقرأ التحليلات التي قـام بها ليدل هـارت في كتاب : « ايهما افضل – الدفاع ام الهجوم الرادع الشامل ! نظرة جديدة الى الحرب – منشورات الدار القومية للطباعة والنشر – عـام ١٩٦٤ ، وفيما يتعلق بالحرب المطلقة ، يمكن للقارىء ان يتأكد من صحة نظريـاته في مقدمة كتاب « في الحرب » منشورات دار الكاتب العربي – القاهرة – الجزء الاول – ص ٦٨ – ٦٩ – مقدمة بيير تافيـل ، فالحرب الحالية هي حرب مطلقة في عصرنا لانها تضع في الميزان كل التوازن الاجتماعي للدولة ، ولانهـا حرب شاملة يشمل الصراع فيهـا كل الابعاد . (المعرّب) .

معنوي بسيط ناجم عن شعور الجيش بانه المهاجم المتقدم ، علماً بان هذا الشعور يقدّر عادة باكثر مما يستحق . فهو لا يدوم مدة طويلة ولا يصمد امام الصعوبات الحقيقية . ونحن نفترض بلا ريب ان المدافع يتصرف بشكل اريب كالمهاجم دون ان يرتكب اخطاء اكثر منه .. ونحن نسرد هذه الملاحظة هنا لنستبعد الافكار الغامضة عن الهجوم الخاطف بالمفاجأة التي ترى في الهجوم منبعاً من منابع النصر الغنية ، علماً بان هذا الهجوم لا يتحقق الا في حالات استثنائية جداً »[١] .

فاذا كان الامر على هذا الشكل ، فان الاستنتاج الوحيد الممكن هو ان الدفاع عندئذ هو الشكل الاقوى للحرب .

وتتلخص نظريته بما يلي :

« ما هو غرض الدفاع ؟ **انه المحافظة** ، فالمحافظة على الشيء اسهل من اكتسابه ... وينتج عن ذلك ان الدفاع اسهل من الهجوم ، اذا افترضنا ان الوسائل متساوية لدى الطرفين .. ولكن بما ان للاعمال الدفاعية غرضاً سلبياً هو **المحافظة** ، وللاعمال الهجومية غرضاً هو الاحتلال . وبما ان **الاحتلال** يضاعف من مواردنا الحربية الخاصة ، على حين لا يفعل الاحتفاظ بالارض ذلك ، فان علينا ان نقول لكي نعبر عن فكرنا بدقة ووضوح ، ان الشكل الدفاعي للحرب هو بحد ذاته اكثر قوة من الشكل الهجومي .. » .

---

(١) في هذا النص الذي يورده فوللر للتعليق عليه : قدم اللذان ترجما « في الحرب » الى اللغة العربية تعليقاً على هذه الفقرة — راجع الجزء الثالث من الكتاب . (المعرّب)

« فاذا كان الدفاع هو الشكل الاقوى لادارة الحرب ، مع ان هدفه سلبي . فمن المسلم به اننا لا نلجأ اليه الا اذا اضطرنا ضعفنا الى ذلك، وان من الواجب التخلي عنه عندما نحس بكفاية قوتنا لتحقيق هدف ايجابي .. » (الجزء الثاني ـ الكتاب السادس ـ الفصل الاول) .

بناء على هذا فان الدفاع الذي يدعو اليه كلاوزفيتز هو هجوم مؤجل ، او هو ما نسميه « بالدفاع الهجومي » الذي يشكل الاستنزاف والانهاك مرحلته الاولى ، اما مرحلته الثانية فهي الهجوم ـ المضاد . وكما يقول كلاوزفيتز : « فليس الشكل الدفاعي للحرب اذن درعاً بسيطاً ، ولكنه درع مؤلف من ضربات توجه بمهارة .. » (الكتاب السادس ـ الفصل الاول ـ الجزء الثالث) وكما يقول ايضاً : « لا يمكن تصور اي دفاع بدون ضربة مضادة هجومية ..» (الكتاب الاول ـ الفصل ٢ ـ الجزء الاول) .

ولكن الدفاع يمكن ان يكون كذلك ، لأن كلاوزفيتز في(الفصل الثاني من الكتاب الاول ـ الجزء الاول ـ ص ١٠٧) قبل ان يتوصل الى هذا الاستنتاج ، كتب ما يلي :

« والنتيجة : اذا استطاعت النية السلبية تجميع كل الموارد بغية المقاومة البحتة ، وتحقيق التفوق في القتال . وكان التفوق كبيراً بشكل كاف لموازنة التفوق المحتمل للعدو ، فان استمرار المعركة كاف وحده لتبديد قوى العدو تدريجياً ، حتى يصبح هدفه السياسي غير ملائم لجهوده ، عندها يضطر الى التخلي عن القتال . وهكذا فاننا نرى ان طريقة انهاك العدو تشمل الحالات المتعددة التي يضطر فيها الضعيف لمجابهة القوي » .

ولا نعرف هنا بالتأكيد فيما اذا كان كلاوزفيتز يفسر الموضوع ويعلق

عليه فلسفياً ، ام انه يقصد تقديم اقتراح عملي . ولكن يبدو من المحتوى ، انه يقدم اقتراحاً عملياً .

ان ما يزعج في كتابات كلاوزفيتز هو ان اسلوبه في التفكير الفلسفي — وعادته في تحويل العمليات الى « اشياء في حد ذاتها — توقعه في الخطأ باستمرار . فلا الدفاع ، ولا الهجوم هو الاقوى او الاضعف من ناحية محتواه . فهما عمليتان متكاملتان ، وما يلائم بصورة افضل في مناسبة من المناسبات متوقف على الشروط المرافقة لهذه المناسبة . فاحياناً يكون الهجوم هو الافضل. كما كان مع نابليون ، لأن عبقريته المقترنة بافكاره العتيقة عن خصومه ، هي التي تفضله . واحياناً يكون الدفاع السلبي هو الافضل ، كما كان بالنسبة لـ ويلينغتون في توريس— فدراس . واحياناً كان الدفاع — الهجومي بالنسبة لـ ويلينغتون امراً يقتضي التقيد به ، وبرهن ويلينغتون في اسبانيا انه كان رائعاً في اتباع هذا الاسلوب . وليست الفلسفة اساساً لكل هذه العمليات الحربية . ان الاساس هو الحس السليم ، كما تبرهن عليه بوضوح المبادىء السبعة للحرب .

* * *

٨ — المعركة الحاسمة

لا نجد لدى كلاوزفيتز في مفهوم الحرب الحاسمة ، او مفهوم المعركة الكبرى السخافات التي نجدها حول اكثر اشكال الحرب قوة او ضعفاً ، وانما نجده يتحدث عنها بمزيد من الثقة .

« الاشتباك هو النشاط الحربي عينه ، وكل ما عدا ذلك اضافات تعمل لمساعدته » (الجزء الاول — ص ٢٩٢) .

« وبمـا ان المعركة روح الحرب ، وبمـا ان المعركة الرئيسية هي قتال الجيوش الرئيسية فان علينـا ان نعتبر المعركة الرئيسية مركز ثقل الحرب .. » (الجزء الاول — ص ٣٢٢) .

« .. إن التدمير المباشر للقوات العسكرية المعـادية هو في كل مكان العامل السائد . وسنعمـل على توضيح هذه الأهمية السائدة لمبدأ التدمير ، لا توضيح شيء غيرها » .

« ان التفوق العددي في الاشتبـاك ليس الا عاملا من العوامل التي تسبب النصر » — (الجزء الاول — ص ٢٤٦) . اما العوامل الاخرى فهي : « الهجوم التطويقي » (الجزء الثاني — الكتاب السادس — الفصل ٦) و « مناورة الالتفاف او التطويق » (الجزء الثالث — الكتاب السابع ، الفصل الاول) و « المفاجأة » (الجزء الاول — ص ٢٥١) . ان هذه الوسائل الثلاث التكميلية ليست « ممكنة بصورة عامة الا للمعسكر الذي يملك المبادأة ، اي للمهاجم » (الجزء الثاني) .

وقد اشار كلاوزفيتز بصواب الى ان : « المعركة الرئيسية هي الحل الدامي . ولكنهـا ليست مجرد قتـل متبادل . وينصبّ تأثيرها على قتل الشجاعة اكثر من ابـادة مقاتلي العدو » (الجزء الاول — الكتاب الرابع — ص ٣٣٥) [1] ، لأن الخسائر المعنوية في الحرب هي السبب الرئيسي للوصول الى النتيجة الحاسمة وبعد هذه النتيجة تتزايد الخسائر حتى تصـل الى نقطة الذروة في نهاية العمل كله » (الجزء الاول — ص ٢٩٩) ، وبعد ذلك « لا يمكن التحدث عن راحه

---

(١) يتابع كلاوزفيتز هنـا فيقول : « ولكن هذا لا يمنع الدم من ان يكون ثمن المعركة . ويـأخذ القتال في المعركة من كلمة القتل صفاته ، كما يأخذ اسمه ، ويتراجع الجانب الانساني في القائد امام هذه الحقيقة مرتعداً » (المعرّب)

الخ ، الخ . . » ، بـل عن المطاردة ، وعن توجيه ضربـات جديدة » (الجزء الثالث ـ الكتاب الثامن) .

* * *

٩ ـ حرب الشعب

لقد اشرنا ، في المقطع الرابع ، من الفصل الثاني لهذا الكتاب ان العامل الرئيسي للحرب لدى القبـائل البدائية ، كان الوفاق والانسجام بين افراد القبيلة الواحدة ، ليستطيعوا توجيه اقصى جهد حربي الى الخـارج . ويبقى هذا العامل بصورة طبيعية صالحـاً للدول المتمدينة . وفي خـلال عصر الملكيات المطلقة ، كان الوفـاق سائداً بصورة مطلقة ، نظرياً على الاقل ، لدى السكان المدنيين ، لانهم كانوا مستبعدين ، استبعاداً تامـاً ، عما تسببه الحرب من دمار وخراب . ولكن مع ظهور الحروب النابوليونية (التي تجسّد الحرب المطلقة الكلاوزفيتزية) ، ثـار السكان المدنيون [١] ضد جيوش نابليون ، لان هدفه كان الهزيمة التامة لخصومه ، ولان جيوشه الفرنسية كانت تعيش على حساب الموارد المحلية للبلاد المفتوحة . وبهذا الشكـل اضيفت جبهة داخلية الى الجبهة الخارجية ، واضطر المهاجم الى القضاء على كلتـا الجبهتين . وقد اصبحت هذه الجبهة الاضافية ، والتي سنتحدث عنهـا فيما بعد ، تتمتع في نهاية المطاف بنفس اهميـة الجبهة الخارجية . ثم غدت فيمـا بعد اكثر اهمية من الجبهة الخارجية ، المؤلفة من ساحة المعركة التقليدية للجيوش المتحاربة .

وكان كلاوزفيتز **أول من ذكر اهمية الجبهة الداخلية في زمنه**.واشار ايضاً

---

(١) راجع :

Général Baron d'Odeleben: Relation circonstanciée de la compagne de 1813 en saxe, édition Française (1817). Vol. I, p. 167.

الى انه فضلاً عن ان اثر مواطن منعزل على سير الحرب ، اثر لا يكاد يكون واضحاً ، غير ان « التأثير الكامل لسكان بلد من البلدان على الحرب تأثير يحمل معنى كبيراً ، حتى ولو لم يكن هذا التأثير ممثلاً في الواقع بثورة شعبية ... وتسير الامور بشكل افضل دائماً عندما نقاتل داخل بلادنا شريطة ان لا يتعارض هذا القتال مع عواطف المواطنين ، ويلقى تأييدهم » و « التعاون الاختياري للسكان مهم جداً ايضاً » (الجزء الثاني ـ الكتاب السادس ـ الفصل ٦) .

وبالتبادل ، ينطبق هذا الموقف ، في بلاد معادية ، على المهاجم الفاتح . وقد اعتمد كلاوزفيتز لابراز هذا الوضع ، على اسبانيا كمثل من الامثلة « ... حيث قاد الشعب الحرب بنفسه ، نفهم ان الموضوع لا يتعلق ببساطة بشكل حاد من التعاون الشعبي ، بل بقوة جديدة حقاً » (المرجع المذكور سابقاً ـ ف ٦) ، وهي ملاحظة تتنبأ بالمستقبل .

« ونحن نرى انه لا يجوز ان تتركز الحرب الشعبية ، في اي مكان كجسم صلب لانها اداة ذات طبيعة بخارية او سائلة . فاذا ما تجمدت في منطقة من المناطق استطاع العدو ارسال قوة ملائمة ضد هذه النواة ليقوم بتحطيمها واخذ عدد من الاسرى . وتشتمل افضل الشروط ، واكثر اشكال الحرب الشعبية فاعلية في فرز مفارز صغيرة من الجيش لدعمها . فبدون دعم بعض القطعات النظامية التي تشجع السكان المسلحين ، تفتقر مثل هذه الحرب بصورة عامة الى الزخم والثقة بالنفس الضروريان لحمل السلاح .. » .

« وتدل التجربة على ان استخدام قطعات نظامية يفوق الحد اللازم في منطقة من المناطق ، يفقد الحرب الشعبية قوتها وفاعليتها . ويعود السبب في ذلك الى ان كثيراً من القطعات المعادية تجتذبها المنطقة بهذا الشكل » .

« ان وجود قطعات كبرى يتطلب ايضاً مساهمة لاحد لهـا من قبل الشعب في مجـال تزويد هذه القطعات بكل ما تحتاج اليه من ايواء ، ونقل ، ومؤن الخ (الجزء الثاني — الكتاب السادس — الفصل ٢٦) .

وتعتبر ملاحظات كلاوزفيتز عن روسيا ملاحظات هـامة جداً ، ولا تحتل اهميتهـا في اي يوم اكثر من ايـامنا هذه . يقول كلاوزفيتز : **ان روسيا بلد لا يمكن التغلب عليه بقوة السلاح .«فمثل هذا البلد لا يمكن اخضاعه الا بنقاط ضعفه الخاصة ، وبآثـار ونتائج الخلافات الداخلية فيه . فلكي تضرب هذه النقاط الحساسة من كيانه السياسي لا بد من زعزعته وخلق الاضطراب فيه حتى المركز** » (الجزء الثالث — الكتاب الثامن — الفصل ٩) وبعبارات اخرى ، لا يمكن التغلب على روسيا وقهرها الا على جبهتهـا الداخلية — وهذا يعني الانتصار بواسطة الثورة ، ولقد كان كلاوزفيتز أول من وضع هذه النظرية .

١٠ — ازدراء كلاوزفيتز للحرب النابوليونية

عندما يفكر المرء ان كلاوزفيتز لم يعش حروب نابليون من اولهـا الى آخرها فحسب ، بـل انه ساهم ايضاً في حملات ١٨٠٦ ، ١٨١٢ ، ١٨١٣ و ١٨١٥ ، نجد من المدهش انه لم يلتفت كثيراً الى قدرات نابليون وكفاءاته كقائد . ومن المدهش ايضاً ان يعترف بأن نابليون كان من اكبر الدعـاة للهجوم ، اذ كتب مـا يلي عنه : « ان بونابرت لم يدخل الحرب مرة دون ان يفكر بأن عليه ان يهزم خصمه في المعركة الاولى » (الجزء الاول — الكتاب الرابع — ص ٣٣٧) ومع ذلك استمر في الدعوة والتأكيد الى ان الدفاع هو شكل الحرب الاقوى . ومن المدهش ايضاً انه ، في نقاشه الرائع لمركز الثقل ، لا يشير الى كفـاح نابليون ضد ستة تحالفات قامت بهـا انجلترا ، وفشله

النهـــائي لربح السلسلة الطويلة من حروبه ، بسبب عجزه عن ضرب مركز الثقل المشترك للحرب كلهـــا .

ومع ان كلاوزفيتز يشير الى « ان نابليون برهن عن حكمته في هذه التدابير « تدابير الأمن » على مؤخرات جيوشه ، ولهذا كان يتعرض في اجرأ عملياته الى اخطار كانت في الحقيقة اقل مما تبدو في الظاهر » (الجزء الثاني ــ الكتاب الخامس ــ الفصل ٧) . لكنه لم يدرك السبب الرئيسي لذلك . فقد كان السبب هو الحصول على حرية حركة كاملة ، والابتعاد عن خطوط مواصلاته اذا رغب بذلك . فقد كـــان نابليون يقبل خسارتها موقتاً بارادته طيلة الوقت الذي تبقى فيه قاعدته متينة .

فبدلاً من الأدعاء بان « اعلى قوانين الاستراتيجية وابسطهـــا هو قانون **حشد القوات وتركيزها** .. وينبغي ان لا ينفصـــل جزء من هذه القوات عن الجيش الرئيسي الا اذا كان هنـــاك دافع هام وعاجل يجبره على ذلك.وسنحافظ على هذا القياس الذي نعتبره دليلاً جديراً بالثقة » [١] ، كمـــا فعل كلاوزفيتز ، كان نابليون قد حاول مراراً نصب كمين لخصمه بتجزئة جيشه . وبدلا من ان يحتفظ به محتشداً لحمـــاية خطوط مواصلاته ، كما كان من الممكن ان يفعل كلاوزفيتز ، نراه قد وزعه الى ثلاثة ارتـــال على الاقل ، متباعدة بعضها عن بعض مسافة كافية ،وتشكل ما كان يسمى «الفوج المربع Bataillon Carré » بسبب توزيع القوات على شكل معين . وكان كل رتل « فوج » من الارتال قوياً بمـــا يكفي للدفاع عن نفسه ، لو ان الخصم هاجمه ، الى ان يصل رتل من الارتـــال الاخرى على الاقل لنجدته ، على حين كان رتل آخر على الاقل يناور على جناح العدو . ويصبح الرتل الذي يتصادم مع الخصم قبـــل غيره

(١) « في الحرب » ــ الجزء الاول ــ ص ٢٥٩ .

من الارتال طليعة الارتـــال الاخرى [١] . وان مـــا يثبت ان كلاوزفيتز ، الذي اشترك في حملة يينا – وهي اروع الامثلة التي ضربهـــا – يجهل هذه الطريقة المرنة في حشد القوات جهلاً تامـــاً ، هو ان هذه الطريقة مختلفة عن طريقته الخاصة الجامدة التي كتب عنهـــا قائلاً : « .. لذا ليست الاشتباكات الدامية التي تقوم بها المقدمة (الطليعة Avant - Garde) (قبل المعركة الا شراً لا بد منه .. » (الجزء الاول – ص ٣١٥) .

ولكن أهم رأي خاطيء ومضطرب ، من بين آراء كلاوزفيتز المضطربة ، هو انه لم يفهم ابداً ان السلم ، لا الانتصار هو الهدف الحقيقي للحرب . وبناء على هذا ينبغي ان يكون السلم الفكرة التي تتحكم بالسياسة ، وان النصر ليس الا الوسيلة للوصول اليه . وهو لا يقدّر في اي مكان من كتابه اثر العنف على السلم المحتمـــل . فالواقع ان كلمة « السلم » تتكرر عدة مرات في **الحرب** . فقد اكتشف كلاوزفيتز في نابليون خبير نظرية الحرب المطلقة التي يتكلم عنها. ومع ذلك ، الى اين قـــادت الحرب المطلقة ، بأقصى عنفهـــا ، نابليون ؟ لقد قادته الى سانت – هيلانة بدلا من ان تقوده الى السلم الذي كان يطمح اليه . فقد انتهى العنف الموجه الى حدوده القصوى ومُنّي بالاخفاق التام . ولقد كانت نصيحـــة مونتسكيو افضل بكثير : « يستند حق الافراد بصورة طبيعية على مبدأ ينبغي على مختلف الامم بموجبه ان تفعل في السلم ازاء بعضها بعضـــاً افضل ما يمكن ، واقـــل ضرر ممكن في الحرب ، دون ان تسيء الى مصالحهـــا الحقيقية » [٢] ، اذا اردنا ان يكون السلم شيئـــاً اكثر من ايقاف القتال بصورة مؤقتة . »

---

(١) لوصف الفوج المربع في حملة يينـــا – يمكن للقارىء ان يعود الى كتاب :

MAJOR géneral FULLER: Decisive Battles of the Western World (1955) Vol. II, pp. 423 - 426.

(٢) ذكرها :

GUGLIELMO FERRERO: Reconstruction TALLEYRAND à Vienne (1940) p. 38.

الفصل الخامس

آثار الثورة الصناعية

١ ـ انعكاسات الثورة على الحضارة

يؤثر عقل الانسان وعواطفه على ثقافته ، ودينه ، ومُثله العليا وفنونه . كما ان نشاطاته البدنية تحدد حضارته ، وطراز حياته . وقد قامت الحضارة العالمية ، خلال آلاف السنين وحتى القرن الثامن عشر الميلادي ، على الزراعة ، فيما عدا آثار مجتمعات الصيادين والرعاة القديمة التي تاهت في اراض بعيدة . وكان القسم الأعظم من الأفراد يعيش في قرى ، وبقي سكان المدن والعواصم ، والمراكز المتحضرة الى جانب الأراضي المزروعة التي كانت تحيط بهم . ونجمت القوة والشرط السياسي والاجتماعي عن هذه الاراضي . وكان الأسياد الاقطاعيون ، وملاك الارض الصغار هم الذين يتحكمون بالارض ، على حين كان الفلاحون والارقاء يزرعونها ، ويشكلون ، مع سكان المدن مجتمعاً فعالاً ومنظماً .

وفجأة ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ظهرت الآلة البخارية ، كاعصار لا يمكن التنبؤ به . وبهذا الشكل برز الحصان ـ البخاري لهذه الآلة ـ اذ كانوا يقيسون قوتها على اساس هذا المعيار الذي يعادل قوة خمسة عشر رجلاً . وهكذا ظهرت اذن الثورة الصناعية . وخرج الانسان من مرحلته الزاحفة على سطح الارض ، ليندفع ، كتنين آلي في كون صناعي ،

كان الوصول اليه في ذلك الوقت أمراً مؤكداً ، وفي نمط من الحياة فرُض عليه فجأة ، وكانت له آثار على السلم والحرب ، كالآثار التي يتركها الفيضان على الارض .

وتجاوزت هذه الثورة كل الثورات التي سبقتها ، بما فيها ثورات الانبياء ، الذين كان نفوذهم الهائل والكبير قد اقتصر على نطاق محدود . وقبل ان يُنهي القرن التاسع عشر مساره ، كانت الدول التي شملتها الثورة الصناعية تسود العالم بأسره ، وتقتطع ضريبتها من دولها التي لم تُصنّع بعد . وقد كتب لويس مومفورد ما يلي : « اصبح علم الميكانيك الدين الجديد الذي اعطى العالم مسيحاً جديداً هو : الآلة »(١) .

وقبل ان تتم هذه الثورة العالمية ، كان صنع المواد العادية التي تستخدم بصورة عامة ، ينفّذ اساساً في المساكن وفي الورش الصغيرة التابعة لعمال يعملون في منازلهم ، ويستخدمون القوة الميكانيكية من الماء والهواء فقط . ولكن ما ان بدأ المصنع في منافسة العمل المنزلي حتى جذب الفحم كالمغناطيس الصناعات الوليدة نحوه . وقد اثار هذا التحول وسببّ نهضة البلاد السوداء في انجلترا ، والكلايد في اسكتلنده ، والروهر في المانيا ، ومنطقة ليل في فرنسا ، بكل ما تملكه من كتل جيولوجية ثمينة ، لتحول هذه المدن الى مدن صناعية كبرى ، بدّلت الحضارة الزراعية السابقة بمدنية حضرية . وعندما اصبحت المدن مراكز للأعمال التجارية ، هبطت اهميتها الزراعية بالتدريج .

---

(١) LEWIS MUMFORD: TECHNICS and CIVILIZATION (1934) pp. 45 - 58.

ومنذ عــام ١٨٠٤ ، تنبــأ ويليام بليك [١] بالمستقبل ، فحفر على لوحته الزيتية LAOCOON مــا يلي : « حيثمـــا تقوم الآراء على المال ، لا يقوم الفن » ، ثم حفر تحت هذه الكتابة قائلاً : « عندما ينحط الفن ، ويختفي الخيال ، تسيطر الحرب على الأمم » [٢] .

وفي وقت قصير جداً ، حلت الآلات محــل العمل اليدوي ، وجندت العمال باعداد كبيرة في المصانع التي شبهها لويس مومفورد بالثكنات [٣] . فقد مكّنت هذه الآلات من الانتاج الكبير في وحدات كبرى ، ولم تحرم العمـــال الذين كانوا يعملون في منازلهم من اعمالهم فحسب ، بل انهـــا حرمتهم من فنهم في الوقت ذاته لان المـــاهر في المصنع الآلي هو العامل الحقيقي ، امـــا العامل المتخصص فليس الا مساعده الذي يعد له العمل .

وبدأت هذه التبديلات الجذرية للحضارة الغربية تؤصّل جذورها بعد ان سجل الاسكتلندي جيمس واط (١٧٣٦ — ١٨١٩) ، الذي كان صانعاً للآلات ، براءة اختراع آلته البخارية المحسّنة في عام ١٧٦٩ . وبعد اثني

---

(١) ويليام بليك ، شاعر ورسام انجليزي (رسم بعض الصور الاسطورية) (١٧٥٧ — ١٨٢٧) .... **اللاكون** لوحة زيتية لأسقف طرواده وولديه وحولهم الحيتان تحاول ابتلاعهم . (المعرّب)

(٢)
The POETICAL WORKS OF WILLIAM BLAKE (1906) Vol. I, p. 433.

(٣) كان مومفورد يتبنى الرأي القائل بأن « الجيش ، في الواقع ، هو الشكل المثالي الذي يجب ان يتجه اليه نظام صناعي آلي صرف (المرجع المذكور ص ٨٩) .

عشر عامـاً كتب ماتيو بولطون MATTEW BOULTON ، وهو مهندس ثري ، شارك واط ، الى واط يقول : ان « سكان لندن وبرمنغهام ومنشستر قد جن جنونهم بالمصانع البخارية » [١] . وفي عـام ١٨١٨ ، كان اللورد كوشران الذي اصبح فيمـا بعد الكونت دندونالد العاشر يقول في خطاب له في مجلس العموم : « لولا استخدام الآلات في الوقت المناسب ، لكان من الممكن في الحرب الاخيرة ، ان تصل انجلترا الى « الخراب التام » » [٢] . وفي عام ١٨٢٤ ، كتب ستندهال ما يلي : « كم من التغيرات قد حدثت بين عام ١٧٨٥ و ١٨٢٤ ! ففي خلال الفي سنة من التاريخ المسجـل ، لم تحدث ثورة في العادات ، والافكار والمعتقدات ، بمثـل هذه الفورية » [٣] . وفي عام ١٨٣٠ ، كانت بريطانيا قد اصبحت « ورشة عالمية » كمـا خشي نابليون . فقد فشل في كفاحه ضد قوتها التجارية بالرغم من عبقريته ، لأن الآلة اثبتت انها اقوى من السيف ، فضلاً عن انها كانت ما تزال في المهد . وهذا الرأي يؤكده دندونالد ويدعمه بالوقائع .

* * *

---

(١)
Cité dans: EUROPEAN CIVILIZATION, its origins and DEVELOPMENT (EDWARD EYRE, éditeur, 1937) Vol. 5. p. 305.

(٢)
LORD COCHRANE: The autobiography of a Seaman (1890) p. 450.

(٣) ذكر ذلك جون نيف في :
WAR and HUMAN PROGRESS
JOHN U. NEF (1950) p. 290.

٢ ـ انعكاسات الثورة على المجتمع

كان اهم انعكاس اجتماعي للثورة الصناعية هو ظهور طبقة من العمال المأجورين الدائمين وهم بروليتاريا المنظرين الاشتراكيين . وقد كان العمال المأجورون الدائميون معروفين في العمل المنزلي كأفراد ، لا كطبقة ، لانهم لم يكونوا يعيشون جماعات . وكان في وسعهم ان يثرثروا ، وان يغنوا وان يصرفوا كما يحلوا لهم ، ولا يواجهون مضايقات رؤساء الفرق العمالية لانهم كانوا اسياد انفسهم . وكانت الاجور التي يتقاضونها اجوراً منخفضة مثلها مثل اجور عمال الصناعة ، وكانت ساعات عملهم اكثر . ومع ذلك فقد كانوا احراراً لهم مكانتهم ، حتى ولو كانت مكانة متواضعة في مجتمع عصرهم وعلى حين كان عمال الصناعة ينتمون الى زمالة مشتتة ، تمنعهم من الترابط والوعي الطبقي ، نراهم بعد تأسيس المصانع مجمّعين في مجموعات داخل القرى والمدن التي تأسست فيها المصانع معزولين تماماً عن الاثر الصالح لكل شكل من اشكال الثقافة . فقد حكم عليهم بان يعيشوا داخل بيوت غير صحيّة ، وفي بيئة قذرة . وكان سير حياتهم هوسير العمل الذي لا يتوقف ، والشغل المتكرر والرتيب . وكانوا يخضعون لانضباط دقيق وصارم في المصانع .

كان الفقر الذي يعانيه العامل في هذا العصر أحد « التناقضات » في النظام الرأسمالي . فالانتاج الضخم يتطلب كمتمم له استهلاكاً متطابقاً معه . ويتطلب الاستهلاك بدوره قوة شرائية كافية . وكلما قلّ النقد المتداول ، قلّ الشراء . وبما ان اجر العامل كان لا يكاد يسمح له بالعيش مع عائلته ، فقد كان لا يملك شروى نقير يسمح له بان يكون من زبائن السوق الاستهلاكية . وبناء على ذلك ، كان من الواجب دفع اجور اعلى للعمال ، وزيادة اجورهم لزيادة استهلاك السوق الداخلي .

ولكن السوق الاجنبية كانت تأتي في المقام الاول ، في الازمان الاولى من التصنيع . وكانت المنافسة بين الصناعيين عنيفة جداً ، حتى انهم كانوا مضطرين لاعادة استثمار الجزء الاكبر من ارباحهم في صناعاتهم ، لكي يستطيعوا الصمود في حلبة المنافسة . وهكذا كانت زيادة الاجور تعني بالنسبة اليهم ربحاً اقل ، وكان الربح القليل يؤدي بالنسبة اليهم الى التقهقر في السباق على المنافسة . وقد وصف اندرو اور URE ، المدافع الاول عن الرأسمالية في العصر الفيكتوري هذا الصراع التنافسي قائلاً ما يلي :

« يتميز العصر الحاضر – كان هذا في عام ١٨٣٥ – عن العصور السابقة بحماس لاقامة المشروعات العالمية في الفنون وفي الصناعة . وقد اقتنع المواطنون اخيراً ان الحرب لعبة يخسر فيها الجميع دائماً ، فحولوا سيوفهم وبنادقهم الى آلات في المصانع . وهم يقاتلون اليوم بعضهم بعضاً ، في صراع تجاري خال من الدماء ، غير انه صراع رائع . فهم لن يرسلوا بعد الآن قطعات للقتال فوق ساحات معارك بعيدة ، بل سيرسلون النسيج الذي ينافس نسيج خصومهم المسلحين السابقين ، ويستولون على سوق اجنبي . ان نموذج العداء الجديد هو ان يقلل الطرف المهاجم من موارد خصمه ، وذلك بان يبيع في السوق الخارجية مواده المصنوعة الخاصة بارخص الاسعار . وكان هذا الطراز العدائي الجديد يخضع اعصاب وعضلات السكان لاختبار قاس » (١) .

وعندما كانت المصانع تنتج بضائعها محققة ارباحاً مخصصة لتحمل

(١)
ANDRE URE: The PHILOSOPHY of MANUFACTURES, or an Exposition of the Scientific, Moral and Commercial Economy of the Factory System of Great Britain (3° édition, 1816), p. V.

– المقطع الاول من المقدمة –

تكاليف صنع بضائع أخرى ، الامر الذي كان يسمح لها بالتغلب على منافسيها ، كانت معنويات العمال تنحط في احيائهم القذرة ، التي اصبحت مركزاً للاستياء والحقد الطبقي . فكانت رؤيتهم للآخرين يعيشون في الرفاه والرخاء ورغد العيش تثير فيهم حنقاً صامتاً ضد المجتمع . وهكذا نشأت بتطور الصناعة ونموها ، طبقة المستائين ، وهي طبقة كان عداؤها للنظام الاجتماعي القائم يزداد ، هذا النظام الذي كانت مؤسساته التي تفرعت عنه كمؤسسات العصر الزراعي غير مهيأة ولا معدة لتمثيل وظائف العصر الصناعي ولاعداد الشروط الاجتماعية اللازمة لحياة الطبقة العاملة .

* * *

٣ ـ كارل ماركس والصراع الطبقي

زجت الثورة الصناعية بكثير من المصلحين الاجتماعيين ، والثوريين ، في النضال . وكان اهم هؤلاء الثوريين من الناحية التاريخية ، هنريخ كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) . ولد كارل ماركس من ابوين يهوديين ، في تريف ، بتاريخ ٥ مايو (مايس) ١٨١٨ . وبعد ست سنوات من ولادته ، تحولت عائلته الى المذهب البروتستانتي . وعندما وصل الى مرحلة النضج ، عمل في الصحافة ، واصبح في عام ١٨٤٢ ، محرراً في الصحيفة الراديكالية RHEINISCHE ZEITUNG ، التي الغيت في عام ١٨٤٣ بسبب عنف اتجاهاتها وميولها . والتقى كارل ماركس بعد فترة بآنجلس (١٨٢٠ — ١٨٩٥) ، وهو ابن احد الاثرياء ، الذي كان يملك مصنعاً لغزل القطن ، على مقربة من منشستر . وقد توطدت بينهما صداقة دامت طيلة حياتهما . وكانت هذه الصداقة نعمة على ماركس ، لان آنجلس لم

يساهم معه في كتاباته فحسب ، بـل انه ايضاً خصص له مبلغ ٣٥٠ جنيه استرليني عندما مـات ابوه وورث املاكه . ولولا هذا الدخـل الذي خصصه له آنجلس ، لعـاش ماركس حياة بروليتاري لم تكن لتناسبه وتلائمه ابداً . وفي عـام ١٨٤٧ نشرا معاً البيان الشيوعي . وكان يعتبر اعلاناً عنيفـاً وقاسياً ، وبقي حتى الآن انجيـل الشيوعية المتزمتة .

وقد اقـام ماركس في لندن ، بعد نفيه من بروسيا في عـام ١٨٤٩ ، وقضى مـا تبقى من حياته فيهـا ، وكتب كثيراً من المؤلفات يعتبر اهمهـا كتاب « **الرأسمال** » الذي لم ينهيه ابداً ، ولم يراجعه كمـا فعل كلاوزفيتز في كتابه « **في الحرب** » . وقد ظهر المجلد الاول منه في عام ١٨٧٦ . ثم نشر المجلدان الآخران بعد وفاته التي حدثت في ١٤ من مـارس (آذار) ١٨٨٣ ، اذ نسقه آنجلس وطبعه طبقـاً لمذكراته . ثم طبعت المجلدات كلهـا في عام ١٨٨٣ — ١٨٨٥ و ١٨٩٠ — ١٨٩٤ .

ويدين ماركس ، كمفكر ، الى هيجـل بالكثير . اذ انه طبق الطريقة الديـالكتيكية السقراطية التي استخدمهـا في فلسفته للتاريخ . وكانت هذه الطريقة النقدية التي تعتبر نوعـاً من الاسئلة والاجوبة ، تستهدف ابراز التناقضات الموجودة في الموضوع المناقش . ولكن ، على حين كان سقراط يعتبر التناقضات حواجز ينبغي تجـاوزها والتغلب عليها ، كان هيجل يرى ان لهـا اهمية اساسية . وهكذا ، وكمـا كان يدعي ، لم يكن من الممكن معرفة الحقيقة بالتقرب منهـا الا في صراع التناقضات . وبناء على هذا كانت طريقته الجدلية (الديالكتيكية) مستندة الى المسلمة THÉSE التي تؤكد فكرة من الافكار ، والى النقيضة التي تنكرها ، وعلى التحليل الذي يشمل كل ما يتبدى حقيقياً في الاثنتين . ولكن ، ، عندما يأخذ التركيب مكان المسلمة ،

يصبح بدوره مسلمة ، تصطدم بنقيضه ، الامر الذي يؤدي من جديد الى تركيب جديد وهكذا بالتتـــالي ، على انساق ، الى ان نصل الى الحقيقة المطلقة (الله) . والخلاصة ان هذه الطريقة تغربل حبوب الحقيقة وتفصلهـــا عن حبوب الكذب .

وقد عكس ماركس جدلية هيجـــل ، كما قالها بنفسه . فبدلا من ان يصعد نحو المطلق ، انطلق ممـــا كان يعتبره بديهية من البديهيات ، اي انه انطلق من اعتبـــار الكون حقيقة مادية اساساً . وقد اهمـــل المثالية ، ودعم مع المـــاديين الرأي القائل بان للكون كيانـــاً موضوعياً ، وهو تجريد يصنعه ادراك الانسان ـــ ونادى بفكرة امكان الحصول على معرفة بالكون ، قد تكون معرفة غير كاملة ، الا انهـــا تشتمل على سندٍ من الحقيقة المطلقة التي تنمو مع سير السياق ، اذا استعملنا السياق الجدلي . وهكذا كانت المادية الجدلية هـــي اذن الطريقة العلمية الوحيدة التي تسمح بالوصول الى الحقيقة .

وتعتبر المـــادية التاريخية بالنسبة لماركس، طبقاً لتفسيره للتاريخ، المادية الجدلية المطبقة على العلاقـــات الانسانية في المجتمع [١] .

وفي مقدمة **ملاحظاته النقدية عن الاقتصاد السياسي** ، يبـــدأ بالتصريح بان انتاج وسائـــل الاعاشة هو المبدأ الذي يسيطر ويتحكم بكل العلاقات البشرية [٢]

(١) راجع النقد الذي وضعه كارل فيدرن في
THE MATERIALIST CON CEPTION
OF HISTORY (édition anglaise, 1939).

(٢) قال آنجلس في رثـــائه لماركس امام قبره ان ماركس « اكتشف حقيقة بسيطة ، اختفت حتى الآن نظراً لنمو الايديولوجيات وزيادتهـــا فوق الحد اللازم وهو ان على الانسان ان يـــأكل ويشرب ، ويملك مـــأوى وملبساً

وان تبادل كـــل المنتجات يأتي بعد ذلك مباشرة . وبناء على هذا ، يجب ان نفتش عن السبب الحاسم في التبدلات الاجتمـــاعية في طرق الانتاج والتبادل . ويشتمل الانتاج فيمـــا بعد على رابطتين ، اولهمـــا ، الانسان وادواته الانتاجية (القوى المنتجة) ، وثانيهمـــا ، البشر فيمـــا بينهم (علاقات الانتـــاج) . فعندما تتعدل الرابطة الاولى ، تتعدل الرابطة الثانية .

وها هو منطقه في مرحلة سابقة من التاريخ . لقد استولى بعض افراد المجتمع على قوى الانتاج ، الامر الذي ادى الى الملكيـــة الخاصة . فقد اصبحت علاقات الانتاج فيمـــا بعد علاقات طبقتين متعاديتين ، او ، كـــما صرح ماركس في البيان الشيوعي ، « لم يكن تـــاريخ كل مجتمع من المجتمعات حتّى ايامنـــا هذه الا تاريخـــاً ـــ للصراع الطبقي » [١] .

ولكي يبرز ماركس ان التاريخ كان تاريخـــاً للصراع الطبقي ، ميّز بين خمسة اشكال اقتصادية للانتاج ويعتبر كل شكل من الاشكال الاربعة الاخيرة متقدمـــاً على الشكل السابق ، طبقـــاً للمبدأ الديـــالكتيكي ، لان كل شكل ، عندما يبلغ تطوره الكامل بدوره ، يأخذ من الشكل السابق عليه كل قيمته . والشكل الاول هو الشكل البدائي الذي تمت فيه شيوعية وسائل الانتـــاج [٢] .

←قبل ان يستطيع تعـــاطي السياسة ، والعلم ، والدين ، والفن.. الخ»، ويبدو ان ماركس اهمـــل « الحقيقة البسيطة » وهي ان على الانسان ان يتنفس قبل ان يأكل الخ ، ولكن تنفسه لا يتفق مع العقائد الاقتصادية الماركسيـــة (راجع)
H. B. ACTION: THE ILLUSION OF AN EPOCH,(143).

(١)
Centenary EDITION (1948) p.p. 3.

(٢) للمقارنة مع « النبيل المتوحش » لروسو .

امـــا الشكل الثاني فهو الشكل القديم او التقليدي ، حيث كانت وسائل الانتاج مملوكة من قبل ملاك العبيد . والشكل الثالث هو الشكل الاقطاعي الذي يملك فيه السيد الاقطاعي القسم الاكبر[١]، والشكل الرابع هو الشكل البورجوازي ، الذي كانت الرأسمالية فيه هي السيد ، وكان العمـــال ، بالرغم من انهم لم يكونوا تابعين له ، مضطرين بدافع الخوف ، او بدافع نقص غذائهم الى العمل من اجله . واخيراً ، عندما وصلت الرأسمالية الى مرحلة النضوج ، دخلت القوة الخامسة ميدان العمل . فقد تملكت البروليتاريا وسائل الانتاج [٢] ، وبرفضهـــا التناقض المتعلق بالرأسمالية ، وهو ان الغني يزداد غنى ، والفقير يزداد فقراً [٣] بلغ الانتاج اقصى تطوره .

وفضلاً عن ان ماركس لم يعرف بوضوح مـــا كان يعني « بالطبقات » ، الا انه كان يدعّي ، كمـــا اعتقدنا ، انه كانت هنـــاك طبقتان منذ الازمان الاولية للتاريخ : الاولى ، وهي الطبقـــة التي كانت تملك وسائل الانتاج ،

---

(١) ان هذا خطـــأ لان الاقطاع كان نظاماً عسكرياً لا اقتصادياً . فالاشارة الى ان الاقطاع استولى على افضل وسائل انتاج المرحلة التقليدية سخف تاريخي . فنقيضته لم تكن الرأسمـــالية ، بل كانت بارود المدفع . فنقيضه العصر التقليدي اذا كان هناك من نقيضه ، هي الغزوات البربرية ، التي كانت « قواها المنتجة » هي الغزو والنهب .

(٢) « ستستخدم البروليتاريا سيادتهـــا السياسية لانتزاع الرأسمال كله من البورجوازية ولمركزة كل ادوات الانتاج بين يدي الدولة ، اي بين يدي البروليتاريا المنظمة كطبقة حاكمة ، ولزيادة القوى المنتجة باسرع ما يمكن » .

(٣) هذا عكس ما حدث منذ عام ١٨٤٨ .

والاخرى التي لم تكن تملكهـا . وقد رأينا ايضاً ان القوة التي تدير العالم هي الصراع الطبقي . الذي ينبغي ان يؤدي بصورة حتمية الى ديكتاتورية البروليتاريا ، عندما يقوم مجتمع لا طبقي واممي بعد تحول الاشتراكية الى الشيوعية . ولكن كارل ماركس ، كما لاحظ R. N. CAREW HUNT ، لا يحاول البرهـان على ان « العامل صالح حتمـاً للدور المرسوم له . اذ لم يخطر في ذهنه ان رفض الرأسمـالية قد يؤدي الى ظهور طبقة جديدة تماماً ، لن تكون رأسمـالية ، ولا بروليتارية [١] ، بالمعنى الذي يقصده ماركس » . فاصراره على ان تاريخ كل مجتمع قائم حتى يومنا هذا تاريخ الصراع الطبقي ، قد افسد ديالكتيك اتباعه من المفكرين ـ الانتلجانسيا المـاركسية ـ ودفعهم الى ان يعزوا للبروليتاريا صفات منحت لهم منحاً على أبعد تقدير .

ويفسر بيتر ف . دروكر بوضوح تـام هذا التناقض في الجدلية الماركسية قائلاً مـا يلي :

« ربمـا كان أكبر خطأ يرتكبه عصرنا هو اسطورة الجماهير ، التي تمجد الجماعة غير المنظمة ، والمفككة ، والمنحلة . إن الكتل الجماهيرية اليوم اداة تفكيك اجتماعي وسم حقيقي » . فلا يكمن الخطر في تمردها لان التمرد هو ايضاً شكـل من المشاركة الاجتماعية ، حتى ولو كانت هذه المشاركة لا تتعدى الاحتجاج .. ان خطر الجماهير يكمن في العجز عن التوحد .. لانها لا تملك كيـاناً ، ولا وظيفة اجتماعية ، والمجتمع بالنسبة اليهـا ليس الا تهديداً ديموقراطياً ، غير عقلاني ، وغير مفهوم ، .. فكـل سلطة شرعية تبدو لهـا سلطة مستبدة ومتعسفة . وهكذا نرى انهـا مستعدة دوماً للتجاوب مع أي نداء لا عقلاني ، وللخضوع الى سلطة تعسفية ، اذا وعدت باحداث

---

(١) PETER F. DRUCKER: The Theory and Practice of Communism (1950), p. 39.

تغيير فقط .. ونظراً لان هذه الكتل الجماهيرية محرومة من المعتقدات ، فان في وسعها ان تمتص كل شيء وان تتقبله على ان لا يكون نظامـــاً اجتماعياً . وبعبارات اخرى ، ينبغي ان تصبح الكتل دومـــاً فريسة الديمـــاغوجي او الحاكم المستبد الذي يسعى وراء السلطة حبـــاً بالسلطة فقط . ولا يمكن تنظيم الكتل الجماهيرية الا بالقوة ، وبالاخضاع والنفي .. وكـــل مجتمع لا يستطيع منع تطور الكتل مجتمع ضائع » (١) .

وبعد ان استعرضنا بالتفصيل نظريـــات كلاوزفيتز ، سنتذكر دوماً بأنه كان واحداً من اوائـــل المفكرين العسكريين الذين كشفوا اهمية انعكاس الحرب على السكان المدنيين ، ان لم يكن اول هؤلاء المفكرين ، وان أهم آثار هذا الانعكاس ونتائجه هو انشاء مـــا يسمى اليوم « بالجبهة الداخلية » . ولو أمعنـــا الفكر لحظة واحدة ، لتكشف لنـــا بان الحاح كارل ماركس على الصراع الطبقي » . يؤدي الى استنتاج ممـــاثل مع الفرق الوحيد التالي : على حين لا تقوم الجبهة الداخلية لكلاوزفيتز الا في زمن الحرب ، نرى ان الجبهة الداخلية التي يراها ماركس جبهة دائمة ، موجودة منذ زمن السلم بهدف تقويض الحكم بواسطة الثورة . ان اهداف الثورة واهداف الحرب المطلقـــة اهداف متشابهة ، غير ان الوسائل هي التي تختلف فقط .

ولا يعتبر هذا الامر مجرد توارد في الخواطر ، لان آنجلس ، الذي كان

---

(١)

The Future of Industrial Man (1943) p. 26.

يتمتع بفكر عسكري من الطراز الاول قرأ كلاوزفيتز بامعــان [1] . وقد قادته دراسته لكتاب « في الحرب » الى ادراك ان صدام الجيوش ليس الا وسيلة من وسائل خوض الحرب . وكان ماركس وآنجلز ، بحسب رأي سيغموند نيومــان ، يعرفان تمــاماً بان « الحرب الحديثة ذات طبيعة مؤلفة من اربعة وجوه : وجه ديبلومــاسي ، واقتصادي ، وبسيكولوجي ، ووجه عسكري في آخر المطاف .. وكانا يعرفــان تماماً ان من الممكن خسارة الحملات الحربية قبل ان تطلق فيهــا اول رصاصة ، لان مصيرها قد تقرر في الواقع مسبقاً على جبهة الحرب الاقتصادية والبسيكولوجية..فالحرب تخاض بالنسبة اليهم بوسائل مختلفة ، وفوق ميادين مختلفة . وبحسب التعبير الذي اطلقه جورج سوريل يصبح اضراب عــام « معركة نابوليونية » .. اثناء ازمة عام ١٨٥٧ « المليئة بالاحتمــالات » . وكتب آنجلس الى ماركس قائلاً : « من الممكــن ان تستخدم استراتيجية ثورية ماهرة انهياراً اقتصادياً متواصلاً ، كسلاح عملي لممارسة ضغط متواصل .. ولتحريك الشعب وايقاظ حماسه .. كهجوم للفرسان يكتسب زخمــاً واندفاعاً ، اذا مــا قامت الخيول بخمسمائة خطوة

---

(١) كتب آنجلس الى ماركس في ٢٥ من سبتمبر (ايلول ١٨٥٧) ما يلي : « اني اقرأ حالياً كتاب « في الحرب » لكلاوزفيتز . انه طريقة جديدة في التفكير ، ولكنه في واقعه كتــاب ممتاز . وهو يجيب على السؤال التالي : هــل ينبغي علينا ان نستخدم تعبير الفن العسكري ام العلم العسكري ؟ انه يجيب بمــا يلي : ان الحرب تشبه التجارة على افضل شكــل ، فالقتال في الحرب ، كالدفع نقداً ، ولا حاجة لتدخله في الحقيقة ، كالتاجر ليس مستعداً للدفع نقداً دائمــاً ، ولكن النتيجة هي ان كل شيء يتجه اليهــا ، وينبغي ان نتوصل اليهــا في النهاية . والقتال هو الذي يشكل العنصر الحاسم » . (كلاوزفيتز ــ الجزء الاول ــ « في الحرب » ص ٥١) .

من المسير خبباً ، قبل ان تصل الى مسافة الانقضاض على العدو [1] ، فتنقض عليه بأقصى سرعتها » .

ان هذه الدراسات الجديدة عن فن خوض الحرب ، مستقاة بصورة غير مباشرة من كلاوزفيتز . وكانت مخصصة لاحداث انقلاب جذري وثوري في كل ادارة الحرب ، بعد جيلين . فقد كان الصراع الطبقي مشكلة عسكرية عميقة ، لان الصحة الاجتماعية لأمة من الأمم هي القاعدة المعنوية لقوتها العسكرية .

* * *

٤ ــ انعكاسات الثورة الصناعية على القوه العسكرية

كانت انعكاسات الثورة الصناعية على الجيوش والاساطيل ، فيما بين التواريخ التي اشار اليها ستند هال انعكاسات لا اهمية لها ، بسبب عطالتها ، ولا مبالاتها بالصناعة ، كمصدر من مصادر قوتها ، وبسبب رد الفعل ضد الحرب ، الذي نشأ بعد الحروب النابوليونية . حتى ان هذه الجيوش والاساطيل لم تختلف عما كانت عليه في عام ١٧٨٥ الا اختلافاً طفيفاً . ومع ذلك ، كان الفكر الخلاق ، وروح الاختراع قد استيقظا ، وكان هناك بعض المتحمسين في كل مكان ، ممن كانوا يتبنون افكاراً معينة ، استطاعوا ان ينفذوا بواسطتها ، بعد سنوات ، فخرقوا درع العسكريين .

وفي عام ١٧٥٩ ، ثبت كونيوت قدراً بخارياً على هيكل عربة بواسطة مسامير لولبية ، ونجح في صنع العربة الاولى التي تسير بالبخار على الطرق .

(١) رواد الاستراتيجية الحديثة ــ النص الانجليزي ــ ص ١٥٦ .

وفكر كونيوت ان هذه العربة ستستخدم في الحرب ، ولكن اثنـــاء تجربتها علانية امـــام الجمهور لاول مرة ، كان من سوء حظه ان اصطدمت بجدار فهدمته . فسجن بسبب ذلك ، وتخلى النـــاس عن التجربة التي قام بها . ومع ذلك ، فـــان قيمة هـــذه العربة كـــان امراً لاحظه الجميع ، اذا اردنا ان نصدق مـــا قاله السيد منشستر ، من ان نابليون « لا بد انه قـــد كون فكرة فيمـــا بعد عن امكانيات الآلة التي اخترعهـــا كونيوت ، في خدمة الاهداف العسكرية ، لان هذا القائد الكبير القى محاضرة موضوعهـــا : « السيارة في الحرب »[1] عندما انتخب عضواً في المعهد الفرنسي » .

وفي عـــام ١٧٨٣ ، صنع الاخوان مونتغو لفير MONTGOLFIER اول منطاد يركبه الرجـــال . وقـــام المنطاد بأول إقلاع له في الجو بتاريخ ١٥ من اكتوبر (تشرين الاول) ، وفي ٧ من ينـــاير (كانون الثاني) من العام التالي ، عبر المـــانش . وسرعان ما قدرت امكانيـــاته العسكرية . وبعد بدء حروب الثورة الفرنسية بقليل ، أُسست مدرسة للملاحة الجوية في مودون . وصنعت اربعة مناطيد لجيش الشمـــال ، وقام واحد منهـــا باستطلاع المواقع النمساوية قبـــل معركة فلوروس بتاريخ ١٦ من يونيو (حزيران) ١٧٩٤ .

واجريت فيمـــا بعد التجارب على تطبيق الاندفـــاع بواسطة البخار على المراكب . ويبدو ان جيمس رمسي JAMES RUMSEY من فرجينيا هو اول من صنع مركبـــاً بخارياً في عام ١٧٧٥ . ومن الغريب انه بدلا مـــن استخدام عجلة البدّال التي يعود استخدامها للعصر الرومـــاني فان مركب رمسي البخاري سار بجهاز اندفاعي مؤلف من الدفع المـــائي : فقد كانت

(١)
H. H. MANCHESTER: «THE FORERUNNER OF THE TANK» The American Mechanist, Vol. 49, No. 15.

مضخة بخــارية تمتص المـــاء الى مقدمة المركب ، ثم تدفعه الى مؤخرة المركب ، ثم الى الماء . وتذكرنا هذه الوسائل الجديدة في الدفع بتنبؤات الدكتـــور ايراسموس داروين ، الذي كتب في عام ١٧٩١ قصيدة جاء فيهـــا :

أيها البخار الذي لا يقهر ..
يا صاحب الذراع الرهيب
غداً سيقود ذراعك الحياة الى بعيد
حيث الصندل الذي يبحر ببطء
ستشق الموج كاسحاً حين تدفعه يدك
وحيث السيارة المتهـــالكة
ستسري فيهـــا الحياة حينما تسيل انت في شرايينها
ثم يا ايها البخـــار الرهيب
وغداً سوف تصعد بقواك الخارقة الى الاعالي
حيث ترفع بهذه القوى العربات الطائرة
لتحلق عبر الاجواء الواسعة
بأجنحة عملاقة تخفق كأجنحة النسور
ومن فوق الاجواء العـــالية
سيلوح الملاحون الشجعان
بالرايات المنتصرة الخفاقة

ثم يا ايها البخار الرهيب
غداً وبقواك الخـــارقة
سيطلق المحاربون الفزع في قلوب الجماهير
وبقواك الخـــارقة
ستنتشر الجيوش سحابات مكفهرة

تتخذها ستاراً للتخلص من كل موقف خطير
يا ايها البخار الرهيب
انت شيء في هذا الوجود لا يقهر !!

وفضلاً عن ان هذه الآفـاق المحتملة لم تبدأ بممارسة اثرها على الجيوش والاساطيل الا بعد نصف قرن ، فقد كان هنـاك عدد من الاختراعات السابقة التي زادت القوة المدمرة للمدفع والبندقية وضاعفتهـا .

وفي الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، اخترع نوعـان جديدان من قذائف المدفعية : في عـام ١٧٨٤ ، كانت هنـاك « العلبة الكروية » للملازم الاول هنري شرابنل ، كما كان يسميها بنفسه ، والمعروفة بصورة اكثر تحت اسم « قنبلة شرابنل » ، واثنـاء حصار جبل طارق (١٧٧٩ — ١٧٨٣) كانت هنـاك « قنبلة الرمي بمدفع مرسيه MERCIER » وهي قنبلة هـاون قطرها ١٢ سم يستخدمهـا مدفع من عيار ٢٤ رطلاً . ولم توافق لجنة المدفعية البريطانية على القنبلة الاولى الا في عـام ١٨٠٣ ، اما الثانية والتي كانت مخصصة للرمي على البوارج المصنوعة من الخشب ، لتحولهـا بعد اصابتها الى بوارج منشقة فانهـا لم تستخدم الا في عام ١٨٢٢ .

وهنـاك اختراعان آخران ، احدثا ثورة في تكتيك المشاة همـا كبسولة الفيلمينـات FULMINATE ، والرصاصة الاسطوانية — المخروطية . وكان الاختراع الاول اختراعـاً غير قابل للتحقيق قبـل اكتشاف فيلمينات الزئبق في عـام ١٨٠٠ ، وهو متفجر ينفجر عند الاصطدام . وبعد سبع

---

(١)
James Venable Logan: The Poetry and Aesthetics of ERASMUS DARWIN (1936), p. 117.

كان الدكتور ايراسموس داروين جد شارل داروين .

سنوات ، سجـل الأسقف آ . فورسايت A. FORSYTH براءة اختراع البارود الذي يشتعـل بطعم يفجر بالقدح مؤلف من كلورات البوتـاس وفيلمينات الزئبق ، ومسحوق الزجاج ، وفي عـام ١٨١٦ اخترع توماس شو من فيلادلفيا شعيلة القدح [١] من النحاس . وقد ادى ذلك الى استخدام بندقية الصيد التي تعمـل بالقدح ، والتي قللت الى حد كبير من الطلقات الكابية [٢] . وكانت على عكس البندقية التي تستعمـل حجر القدح ، اذ كانت ترمى في جو عاصف وممطر . وكانت مصلحة المدفعية البريطانية مع ذلك محافظة جداً ، حتى انهـا لم تحول البنادق الحجرية الى البنادق التي تعمل بالقدح الا في عام ١٨٣٩ ، وقد ظهر تفوق البنادق الاخيرة فوراً : ففي عام ١٨٤١ « حاصر الف من الصينيين سرية من الهنود الوطنيين السيباي CIPAYES مسلحة بالبنادق الحجرية ، التي لا ترمي في جو ممطر . ووقعت السرية في خطر محقق ، الى ان زجت سريتـان من البحارة المسلحين بالبنادق التي تعمل بالقدح ، فشتتوا الصينيين الاعداء والحقوا بهم خسائر فادحة » [٣] .

واخترع النقيب نورتون من اللواء ٣٤ مشاة في الجيش الانجليزي ، الرصاصة الاسطوانية المخروطية . وكان عقبهـا مثقوباً ومخصصاً لضمان جوف البندقية عندما تنطلق الرصاصة . ولفكرته اساس مهم جداً : فعندما كان نورتون في جنوب الهند ، قام بفحص السهام التي يستخدمهـا الهنود الوطنيون والتي يطلقونهـا بواسطة النفخ من قصبات من البوص تشبه الانابيب ، فوجد ان

---

(١) AMORCE à percussion

(٢) Ratés

(٣) « برقية الفريق فيكونت غو GOUCH » ، لندن غازيت ، ٨ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٨٤١ .

نهاية السهم السفلي مصنوعة من مادة مرنة جداً ، تنضغط على الحافة الداخلية للقصبة ، فتمنع الهواء من الافلات عند مروق السهم «الهواء بين المقذوف والجوف » .

وفي عام ١٨٣٦ حسّن غرينر وهو صانع اسلحة في لندن ،رصاصة نورتون بادخـــال دسار مخروطي من الخشب في عقبهـــا . وبالرغم من ان مصلحة المدفعية قد رفضت هذين الاختراعين الا ان الفكرة نقلت الى فرنسا : ففي عـــام ١٨٤٩ طبق مينيه MINIE مشروع غرينر وصنع رصاصة مينيه المميتة . واشترت الحكومة البريطانية فيمـــا بعد اختراع مينيه مقابل عشرين الف جنيه استرليني ، وتلقى غرينر ١٠٠٠ جنيه من مينيه مكافـــأة له لانه ألهمه بالفكرة . وفي عام ١٨٥١ استخدمت بندقية مينيه في الجيش الانجليزي ، ولوحظ عند استخدامهـــا في عام ١٨٥٢ في جنوب افريقيا انها « على مسافة ١١٠٠ الى ١٢٠٠ متر ، يمكن باستخدامها تشتيت قطعـــات صغيرة من « الكافر » [١] . وقد جعـــل هذان الاختراعان من البندقية السلاح المميت الاول في ذلك القرن .

وعلى حين كانت الأمم الاخرى تنـــاقش محاسن ومساوىء البنادق الحجرية والتي تعمـــل بالقدح (الطعم) بالتلقيم من السبطانة ، اتخذت بروسيا في عام ١٨٤١ قراراً جريئـــاً : اذ جهزت بعض الويتهـــا بالبندقية درايز DREYES

---

(١)
J. W. FORTESCUE: A history of the British Army (1927) Vol. XII, p. 561.

ان فكرة التحزيز Rayage كانت فكرة قديمة وتعود الى عام ١٦٣١ ، وكان المحذور الرئيسي هو ان مسحوق البارود المستخدم يوسخ الاخاديد بعد اطلاق عدة طلقات ، ويجعل عملية تلقيم البندقية من جديد عملية صعبة .

التي تلقم من المغلاق ، والمعروفة بصورة اكثر تحت اسم « البندقية ذات ابرة القدح » ، وهي سلاح مزود بمغلاق متحرك ، يرمي خرطوشة من الورق . ويعتبر مدى هذه البندقية ، بسبب تسرب الغـــاز من المغلاق اقل بكثير من مدى بندقية مينيه ولكنهـــا تستطيع ان ترمي سبع طلقات في الدقيقة الواحدة مقابل دقيقتين في بندقية مينيه . ولم تكن ميزتهـــا الرئيسية سرعة التلقيم ، بل امكانية تلقيمهـــا بسهولة في وضع الرامي منبطحاً ، نظراً لان مغلاقهـــا متحرك ولهذا كان لهـــا اثر اثبط معنويات النمساويين في عام ١٨٦٦ وحطمها [١] .

وقد كان تطور المدفعية ، بسبب تكاليفهـــا المادية ، ابطـــأ من تطور البندقية . ومع ان التلقيم بواسطة المغلاق ، وتحديد سبطانة المدفع كانت كلتاهما فكرتين قديمتين ، غير انه يبدو انهمـــا لم تجربا معاً ولأ ول مرة في انجلترا الا في عام ١٧٤٥ [٢] . وبعد ذلك بمـــائة عـــام ، اخترع ضابط سرديني هو الرائد كافاللي CAVALLI ، مدفعـــاً مخدداً عياده ١٦٥ ميلليمتر ، يلقم بواسطة المغلاق . ثم اخترع البـــارون واهرندورف WAHRENDORF في عـــام ١٨٤٦ مدفعـــاً آخر اكثر فاعلية . ولم تكن هناك اية دولة من الدول قادرة على مواجهة تكاليف ونفقات عمليـــة اعادة التسايح . ثم جاءت حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) التي تم خلالهـــا تحويل عدد من المدافع من عيار ٦٨ رطلاً و ٢٠٠ ميلليمتر من الحديد المسبوك FONTE ، التي تلقم من

---

(١) راجع التقارير العسكرية للعقيد البارون ستوفيل STOFFEL ، الملحق العسكري الفرنسي في بروسيا من عام ١٨٦٦ الى ١٨٧٠ .

ان اساوب التاقيم بواسطة المغلاق يرجع الى تاريخ قديم جداً . فقد اقترح هذا الاسلوب للمدافع وللبنادق المخددة بنيامين روبنز BENJAMIN ROBINS في كتابه : NEW PRINCIPLES OF GUNNERY, p. 337.

(٢) راجع بنيامين روبنز : TRACTS ON GUNNERY, p. 337.

الفوهـــة ، او ذات سبطانة جوفهـــا املس ، الى مدافع ذات سبطانات جوفها مخدد بحسب مبدأ لانشستر [1] . وقد جعل مدى هذه المدافع ودقتها من قصف سباستبول « عملا مرعبـــاً للغاية » . وقد بدأت كل الدول ، عند انتهـــاء الحرب ، في تجربة المدافع المخددة التي نلقم من المغلاق .

وفي السنوات الاولى من الثورة الصناعية ، اخترع الصاروخ الحربي [2] . وهو سلاح يتميز في الوقت ذاته عن المدفع والبندقية . ويعتبر هذا السلاح من اقدم المقذوفـــات الاندفاعية التي تعمـــل بواسطة المتفجرات وكان معروفاً في آسيا في القرن الثالث عشر . وهو الصاروخ الذي استخدمه السلطان تيبو في حصار سيرانغـــاباتام SERINGAPATAM في عـــام ١٧٩٩ ، واسترعى انتبـــاه احد ضباط المدفعية الانجليز ، العقيد السير ويليام كونغريف اذ استلهم منه اختراعه بتحسين هذا الصاروخ . وقد قص علينـــا كونغريف بنفسه انه اخترع صواريخ يتراوح وزنهـــا بين ٦٠ غراماً — « وهو نوع من رصاص البندقية الذي يتحرك ذاتياً » — و ١٥٠ كغ [3] . وقد استخدمت هذه الصواريخ للمرة الاولى في عام ١٨٠٦ في حصار بولوني BOULOGNE ، حيث : « لوحظ احتراق المدينة ، في اقـــل من عشر دقائق ، بعد اطلاق الصلية الاولى

---

(١) لم يحقق دوران القنبلة بواسطة اخاديد جوف السبطانة ، ولكن بشكل الجوف الذي كان اهليليجيـــاً ، ويشكل حلزونا حول محور السبطانة من المغلاق الى الفوهة .

(٢)

Fusée de guerre

(٣) وهو عضو في البرلمـــان

MAJOR GENERAL SIR W. CONGREVE, BARONNET, CONGREVE ROCKET SYSTEM AS COMPARED WITH THE ARTILLERY (1827) p. 39.

منهـا » (١) كما كتب كونغريف فيما بعد . واستخدمت هذه الصواريخ ايضاً في فالشيرن وكوبنهاجن في عام ١٨٠٧ ، وفي معارك لايبزيغ وواترلو ، واورليتان الجديدة ، في عام ١٨١٥ . وقد كتب الرائد آ.لوكاربير لاتور عن هذه المدينة المحترقة ما يلي : « كانت سحابة من الصواريخ تسقط كالامطار باستمرار طيلة مدة الهجوم » (٢) .

وقد تنبـأ كونغريف عن هذا السلاح مـا يلي : « ان الصاروخ هو حقاً سلاح مخصص لتعديل كل اسلوب التكتيك العسكري » (٣) . وكان المارشال مارمون يعتبر ان الصاروخ « قد يصبح السلاح الرئيسي ... وسيكون ذا اثر هـائل على مصير العالم » (٤) .

وبالاضافة الى الصاروخ الحربي ، اخترعت اربعة اسلحة اخرى ، مستمدة من افكـار قديمة ، او تخيلهـا صانعوها خلال هذه الفترة . وهي جديرة بان نشير اليهـا لانهـا الحقت خسائر كبيرة بالجيوش والاساطيل في السنوات اللاحقة .

ففي عـام ١٧٧٦ ، بنى الامريكي دافيد بوشنيـل اول غواصة ، تحمل ملاحاً واحداً . وفي خلال حرب الاستقلال الامريكية ، كان من الممكن ان

---

(١) كونغريف ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٨ .

(٢)

MAJOR A. LECARRIERE-LATOUR: HISTORICAL MEMOIR OF THE WAR IN WEST FLOROIDA AND LOUISIANA IN 1814 - 1815 (1816) p. 154.

(٣) كونغريف المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٨ .

(٤)

MARECHAL MARMONT: DE L'ESPRIT DES INSTITUTIONS MILITAIRES (1860), pp. 72 - 76.

تغرق المركب البحري الحربي الانجليزي ايغـل EAGLE لولا ان ملاح الغواصة ارتكب خطـأ في التقدير . وفي عام ١٨٠١ ، قلد الامريكي روبرت فولتون ، وهو رجل يتمتع بعبقرية خلاقة نـادرة ، بوشنيـل وبنى « قارب غوص » يدعى نوتيلوس NAUTILUS بقي تحت المـاء مدة نصف ساعة في ميناء ، برست . وفي عام ١٨١٢ اقترح دندونالد استخدام الكبريت الملتهب كمـادة خانقة . وقد احيي هذه الفكرة من جديد في عـام ١٨٥٥ ، ونصح باستخدامها ضد سيباستبول ، غير ان اقتراحه قد رفض لانه اقتراح مخيف لا ينبغي باي حال من الاحوال تطبيقه .

اما السلاحان الآخران فكانا يعملان بواسطة البخار . الاول منهمـا هو المدفع البخاري بركينز ، الذي نجد عن تجربته التي حضرها الدوق دو ويلينغتون تقريراً ، في الجريدة اللندنية THE COURIER ، عدد ٩ ديسمبر (كانون الاول) ١٨٢٥ . ونجد في هذا التقرير ان هذا المدفع كان يرمي ١٠٠٠ رصاصة في الدقيقة ، اخترقت لوحة حديدية سمكهـا ستة ميلليمترات . وقد كتب محرر الجريدة « ان هذا النوع الرائع من العبقرية البشرية والقوة المدمرة » يعلن عن بدء عصر من السلام العالمي ، لانه ليس هنـاك من شعب يستطيع تعويض الخسائر التي تسببهـا مثل هذه الآلات التدميرية . وقد اعيد استخدامه على ما يبدو ، في حرب القرم ، التي اوحت بسلاح جديد آخر . وفي عـام ١٨٥٥ حصل جيمس كوان على براءة باختراع « آلة برية متحركة ، تعمـل بالبخار مزودة بمنـاجل لقتل جنود المشاة » . كان هذا الاختراع عبـارة عن آلية مدرعة ذات اربعة عجلات ، مسلحة بمدافع و « تشبه غطـاء طبق كبير من اطباق الطعام مركباً على عجلات » . وقد رفض اللورد بالمرستون هذا السلاح ، لانه اعتبره مغرقاً في وحشيته وبربريته في حرب متحضرة [١] .

---

(١) انظر الكابتن ليدل هارت في كتابه :
THE TANKS (1959) Vol. I, p. 13.

وفي عام ١٨١٣ ، بنى روبرت فولتون اول مركب مدرع يسير بالبخار هو الفولتون FULTON . كان هذا المركب مزوداً بقوقعة مزدوجة (هيكل) ، وفي داخلهـــا عجلة ذات ريش ، ومحمية بحزام من الخشب سمكه ١,٤٥ م . وقد ظهر فيمـــا بعد ضرورة تزويد هذا المركب الضخم بجهـــاز افضل للدفع ، وبوسيلة للحماية اقـــل ضخامة . فتداركوا هذا الامر في عام ١٨٣٦ ، بتزويده بمروحة [١] جون ايريكسون وباستبدال الخشب بالحديد .

والغريب ، ان الامبرالية البريطانية كانت تعـــارض استخدام المراكب البخارية . وعندما طلبت وزارة المستعمرات من اقدم ضبـــاط البحرية (اللورد الاول) مركبـــاً بخارياً لنقل البريد من مالطة الى الجزر الايونية ، تلقى الجواب التالي : « ان قـــادة البحرية يحسون بان من واجبهم ، قدر استطاعتهم ، ان لا يشجعوا استخدام المراكب البخارية ، لانهم يعتبرون ان القصد من ادخال البخار في صناعة المراكب هو توجيه ضربة مميتة للسيادة البحرية الامبراطورية الانجليزية » [٢] .

ولهذا نجد ان الامبراطورية البريطانية ، عندما انقادت الى الدخول في حرب القرم ، كان اسطولها بكامله يتألف من مراكب خشبية شراعية ، فيمـــا عدا بعض السفن الحربية المزودة بمـــاكينات اضافية ، وبعدد من سفن الجر البخارية . وممـــا يثير الدهشة بصورة اكبر ، ان استخدام المدافع التي تطلق القنابل ، قد عرض المراكب الخشبية لاخطار جسيمة منذ عـــام ١٨٢٢ ، بشكل فقدت فيه كل قيمتهـــا القتالية . وقد وضح هذا الامر في نوفمبر

---

(١)
HELICE.

(٢) ذكر هذا في
THE JOURNAL OF THE ROYAL UNITED SERVICE INSTITUTION (1921), Vol. IXXV, No. 502 p. 258.

(تشرين الثاني) ١٨٥٣ ، في معركة سينوب SINOPE ، عندما دمر رمي مدافع المراكب الروسية اسطولا من الفرقاطات [١] التركية . وبناء على هذه النتيجة امر نابليون الثالث فوراً ببناء اسطول صغير [٢] من بطاريات المدفعية العائمة المحمية بدرع يقاوم القنابل المملوءة ، والقذائف المتفجرة . وكان نجاح هذه السفن تاماً ، وتحقق بشكل لا يدعو الى الشك ، حتى ان الحاجة قد اضحت ملحة لا لتدريع السفن الحربية فحسب ، بل ان ادخال التدريع اصبح يتطلب استخدام مدفعية اقوى . وقد ادت هذه الملاحظة الى تعميم استخدام المدفع المحلزن ، والى تصميم فرنسا وانجلترا ، بعد الحرب بقليل ، لبناء اول المراكب الحربية البحرية المدرعة وهي البارجة « المجد » LA GLOIRE ، والبارجة ووريور WARRIOR .

وفي عام ١٨٠١ ، بنى المهندس الانجليزي ريتشارد تريفيتهيك اول قاطرة . وكانت معدة للسير على الخطوط الحديدية التابعة لمناجم الفحم ، وقد حققت فيها النجاح . وفي عام ١٨١٢ ، كانت احدى قاطراته تعمل في منجم ويلان ونيوكاستل . وقد اهتم جورج ستيفانسون (١٧٨١ — ١٨٤٨) الذي كان في تلك الفترة ميكانيكياً في منجم كينغوورث ، بهذه القاطرة الى حد كبير ، فسمح له المسؤولون ببناء « قاطرة متحركة » للخط الحديدي الموجود بين المنجم وبين ميناء الشحن . فصنعها ، وعندئذ برزت محاسنها وفوائدها فتوصل الى اقناع اصحاب الخط الحديدي بين ستوكتون ودارلينغتون الذين كانوا يفكرون في ذلك الوقت باستخدام الخيول لجر عربات السكة الحديدية ، بالاستعانة بالمدفع البخاري . وهكذا طبقوا اقتراحه . وفي

---

(١) ESEADRE DE FREGATES انظر المعجم العسكري السوري الصادر عن قيادة الجيش الاول بتاريخ ١ — ٢ — ١٩٦١ .

(٢) FLOTTILLE المرجع المذكور .

٢٧ من سبتمبر (ايلول) ١٨٢٥ ، ولد اول خط حديدي حقيقي ولم يكن هنـــاك اي تقدم حقيقي للثورة الصناعية مارس تأثيراً اهم من تأثير هذه الخطوط الحديدية على مستقبل السلم والحرب .

وفضلاً عن ان القاطرة انجليزية الاصـــل ، الا انه ليس من قبيل المصادفة البسيطة ان تكون الامة التي انجبت كلاوزفيتز اول امة ادركت اهمية الخطوط الحديدية في الحرب . وقبـــل ان تُمد اية سكة من السكك المدنية في بروسيا كان الرأي العام يلتفت الى اهمية السكك الحديدية من الناحية العسكرية .

وفي عـــام ١٨٣٣ ، اشار ف . و . هـــاركوت F. W. HARKOT الى ان خطين حديديين بين كولون ومندن ، وبين مـــايانس وفيسل سيحسّنان الى حد كبير من الدفـــاع عن ريناني . وكان س. ي. بونيتز C. E. PONITZ يلح على انشاء وتعميم السكك الحديدية لحمـــاية بروسيا ضد فرنسا ، والنمسا وروسيا . وفي الوقت ذاته اشار فريدريك ليسْت ، وهو اقتصادي يتمتع بعبقرية نـــادرة الى انه من الممكن النهوض ببروسيا من دولة عسكرية ثانوية ، يكمن ضعفهـــا في موقعهـــا المتوسط بين دول قوية ، بفضل انشاء سكك حديدية . وبذلك تحصل بروسيا على وضع رائع . و « ان من الممكن تحويل المـــانيا الى حصن دفـــاعي في قلب اوروبا ذاتهـــا . اذ ستزداد سرعة النفير ، وسرعة تنقـــل القطعات من وسط البلاد الى الحدود ، كمـــا ستتضاعف ايضاً الميزات الطبيعية الاخرى « للخطوط الداخلية » وسيصبح النقـــل بالسكك الحديدية ذا فـــائدة اكبر نسبيـــاً بالنسبة لالمانيا من اية دولة اوروبية اخرى »[١] وقد كتب ليست ايضاً مـــا يلي : « ان كل كيلومتر من خطوط السكك

---

(١)
MAKERS OF MODERN STRATEGY. p. 149.

الحديدية تبنيه دولة مجـاورة قبلنا ، وكل كيلومتر من الخط الحديدي تملكه اكثر منـا ، يعطيها تفوقاً علينا .. لم يبق امـامنا سوى وقت قصير لنقرر ان من واجبنـا استخدام الاسلحة الدفاعية الجديدة ، التي يتيحهـا لنا التقدم ، والتي لم يكن اجدادنا يملكونهـا . ومع ذلك وجدناهم يستعملون البندقية ، بدلا من القوس والسهم » (١) .

وفي عام ١٨٤٦ ، وهو العـام الذي توفي فيه ليست ، تمت اول تحركات هـامة للقطعات بواسطة السكك الحديدية في كراكو ، اذ انتقـل فيلق بروسي مؤلف من ١٢,٠٠٠ رجلا ، بخيولهم ومدافعهم . وقد دفعت تجربة النقـل هذه هيئة الاركان العامة البروسية الى اجراء دراسة كاملة عن قيمة السكك الحديدية من النـاحية العسكرية . وخلال الانتفاضة الثورية من عـام ١٨٤٨ — ١٨٥٠ ، حصلت بروسيا على تجربة واسعة للنقـل بالسكك الحديدية وعندما تدخـل نابليون الثالث في حرب ايطاليا ، عـام ١٨٥٩ ، استخدم الفرنسيون السكك الحديدية الى اقصى مـا يمكن . ومنذ ذلك الوقت ، اصبح الخط الحديدي العامل المسيطر على الاستراتيجية الى ان غدا من الممكن تموين جيوش مؤلفة من ملايين الجنود في الميدان بواسطتهـا . وقد كان جورج ستيفانسون أب فكرة الامة المسلحة ، اكثر من نابليون او كلاوزفيتز .

وفي عام ١٨٣٦ ، اي قبـل عشرين سنة من نهـاية الفترة التي يتحدث عنهـا هذا الفصل ، كتب البارون جوميني (١٧٧٩ — ١٨٦٩) في كتابه « موجز فن الحرب » مـا يلي :

« يبدو ان الاختراعات الجديدة التي حدثت منذ عشرين عامـاً تهددنا بثورة كبرى في تنظيم الجيوش وتسليحهـا ، وتكتيكهـا ... » .

(١) MAKERS OF MODERN STRATEGY p. 150.

« ان وسائل التدمير تتحسن وتتقدم بشكـــل مرعب : فصواريخ كونغريف التي قيـــل ان النمساويين توصلوا الى احكام اثرها واتجاههـــا ، ومدافع الشرابنـــل التي تطلق سيلا من القذائف ، والبنادق البخارية لبيركينز التي تقذف من الرصاص مـــا يرميه فوج بكامله ، ان كـــل هذه الاسلحة ستضاعف فرص الذبح والقتـــل ، كأن مذابح ايلاو EYLAU ، وبورود ينو ، ولايبزيغ ، وواترلو لم تكن كافية لقلع الشعوب الاوروبية من جذورها » .

« واذا لم يعقد الحكام مؤتمراً لتحريم هذه الاختراعـــات المدمرة والمميتة ، فلن يبقى امامنا اي سبيـــل الا تشكيل نصف الجيوش من الخيالة المدرعة ، كي تكون قادرة على اقتلاع هذه الآلات باقصى سرعة . وسيضطر جنود المشاة الى ارتداء دروعهم الحديدية ، المعروفة في القرون الوسطى ، من جديد ، لانه بدون هذه الدروع ، سيموت جنود المشاة قبل اقتحام خصمهم » .

« وهكذا فان في وسعنـــا ان نرى من جديد الخيالة المدججة بالحديد ، والخيول المحمية بالدروع ايضاً » (١) .

(١) موجز فن الحرب : البارون الجنرال جوميني (١٨٥٥) ، ص ١١٣.

الفصل السادس

الحرب الاهلية الامريكية

١٨٦١ – ١٨٦٥

١ – انعكاسات الثورة الصناعية في الولايات المتحدة

كانت الحرب الاهلية الامريكية اول نزاع كبير ، حدث في عصر البخار . وترتبط اصوله وجذوره ارتباطاً وثيقاً بانعكاس الثورة الصناعية على ما اطلق عليه ماركس اسم « القوى المنتجة » السائدة في الولايات المتحدة الفتية . وقد ادت هذه الثورة الى تغيير في « علاقات الانتاج » وادى هذا التغيير في النهاية الى الحرب بين مجتمعين اقتصاديين مختلفين هما : سكان دول الشمال ، وسكان دول الجنوب . فعلى حين كان السكان الأولون ديمقراطيين متعصبين ، ويعملون اساساً في الزراعة والتجارة ، كان السكان الآخرون يؤلفون شعباً ذا عقلية اريستوقراطية ، ومفاهيم اقطاعية ، يستخدمون العبيد كيَدٍ عاملة زراعية .

وفضلا عن ان مؤسسي الاتحاد رفضوا الرق والغوه اثناء حرب الاستقلال الامريكية او مباشرة بعدها ، عندما وضع الدستور في عام ١٧٨٧ ، الا ان

هذا الرق بقي نتيجة لاصرار كارولينا الجنوبية وجورجيا(١). وكان الرق في طريق الزوال، نظراً لان الامور كانت على ما هي عليه . ولو ان (القوى المنتجة) بقيت كما كانت ، لكان من المحتمل ان يزول الرق خلال جيل او جيلين على الاكثر .

غير ان هذا الزوال لم يكن ليحدث بهذا الشكل ، لانه بعد تصديق الدستور باربعة اعوام ، اي في عام ١٧٨٨ ، ظهرت فجأة آلة لفصل القطن عن بذوره انعشت زراعة القطن في الولايات الجنوبية ، وبعثت فيها الحياة بصورة هائلة . ففي عام ١٧٩٢ ، اخترع احد الامريكيين ، ايلي هوايتني ، هذه الآلة التي جعلت زراعة القطن مجزية ومربحة، حتى ان الامريكيين بين عام ١٨٦٠ اطلقوا على القطن لقب « ملك ولايات الجنوب » . وفي الوقت ذاته ، اصبح الرقيق ذا فائدة كبرى ، ونتج عن ذلك ان اصبح العبيد من السلع المطلوبة ، بدلا من ان يكونوا من السلع التي لا تباع في السوق ، لان العرض فيها كان اقل من الطلب . وكان التبغ ، قبل ادخال آلة فصل القطن عن بذوره ، هو المحصول الزراعي الرئيسي في الجنوب ، قبل انتشار زراعة القطن . ولكن في عام ١٨٢٠ ارتفع محصول القطن الى ٧٢٥٠٠ طن . وبعد عشر سنوات ، تضاعف هذا المحصول . وفي عام ١٨٥٠ بلغ ٤٥٣٠٠٠ طن . وفي عام ١٨٦٠ ، وصل الى ١,٠٥٠,٠٠٠ وفي الوقت ذاته ، ارتفع اجر « العامل الزراعي الممتاز » من ٥٠٠ دولار في عام ١٨٣٠ الى ١٨٠٠ دولار في عام ١٨٦٠ . وتبرز هذه الزيادة الاهمية الاهمية الحيوية للموارد في اليد العاملة بالنسبة لرخاء الجنوب .

---

(١) الغي الرق في الولايات الشمالية فيما بين عام ١٧٧٧ و ١٨٠٤ . وكانت اول ولاية حررت العبيد هي فرمونت، وكانت آخر ولاية هي نيوجرسي ولم يجن العبيد من هذا الالغاء فائدة تذكر ، لان معظم عبيد الشمال نقلوا الى اسواق الرقيق في الجنوب .

وفي هذه الغضون ، حدثت تبدلات اقتصادية سريعة في ولايـــات الجنوب. فقد وقع انقطاعـــان طويلان في التجارة من عـــام ١٨٠٧ الى عام ١٨١٢ اثنـــاء الحروب النابوليونية ، ، ومن عام ١٨١٢ الى عـــام ١٨١٥ اثنـــاء الحرب مع انجلترا . وقد اضطر هذان الانقطاعـــان ولايـــات الشمال الى الاعتماد على صناعـــاتها الخاصة فقط وعلى تنميتهـــا . وهكذا حدث ان تمثل الرأسمال في الجنوب بالعبيد ، على حين اصبح يتمثـــل في الشمال بمزيد من المصانع . واقيمت هذه الصناعـــات بصورة متينة حتى ان آلات النسيج المقامة جعلت امريكا تستغني عن استيراد النسيج القطني الاجنبي . وكان هنـــاك في عـــام ١٨٤٠ (١٢٠٠) مصنع قطن في الولايات المتحدة ، معظمهـــا في انجلترا الجديدة . وفي حوالي عام ١٨٦٠ كانت منتوجاتهـــا تصل الى اكثر المناطق تخلفـــاً في الغرب .

وفي بنسيلفانيـــا ، كانت الصناعات المعدنية تتطور ببطء اكبر ولحمايتها ، ولحمـــاية الصناعات الوليدة الاخرى ، وضعت التعريفات الجمركية . ومع انهـــا كانت ضرورية جداً لاصحاب المصانع ، واصحاب مصانع الغزل ، الا ان مزارعي الجنوب لم يستفيدوا منهـــا مباشرة . وصرح سكان كاروليـنـــا الشمالية بان هذه الوسائل مخالفة للدستور لانهـــا تفرض الرسوم على الجنوب لحساب الشمـــال . واستمر النزاع على التعريفـــات الجمركية وازداد عنفه ، حتى ان ولاية كاروليـنـــا الشمالية اعلنت بطلان مرسوم عـــام ١٨٢٤ المتعلق بالتعريفات الجمركية ، واسمته « بتعريفات المقت » . واخيراً ، توصلوا الى حل اتفاقي حول الموضوع ، وانتهت المرحلة الاولى من الصراع على حقوق الولايـــات .

خلال هذا النزاع ، ولد سبب للفتنة بين الولايـــات ، اكثر صعوبة . ففي عـــام ١٨٠٣ ، اشترت فرنسا منطقة لويزيـــانا الواسعة . وفي عـــام ١٨١٩ ،

اشترت اسبانيا فلوريدا . وقد ضاعفت هاتان المنطقتان سعة الولايات المتحدة. وعندما انفصلت المكسيك ، في عام ١٨٢٢ عن اسبانيا ، ادت الاحتكاكات مع الولايات المتحدة الى قيام حرب التكساس في عام ١٨٣٦ ، والى نشوب حرب المكسيك في عام ١٨٤٦ . وقد اضافت هاتان الحربان اراضٍ جديدة واسعة ، ذات مساحات شاسعة الى اراضي الولايات المتحدة تعادل مساحة لويزيانا ، وهي اراضي ولاية تكساس ، وولايات مكسيك الجديدة ، والاريزونا ، وكاليفورنيا ، والنيفادا ، واوتاه وجزء من الكولورادو .

وقد احدث تملك هذه الاراضي الواسعة ، التي تحاذي اراضي ولايات الجنوب ، نزاعاً آخر هو التالي : هل ستكون الاراضي الجديدة ولايات يبقى فيها نظام الرق ام لا ؟ ففي الحالة الاولى ، سيتحكم الجنوب بالاتحاد، وفي الحالة الثانية سيتحكم الشمال ، ولذا فان المزارعين في الجنوب لم يصروا على بقاء نظام الرق والتوسع فيه فحسب ، بل انهم طالبوا ايضاً بالغاء القانون الاتحادي لعام ١٨٠٧ ، الذي يمنع الاتجار بالعبيد . وكان هذا الطلب طاباً يستحيل على الشمال تلبيته : فهو قرار لن يؤدي الى الحرب مع انجلترا فحسب [١] ، بل انه سيجعل بالتأكيد ديموقراطية الشمال في نظر العالم ديموقراطية محتقرة .

---

(١) في عام ١٨١٤ ، ارتبطت بريطانيا – العظمى والولايات المتحدة باتفاقية غنت GHENT وتعهدت كل منهما ببذل كل ما تستطيعان من جهود لوضع حد لتجارة الرقيق ، وقد اتفقتا فيما بينهما بموجب اتفاقية اشبورن ASHBURN في عام ١٨٤٢ على تعزيز هذه التدابير ، بالحفاظ على اساطيلهم الصغيرة على الساحل الغربي لافريقيا .

ولم يكن وجود الرقيق في الولايـــات الجنوبية هو الذي يزعج الشمال بل كان مـــا يزعجهم هو امتداد تجارة الرقيق الى المنـــاطق الجديدة . وهكذا استمر النزاع وبقي طيلة مدة بقـــاء كيـــان الولايات مزعزعـــاً وغير مؤكد . واقترب النزاع من ذروته ، الى ان ظهر على مسرح الاحداث رجـــل غير غير معروف ، هو ابراهـــام لينكولن (١٨٠٩ – ١٨٦٥) اثنـــاء رئاسة جيمس بوكانان (١٨٥٧ – ١٨٦١) . وقد عالج لينكولن هذا الموضوع الملتهب في حملته النيابية للحصول على كرسي مجلس الشيوخ عن ولاية ايللينوا ، بحس سليم . وضمن اهتمام مواطنيه عندما صرح قائلا :

« كل عائلة تنقسم على نفسهـــا تؤدي بنفسها الى الزوال . واني اعتقد ان الحكومة الحـــالية لا تستطيع ان تتحمـــل استمرار دعم نصف اعضائها لبقاء الرق ودعم النصف الآخر للحرية . واني لا اتوقع حـــل الاتحاد ولا ارغب بانهيـــار هذا المنزل العـــائلي – ولكنني آمل ان ينتهي هذا الانقسام ، وان تتفق العائلة الواحدة كلهـــا على الحل الاول او الحل الآخر » [١] .

وتسارعت الازمة التي كانت تقترب بسرعة ، عندما استولى جون براون من المتعصبين ، والمتحمسين لالغاء الرق ، في ١٦ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٨٥٩ ، على رأس ٢٢ واحداً من انصاره ، على مخزن اسلحة في هـــابرز فري بولاية فرجينيا ، بنية تنظيم تمرد للعبيد . وقد حرك هذا الحادث النزاع الى ذروته ، بالرغم من ان براون شنق بسرعة ، لانه كان يستهدف القيام بمذبحة بشرية واصبح مهدداً بنـــاء على هذا ، فاما ان يكون هناك اتحاد او لا يكون ، غير ان معارضته الغـــاء الرق ، ينبغي ان تقاوم حتى الموت .

---

(١) راجع :
THE LIVING LINCOLN, MANGLE ET EARL SCHENCK MIERS EDITEURS (1955), p. 212.

هكذا كان الوضع . عندما انتخب لينكولن ، في ٦ من نوفمبر (تشرين الثاني) رئيساً للولايات المتحدة الامريكية . وكان القرار الشعبي بانتخاب الرئيس اعلاناً للجنوب بانتهاء حام توسيع اسواق الرق . وفي ٢٠ من ديسمبر (كانون الاول) صوتت ولاية كارولينا الجنوبية على مرسوم بالانفصال مرسوم بالانفصال . وفي ١ من فبراير (شباط) قامت بالشيء ذاته ولايات جورجيا ، والباما ، والمسيسبي ، وفلوريدا ولويزيانا والتكساس [1] . واستدعت كل منها قوات المليشيا لخدمة العام ، واحتلت حصون الاتحاد الفيدرالي ومخازن سلاحه الواقعة في ولايات الجنوب . وفي ٤ من فبراير (شباط) ١٨٦١ ، اقيمت حكومة موقتة ، عرفت تحت اسم (ولايات التحالف الكونفيدرالي الاميريكي) ، برئاسة جيفرسون ديفس (١٨٠٨ — ١٨٨٩) ، في مدينة مونتغومري الواقعة في ولاية الباما .

واخيراً ، في ١٢ من ابريل (نيسان) ، كان التوتر شديداً جداً لدرجة لم يكن من الممكن ان يصمد الوضع معها لمدة طويلة ، وكان ينذر بالانفصال التام . وخلافاً للتعليمات والاوامر التي تلقاها الكونفيدراليون ، وفي صباح يوم لم يكن يتنبأ فيه اي فرد من الافراد بما تخبئه الاقدار في ذلك اليوم التاريخي ، قام الكونفيدراليون في شارلستون بقصف حصن سومتر . واعلن رعد مدافعهم بأن الجدل الذي استمر بين جيل كامل ستحسمه الحرب ، التي لن تكون حرباً بين حزبين سياسيين متعارضين بل ستحسمه

---

(١) وقد انضمت فرجينيا ، باستثناء القسم الغربي منها ، الذي اصبح في عام ١٨٦٣ ، ولاية فرجينيا الغربية ، والاركانساس ، والتينيسي ، وكارولينا الشمالية ، الى الاتحاد الكونفيدرالي فيما بين ١٧ من ابريل (نيسان) و ٢٠ من مايو (مايس) .

حرب حيـاة او موت بين مجتمعين يدافع كـل منهما عن حضارة مختلفة . وقد صور ستيفن بينيت حرب الانفصال هذه بصورة موجزة قائلا :

انهـا تمرد رعاة الارض
ضد الآلات ، وضد عصر البخـار [1] .

* * *

٢ ــ خصائص الحرب الاهلية الامريكية المميزة

كانت هذه الحرب ذات طابع مطلق نظراً لسعة هدفهـا وامتداده ، اذ كان هذا الهدف هو : هـل ينبغي ان يُحل الاتحاد ، ام ينبغي المحافظة على استمراره وبقـائه ؟ وفي الحـالة الاخيرة ، لا بد من خضوع الولايات الجنوبية دون قيد او شرط للولايـات الشمالية ، او ينبغي بكـل بساطة القضاء على ولايات الجنوب . وبنـاء على هذا ، ولمـا كان الجنوب يرفض الاذعان والخضوع ، كان الشمـال بالتالي مدعواً الى خوض حرب لا سبيل الى الحلول الوسطى فيهـا .

وقد كانت هذه الحرب مسبوقة بسنوات من الدعـاية القوية ، ازالت قبل وقوع الحرب بفترة طويلة كـل شعور بالاعتدال ، وايقظت لدى كـل

---

(١) ستيفن بينيت
STEPHEN BENET: JOHN BROWN'S BODY
(الطبعة الانجليزية ، ١٩٢٩) ، ص ٣٧٥ .

الاطراف روح التعصب القبـلي [١] البدائية الشاملة ، كمـا يتم عادة في الحروب الشاملة .

ولهذا ، وكمـا قال فاتيل : « انك اذا افسحت المجـال لاتهامات مستمرة ومتطرفة بين طرفين من الاطراف في نزاع مـا ... فان السلاح لن يعود الى غمده الا اذا دمر احدهما » [٢] .

ومن وجهة النظر الدستورية القانونية الامريكية ، لم يكن لينكولن الا ديكتـاتوراً . وقد اظهر ديكتـاتوريته من تلقاء ذاته ، عندما نشبت الحرب لانه اعلن الحصار ضد موانىء الجنوب ، وامر في الوقت ذاته باستدعـاء ٧٥,٠٠٠ متطوع لخدمة العلم دون مصـادقة الكونغرس الامريكي . واوقف ايضاً بسلطته الخـاصة تنفيذ قانون HABE AS CORPUS في اجزاء من ولاية مـاريلاند ، هذا القانون الذي ينص على ضرورة الحصول على امر قضائي قبـل محاكمة او سجن اي مواطن . وبهذا الشكـل تمكن من ايقاف كـل الاشخاص المشكوك بولائهم دون محاكمة : « فاعتقـل عمدة بالتيمور للاشتبـاه به بميوله الجنوبية ، وسجنه في قلعة من القلاع لمدة زادت عن سنة » ،

---

(١) اشار الى ذلك ستيفنسون في كتـابه LINCOLN . فقد كتب ان حالة فكرية جديدة تكونت في كـل انحاء البلاد : « وكانت مزيجـاً من كل العناصر التي تكوّن مشاعر العنف ، والتي تطلقهـا الحرب بصورة حتمية ... وكانت بعثـاً واحيـاء للتعطش الدموي البدائي الذي يكمن في كـل أمة مسالمة كوحش نائم . » (ذكر ذلك :
SAMUEL ELIOT MORISON ET
HENRY STEEL COMMAGER DANS: THE GROWTH OF THE AMERICAN REPUBLIC (1942) Vol. I, p. 673.

(٢) انظر الفصل الاول من الكتاب .

كمـــا هاجم الجنود قاض من القضاة في مـــاريلاند اثناء انعقاد الجلسة القضائية كان قد « كلف المحلفين بالتحقيق في اعمـــال غير شرعية قـــام بها عملاء الحكومة وضُرِبَ ، وجُرَّ من مقعده ، والدم ينزف منه ، وسجن مدة ستة اشهر » . هذه امثلة من الاعمال الديكتاتورية التي ذكرها موريسون كوماجه[١]

وفي الاتحـــاد الكونفيدرالي الذي شكله الانفصاليون ، كان الرئيس ديفيس رئيساً بالاسم ، ولكنه مستبد وطاغية مثـــل لينكولن . ولكن ، على حين كان لينكولن انسانياً ، وعلى خلق عظيم ، كـــان ديفس انانياً ومتكبراً ، لا يحب الجدل ، ولا الاصغـــاء للآخرين ، وكان لا يتسامح في عون او معارضة . ومع ذلك ، لو وضعنـــا هاتين الشخصيتين جانباً ، وجدنا ان الحروب المطلقة في حد ذاتهـــا تتطلب زعمـــاء مستبدين لخوضها .

٣ ـ المسائـــل الاستراتيجية

كانت الحكومة الكونفيدرالية تمد نفوذها من ريوجراند دل نورث الى خليج شيزابيك ، ومن الميسوري الى خليج المكسيك ، وكانت هنـــاك مساحات

---

(١) فـــاتيل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ١ ، صفحات ٦٩٩ ــ ٧٠٠ وقد اجاب لينكولن على سؤال وجه اليه في اجتمـــاع عام في ولاية البـــاني ، مدافعاً عن نفسه : « لقد جرت هذه الاعتقالات ، لا بسبب اعمـــال قام بها المذكورون ، ولكن بسبب احتمال قيامهم بها » .

وتبرز هذه الاقوال الروح الاستبدادية التي يتسم بهـــا لينكولن ، لانهـــا تجعل رئيس الحكومة فوق القوانين المرعية .

(من اجل جواب لينكولن راجع :

THE LIVING LINCOLN, pp. 545 - 554.

واسعة من الاراضي البكر في الاتحاد الكونفيدرالي . وكان سكان هذا الاتحاد ، يتراوح عددهم بين خمسة الى ستة ملايين من البيض ، وثلاثة ملايين ونصف من العبيد ، اي ان مجموع تعداد السكان اقل من نصف تعداد سكان ولايات الشمال . وكانت الموارد الصناعية الجنوبية معدومة ، فيما عدا مصانع تريدغار TREDEGAR للصلب في ريتشموند ، التي تنتج كمية محدودة من المدافع ، وبعض المصنوعات الحديدية الضخمة . وبما ان الولايات الجنوبية لا تمونها مصانع الشمال ، فانها كانت مضطرة بالتالي الى الاعتماد على اوروبا لاستيراد العتاد الحربي والبضائع المصنوعة التي كانت تأمل الحصول عليها عن طريق المبادلة بالقطن .

ومن الناحية الاستراتيجية ، كان الاتحاد الكونفيدرالي الانفصالي مقسوماً الى جزئين ، يفصل بينهما نهر المسيسبي ، وهو من اعظم شريانات المواصلات بين الشمال والجنوب . وكانت منطقة شرق المسيسبي الى المحيط الاطلنطي ، التي تشكل مسرح العمليات الرئيسي مقسومة الى مسرحين ثانويين بواسطة جبال الابالاش او جبال اليغاني ، وتمتد من البوتوماك الى الشمال في الاتجاه جنوب — غرب ، نحو شاتانوغا ، على نهر المسيسبي ، ونحو شمال الباما فيما بعد . والى الشرق من هذين المسرحين الصغيرين للعمليات كانت العاصمتان المتصارعتان ، العاصمة الاتحادية في واشنطن على البوتوماك والعاصمة الكونفيدرالية في ريتشموند ، على نهر جيمس ، على بعد ١٦٠ كم من العاصمة الاولى .

ونظراً لان الطرق كانت اساساً دروباً تصلح لسير العربات التي تجرها الخيول ، فان كل التحركات الهامة تمت طيلة مدة الحرب بالسكة الحديدية وبالطرق النهرية . وكانت اهم الخطوط الحديدية بالنسبة للاتحاد الكونفيدرالي

هي الخطين العرضانيين اللذان يصلان ريتشموند بالمسيسيبي ، ويتجه الخط الاول الى ممفيس ماراً بشاتانوغا ، والآخر يتجه نحو فيكسبورغ ماراً باطلنطا . وكانت اطلنطا تقع على بعد ١٦٠ كم تقريباً جنوب شاتانوغا ، وترتبط شاتانوغا بخط حديدي يبدأ من لويزفيل ، شمال كانتوكي ، ويمر بسافاناه في جورجيا ، مع خط فرعي يتجه الى شارلستون في كارولينا الجنوبية . وكانت شاتانوغا واطلنطا تتمتعان باهمية كبرى بالنسبة للجنوبيين . فلو خسرهما الجنوبيون انقطع خطا سكة الحديد العرضانيان ، وانقطع الاتصال بين مسرحي العمليات الثانويين .

ولم يكن في وسع الجنوبيين ان يطمحوا بغزو ولايات الشمال . فقد كانت المشكلة بالنسبة اليهم هي مقاومة الغزو . وبعبارات اخرى ، كانت المشكلة بالنسبة اليهم هي استنزاف الاتحاديين واجبارهم على الامتناع عن الحرب . ولزيادة اعباء الاتحاديين واستنزافهم ، كان من المهم حيوياً بالنسبة اليهم الحفاظ على الاتصال مع اوروبا ، وهذا الامر يتطلب المحافظة على حرية الملاحة في مرافىء الاتحاد الكونفيدرالي الرئيسية .

وبالمقابل ، لم يكن في وسع الاتحاديين التطلع الى غزو الاتحاد الكونفيدرالي الا بالتدريج ، اي لا بالقضاء عليه وبصورة منهجية ، وذلك بتضييق رقعة ارضه فحسب ، بل بالقضاء على موارده ايضاً ، الى ان يغدو من المستحيل عليه اعالة جيوش في الميدان . ومنذ مطلع الحرب ، كان القائد العام الاتحادي الفريق وينفيلد سكوت (١٧٨٦ — ١٨٦٦) يدرك اهمية العلاقات القائمة بين الضغوط الاقتصادية والعسكرية ، ويعي هذا الوضع وعياً كاملاً . وكانت خطته هي فرض حصار شديد على كل موانىء الجنوب وتشكيل جيشين في الوقت ذاته ، يتحرك الجيش الاول الى الميسيسيبي ويقطع الجزء الغربي من

الاتحاد الكونفيدرالي عن جزئه الشرقي ، على حين يهدد الجيش الثاني ريتشموند ، ويثبت الجزء الاكبر من القوات الجنوبية في فرجينيا .

وكانت تسعة موانيء جنوبية تتصل بالداخل بخطوط حديدية ، وكانت كل هذه الموانيء فيما عدا ميناء موبيل وشارلستون وفيلمينغتون بايدي الفيدراليين في ابريل (نيسان)١٨٦٢ ، وكان ميناء فيلمينغتون من اهم هذه الموانيء الثلاثة ، لان قيمته لا يمكن ان تقدر بثمن بالنسبة للكونفيدراليين . ويمكن القول انه يمثل المدخل الى هذه الموانيء الاخرى . ومع ذلك لم يحتله الفيدراليون الا في ١٥ من ينــاير (كانون الثاني) ١٨٦٥ : وكانت هذه الخطيئة خطيئة من الدرجة الاولى . اما مشروعات سكوت الاخرى فلم تنفّذ وتطبق الا في تاريخ متأخر اثناء الحرب. وبدلا من تنفيذ هذه المشروعات شنوا بدلا عنها معارك رئيسية للاستيلاء على ريتشموند ، اخفقت كلها حتى عام ١٨٦٥ .

واذا ما يممنا الآن وجهنا نحو الرئيس ديفس ، لاحظنا انه اخطأ في عدم فهمه بأن الوسيلة الوحيدة التي كانت متاحة امامه هي منع غزو اتحاده الكونفيدرالي ، وصد الاتحاديين ، على ان يحافظ على موارده ، وكان تحقيق هذا الهدف يتطلب منه اتباع استراتيجية دفاعية . غير انه طبق بدلا عنها استراتيجية هجومية . وحاول في الوقت ذاته حماية ريتشموند ، واخراج الاتحاديين من ساحة القتال بسلسلة من المعارك تستهدف احتلال واشنطن . ومع ذلك ، كانت الجغرافيا ، وكانت طرق المواصلات ، تؤكد ان منذ مطلع الحرب ان افضل طريقة لحماية ريتشموند هي في وضع جيش قوي في شاتانوغا ، وخوض معركة دفاعية – هجومية في التينيس ، على حين يغطي جيش اقل قوة من الجيش الاول العاصمة . فلو ان الجنوبيين خاضوا معركة حامية الوطيس في التينيسي ، لاضطروا القوات الاتحادية الى الانسحاب

من فرجينيا لمقـابلتها ، ولَـحَـمَـتْ هذه المعركة في الوقت ذاته مبـاشرة الخط الحديدي شاتانوغـا – اطلنطا الذي يتمتع بأهمية اساسية ، ولغطت بصورة غير مبـاشرة الممر الهـام على الميسيسبي في فيكسبورغ . ولقد حاولوا بصورة مشوشة ان يقوموا بعمـل من هذا النوع ، لان حمـاية الاتحاد الكونفيدرالي ترتبط باقتصاد الموارد اكثر بكثير من كسب المعـارك ، وكان خوض المعركة في فرجينيـا تبديداً بقوة الجنوبيين من غير شك .

وفي مطلع عـام ١٨٦٣ ، قام الجنرال ايليسيس . س. غرانت (١٨٢٢–١٨٨٥) بتاريخ ٣٠ من يناير (كانون الثاني) بالبدء بحملته ضد فيكسبورغ ، مستعينـاً بخطة سكوت [١]. وفي ٤ من يوليو (تموز) استسلمت له القلعة . وكانت النتيجة ان انعزل الجزء الغربي من الاتحـاد الكونفيدرالي عن الجزء الشرقي . وفيمـا بعد ، فتح غرانت طريق اطلنطا بانتصاره في شاتانوغا ، من ٢٤ الى ٢٧ نوفمبر (تشرين الثـاني) ، وكانت النتيجة هي اقتصار ارض الاتحاد الكونفيدرالي عمليـاً على فرجينيا ، وعلى ولايتي كارولينا وعـلى جورجيـا ، وأخيراً ، على حين كان غرانت قد ثبت حول ريتشموند الجيش الاساسي الكونفيدرالي الذي كـان يقوده روبرت لي (١٨٠٧ – ١٨٧٠) طيلة صيف ١٨٦٤ ، سار الجنرال وليلـيام شيرمان (١٨٢٠ – ١٨٩١) من شاتانوغا ، واحتـل اطلنطا في اول سبتمبر (ايلول) ، ومنهـا سار عبر جورجيا وولايتي كارولينـا على مؤخرات «لي». وقد ادت هذه الحملة المزدوجة

---

(١) احتـل الاتحاديون اورليئان – الجديدة في ٢ من مـايو (ايار) ١٨٦٢ ، ومن هذه المدينة ، وفي يونيو (حزيران) ويوليو (تموز) جرت محاولتان للإستيلاء على فيكسبورغ ، ولكنهمـا اخفقتا .

على خطوط خارجية الى استسلام الاتحـاد الكونفيدرالي في قصر العدل في ابوتومـاكس يوم ٩ من ابريل (نيسان) ١٨٦٥ .

٤ ـ الاعتبـارات التكتيكية

كانت القواعد التكتيكية للحرب اكثر من غريبة لانهـا كانت فريدة جداً . فقد كان عدد الجيش النظامي للولايات المتحدة ، قبـل بدء الحرب من ١٦ الى ١٧ الف ضابط وجندي . وكانت الاغلبية العظمى للضباط والجنود من الولايـات الشمالية ، كمـا ان نسبة مئوية كبيرة من الضباط كانت من الجنوب . وكانت النتيجة انه عندمـا حدث انفصال الجنوب ، بقي معظم الجنود موالين للاتحـاد ، على حين انضم كثير من الضباط ، ومعظمهم من أكفـأ الضباط واكثرهم مقدرة ، الى الاتحاد الكونفيدرالي . وكان من الممكن ان يترك هذا الانتقـال والتوزيع جيش الاتحاد بلا قـادة ، لو لم يكن هناك في تلك الفترة ضباط مجربون محـالون الى التقاعد ـ كمارك كليللان ، غرانت وشيرمان ، هذا اذا اقتصرنا على ذكر البـارزين منهم ، الذين كان من الممكن استدعـاؤهم للخدمة الفعلية . وبكلمة واحدة ، على حين كان الاتحـاد يملك جسد الجيش القديم ، كان الكونفيدراليون يملكون رأسه المفكر . ولهذا كانت النتيجة في الجزء الاول من الحرب ان تفوق الكونفيدراليون عـلى الاتحـاديين في الكفاءة الاستراتيجية والتكتيكية .

وفي البدء ، كـان الجيشان يعتمدان على التطوع الاختياري . ولكن ، عندما طالت الحرب ، كان من الضروري ان يستعينـا بالتجنيد الاجباري الذي طبقه الكونفيدراليون في ابريل (نيسان) ١٨٦٢ ، وطبقه الاتحاديون بعدهم بعـام واحد . وقد استدعى الاتحاد اثناء الحرب ، ٤٥ ٪ من سكانه الذكور الذين وصلوا الى سن حمـل السلاح ، الى خدمة العلم ، كمـا دعى

الكونفيدراليون حوالي ٩٠ ٪ من تعداد سكانهم . وقد بلغ عدد المجندين في الجيش الاتحادي ٢٨٩٨٣٠٤ ، وفي جيش الانفصاليين من ١٢٢٧٨٩٠ الى ١٤٠٦١٨٠ [١] طبقاً للرقم الذي اورده العقيد توماس ل. ليفرمور . وقد تجاوزت هذه الارقام كل ما عرف سابقاً عن تعداد الجيوش في التاريخ ، اذ لم يتجاوز المتنارعون هذه الارقام الا في عام ١٩١٤ .

وكان التكتيك المستخدم جديداً ، ولكنهم لم يلاحظوا جدته في ذلك الوقت . فمنذ حروب نابليون ، احدثت التحسينات الطارئة على الاسلحة النارية ثورة في التكتيك ، غير ان النظرية بقيت مع ذلك نظرية نابوليونية . وفضلا عن انهم لم يشيروا ابداً الى كتاب « في الحرب لكلاوزفيتز»، الا اننا نجد كتاب « موجز فن الحرب » لجوميني في حقائب ظهورهم المتعددة ، وفي زمن نابوليون ، كانت البندقية التي ترمي بواسطة حجر القدح ، ترمي الى مسافة ١٠٠ متر على الاكثر ، الا انها اصبحت منسقة بعد ظهور بندقية الرش باعتبارها سلاحاً متفوقاً . ولكن في عام ١٨٦١ ، استبدلت البندقية الحجرية بالبندقية المحلزنة مينيه ، التي كان مدى رميها المجدي يصل الى ٥٠٠ متراً على الأقل ، وهو مدى اكبر من مدى الرمي بالرش . وهكذا تعرض التكتيك لتطورات عميقة . واضطر المدفع الى التراجع خلف المشاة ، واصبح دعماً لها بدلا من ان يكون سلاح انقضاض . وكانت المشاة تفتح النار على مسافة ٥٠٠ متراً بدلا من ١٦٠ متراً . واختفى الانقضاض بالحربة بسبب اجراء الرمي عن مسافات بعيدة ، فكان رمي غزير ينصب اختيارياً

---

(١)
COLONEL THOMAS L. LIVER MORE: NUMBERS AND LOSES IN THE CIVIL WAR (1957), p. 63.

وهناك تقديرات اخرى ، ولكنها تختلف كلها ، ويختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً .

اكثر فـاعلية من رمايات النمصيلة مجتمعة ، ويتطلب المبـادأة الشخصية ومناورات تتم بنظام منتشر كي يحدث اثره الكامل .

وكانت اهم ميزات تكتيك هذه الحرب ، خاصتان ميزتـان هما :

الاولى : عدم جدوى الهجمـات الجبهوية .

الثـانية ضرورة حفر الخنادق الميدانية .

وهما ميزتان كانتا نتيجة لرصاصة البندقية المحلزنة .

وكان كـل هجوم جبهوي ضد عدو صـامد يؤدي في كل مرة الى اخفـاق متوج بخسائر كبيرة . ومع ذلك لم يفد هذا الدرس أحداً من الأطراف ففي ١٣ من ديسمبر (كانون الاول) ١٨٦٢ ، قـام الاتحاديون في فريد يريسكبورغ ، بقيادة بيرنسايد بهجوم جبهوي كبير ضد الانفصاليين ، الذين كـان يقودهم «لي» ، فردوا على اعقابهم بعد ان تعرضوا لخسائر كبيرة . وفي ٣ من يوليو (تموز) ١٨٦٣ ، قام «لي» ، في غيتيسبورغ بنفس الهجوم الجبهوي ضد الاتحاديين بقيادة ميـد ، ورد على اعقابه بعد ان تعرض لخسائر فادحة وفي ٣ من يونيو (حزيران) ١٨٦٤ ، اعاد غرانت الكرة مرتكباً نفس . الخطيئة ، فحصل على نتائج مماثلة .

وعلى امتداد الحرب كلهـا ، اصبح الرفش (المَرّ) مكملا للبندقية ، وكانت كـل معركة تمت بين غرانت ولي في ضواحي فرجينيـا معركة تحصينـات وخنادق [١] . وعندما وصل غرانت على مقربة من بترسبورغ وريتشموند ، تخندق الطرفـان وتحصنا ، حتى ان حرب الحصار بدأت

---

(١) كتب العميد تيودور ليمان ان : « خاصية هذه الحملة هو الاستخدام الغريب للتحصينـات والخنادق » .

MEADE'S HEDQUARTERS 1863-1865 (1922), p. 99.

ودامت حوالي عشرة اشهر . وحتى عندمـــا تقدم شيرمان الى اطلنطـــا ، في نفس الوقت ، الذي كان يتقدم فيه غرانت ، لم تكن سرعة حركة حملته ، بسبب مهـارته في مناورة جنوده ، بـــل في كفاءته في مناورة وتطوير خنادقه وتحصيناته .

وقد رسم العميد ليمـــان لوحة حية لمعركة من هذه المعارك ، اذ قال عنهـــا مـــا يلي :

« لقد شاركت ، في معركتين رئيسيتين ، وسمعت صفير الرصاص في كل مرة . ومع **ذلك نادراً ما رأيت احد العصاة** ، فيمـــا عدا القتلى منهم ، والجرحى ، او الاسرى ! وانني لأتذكر ايضاً ان ضباط القطعة ، الذين ساهموا في معركة شانسلورزفيـــل ... CHANCELLORSVILLE كانـــوا يقولون : « بصراحة ، اننا لم نرى ابداً جنود العصاة في المكان الذي كنـــا فيه . اننا لم نر سوى الدخـــان وادغال الاشجار الصغيرة ، ومجموعة من رجـــالنا يسقطون صرعى في المعـــارك » . وانني لأفهم الآن كـــل هذا فهما جيداً . فقد كان اكبر فن ، **هو تواري الجنود** واختفـــاؤهم ، لانه في اللحظة التي يظهرون فيهـــا يبدأ اثنا عشر مدفعـــاً بالهدير . فقد كان المدفعيون في غاية السرور عندما كـــانوا يجدون هدفاً حسناً لرماياتهم . « ان سهلكم الابيض الممتد » ، النموذجي ، بخطوط جنوده الطويلة الذين يتقدمون وينـــاورون ، يقودهم جنرالات على رؤوسهم قبعـــات ذات قرنين ، وفرق الموسيقى ، لا وجود لهـــا بالنسبة الينا . ان الامر هنـــا ، كما كنت اقول يتم بالشكل التالي : « من الجناح الايسر ! تقدم ! الى الامام ! » وعندئذ ، WRANG, WRANG وبعد ذلك يستمر المسير ثلاث ساعـــات او اربع او يستمر طوال النهـــار ، على حين يقرقع صوت الرصاص ، ويسقط الجرحى المساكين ، ينزفون دمهم ،

فيتراجعون الى الخاف . هذه هي المعركة الكبرى الامريكية » [١] .

ان رصاصة البندقية المحلزنة ، والرفش همـــا اللذان جعلا من الدفاع الشكل الاقوى من الحرب ، وهي ظاهرة اشار اليهـــا ليمـــان قائلا ما يلي : « ضعوا رجلا في حفرة ، ومركزوا خلفه على احد التلال بطارية مدفعية جيدة ، فان هذا الرجل سيصمد خصمـــاً يتفوق عليه ثلاث مرات في العدد ، حتى ولو لم يكن جندياً ممتازاً » [٢] . وقد كتب فرانك فيلكوسون ما يلي : « لقد لاحظت ، قبـــل ان اغادر شمال آنا مايو (ايار) ١٨٦٤ ، ان مشاتنا اصيبت بالاعيـــاء من الانقضاض على الخنادق الميدانية . ويدعي الجندي العـــادي بان المقاتل الجيد المتخندق يساوي ثلاثة جنود غير متخندقين »[٣]. وينبغي ان نتذكر ان هذا كان يحدث في زمن البندقية المحلزنة ، التي تلقم من فوهة السبطانة .

وكانت هنـــاك تغيرات اخرى قد حدثت : فقد اختفى انقضاض الخيالة ، واصبح المدفع المحلزن هو السلاح المفضل ، وخلعت الحربة عن عرشهـــا الذي تبوأته . وقد كتب شاهد عيـــان هو الجنرال جون ب . غوردون عن هذا السلاح مـــا يلي : « كانت رؤية الرماح المزبرة ، والحراب اللامعة مخيفة جداً عندما تنتصب في جبهة انقضاض المشاة ، غير انها لم تكن مصبوغة ابداً

---

(١) العقيد ليمـــان LYMAN ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٠١ .

(٢) العقيد ليمان LYMAN ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٢٤ .

(٣) فرانك فيلكوسون FRANK WILKESON
THE SOLDIER IN BATTLE, OR LIFE IN THE RANKS OF THE ARMY OF THE POTOMAC (1896) p. 99.

بالدمـــاء فقد ولت ايام الحربة الى غير رجعة » (١) . وكتب الرائد الطبيب ج. هـــارت انه لم ير سوى جروح قليلة بالحراب « فيمـــا عدا بعض الجروح العـــارضة ... واعتقد انني اعتنيت بستة جروح من هذا النوع فقط » (٢) .

كانت الحرب التي خاضهـــا غرانت و « لي » ،وشيرمان ، وجونستون ، وكل القادة الآخرين حرب رصاص البندقية المخلزنة وحرب الخنـــادق , والمحطومات ، وشبكـــات الاسلاك الشائكة ايضاً ، وهو نوع من الحواجز سماه الانفصاليون المتحالفون « اختراعـــاً شيطانياً لا يستطيع ان يتخيله الا الامريكي« اليـــانكي » لانهم وقعوا فيهـــا في دروفريز بلاف DREWRY'S BLUFF بتاريخ ١٦ من مـــايو (ايار) ١٨٦٤ ، كما يقع المرء في مصيدة و « ذبحوا فيهـــا كمـــا يذبح الحجل » (٣) . وكانت حرباً متمدينة بصورة مدهشـــة اذ استخدمـــت فيهـــا هاونات من الخشب المطوق بالاسلاك الحديدية ورمانات يدوية ، ومجنحة ، وصواريخ ، وآلاف الافخاخ والمصائد المتعددة الاشكال والانواع . واستخدم فيهـــا رشاشات ريكا REGUA ، وغاتلينغ GATLING ، وبندقية التكرار التي تلقم من المغلاق ، وبندقية سبنسر . وقد جربت في هذه الحرب الطوربيدات ، والالغـــام الارضية ،

---

(١) GENERAL JOHN B. CORDON: REMINIXENCES OF THE EIVIL WAR (1904) pp. 5-6.

(٢) PAPERS OF THE MILITARY HISTORICAL SOCIETY OF MAS SACHUSSETS (1913), Vol. XIII, p. 265.

(٣) BATTLES AND LEADERS OF THE CIVIL WAR (1888) Vol. IV, p. 212.

والغـــام الغوص ، وبرق الميدان ، والاشارات الضوئية ، والاشارات بالاعلام واستخدم المتحاربون القطارات المدرعة ، والمنـــاطيد ، ومع ان الجنوبيين لم يهتموا بالمنطـــاد كثيراً ، الا انهم صنعوا منطاداً من الالبسة الحريرية . ومن سوء حظ الجنوبيين ان هذا المنطاد وقع بيد الشمـــاليين . وقد قال الجنرال تـــاليافيرو [١] « كانت هذه الضربة اقذر ضربة من ضربـــات الحرب » . وقد ذكر البعض ان المتحـــاربين استخدموا رصاصات متفجرة فيهـــا [٢] واستخدموا قاذفـــات اللهب [٣] . وفي يونيو (حزيران) ١٨٦٤ ، سأل الجنرال ف. ن. باندلتون رئيس مهندسي المدفعية في ريتشموند ، فيمـــا اذا كان يستطيع تزويده بقنابل الغازات التي تنطلق منهـــا « غازات هجومية » وتسبب « آثاراً خـــانقة » . فتلقى الجواب التـــالي على طلبه : « أوعية محرقة . ليس لدينا . لا نحتفظ بهـــا . مستعدون للصنع تلقينـــا امراً بذلك » [٤] . على ان عملية « التموين » والتصنيع الحديثة لم تتوقف عند هذا الحد ، لان الحرب فوق البحـــار قد طرأ عليهـــا تطور ثوري بصنع الفرقاطات المدرعة ميريماك ومونيتور [٥] في يوم واحد ، هو يوم ٩ من مارس (آذار) ١٨٦٢ ، واصبحت

---

(١) المرجع المذكور في الملحوظة ٣ ، ص ٥١٣ ، جزء ٢ .

(٢)
GEORGES WISE: CAMPAIGNS AND BATTLES OF THE ARMY OF NORTHERN VIRGINIA (1916), p. 190.

(٣)
MEADE'S HEADQUARTERS, p. 284.

(٤)
THE WAR OF REBELLION, Vol. I XIX, pp. 888 - 889.

(٥) راجع كتاب :
BATTLES AND LEADERS OF THE CIVIL WAR Vol. I. pp. 696 - 709.

المراكب الخشبية المصنوعة في العالم كله مراكب عتيقة . » وقد بنى هوراس ل. هنتلي في موبيل ، غواصة طولها ٦ امتار ، وارتفاعها ١,٥٠ م ، وعرضها ١,٠٥ م ، تندفع بواسطة مروحة يحركها من الداخل سبعة او او ثمانية من الرجال »[1] . وفي ١٦ من فبراير (شباط) ١٨٦٤ ، اغرقت هذه الغواصة مركب الولايات المتحدة الامريكية هو ساتونيك في مياه شارلستون الدولية وغرقت معها .

٥ ـ الانهيار المعنوي

مع حصول الدفاع على قوة جديدة ، اصبحت المعركة اكثر استماتة واقل حسماً ، واضحت نهاية الحرب بعيدة ، واشتد الحقد فيها والتهب وكانت خيبة الامل قاسية لدرجة ايقظت روح الثأر في قلب الاتحاديين ضد كل شعب الجنوب . وكان العنف مقتصراً على الجبهة الخارجية فيما عدا بعض الاستثناءات اذ كان العنف يوجه في الاساس ضد قوات الانفصاليين (الكونفيدراليين) الى ان بدأ غرانت وشيرمان حملتهما المشتركة في عام ١٨٦٤ . وانتقل هذا العنف فيما بعد الى الجبهة الداخلية ، اي ضد القواعد المعنوية والاقتصادية للحكومة الانفصالية (الكونفيدرالية) ، وضد جيشها في الوقت ذاته . ويعزى تبديل اتجاه العنف ، وتحوله نحو مزيد من العنف في الحروب اللاحقة ، الى الحضارة المادية المتزايدة للشمال .

---

(١)
PAPERS OF THE HISTORICAL SOCIETY OF MASSACHUSSETS Vol. XIVI pp. 450 - 3.

ويؤكد رودس ان«لي» كان يشبه واشنطن ، في ملامح شخصيته الاساسية[1]. وهو ينتمي بالتـالي وبنـاء على هذه الصفات الى القرن الثـامن عشر ، والى العصر الزراعي في التاريخ . امـا شيرمان ، وبدرجة اقـل غرانت وشيريدان وجنرالات اتحـاديون آخرون فانهم ينتمون الى عصر الثورة الصناعية . وكان المبدأ الموجه الرئيسي الذي يسترشدون به هو مبـدأ الآلة ، ومردودها بالطبع . ولمـا كان القانون الوحيد الذي يتحكم بمردود الآلة هو ان الغاية تبرر الوسيلة ، لم يكن من الممكن التسامح بوجود تصاميم او تصورات معنوية وفكرية ، او وجود سلوك تقليدي يقف حجر عثرة امام تحقيق هذه الغـاية .

وكان شيرمان هو اول محرض لهذه العودة الى البربرية . فقد خرق كل صلاته باتفـاقيات الحرب التي تمت في القرن التاسع عشر ، وقـام بالحرب مستخدماً الحديد والصلب ، بلا شفقة ولا رحمة ، مثله مثـل كالفان عندما اعلن حرب الكلام دون شفقة ولا رحمة . وبعد كفـاح شرس وقاس ، استولى شيرمـان في ١ من سبتمبر (ايلول) ١٨٦٤ على اطلنطا التي تعتبر « البـاب الجنوبي » لدولة الانفصال ، وكان مصممـاً على ان لا يترك اي اثر للأعداء خلفه ، لذلك نراه يجلي كل السكان . وقد فسر ذلك في رسالة كتبهـا الى الجنرال هالليك ، رئيس هيئـة الاركان العامة في واشنطن ، اذ كتب اليه يقول : « لو زمجر السكان واحتجوا ضد بربريتي وشراستي ، فانني سأرد عليهم ان الحرب هي الحرب ... فاذا كـانوا يريدون السلم ، عليهم ان يوقفوا هم وعـائلاتهم الحرب »[2] .

---

(١) RHODES: History of the United State (1893 - 1906) Vol, III, P, 413,

(٢) GENERAL W. T. SHERMAN: PERSONAL MEMOIRS (1957) Vol. II, p. 111.

وكان هذا الاجراء يعتبر في القرن التاسع عشر ، مفهوماً جديداً ، يعني ان العامل الحاسم في الحرب ، والقدرة على طلب السلم ، انتقلا من الحكومة الى الشعب ، وان تهدئة الفتنة واخمادها نتيجة من نتائج الثورة . وكان معنى هذا تطبيق مبدأ الديموقراطية الى آخر درجة من درجاتها ، واتباع نظرية الهجوم البسيكولوجي في الوقت ذاته ، وهو جوهر الحرب الماركسية . وقد قال جورج نيقولسون الذي كان احد المرافقين العسكريين لشيرمان عنه ما يلي : « انه ديموقراطي ، في افضل تعبير مقبول للديموقراطية . وليس في شخصيته اية سمة اوروبية . انه نموذج رائع من نتاج مؤسساتنا [١] » .

وعندما بدأ شيرمان فيما بعد مسيرته المشهورة عبر جورجيا ، جعل من مفهوم الحرب الجديد هذا مبدأه الموجّه ، وقاتل سكان الجنوب بنفس العنف الذي قاتل فيه قواتهم المسلحة .

ولم يعرف الغرب مسيرة مماثلة لهذه المسيرة منذ اعمال النهب التي تمت في تيللي ، وفالانشتاين اثناء حرب الثلاثين عاماً . فقد اشار شيرمان الى ان الثوار الجنوبيين اظهروا شراسة كبرى ، كما انهم ما زالوا يمارسون العنف . غير ان الاعمال الفظيعة التي ارتكبوها ، لم تكن تتعدى حدود الاعمال الفردية ، اذ لم تكن اعمالا سياسية . وقد اطلق جيفرسون ديفس على شيرمان

←وقد اعطى شيرمان التفسير التالي حول هذا الموضوع اذ قال: « لقد كنت اعرف بالطبع ، ان مثل هذا التدبير سينتقد بعنف ، الا انني قررت ان اضعه موضع التنفيذ ، وانا واثق كل الثقة بانه كان اجراء صحيحاً ، وان الزمن كفيل بتبرئته والحكم على تعقله » .

(١) MAJOR GEORGES W. NICHOLS: THE STORY OF THE GREAT MARCH (1865) p. 80.

لقب « آتيلا القارة الامريكية » [١] . وكان محقاً في ذلك الى حد ما .

وكان الارهـاب هو العنصر الاساسي في سياسة شيرمـان ، كما صرح بذلك بمنتهى الصراحة . وفيمـا يلي ثلاثة اقوال منتقاة من عدد كبير من تصريحـاته :

« والى ان نستطيع اعادة اسكان جورجيا بسكان آخرين ، لا فائدة من احتلالهـا ، نظراً لان التدمير التـام للطرق والمنازل والسكان سيقضي على كل مواردها العسكرية ... وفي وسعي ان اتابع التقدم جاعلا جورجيا تعوي وتصرخ » [٢] .

« ولو اضطررت الى الهجوم ... فانني اشعر عندئذ بان من حقي اللجوء الى اقسى التدابير ، رسأحاول جهدي عدم كبح جماح جيشي » [٣] .

« اننـا لا نحارب جيوشاً معادية فحسب ، بـل اننا نحارب ايضاً شعبـاً معادياً ، وعلينـا ان نجعل الشيوخ والشبان ، والاغنيـاء والفقراء ، يحسون بقبضة الحرب الحديدية ... والحقيقة ان كل الجيش يغلي برغبة لا يخمـد اوارها للانتقـام من كارولينا الجنوبية . وان فرائصي لترتعد من مصيرهـا المرتقب » [٤] .

---

(١) JEFFERSON DAVIS: THE RISE AND FALL OF THE CONFEDERATE GOVERNMENT (1881), Vol. II, p. 279.

(٢) THE WAR OF THE REBELLION ETC., Vol. I. XXIX, p. 162.

(٣) THE WAR OF THE REBELLION ETC., Vol. I. XXIX, p. 737.

(٤) THE WAR OF THE REBELLION ETC., Vol. XCII, p. 799.

وكان شيرمـــان يؤمن بان جيشه « اداة للعدالة الإلهية » [١] . كمـــا كان يؤمن نيقولسون تمـــاماً . وقد قال هيتشكوك احد مرافقي شيرمـــان العسكريين الشيء ذاته تقريبـــاً : « انها الحرب الآن ، التي لا يمكن ان تستمر الى الابد . فليمنحنـــا الله السلم ولكن لن يستتب السلم ، ويصبح ممكناً الا بالخضوع خضوعـــاً تامـــاً للحكومة . ويبدو هذا الخضوع مستحيلا اذا لم نلجأ الى الارهاب الذي تسببه الحرب » [٢] ، كمـــا ان « شيرمان كان على حق : فالوسيلة الوحيدة لانهـــاء هذا النزاع القاسي والكئيب ... هو جعله مخيفـــاً الى درجة تتحدى كل مقاومة » [٣] .

وقد كان الجنود ممنوعين من الدخول الى المساكن الخاصة او « ارتكاب جرائم » . ولكن نظراً لانهم تلقوا اوامر « بالتفتيش عن المراعي لخيولهم اينما وجدوا هذه المراعي » فقد كانوا لا يهتمون بهذه النواحي ، لان « الانتجاع » يعنى وضع الكلأ في داخل اكياس ، ويعني النهب . وكتب هيتشكوك قائلا ما يلي : « كان الجنود يرعون خيولهم بحرية تامة » ، ويستولون على كل ما يجفف فوق سطوح المنـــازل . وبعد ان تركنا احد المنازل واجتزنا مسافة معينة ، رأينا مخزن غلته الزراعية وقد التهمته النيران .. » [٤] ، « وقد مررنا بالامس

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٠١

MAJOR GEORGE W. NICHOLS

(٢)

HENRY HITCHCOCK, MARCHING WITH SHERMAN, LETTERS AND DIAIRIES OF HENRY HITCHCOCK (1927), p. 53.

(٣)

HITCHCOCK p. 35.

(٤) هيتشكوك ، المرجع المذكور ، ص ٨٢ .

في مزروعـــات السيد ستبس . وكان المنزل ، وآلة فرز بذور القطن ، والمعصرة ، واكوام القمح ، والاسطبلات ، وكـــل ما يمكن ان يحترق ، قد التهمته النيران .. وحيثمـــا مر جيشنا قتل كل شيء يساوي حجمه حجم كلب او يزيد » . (١)

وكانت احدى نتائج الانتجاع دون قيود ، الذي كان في الحقيقة نوعـــاً من القرصنة ، هي تراخي الانضبـــاط . فقد اصبح الجيش نوعاً من الغوغاء . وقد اشار هيتشكوك الى ذلك قائلا مـــا يلي : « ليس هناك اليوم طلقات نارية موجهة الى مجنباتنا ، بـــل هناك جنود « ينتجعون » وينتشرون . ويبدو للمبتدىء الحديث ان هذه الاعمـــال نوع من العادات ولو انها بعيدة عن الانضباط » (٢).

وكان شيرمان عـــاجزاً عن ايقاف السلب والنهب الذي اطلقه من عقاله ، دون سبب او دافع . واليكم مثالان على ذلك :

« ان الرجـــال هم الذين يقومون بهذا العمـــل . ضعوا ما شئتم من الحراس ومع ذلك ، سترون انهم سيفرون وسيحرقون كـــل شيء . وقد اغلقت المحاكم لعدم جدواهـــا في مثل هذه الاوضاع ، وربمـــا احترقت المدينة بكاملها .. انني لم اعط الامر بذلك ، غير انني لا استطيع ان احول دون وقوع هذا الحريق . وانني اقول ان جيفرسون ديفس هو الذي حرقها كلها » (٣) . فاي اعتراف بالعجز ، هذا الاعتراف ! !

وفي ٢١ من ديسمبر (كانون الاول) وقع سافاناه بين يدي عصابة شيرمان

---

(١) هيتشكوك ، المرجع المذكور ، ص ٥١ — ٥٢ .
(٢) هيتشكوك ، المرجع المذكور ، ص ٥٣ .
(٣) هيتشكوك ، المرجع المذكور ، ص ٨٣ .

للنهب والسلب ، التي تسير في مؤخرة ارتـالها الآن آلاف مؤلفة من الزنوج اللصوص . وفي صبيحة اليوم التـالي ، قدمه شيرمان الى الرئيس لينكولن كهدية بمناسبة عيد الميلاد : وكانت ولايتـا كارولينا قد خربتا تماماً . وقدر شيرمان الخسائر الناجمة عن الاضرار التي لحقت بجورجيا بمائة مليون من الدولارات ، منهـا عشرون فقط « لصالحنا » كتعويض . امـا الباقي فكان « تبديداً وتدميراً فقط » [١] .

وقد استنكر عدد كبير من ضباط شيرمـان ، وبخاصة الجنرالات ج. س. ديفيس ، هـ. سلوكوم ، ج. ر. هافلي و ج. كيلبـاتريك ، هذه الوحشية . حتى ان هيتشكوك ذاته قد هـاجمها بانهـا وحشية سيئة من وجهة النظر المعنوية [٢] . ويشير المؤرخ رويس بشكل صائب « بأن العمليـات العسكرية لا تنظم بقصد العقاب على اخطـاء سياسية » ، وانه بنـاء على ذلك « سواء اكـان شيرمان قد دمر الممتلكات عن سابق تصور وتصميم ، او انه تسامح في تدميرها وتساهـل ، لانها لم تكن ضرورية لتموين جيشه او الجيش المعادي فانه خرق احدى القواعد الاساسية للحرب الحديثة ، وانه ... خـاض الحرب بمبـادىء عتيقة وبربرية » . وقد كان على حق ايضاً عندما اشار الى ان عمليات السلب والنهب التي قـام بها جيش شيرمان ، والتي كانت تستهدف معاقبة

(١)
The war of the Rebellion, etc., Vol. XCII, p. 13
وكان شيرمان يعبّر في كل برقياته ، بعد ان وصل الى البحر ، عن فرحه وسروره بشكل خبيث من تدمير الممتلكات » .
(RHODE: HISTORY OF THE UNITED STAT Vol. V. p. 22.

(٢) المرجع المذكور سابقاً ، صفحات ٨٦ ــ ٨٧ و ٩٢ ــ ٩٣ .

انصار سياسة الانفصال ، كانت ذات اثر ضعيف على عمليات غرانت في فرجينيا [١] .

٦ ـ آثار الحرب ونتائجها

ومن الاشياء الغريبة جداً عن شيرمان ، الكلمات المحفورة على قاعدة تمثاله الذي اقيم في واشنطن ، وهي احدى الحكم المأثورة من اقواله التي صرح بها في احدى المرات : « ان الهدف الشرعي للحرب هو سلم افضل » ويبدو انه لم يستطع ان يعترف بشكل صريح ان النهب والحرق الاختياري وسائل شرعية للوصول الى السلم . ومن المؤسف ان الشراسة التي اعتمد عليها في حربه قد استمرت مطبقة خلال السلم الذي تبعها .

وفي ١٤ من ابريل (نيسان) ١٨٦٥ ، اي بعد خمسة ايام من استسلام «لي» ، اغتيل الرئيس لينكولن . وكانت محاكمة المتهمين المشتركين في مؤامرة الاغتيال ، الذين ادعت الشرطة بانهم هم المتهمون ، قد امتدت ثمانين يوماً ، واصبحت من اكبر مهازل العدالة ، عندما ادعى مفوض الحكومة المساعد في صلب الاتهام قائلا ما يلي : « ان العصيان ، الذي نظمت مؤامرة الاغتيال لصالحه ، ارتكب هذه الجريمة الكبرى ضد مسؤول كبير ، هو بحد ذاته .. مؤامرة اجرامية واغتيال كبير » [٢] . وهكذا وقف سكان الجنوب كلهم يواجهون هذا الاتهام متهمين بهذه الجريمة .

وفضلا عن ان الحرب الاهلية قد ادت الى تدمير الجنوب وخرابه ، وبالرغم

---

(١)
PAPERS OF THE MILITARY HISTORICAL SOCIETY OF MASSACHUSSETS (1895) Vol. 10, pp. 148 - 151.

(٢)
OTTO EISENSCHIML: WHY WAS LINCOLN MURDERED? (1937) p. 245.

من ان آلامه قد ازدادت حدة بسبب الانتقام منه خلال سنوات النهوض ، غير انها جلبت النصر الى الشمال ، وجلبت الى الشمال مع النصر رخاء لا سابقة له .

وقد كتب موريسون وكوماجيه ما يلي : « لم يظهر الامريكيون ابداً ، قبل هذه الحرب مثل هذه الحيوية الكبرى . كما ان هذه الحيوية لم تمارس نشاطها قبل ذلك بمثل انعدام التفكير الطائش الذي اتسموا به . فقد كان كل شيء ممكناً بالنسبة للجيل الذي انقذ الاتحاد : فلم يكن هناك مجال من المجالات ، فيما عدا مجال الفكر ، لا يستطيعون غزوه . فقد كان الرجال ينقضون على القارة باندفاع شرس ، وكأنهم يريدون ان يسلبوها كل ثروتها » (١)

وكانت موارد هذه الامبراطورية الجديدة لا تنضب ، فقد كانت هناك وفرة في الفحم ، والحديد ، والبترول ، والعمل ، والطاقة الشخصية . وكانت الاختراعات تنبعث من مناضد الرسم ، والبضائع تخرج من المصانع ، كما كان القمح يجنى من الحقول ، على حين كان هناك مئات من الوف المهاجرين يتدفقون الى المدن والسهول .

وفي خلال جيلين بعد انتهاء الحرب ، اصبحت الولايات المتحدة اكبر دولة رأسمالية وصناعية في العالم . وقد سماها ستيفن فنسنت بينت « اكبر

(١)
MORISON ET COMMAGER, OP, CIT, Vol. II, p. 9.

وحش معدني » ووصف اندفاعهـــا بعد النضال الضاري للحرب الاهلية في هذه السطور الراهيبة :

بعضلات جون براون القويـــة
بالعضلات التي صنعهـــا الشمال العملاق
ترتفع اليوم ناطحات السحاب
وترتفع كل المنشآت المتمـــاثلة
ان العامل الامريكي الشجـــاع
بيده المفتولة العضـــل
يحرك الدعـــامات
ويدير المحركات
ويطلق عنان المولدات والرافعات
فتلتهب الدنيا بالحياة
حيث تتصاعد اعمدة الدخان في النهار لتحيله الى ليل
وحيث تشتعل السنة اللهب في الليـــل لتحيله الى نهار
ووسط هذه الحياة الهـــادرة
تولد المدن ذات الوجه الفولاذي
لترفع حضارتها العملاقة الى عنـــان السماء
مدن تسري الحياة في نبضها
فتهزم الليل بوميض الكهربـــاء الساطع
ثم تحي ورداؤها العظمة والجلال
ولكنهـــا وسط ذاك الجلالة والعظمة
تسري فوق وجهها الفولاذي سحابات الاسى

ليصبح الوجه اكثر شحوبـــاً من حرير دمشقي
ترتديه عروس من زجاج
هذه هي مدننا الجديدة
مدننا العظيمة البـــائسة
التي صنعت لنفسها شموساً معدنية
تحكي حكاية العصر الآلي
ذلك العصر الذي صنعناه بأيدينا
ليكون جنّيـــاً رهيباً يحكم ارضنا الطيبة [١]

---

(١) ستيفن بنيت ، المرجع المذكور ، ص ٣٧٦ . STEPHEN BENET

الفصل السابع

مولتكه، فوش وبلوخ

١ – الفيلد مارشال دو مولكته

عرفت بروسيا لأول مرة بضرورة وجود هيئة أركـــان عـــامة فعلية بعد هزيمة نابليون اذ كان افتقار نابليون الى مثل هـذه الهيئة من اسباب انهيار نظامه . وبالرغم من ان جذور تشكيلها في بروسيا كانت موجودة قبل معركة يينــا ، الا انها لم تنشأ بصورة فعلية وكهيئة اركان حقيقية ، لا عندما بدأ الجنرال جيرهـــارد شارنهورست يمـــارس مسؤولياته، كوزير للحرب ، في اعـــادة تنظيم الجيش البروسي . وقد اضاف شارنهورست الى الوزارة فرعـــاً خاصاً مهمته التقاط المعلومات ، والاهتمام بالمسائل الاستراتيجية اوالتكتيكية ، واعداد العمليـــات ، لمساعدته في انجاز مهمته في الوزارة . وقد عين شارنهورست ايضاً ضباط اركان في التشكيلات العسكرية ، كي يوسع اشرافه على كـــل الجيش .

وفي عـــام ١٨٢١ تعرضت هيئة الاركان هذه لبعض التغيير : اذ تسنم الملك القيادة العليا للجيش ، وفصلت الاركان العامة عن الجيش ، واصبح رئيسها المستشار الخـــاص للملك . غير ان ادارة الجيش بقيت بين يدي وزير الحرب . وبعد اربعين عامـــاً ، عندما اصبح غليوم الاول ، الذي كان عسكرياً بالفطرة وبالاكتساب وبالتعليم ، ملكـــاً على بروسيا ، بدأ في اعادة تنظيم الجيش

وفي انشاء قوة فعليـة مؤلفة من ٣٧١,٠٠٠ ضابط وجنـدي . يعززهم احتيـاط مؤلف من ١٢٦,٠٠٠ جندي وكان غليوم الاول ، في عـام ١٨٥٧ قد عين الكونت هيلموت دومولتكه (١٨٠٠ – ١٨٩١) رئيساً لهيئـة الاركان العامة عندما كان وصياً على العرش . ثم انتقى فيمـا بعد ، في عـام ١٨٥٩ الكونت البرخت دو رون ROON (١٨٠٣ – ١٨٧٩) وزيراً للحربية . ولكي ينهي تشكيـل دولته ، عين في عـام ١٨٦٢ اوتو دو بسمـارك (١٨١٥ – ١٨٩٨) رئيساً للوزراء ، ووزيراً للخارجية . وكانت العناية الالهية قد خصصت هؤلاء الرجـال الثلاثة لاخراج بروسيا من موقعها الضعيف الاهمية ، الى موقع يؤمن لها السيادة في اوروبا .

ومع ان مولتكه كان متمسكـاً بسلطته ، الا انه كان رجلاً متواضعاً الى حد كبير ، ومثقفـاً كبيراً ، وعسكرياً كاملاً بكل مـا يحمله هذا التعبير من معان . وكان يعتبر الحرب علمـاً او فناً اكثر من اعتبارها مشكلة او قضية من القضايا ، تمثـل القوة العسكرية فيها الرأسمال المستثمَر ، ويمثـل انتصارها الفائدة المستحقة . وقد درس مولتكه الحرب دراسة عميقة ، وكـان قد تمثل بشكل جيد طرق نابليون ونظريـات كلاوزفيتز . فلم يكن يطبقهـا بشكل اعمى ، بل انه كان يطابقها ويوائمها مع التحسينات الطارئة على التقنية . وقد علمه نابليون بأن المنـاورة هي روح الحرب ، وان السكك الحديدية قد اصبحت بالتـالي اهم عامل من عوامل الاستراتيجية . وعلمه كلاوزفيتز ايضاً ان الديبلوماسية والاستراتيجية مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً . ولهذا كان يهتم كثيراً بالمسائل السياسية وبالمشكلات الخـارجية . وكان من اوائل من احسنوا تقدير القوة الدفـاعية للبندقية المحلزنة التي تلقَّم من فوهة السبطانة ، واستنتج من ذلك ، ان الهجمـات الجبهية ، فيمـا عدا الهجمات الجبهية التأخيرية ،

ستكون على احسن تقدير ، كثيرة التكاليف لكي تكون مجدية وذات مردود . وهكذا كان يرى ان من الواجب البحث عن النصر بتطويق الخصم . وكان مؤلفاً مسهبـاً في كتاباته ، لم يكتب عدداً كبيراً من كتب التاريخ العسكري ومؤلفاً فنيـاً عن الخطوط الحديدية فحسب ، بـل انه ايضاً وضع مشكلاته كتابة ، وحللهـا واعاد النظر فيها مرات ومرات الى ان اصبح راضياً عن الحلول التي توصل اليهـا .

وقد قادته الدراسات التي قـام بها الى تقدير اهمية لامركزيـة القيادة بسبب ازديـاد عدد الجيوش وتضخمها ، وانتشارها الواسع ، وامكانيات مناورتها التي تكتسب مزيداً من السرعة . وبالاضافة الى ذلك ، وبمـا انه لم يكن هناك خطة عمليات يمكن تطبيقهـا بعد الصدمة الاولية لقوات هـامة بثقة واطمئنان ، فان من واجب القواد الاعوان في رأيه ان يعملوا طبقـاً لبديهتهم الخـاصة ، شريطة ان يتقيدوا بعقيدة مشتركة . وبنـاء على ذلك ، ينبغي ان تحـل التوجيهات العامة محل الاوامر المفصلة عندما تبدأ المعركة . ينتج عن ذلك احتمـال الغموض او الالتباس كمـا حدث في مناسبات عديدة في عـام ١٨٧٠ . ولكن مولتكه يقبل بهذا الالتباس لانه اهون الشرّين ، الذي يعتبر اهمهما تبديد الوقت وضياعه .

وقد كتب مولتكه في عام ١٨٦٠ مذكرة عن حشد الجيش البروسي في حالة الحرب مع النمسا . وفضلا عن ان هذه المذكرة طويلة جداً لا نستطيع اضافتهـا الى هذا الفصل ، الا ان ذكر بعض خلاصات مقاطعهـا الاولية تعطينا فكرة عن الطريقة التي كان يستخدمهـا مولتكه عندما يتـأمل مشكلاته ويفكر فيهـا بامعان :

« لا ينبغي ان تترك الحرب بين النمسا وبروسيا اية دولة من دول اوروبا غريبة عن النزاع او لامبالية فيه ، لان نتيجة انتصار احد الخصمين ستضع حداً للتجزئة الحالية لالمانيا .. وستخلق في وسط اوروبا دولة موحدة تساوي في قوتها ونفوذها او تتفوق على قوة ونفوذ كل دولة من الدول المجاورة » .

« ومن بين الدول الكبرى تحتاج انجلترا بالضرورة الى حليفٍ قوي في القارة الاوروبية . ولن تجد دولة من الدول تتجاوب مع مصالحها بصورة مثلى افضل من المانيا موحدة ، وعاجزة عن الطموح في السيادة على البحار .. ولكن من المحتمل ان تقف انجلترا ، كما كانت تقف في الماضي ، الى جانب الطرف المهاجِم ، لتعارض اية تسوية سياسية لاوروبا ، ليس من السهل توقعها والتنبؤ بآثارها على المدى الطويل ... ولا تستطيع فرنسا ان تقبل باقامة امبراطورية المانية عدد سكانها ٧٠ مليون نسمة ... الا انها تستطيع ان تطمح الى استخلاص افضل الميزات لنفسها من النزاع ، كأن تضم اليها بلجيكا ، والمقاطعات الرينانية ، وهولندا ايضاً ، وان تكون واثقة كل الثقة من عملية ضمها ، اذا جمدت القوات البروسية الرئيسية على الالب والاودر ..»

واضاف مولتكه قائلا : ومن المحتمل ان تنتصر روسيا لبروسيا ، وذلك لكي تتمكن من الحصول على القسطنطينية ، التي تستطيع النمسا وحدها منعها من الحصول عليها ، بالاضافة الى الدول البحرية .

« ولكن لدعم روسيا لبروسيا محذوراً مضاعفاً هو وصول الدعم متأخراً عن الوقت الملائم ، وان يكون دعماً قوياً جداً ... فما يكاد الجيش الروسي يصل الى حدودنا الا ونكون اما منتصرين ، وعندئذ لا نهتم بمساعدته او مهزومين ومضطرين عندئذ الى دفع ثمن هذا الدعم من الغزو الذي تتعرض

له مقاطعاتنا . لان روسيا ، عندما تتـدخل في نهاية الحملة ، بجيش طازج مؤلف من ٣٠٠,٠٠٠ جندي ، تصبح سيدة الموقف ، وفي وضع يسمح لها باملاء شروطهـا علينا وتحديد المدى الذي نستطيع توسيع حدودنا اليه في حالة النجاح ، او الحد الذي ينبغي ان نعيد اليه حدودنا في حالة الهزيمة . »(١) .

وتعتبر هذه المذكرة تحفة رائعة في المحاكمة المنطقية ، التي مـارسهـا دو مولتكه في فترات منتظمة ، خلال الست السنوات التـالية ، وبصورة دورية ، عندما كانت تحدث بعض التطورات في الوضع السياسي .

وقد غيرت الحربان التي قامتا بين النمسا وبروسيا في عـام ١٨٦٦ ، وبين فرنسا وبروسيا في عـام ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ ، التي قادهمـا دو مولتكه ، اقول غيرت هاتـان الحربان القواعد السياسية لاوروبا وتركتا بصماتهما في تلك المنطقة . وخلقتا الامبراطورية الالمـانية وجعلتا منهـا المركز الاستراتيجي لاوروبا . وقد وضعتا ايضاً منـافساً اقتصادياً محرضاً في وجه انجلترا . وحطتا من هيبة فرنسا وهيمنتهـا ، مع انها كانت حتى ذلك الوقت الدولة القارّية الاولى . كمـا اضعفت هاتان الحربـان الامبراطورية الهنغـارية ـ النمساوية ، التي حمت اوروبا الشرقية قرونـاً عديدة ضد اعتداءات الاتراك والسلافيين ، وكأنهـا قلعة من القلاع . وقد ظهرت آثـار بعض هذه التبدلات فيمـا بعد . وسنقتصر في ملاحظاتنا هنا على ادارة هـاتين الحربين .

كانت مدة هـاتين الحربين القصيرة ، اذا مـا قورنت بالمدة الزمنية التي

---

(١) مارشال دومولتكه

CORRESPONDANCE MILITAIRE, Vol. V.
GUERRE DE 1866), EDITION FRANCAISE (1899 - 1901).
pp. 1 - 4.

استغرقتها الحروب السابقة ، مدة رائعة . وربحت بروسيا الحرب الاولى خلال سبعة اسابيع . ومع ان الحرب الثانية استمرت خمسة اشهر ، فان نهايتها قد تقررت بمعركة سيدان في ١ من سبتمبر (ايلول) ١٨٧٠ ، في اقل من سبعة اسابيع بعد ان اعلنت فرنسا الحرب . وكانت اسباب هذا الحسم السريع هي : الطبيعة المحدردة للحربين ، ومن الجانب البروسي ، تفوق هيئة الاركان العامة البروسية وتكتيكها ، وسرعة النفير لدى البروسيين .

وكانت الحربان ذات اهداف محدودة . فقد كانت سياسة بسمارك في الحرب ضد النمسا ، محدودة الى حد كبير . فلم تكن تستهدف اذلال النمسا او ضم جزء من ارضها ، لان وجود النمسا كدولة كبرى كان ضرورياً وحيوياً لامن بروسيا . فقد كان هدف هذه السياسة طرد النمساويين من المانيا ، وقد نجحت معركة سادوفا الحاسمة (التي يطلق عليها ايضاً معركة كونيغرايتز) التي تمت في ٣ من يوليو (تموز) ١٨٦٦ . وقد ساهمت هذه المعركة الى حد كبير في شل فرنسا . وبموجب احكام اتفاقيات السلم التي تلت هذه الحرب ، حصلت بروسيا على هانوفر ، والشلزفيغ ، هولشتاين ، والهيس ، والناسو ، والمدينةالحرةفرانكفورت-سور-لوماين Francfort - Sur - Le - Main وتركت الساكس على ما كانت عليه . اما الولايات الواقعة الى شمال الماين فقد تألفت في اتحاد كونفيدرالي الماني ، تحت ظل بروسيا . وتشكلت ولايات الجنوب ، في اتحاد مميز هو اتحاد المانيا الجنوبية .

وعندما اندلعت الحرب من جديد بين فرنسا وبروسيا ، كانت سياسة بسمارك ايضاً واضحة كل الوضوح . فقد كانت تستهدف توحيد المانيا كلها تحت زعامة بروسيا . وكانت فرنسا مصممة على منع هذا الاتحاد الذي كان سبب الحرب ، اما مسألة وراثة العرش في اسبانيا فلم تكن سوى

حجة فقط . واذا استثنينا تخلي فرنسا عن الالزاس واللورين نتيجة لحرب السبعين ، التي اضطر الهيجان الشعبي بسمارك الى المطالبة بها ، لم تكن أية حرب من هاتين الحربين حرب غزو وفتوحات ، كما انها ايضاً لم تكن من حروب الافناء والتدمير . وعندما تحققت اهداف الحربين ، انتهتا باتفاقيتي سلم معتدلتين . وكانتا مختلفتين ، في سمتهما ، اختلافاً تاماً عن الحرب الاهلية الامريكية .ويعود السبب الرئيسي في ذلك الى انهما كانتانزاعين سياسيين خالصين ، لم تؤثرا ابداً على المصالح الاقتصادية او الايديولوجيات التي توقظ الوحش النائم في الانسان .

وفي عام ١٨٦٦ ، كان الجيش النمساوي يعتبر من افضل جيوش اوروبا . اذ يُطوع الجنود فية لمدة سبع سنوات . وكانت خيالته رفيعة التدريب . وكانت مدافعه الميدانية المحلزنة متفوقة على مدافع البروسيين . ومع ذلك هزم في سبعة اسابيع . وتعزى هذه النتيجة ، اولا ، الى عدم كفاءة هيئة اركانه العامة بالنسبة للاركان العامة الالمانية ، الامر الذي لاحظه دو مولتكه عن قرب ، وحكم بضعفها اثناء حرب الشلزفيغ – هولشتاين في عام ١٨٦٤ . وثانياً ، بسبب ضعف مشاتها ، المسلحة ببندقية لورانز ، التي تلقم من السبطانة ، والتي تتفوق عليها بوضوح البندقية البروسية ذات أبرة القدح التي تلقم من المغلاق (١) ، بالرغم من ان بندقية لورانز ذات مدى اكبر بمرتين من بندقية البروسيين . فكانت نيران البروسيين تحدث دماراً في تشكيلات النمساويين الضخمة . ففي معركة ناشود جمدت ست كتائب ونصف من البروسين ، من مسافة بعيدة ٢١ كتيبة نمساوية خلال ساعتين كاملتين ،

---

(١) للبندقية لورانز موجه للمدى الى مسافة ١٠٠٠ متر ، أما بندقية الدرايز فحتى ٤٠٠ متر فقط .

بواسطة نيران البنادق فقط ، والحقوا بهـا خسائر تعادل خمسة اضعاف الخسائر التي لحقت بهم . وفي معركة سادوفـا ، مع ان النمساويين قاتلوا دفاعيـاً طيلة يوم ٣ من يوليو (تموز) بتفوق لصالحهم يعادل (٥) الى (٣) الا انهم خسروا ١٨,٠٠٠ قتيلا وجريحـاً مقابل ٩,٠٠٠ بين قتيل وجريح في الجـانب البروسي . وبالاضافة الى ذلك كان للتلقيم السريع والسهـل للبندقية المزودة بابرة القدح في وضعية الرامي منبطحـاً اثر مثبط للعزيمة على المشاة النمساوية ، التي كانت مضطرة الى اتخـاذ وضعية الرامي واقفاً لتلقيم بنادقها . وقد أكَّدَ عقيد نمساوي ان رجاله كانوا يحسون بانهم عُزّل من السلاح في القتال ، معظم وقت المعركة ، على حين كان البروسيون مستعدين دومـاً للرمي [١] .

وقد طبع مولتكه في عـام ١٨٦٩ تعليماته التي استقاهـا من تجاربه . لقادة الوحدات الكبرى . وكتب فيهـا ما يلي :

« مما لا شك فيه ، إن الجندي الذي يرمي بثبات يتفوق على الجندي الذي يرمي وهو يتقدم ، لانه يجد حماية له في الارض ، على حين لا يجد الآخر المتقدم أمامه سوى الحواجز وانه اذا ما واجهنا اقوى اندفاع بجندي من جنود المتقدمين ، بثبات جنان هادىء ، فان أثر النار الذي اصبح قويا جدا في ايامنا هذه هو الذي يحصل على النصر . واذا كان من الممكن بالنسبة الينا ان نحتل موقعاً من المواقع ، نضطر خصمنا ، احتمالاً ، الى مهاجمته لسبب سياسي

---

(١)
COLONEL BARON STOFFEL: RAPPORTS MILITAIRES ÉCRITS DE BERLIN 1866 - 1870 (1817) p. 139.

او عسكري ، او بدافع **الكرامه** القومية ، يبدو من المعقول استخدام مميزات الدفاع اولا ، قبل الانتقال الى الهجوم » (١)

وقد أكدت حملة سادوفا رأي مولتكه القائل بان البندقية التي تلقم بواسطة المغلاق ، جعلت من الدفاع شكل الحرب الاقوى ، وان من الواجب تطويق الخصم اذا كنا نريد هجوما حاسما . وقد كتب في هذا الصدد : « ينبغي ان نتذكر بان هجوماً يُشنّ من الجبهة فقط ،لا يتضمن فرصاً كبيرة في الفوز ، وقد يسبب بسهولة خسائر كبيرة . وهكذا فانه يتعين على القائد ان يحول جهوده ضد اجنحة الموقع المعادي . » (٢)

وفي عام ١٨٦٦ ، استخدم مولتكه الخطوط الحديدية الخمسة مستفيدا منها الى اقصى ما يمكن ، ووضع خطة عملياته طبقاً للعمليات التي يحتمل ان يلجأ اليها النمساويون ، على احسن تقدير . وقام بالعملية ذاتها في حرب السبعين ، بعد ان قام بدراسة للخطوط الحديدية الفرنسية اوضحت له ان الفرنسيين سيحشدون كل قواتهم في ضواحي متز واستراسبورغ وهذا يعني انها ستكون مقطوعة ومعزولة عن جبال الفوج. واسس خطته على هذا الاحتمال . واعتمد على سرعة نفير جيوشه ، ليغطي المسافات في وقت قصير ، بالاضافة الى استخدام خطوط السكك الحديدية المؤدية الى الراين الى اقصى ما يمكن . وقد قال عن مشروعاته هذه ما يلي :

---

(١) راجع :

LE COMMANDANT J. COLIN: LES TRANSFORMATIONS DE LA GUERRE (1911) p. 31.

(٢) ذكر ذلك :

Lt. GENERAL VON CAEMMERER: L'EVOLUTION DE LA STRATEGIE AU XIX SIECLE, EDITION FRANÇAISE (1907) p. 238.

غير أن الفكرة الرئيسية كانت ضرورة مهاجمة العدو دون تأخير ، حيثما وجدناه ، وابقاء القوات متكتلة ومحتشدة بشكل تستطيع فيه الهجوم وهي تملك التفوق العددي . اما التدابير التي نستطيع تحقيق هذه الاهداف بفضلها ، فتتخذ على الطبيعة . وهكذا لم ينظم سوى المسيرة الاولى الى امام وحتى الحدود ، في تفاصيلها الدقيقة » . (١)

وكانت خطة العمليات الفرنسية طبعة محرّفة لخطة عمليات معركة يينا في عام ١٨٠٦ ، وعلى رأس الحملة نابليون الثالث بدلا من الاول . وقد قرر الامبراطور الفرنسي القيام بهجوم مباغت ، مع علمه بان البروسيين يتفوقون على جيشه عدديا ، وقبل ان ينهي تعبئة كل قواته المسلحة : فلم يكن هناك من قرارات يمكن ان تكون اكثر اذى وضررا من هذا القرار . فقد كان يؤمن بفكرة ثابتة مضمونها ان هجوماً مفاجئاً باتجاه الشرق ، يتجه الى ما وراء الراين ، سيضطر دول المانيا الجنوبية الى التخلي عن بروسيا ، وتتيح له مساعدة النمسا ، وربما ايطاليا ايضا . وكان تصميمه بان ينضم الى النمسا ، عندما يفرض الحياد على المانيا الجنوبية ، وان يسير الى برلين عن طريق يينا .

فلو كانت هذه الخطة الخيالية ممكنة التحقيق بشكل او بآخر ، فان نجاحها كان يتطلب اسرع نفير ، وادق اعداد ممكن للحرب ، وتوقيتاً زمنياً يتقيد بادق التفاصيل . ومع ذلك ، فان الفرنسيين لم يعدوا ولم يدرسوا شيئاً من هذا القبيل . وكان هذا الوضع ناجماً عن عدم كفاءة هيئة الاركان العامة الفرنسية ، التي كانت مؤلفة من مجموعة من الشبان « الاساتذة الصغار » ، التي لا تماس لها مع الجيش ، ومن مجموعة من البيروقراطيين المسنين الذين

---

(١) MARECHAL DE MOLTKE: LA GUERRE DE 1870, EDITION FRANÇAISE (1891) p. 10.

ارهقتهم دقائق الروتين والنمطية . وكان المارشال بازين BAZAINE حذراً جداً من هيئة اركانه العامة ، حتى انه منع ضباطها من الظهور فوق ساحة المعركة ، وكان يثق في هيئة اركانه الشخصية ، كنابليون الاول قبل ستين عاماً . ولا يمكن التسامح بمثل عدم الكفاءة هذه ، لانه في فبراير (شباط) ١٨٦٨ ، نقل البارون ستوفيل ، الملحق العسكري الفرنسي في برلين التقرير التالي الى رؤسائه :

« ولكن اكبر مزية من بين كل عناصر التفوق الذي ستستفيد منها بروسيا في اي حرب قادمة ، وهي المزية الحتمية ، والمؤكدة ، هي تركيب ضباط الاركان لديها ... فهيئة الاركان العامة البروسية هي اول الهيئات واكفأها في اوروبا . ولا يمكن مقارنة هيئة اركاننا معها ابداً .. ان تشكيل الاركان – العامة البروسية سيشكل ، في حرب مقبلة ، اكثر عناصر التفوق جدية لصالح الجيش البروسي »[١] .

ففي عام ١٨٧٠ ، كان البروسيون يواجهون البندقية التي تلقم من المغلاق ، وهي بندقية شاسبو CHASSEPOT (ذات ابرة القدح) التي كانت ترمي حتى ١٢٠٠ متراً . وكانت تتفوق الى حد كبير على البندقية ذات الابرة البروسية ، غير ان مدافع الميدان الفرنسية المصنوعة من البُرُنز ، والتي تلقم من الفوهة ، كانت اقل كفاءة بكثير من المدافع البروسية المصنوعة من الفولاذ ، والتي تلقم من المغلاق . واستخدم البروسيون اسلحتهم بمهارة عوضت الى حد كبير تدني قيمة بنادقهم . وكان هناك سلاح كان بوسع الفرنسيين ان يستخدموه بصورة افضل ، هو الرشاش رفيي REFFEYE المزود بخمسة وعشرين سبطانة متوازية ، ويرمي حتى مسافة ١٢٠٠ متراً ، كما

---

(١) المرجع المذكور ، صفحات ١١٩ و ١٢٩ . STOFFEL

يستطيع الرمي بمعدل ١٢٥ طلقة في الدقيقة . ولكي يحافظوا على سريته ، لم يستخدموه في الجيش الا قبل اندلاع الحرب بعدة ايام ، حتى انهم ، بحسب رأي صانعه رفيي ، استخدموه فيما بعد « بصورة غبية تماماً » ، وهو امر لا يسبب الدهشة من القطعات التي لم تتعلم استخدامه .

وكان تكتيك المشاة الفرنسية معتمداً على توجيه صليات نارية من مسافة بعيدة ، بشكل تستفيد فيه الى اقصى ما يمكن من المدى المتفوق لبندقية شاسبو ، وتتخندق المشاة فيما بعد مختبئة في ملاجئها ، وتنتظر تقرب العدو ، لكي تصب عليه نيرانها في آخر المطاف . وقد واجه مولتكه هذا التكتيك متخذاً استراتيجية دفاعية – هجومية : اذ كان اولا يحتوي عدوه جبهوياً ، ثم يهاجمه فيما بعد من الجناح . وكانت التعليمات المعطاة الى كل جماعة تكتيكية تعدادها سرية وما فوق ، اللجوء الى الهجوم دوماً بشكل لا تتيح فيه اية فرصة للفرنسيين في الرد ، وكان الاحتواء بالنار ، والهجوم بالنيران ، والمناورة تحت حماية النيران ، والالتفاف بالنيران . والخلاصة كان التكتيك يتضمن عدم التوقف عن اطلاق النار الى ان يربحوا المعركة .

ولم يتوصل اي طرف من الاطراف المتحاربة ، طيلة الحرب كلها ، الى الاستيلاء على اي موقع من المواقع بهجوم جبهوي ، ولا الى جلب قطعات في صفوف منضمة الى خط النار « فقد تحول تكتيك ارض التمرين ومناورات زمن السلم ... في كلا الجانبين . ولم يشهر احدهما الحربة ابداً في ارض مكشوفة ، ونادراً ما كانوا يحاربون بالحراب في قتال الشوارع ، او في قتال الغابات »[1] .

GENERAL A. VON BOGUSLAWSKI: TACTICAL DEDUCTIONS FROM THE WAR OF 1870 - 1871 (1872) pp. 79 - 80.

ولعبت قوة المدفعية دوراً كانت اهميته تتزايـد باضطراد . كمـا ان الفرنسيين لم يجمعوا مدافعهم ، كمـا فعل الالمان ، في غرافلوت وسيدان بصورة خاصة . وكانت سيدان اكبر معركة من معارك المدفعية في الحرب . فقد اوقفت كـل الهجمات الفرنسية بفعل نيران المدافع واوقفت معظمهـا على مسافة ١٨٠٠ متراً ، اي الى مسافة ابعد بكثير من المدى الحقيقي للبندقية . وفي سيدان ، وصف ضابط فرنسي ، اسره البروسيون الهجوم البروسي بانه « هجوم خمسة كيلومترات بالمدفعية » (١) .

وفقدت الخيـالة قيمتهـا على ارض المعركة بصورة منتظمة . فلم يحدث سوى انقضاض وحيد تكلل بالنجاح ، وهو انقضاض فرسان لواء الجنرال فون برودو ، في فيونفيل ، ومع ان الفرنسيين كانت تنقصهم الذخـائر ، فقد هذا اللواء نصف فرسانه . وفي سيدان ، حاول الجنرال دوغالليفه DE CALLIFET القيام بانقضاض جريء جداً على رأس فرسان افريقيا ، ولكن هذا الانقضاض تعرض « للافناء التـام بمـا يسمونه صلية واحدة لم يشهدها ابداً اقدم جندي مـا زال حياً في هذا اليوم » (٢) . ومع ان انقضاض الخيالة لم يعد عملية حربية تكتيكية ، الا ان الخيالة حافظت مع ذلك على كل قيمتها لتأمين الحيطة (الامن) ، وللقيـام بعمليات الاستطلاع . فقد استخدمت لهذا الغرض من قبل الطرفين بشكل لامبالي .

---

(١)
THOMAS W. KNOX: DECISIVE BATTLES SINCE WATERLOO (1887) p. 358.

(٢)
ARCHIBOLD FORBES: MY EXPERIENCES OF THE WAR BETWEEN FRANCE AND GERMANY (1871) Vol. I, p. 236.

٢ – المارشال فرديناند فوش

واخيراً حـانت الفرصة لدراسة اسباب هزيمة الجيش الفرنسي في الحرب الفرنسية – الالمـانية . فبدلا من ان يعترف النقاد العسكريون الفرنسيون بافتقار هذه الحرب للاعداد والتحضير ، اعتبروا تكتيك خصومهم الهجومي التكتيك الاساسي الذي سمح بالنصر . وفي الحرب الروسية – التركية التي تمت من عام ١٨٧٧ – ١٨٧٨ ، هزم الاتراك الذين حاربوا دفـاعياً ايضاً . وبدلا من ان يربط النقاد هزيمتهم بالعوامل العديدة التي كانت سبب هذه الهزيمة ، توصلوا الى صحة الاستنتـاج الذي توصلوا اليه في عـام ١٨٧٠ ، بالرغم من ان الدروس التكتيكية الاساسية التي يمكن استخلاصها من الحرب الروسية – التركية ، كانت القوة الدفـاعية للجنود المشاة المتخندقين والثمن الباهظ جداً لمحاولات الانقضاض على الخنادق .

ومن ثم تبددت بعض الشكوك التي كانت مـا زالت لدى المدافعين عن الهجوم في عـام ١٨٨٠ عندما طبع كتاب بعنوان « دراسات عن القتال »[١] ، اصبح هذا الكتاب فيمـا بعد من الكتب الكلاسيكية . وكان مؤلفاً من مقتطفات من المذكرات والملاحظات التي وجدت في اوراق ضابط مشاة فرنسي ، هو العقيد أردان دو بيك ، مات متأثراً من جروح اصيب بهـا ، بعد اقل من شهر من ابتداء الحرب الفرنسية – البروسية . وبحسب نظرية أردان دو بيك ، يعتبر النجاح في معركة من المعارك مسألة معنوية ، ويربح المهاجم اذا كانت معنويـاته متفوقه على معنويات المدافع . وتفسر المقتطفات التالية نظريته .

« نجد في القتال عملين معنويين ، بدلا من عملين ماديين ، بين طرفي

---

(١) ETUDES SUR LE COMBOT

النزاع . ويتفوق العمـــل الاقوى معنوياً . وقد خسر المنتصر في معظم الاحيان من الرجـــال اكثر ممـــا خسر المهزوم ... واذا كان الطرفان يملكان قوة متكافئة في التدمير ، او كان احدهمـــا يملك قوة اقـــل ، فـــان الطرف المنتصر هو الذي يعرف كيف يتقدم الى امـــام بتصميم وعناد ... اي ان المنتصر بالاختصار هو الذي يستغـــل سلطة العمل المعنوي . والعمل المعنوي هو الخوف الذي نوحي به . وينبغي ان نحول هذا الخوف الى فزع لدى العدو لكي ينتصر .. امـــا الاحساس بالاندفاع المعنوي ، فانه الاحساس بالتصميم ، الذي يحرك كل المشاعر .. وعندما يدرك العدو هذه المشاعر ... تصبح المناورات تهديدات . وتنتصر دومـــاً اقوى المشاعر » . (١)

ومع ان الكتاب يتضمن اشياء ممتازة ، وبخاصة ، تعليقـــات اردان دو بيك عن الحرب التقليدية ، غير ان المؤلف كان مدفوعـــاً تماماً بمشاعره واحاسيسه ، فقد اهمـــل تقدير الاثر المعنوي للنظام على المدافعين ، والاثر المثبط للفوضى على همم ومعنويـــات المهاجمين ، وقد اهمـــل اهمالا تاماً الآثار المعنوية للخنادق التي يستطيع الجنود الرمي خلفها على جنود الاعداء الذين يتقدمون نحوهم في ارض مكشوفة . ومع ذلك ، فان المدرسة الفرنسية للهجوم استلهمت منه افكاره عن الهجوم ، ووجدت في المقدم غردیناند فوش (١٨٥١ ــ ١٩٢٩) المعبر عن افكارها في العشر الاخير من القرن التاسع عشر .

ففي عام ١٨٩٤ ، عين فوش استاذاً في المدرسة العايا للحرب ، ثم اصبح

---

(١)
COLONEL ARDANT DU PICC: ETUDES SUR LE COMBAT (1904) pp. 119 - 123.

فيمـــا بعد قائدها ومديرها . وقد طبعت المحاضرات التي القـــاها على تلاميذه في كتابين : الاول في ادارة الحرب ، والثاني من مبادىء الحرب . وقد اصبح هذان الكتابان الوصية الجديدة للجيش الفرنسي .

كان فوش من العسكريين الاكفـــاء . وعندما اصبح مارشالا لفرنسا ، كان واحداً من بعض كبار القادة اللامعين في الحرب العالمية الاولى . غير انه كان متمسكاً بنظريته التي تقول **بأن الهجوم حتى النهاية** هو الوسيلة الوحيدة التي تقود الى النصر ، مدفوعــاً بهــا لدرجة لم يستطع ان يرى تناقضات هذه النظرية .

ففي الفصل الاول من كتابه **من مبادىء الحرب** [١] ، وهو آخر كتابين له ، واهمهمـــا ، يمجد فوش نظرية الحرب المطلقة كمـــا طبقهـــا ومارسها نابليون ، وكمـــا دعى اليها كلاوزفيتز . فليس هناك من شيء يمكن ان يقال عنهـــا في رأيه ، ولكنها تشكل حجة دامغة ضد كل اشكال الحرب الاخرى التي تلاحظ في استنكاره غير المعقول لكـــل ما يسميه « بالطرق العتيقة » للحرب ، التي قوضها وهدم اسسها امبراطور الفرنسيين . ويزدري في هذا الكتاب الحرب المحدودة ، وينتقد بقسوة ، فيمـــا ينتقد المارشال دوساكس لانه قال مـــا يلي : « لست من دعاة المعارك ابداً ، وبخاصة في بدء الحرب . وانني مقتنع تمـــام الاقتناع بان في وسع الجنرال الماهر دومـــاً ان يخوضها **كل حياته** دون ان يكون مضطراً الى ذلك » . فسواء أكان فوش قد كتب هذا الكلام بتفكير وروية ، او انه كتبه دون امعان وتفكير . فان هذه الكلمات

---

(١) المقتطفات هنا مأخوذة من الفصل الاول من كتاب المارشال فوش :
DES PRINCIPES DE LA GUERRE (1918)

خالية من اي محتوى . وتشوه مــا كان في ذهن المارشال دوساكس (١) .

فبعد ان سخر فوش واستهزأ بطريقة الحرب التي تتنــافى مع آرائه ، انكب على البرهنة بان« تحسن الاسلحة النــارية هو فائض في القوة اضيف لصالح الهجوم ... واذا اردتم برهاناً رياضياً على ذلك ، فان من السهولة بمكان تقديم هذا البرهان » . ومن المفيد ان نذكر مــا اضافه الى هذا القول ، حتّى وان كان الغرض من ذلك هو ان نظهر كيف تتسلط نظرية سخيفة على رجل عاقل كالمارشال فوش :

انكم توجهون فوجين	ضد	فوج واحد
اذن فهناك ٢٠٠٠ جندي	ضد	١٠٠٠ جندي
ان ١٠٠٠ مُدافع يطلقون		١٠٠٠ رصاصة
وبنفس البندقية ، يطلق ٢٠٠٠ مُهاجِمْ		٢٠٠٠ رصاصة
فهناك ربح لصالح الهجوم يعادل		١٠٠٠ رصاصة
وببندقية ترمي ٢٠ طلقة في الدقيقة ..		
١٠٠٠ مُدافِعْ ، يطلقون في دقيقة واحدة		١٠,٠٠٠ رصاصة
وبنفس البندقية ، يطلق ٢٠٠٠ مُهاجِمْ		٢٠,٠٠٠ رصاصة
الربــح ...		١٠,٠٠٠ رصاصة

« وهكذا نرى ان التفوق المــادي للنار يزداد بسرعة لصالح الهجوم ، مع تحسن الاسلحة ، فكم يزداد ايضاً التفوق المعنوي للمهاجم على المدافع ، وتفوق الساحق على المسحوق » كما يفسره أردان دو بيك .

انهــا محاكمة رياضية غريبة . فاذا مــا ناقشنا جزء واحد من هذا الموضوع ،

---

(١) راجع الفصل الاول ، الملاحظة المتعلقة بالمارشال دو ساكس .

وجدنا ان ١٠٠٠ مدافع في وضع الرامي منبطحاً لا يقدمون الا ثمن (١/٨) عددهم كأهداف للمهاجمين المؤلفين من الفي جندي يتقدمون . وعندئذ نرى ان طلقات المهاجمين التي تصيب اهدافها ستتناقص بمقدار سبعة اثمان . اذن فسيكون الربح هو ٧,٥٠٠ رصاصة ضد المهاجمين، لا ١٠,٠٠٠ لصالحهم .

وبعد ان تجاوز فوش كلاوزفيتز ، قام بالعمل ذاته متجاوزاً افكار أردان دو بيك . فنراه يستشهد بجوزيف دوميسير [١] الذي قال : ان معركة خاسرة هي معركة نعتقد باننا خسرناها » واضاف يقول، لاننا « لا نخسر المعركة مادياً » . اذن فاننا نخسر المعركة معنوياً . ولكننا عندئذ نعترف باننا نربح المعركة معنوياً ووجد فوش ان في وسعه توسيع هذه الحكمة بان يقول : « ان المعركة الي نربحها ، هي المعركة التي لا نريد الاعتراف باننا خسرناها » . ومثل هذا القول قد يكون صحيحاً الى حد ما في شجار يقع بين رجال مسلحين بعصي المكانس . ولكن في معركة يتسلح فيها جنود الطرفين ببندقية التكرار ، تعتبر هذه المحاكمة محاكمة سخيفة ، مهما كانت معنويات المهاجمين ، لانه لا يضعهم موضع الاختيار تحت وابل من الرصاص .

وقد كان فوش على حق في تلقين تلاميذه اهمية الهجوم . ولكن عندما يفكر المرء بانه كان يدرب ضباط اركان المستقبل في الجيش الفرنسي ، يعترف بانه كان على خطأ في تمجيد عبادة الهجوم بهذا الشكل .

---

(١) جوزيف دوميستر ، ديبلوماسي سارديني (١٧٥٤ — ١٨٢١) . وقد استشهد بكتابه : « امسيات بترسبورغ » .
LES SOIRÉES DE SAINT-PETERSBOURG.

غير ان القارىء يحس بنوع من الارتياح عندما ينتقـل من الحاحه المبالغ فيه عن الهجوم ، الى تحليله النـافذ عن اسباب الحرب [١] كمـا كان يراها في مطلع القرن الحالي .

فهو يظهر ان اسباب الحرب اسباب اقتصادية ، مستهلاً ذلك بملاحظة فون درغولتز القائلة بـأن « الحروب الحديثة اصبحت قضية من قضايـا الشعوب » . ولدعم هذا الرأي ، يستهل اقواله بما يلي :

لم يضمن الالمـان ، بانتصاراتهم في عام ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، وضعـاً مسيطراً في اوروبا فحسب ، بـل انهم ايضاً حصلوا على اسواق لصناعتهم وتجارتهم . « فقد حصلوا ايضاً من فرنسا على ميزة الامة المفضلة والمميزة في المجال الجمركي والتجاري ... وهو امر يظهر بصورة جيـدة مصير ثروة الشعوب : اذ تحصـل بعض الدول على جزء من عائد الشعب المجـاور ...

لقد نبّهتْ انتصارات الالمـان في عام ١٨٧٠ القوميين الالمان . ان لهم جميعاً حصة في الارباح . فهم مهتمون مبـاشرة بالبيت ، وبالحكومة ، وبالنصر : ان الحرب حرب الشعب » .

وفي حرب عام ١٨٩٤ بين الصين واليابان . فضلا عن ان اليابان لم تحصل بموجب احكام الاتفاقية الموقعة في شيمونوسيكي **SHIMONOSEKI** الا على تنازلات اقليمية ضعيفة ، الا ان الميزات التجارية التي حصلت عليهـا كانت ميزات ضخمة . « فقد فتحت مدافع فاي — هاي — فاي ، ومدافع نهر يالو الطريق لبنـاء بحرية تجارية نشرت في بحـار الشرق اولا ، وفي بحار الغرب فيمـا بعد ، البضائع المصنعة في اليابان بشروط لا تستطيع اوروبا العجوز ان تنتج ضمن اطارها » .

---

(١) ص ٣٤ من النص الفرنسي لكتاب فوش .

« وتعطينـــا الحرب الروسية – اليابانية من عـــام ١٩٠٤ الى عام ١٩٠٥ فكرة مختصرة ، لكنهـــا كاملة عن طبيعة المعركة اليوم : مشروع تجـــاري تقوم به الامة ، يهم القوميين بصورة مباشرة اكثر مما كان يهمهم في الماضي ، معتمداً بالتالي على مشاعر الافراد واهوائهم » .

« والدليل على ذلك : حرب كوريا . والصعوبات الاخيرة التي تعرضنا لها مع انجلترا فيمـــا يتعلق بفاشودا FACHODA . فعماذا نبحث كلنا ؟ اننا نبحث ونفتش عن اسواق ومنـــافذ تجارية ، لصناعة تنتج اكثر ممـــا تبيع في اسواق تخنقهـــا المنافسة المتزايدة . فمـــاذا نفعل عندئذ ؟ اننا نفتح هذه المنافذ الجديدة بواسطة طلقات المدافع » .

« حتى ان البورصة ذاتها اصبحت من السلطة والنفوذ ، بحيث تستطيع زج الجيوش في الميدان دفاعـــاً عن مصالحهـــا » (دو مولتكه) . فمن الذي حرّض على الحرب ضد البوير ؟ ان الذي حرض عليهـــا ليس بالتأكيد ملكة انجلترا ، بـــل تجار المدينة » .

« .. هذه هي اسباب الحرب . والخلاصة : ان الهدف من الحرب هو في التفتيش بعيداً جداً . ونظراً لان المهزوم لا يقبـــل بالتعامل التجاري مـــع خصمه ، الا عندما يفتقر الى وسائل الجدل وا لحوار ، اذن فتدمير وسائـــل حواره هو هدفنا ... وهكذا تظهر انـــا الحرب في نهاية القرن التاسع عشر . وقد تعززت ميزاتهـــا التي اتسمت بهـــا في مطلع القرن : حرب قومية ، حرب بضربات الرجال ، حرب بمسيرة عنيفة وسريعة » .

فكم سيشترك في هذه الحرب من قوات ، وكم ستتسم بالعنف ؟ ويجيب فوش على ذلك قائلا : سيكون نموذج هذه الحرب هو النموذج النـــابوليوني. وبناء على هذا « فان الحرب سترتبط ارتباطاً تامـــاً بنظرية **الحسم بالسلاح** ،

ولن تستطيع ان تطبق اية وسائل اخرى . فبدلا من ادانة معارك بونـــابرت وحملاته ، بالبربرية والوحشية ، يجد فوش في هذه المعارك الوسائل الوحيدة الفعالة . وتفتش نظريته في الحرب عن هذه الوسائل متوجهـــة الى نفس منابعها » . (ص ٤٠ — كتاب فوش) .

وسيحمـــل كلا الطرفين السلاح « للدفاع عن فكرة ، ولحمـــاية مبدأ ، ولتعديل التعريفات الجمركية : فالهدف ليس مهمـــاً جداً ، انه هدف لا مـــادي » ، وكلا الطرفين « سيدعم نظريـــاته السياسية او المالية بجيشه » . ولن « يتخلى الخصم عنهـــا الا عندما نتوصل الى حرمـــانه من وسائل الدفاع عنها . ولن يعترف بهزيمته الا عندما يجد انه لن يستطيع القتال او انه لا يريده ، اي عندما ندمر جيشه مـــادياً او معنوياً . وعندئذ لن تعرف الحرب الحديثة مبررات اخرى الا المبررات التي تؤدي الى تدمير هذا الجيش : **كالمعركة ، التقويض بالقوة** . « فماذا يحتاج تحقيق مثـــل هذا الهدف ؟ « انه يحتاج الى التفتيش عن الجيوش المعـــادية ، وعن مركز القوة المعادية ، لتدميرها وهزيمتها. ويتخذ في سبيـــل تحقيق ذلك الاتجاه ، والتكتيك الذي يؤدي الى ذلك باسرع وقت ، واضمن طريقة ، هذه هي عبرة الحرب الحديثة » . (ص ٤١ من كتاب فوش) .

وبناء على هذه الاقوال ، تؤلف « النتائج التكتيكية ، وحدها الميزات في الحرب » في رأي فوش : فلا يعمـــل اي شيء .. كلا ! **لن يكون هناك بعد الآن استراتيجية تتفوق وتنتصر على الاستراتيجية التي تستهدف النتائج التكتيكية ، والنصر في المعركة** » (ص ٤١) و « لتتمسك بهذا التركيـــب المستنتج من التاريخ والمتميز : بالاعداد ، والكتلة ، والاندفاع » (ص ٤٢) .

وبعدما فسر فوش ما يعنيه بالاعداد والتحضير — هـــذا الاعداد الذي

ينبغي ان يحقق على اعداد الخصم سبقاً كبيراً — عاد الى العمل التكتيكي وطرح السؤال التالي :

« على ماذا يشتمل مثل هذا العمل ؟ واجاب فوش على السؤال قائلا : « ليس هناك من وسيلة يعالج فيها الخصم الا بالهزيمة . ولهذا ، ينبغي تقويضه . ومن هنا تنبع فكرة **الصدمة** المؤلفة من تعبيرين هما : **الكتلة والاندفاع** » . وبما ان الكتلة تمتص في الحرب الحديثة « كل القوى المادية والمعنوية للبلاد ، فينبغي ان يكون الامر كذلك ، في كل عملية تكتيكية ... وسيخصص الجزء الاكبر من القوات ، ان لم تخصص كل القوات ، **ككتلة صدام** » (ص. ٤٣) .

وفيما يتعلق **بالاندفاع** « يكون تكتيك ساحة المعركة هو تكتيك الحركة . وآخر كلمة ينطق بها القتال الهجومي او الدفاعي ستكون بالتالي : **القطعة المتحركة** ، اي القطعة المهاجمة ... وتفرض النظرية التي تتابع **تحقيق اقوى صدمة ممكنة** على الاستراتيجية **قيادة كل القطعات الى المعركة** ، كشرط اساسي ... ان الحركة هي قانون الاستراتيجية . ولكن الا يمكن أن نتوقع هذه الصدمة بصورة طبيعية ؟ كلا بالطبع . لاننا اذا لم نفتش عنها ، فمن الممكن ان لا تحدث ، او ان تتم في شروط سيئة ، وعندئذ تفلت منا فرصة تدمير قوات الخصم ، وهي الوسيلة الوحيدة التي تملكها الحرب للوصول الى غاياتها ... هذا هو القانون الاول الذي يتحكم بالنظرية ، والذي لا يمكن ان تتخلص منه او تنجو اية قطعة ، والذي تتطابق معه الصيغة العسكرية التالية : « من بين كل الاخطاء هناك خطيئة واحدة شائنة : **العطالة** » (ص. ٤٤) .

ويتحدث فوش عن « الهجوم الحاسم » في الصفحات الاخيرة من كتابه

« من مبادىء الحرب » (صفحات ٣٢٢ والصفحات التالية) . ان الهجوم الحاسم هو « الانقضاض (على الخصم) . غير ان الانقضاض يعني ان ننقض عليه عدداً وكتلة . ففي هذا العمـــل خلاصنا » لان « العدد ، يعني ان التفوق المعنوي هو الى جانبنـــا ... ويعني مفاجأة الخصم ، واقتناعه بانه لا يستطيع المقاومة .. » .

وتبدأ المعركة بقصف شديد للمدفعية : وقد يستمر التمهيد الاولي معظم ساعات النهـــار ، تتجمع خلالها المشاة . « وتحين ساعة العمـــل .. فلكي ندفع العدو الى القتال تراجعيـــاً ، ينبغي الاجهاز عليه بالمسير نحوه ، واحتلال موقعه .. وهنـــا يبدأ عمل كتل المشاة .. فهي تسير مستقيمة الى هدفها ... وهي تغذ السير وتزيد ايقاع خطوهـــا كلمـــا اقتربت من مواقع خصمها » . وعندما تصل على مسافة تتراوح بين ٦٠٠ ـــ ٨٠٠ متراً من العدو ، فانهـــا توجه طاقتها النارية الى اقصى ما يمكن . واضاف فوش فيما بعد قائلاً ما يلي :

« وينتقـــل اعتبـــار النار التي نتعرض لهـــا ونحن نتقدم الى المرتبة الثانية . فقد ذهبنـــا لكي نصل الى مواقع خصمنا . وليس هنـــاك من سبيل الى ذلك سوى تخفيف آثـــار النيران التي نتعرض لها : (وذلك بتغذية نيران اقوى منهـــا واكثر عنفـــاً ... وان نسير ايضاً بسرعة اكبر . فالمسير والمسير بسرعة ، مسبوقين بسقوط الرصاص . وكلمـــا زاد ضغطنا عـــلى الخصم ، ظهرت قطعاتنا وهي تزداد عدداً وعُدَّة ، ونحن نُحْكم قيادتهـــا والسيطرة عليها . تلك هي اذن الصيغة الاساسية للتشكيلات التي ينبغي اتخاذها والسلوك الذي يترتب اتبـــاعه » .

وتتقدم قطعات الدعم فيمـــا بعد « لتنتقـــل الخط الاول الى امـــام » ، وتصل وحدات الاحتياط اخيراً « لتزود بآخر اندفـــاع لقوة الهجوم » .

ثم يدق ناقوس الانقضاض ، و « من خلال سحابة من التراب او الدخان » تظهر الخيالة بصورة مباغته . « ومن هناك تندفع الخيالة لتنقض على بقايا مقاومة الخصم ، او تنقض على خيالة الخصم التي تحاول الانقضاض على مشاة الهجوم ، او على وحدات العدو الاحتياطية التي تهرع بمنتهى السرعة » . واذا ما استثنينا الخيالة من هذا الوصف ، وجدنا ان هذا الوصف ينطبق على معركة غيتسبورغ من جديد .

وعندما نعود **الى الهجوم حتى النهاية** لفوش ، نتنفس بصورة دائمة افكار كلاوزفيتز ، المتسم بالعنف ، لا كلاوزفيتز الفني المتأمل والمترهب . ونرى في فوش « نابليوناً » معنوهاً من الناحية التكتيكية ، لانه على حين كانت معارك نابليون مستندة الى تسليح عصره — والتسليح يعدل التكتيك دوماً نجد فوش يتجاهل تسليح عصره . وهكذا نرى فوش يقلد نابليون ، خطوة خطوة ، مع بعض التعديلات ، في مواجهة بنادق التكرار A,RÉPÉTITION والمدفعية ذات الرمي السريع ، وكأنما ما زالت هناك البنادق المزودة (بقنبلة ملتهبة) MOUSQUETS ، وقاذفات (او منجنيق) يينا وفريدلاند . ومما سبب المآسي فيما بعد ، ان **هجماته حتى النهاية وحتى الموت** ، ومعاركه ذات **الايقاعات الجنونية** اصبحت عقيدة المدرسة الفرنسية .

٣ — ى. س. بلوخ I. S. BLOCH

كان بلوخ يهودياً بولونياً ، ومن اصحاب البنوك في فارسوفيا . وكان ايضاً من دعاة السلم الى درجة كبيرة ، وغير شائعة في ذلك العصر . ولم يكن هدفه الغاء الحرب ، او تحديد رقعتها ، بل كان هدفه بالأحرى اقناع الامم بان طاقة الاسلحة النارية المتزايدة باستمرار ، بسبب طبيعتها المميتة ، قد الغت الحرب كأداة للسياسة . وكانت عبادة الهجوم بالنسبة اليه

وهمـاً وسراباً . وللبرهان على ذلك ، انكبّ على جمع كل الوقائع التي يمكن ان تدعم تأكيداته . وفي عـام ١٨٩٧ عبّرعن رأيه في تحليـل عميق للحرب في مؤلف من ستة اجزاء ، كان خليطـاً حقيقياً من الاحصاءات ، والرسوم البيانية ، والحسابات ، والاستنتاجات تحت عنوان : **الحرب المقبلة ، وعلاقاتها التكنيكية والاقتصادية والسياسية** (١) . وفي عام ١٨٩٩ ، كسب الى جانب قضيته الصحفي الانجليزي ستيد W. T. STEAD ، الذي طبع ترجمة انجليزية للجزء السادس ، وظهر هذا الجزء تحت عنوان : هل الحرب مستحيلة؟ IS WAR IMPOSSIBLE? ومن حسن حظ القارىء ان ستيد اضاف الى هذه الاجزاء مقدمة طويلة معتمدة على محادثاته مع بلوخ . ونظراً لانه لخص فيهـا كل مـا هو هـام ومفيد في هذا الجزء ، فان من غير المفيد للقارىء ان يقرأ اكثر ممـا في هذه المقدمة .

والامر الغريب في نظريات بلوخ ، ان تنبؤه بالمستقبل ، كان صحيحاً الى حد كبير ، بالرغم من خطـأ الوقائع التي استندت اليها تنبؤاته ، لأن الوقائع كانت خاطئة ، ومضحكة احياناً . ومن اهم اسباب صحة توقعاته انه كان واحداً من اندر الرجال في جيله ، هؤلاء الرجال الذين دهشوا دهشة كبيرة من ان الدفـاع اصبح مع الزمن شكل الحرب الاقوى من الهجوم . وهكذا توصل الى مفهومه عن الحرب ، وهو مفهوم مغاير تماماً لمفهوم فوش .

كان بلوخ يتفق مع كلاوزفيتز في ان الحرب اداة للسياسة . ولكن دراسته المنهجية للمسائل الاقتصادية قادته الى اعتبار مفهوم الحرب كأداة للسياسة ،

---

(١) JEAN DE BLOCH: LA GUERRE FUTURE ET SES RAPPARTS TECHNIQUES, ECONOMIQUES ET POLITIQUES, EDITION FRANÇAISE (1900) QUI COMPREND LES 6 VOLUMES.

مفهومـــاً قد تبدل تبدلا تامـــاً ، بخلاف المؤرخين العسكريين الآخرين في عصره ، وذلك لان المدنية ، قد انتقلت منذ ايام كلاوزفيتز من عصر الزراعة الى عصر الصناعة . والواقع ، ان الحرب كانت في نظره اداة سلبية اكثر منهـــا اداة ايجابية .

فقد قال لستيد ما يلي : « مـــا هي الفائدة التي نجنيها من الحديث عن المـــاضي عندما تعترضنا مجموعة من المسائل الجديدة تماماً ؟ فلنقدر للحظة من اللحظات مـــا كانت عليه الامم منذ ١٠٠ عام ، ووضعها اليوم . ففي ذلك العصر ، وقبـــل اختراع السكك الحديدية ، والبرق والمراكب البخارية الخ .. كانت كل أمة من الأمم تشكـــل وحدة متجانسة الى حد ما ، ومكتفية ذاتياً ، ومستقلة ... وقد تبدل اليوم كل شيء ... ففي كل عام ترتبط الامم بعضها ببعض لضرورات الحياة ، ويزيد هذا الترابط ويكبر بشكل لم يحدث مثله سابقاً ... ومنذ الآن ، ستكون النتيجة الاولى لحرب من الحروب هي حرمان الأمم التي ستخوضها من كل فرصة للاستفادة من انتـــاج الأمم التي تحارب ضدها .. » او ايضاً : « يضمحـــل نفوذ الجندي ، ويصعد نفوذ الاقتصادي . وليس هناك من شك في هذا . فقد تقدمت البشرية الى مـــا بعد المرحلة التي لا يمكن ان تعتبر فيهـــا الحرب لمدة طويلة محكمة استئناف محتملة » . وبناء على هذا ، فان الحرب بين الدول الصناعية الكبرى ليست الا انتحاراً متبادلا . فالمفهوم القديم للحرب التي يعتبرها قضية او عملا معينـــاً مفهوم سخيف . وتعتبر الحرب اليوم نوعـــاً من السرقة الموصوفة المتسمة بالجنون : فهي نوع من نهب الذات وسلبهـــا .

وقد قال عن التسليح الحديث — وهو تعبير عسكري عن الحضارة الصناعية — مـــا يلي : « ان الاشارة الخارجية والمرئية لنهاية الحرب كانت تطبيق بندقية التكرار .. وقد حسّن الجندي ، بتطوره الطبيعي ميكانيكية الذبح هذه ، حتى

انه افاد من تطورها وتحسنهـــا ، فاحتمى خلفها من محاولة افناء خصمه له » .

ومن الممكن تلخيص تنبؤات بلوخ عن الحرب الحديثة ، طبقـــاً لاقواله الخاصة كالآتي :

« سيكون هنـــاك في البدء ابادة متزايدة ـ وذبح على نطاق واسع ومرعب ، حتى يصبح من المستحيـــل ان يكون هناك جنود ينهون المعركة بشكل حاسم . وسيحاولون القتـــال كمـــا كانوا يقاتلون في الشروط السابقة ، معتقدين امكان ذلك ، غير انهم سيتلقون درساً يمتنعون بموجبه عن القتال الى الابد . وسيكون لدينا عندئذ ، بدلاً من حرب تقـــاد الى النهاية وحتى الموت ، في سلسلة من المعارك الحاسمة ، مرحلة طويلة من التوتر ، يزداد باستمرار ، في موارد المقاتلين . وستصبح الحرب نوعـــاً من النزاع النائم تتردد الجيوش فيه عن المجابهة بدلا من قتال الالتحام ، الذي يحسب فيه المقاتلون تفوقهم البدني والمعنوي وستبقى الجيوش وجهـــاً لوجه ، تهدد بعضها بعضاً بالتبادل . دون ان تستطيع خوض المعركة النهائية والحاسمة .. وان هذه الحرب هي حرب المستقبـــل التي لن يكون فيهـــا قتال ، بل سيكون فيهـــا مجاعة . ولن يكون فيها ذبح ، بـــل يكون فيها افلاس الامم وتقويض كل نظامها الاجتمـــاعي وسيكون كل الناس محميين بالخنادق والمـــلاجىء في الحرب المقبلة ، وستكون حرب خنادق كبرى . وسيكون الرفش ايضاً ضروريـــاً للجندي كالبندقية تمـــاماً ... وستتخذ كل الحروب بالتأكيد سمة عمليات الحصار .. وسيستطيع الجنود القتال كمـــا يحلو لهم . وسيرتبط الحسم النهـــائي للحرب بالمجاعة ... الا اذا كان احد الاطراف يملك بحرية متفوقة على بحرية الآخرين ، اذ لن تكون هنـــاك حاجة لذلك ، مهمـــا كانت هذه القوة البحرية صغيرة . فالبحرية التي تكون اهم من القوات البحرية الاخرى ، لن تكون سوى رهينة بمشيئة الدولة ، التي تملك اقوى اسطول بحري » .

وكان بلوخ يتفق مع الرأي القائل بانه في حرب بين التحالف المزدوج ، والاتفـــاق الثلاثي « سيكون هنـــاك عشرة ملايين من الجنود تحت السلاح » وان « خطوط المعارك قد تصبح واسعة جداً لدرجة تصبح قيادتها مستحيلة » وان المعـــارك ستستمر مدة طويلة ، وستزيد تكاليفها . وستكلف حرب من الحروب مـــا لا يقل عن ١٠٠ مليون فرنك – ذهبي في اليوم ، اذا اشتركت فيها الدول الخمس للحلفين . وكان يرى ان الخيالة لن تكون مفيدة ، وان الايام الجميلة للحربة قد انقضت ، وانتهت وان المدفعية ستصبح السلاح المسيطر

وكان العسكري الوحيد المشهور ، المعروف بقلقه من نقـــد افكار بلوخ . هو الجنرال العجوز دارغوميروف ، احد المحاربين القدمـــاء في الحرب الروسية – التركية . فقد ادانها لانها نسيت ان تبرز بان الحربة كانت مـــا تزال اقوى سلاح .

* * *

الفصل الثامن

جذور ارماجدون [1]

١ – التوسع فيما وراء البحار لاوروبا الغربية

بدأت الثورة الصناعية في تثبيت اقدامها على القارة الاوروبية بعد الحروب النابوليونية . فقد توطدت دعائمها في بادىء الامر في الالزاس وفي شمال شرقي فرنسا وفي بلجيكا . امـــا في المانيا والبلدان الاخرى ، فيمكن القول بانها وطدت دعـــائمها في حوالي عام ١٨٤٠ . وبعد عشرة اعوام ، اصبحت سرعة التوسع الصناعي في المانيا اكبر بكثير من بلدان القارة الاخرى . وبعد الحرب الفرنسية – الالمانية ، زادت التعويضات الحربية المؤلفة من خمسة مليارات من الفرنكات ، التي دفعتهـــا فرنسا لالمانيا من سرعة التقدم الصناعي ، حتى انه كان في وسع المانيا ان تندفع على نفس الطريق الذي اتبعته انجلترا

(١) ARMAGEDDON ارماجدون : هو المكان الذي ستدمر فيه قوى الشر ، وبخاصة القوى المضادة للمسيح بحسب التوراة . وفي اللغة الدارجة ، تعني ارماجدون مذبحة كبرى تضع حداً لنزاع حاسم . (المعرّب)

قبـل قرن من الزمان ، عندما استولى اللورد كلايف CLIVE على الذهب في البنغـال ، فساهم هذا الذهب في تطوير الثورة الصناعية البريطانية .

فعلى حين كانت الطاقة الالمانية تتركز كلهـا في بناء صناعاتها . حدثت إظاهرة من اكثر ظواهر التاريخ في العالم ادهاشاً . فقد انقضّت بعض الدول لاوروبية ، التي كانت ما زالت في مراحل مختلفة من تصنيع بلدانها ، وتحت ستار نشر الحضارة في صفوف الوثنيين ، انقضّت على بلدان مـا وراء البحار ، بحثـاً عن المواد الاولية لمصانعها وعن الاسواق لبضائعها ، مندفعة في الكفاح للحصول على مستعمرات في افريقيا اولا ، وفي جنوب آسيا ، وفي الباسيفيكي وفي الصين .

وفي عام ١٨٧٠ كانت خارطة هذه البلاد تشكـل بقعة بيضاء ، فيمـا عدا مصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر في الشمـال ، ورأس الرجاء الصالح ، ودولة اورانج الحرة والترانسفآل في الجنوب ، وعدداً من الوكالات التجارية الاوروبية المنتشرة على سواحل افريقية . وبعد ثلاثين عامـاً ، اي في عام ١٩٠٠ ، اقتسمت بريطانيا وفرنسا والمـانيا وايطاليا واسبانيا وبلجيكا والبرتغال ، ستة وعشرين مليوناً من الكيلومترات المربعة البـاقية في القارة الافريقية ، بالرغم من ان الجزء الاكبر منهـا كان ما زال غير مكتشف حتى ذلك الوقت ، فيمـا عدا المغرب ، وليبيا ، والحبشة وليبيريا ، اي ما يعادل مساحة ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة .

ولا تهمنا هنا هذه التجزئة بمجموعها ، باستثنـاء بعض الوقائع الهامة ، وبخاصة تلك الوقائع التي ادت الى مشاحنات بين الدول المستعمرة .

ففي عام ١٨٧٥ ، اشترى بنيامين دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا اسهم قناة السويس المملوكة للخديوي لحماية طريق الهند . وكانت القناة ، وهي

مشروع فرنسي ، قد فتحت في عـــام ١٨٦٩ ، الا ان اللورد بالمرستون عارض انشاءها . وفي عام ١٨٧٧ ضمت بريطانيا العظمى الترانسفآل . وبعد عامين ، قامت بغزو الزولولاند . وقد تحرر البوير من تهديد قبائل الزولو . ودفعهم حرصهم على أمن منازلهم الى استعادة استقلالهم الذي حصلوا عليه من جديد في عام ١٨٨١ ، مثلهم مثـــل المستعمرين الامريكيين بعد عام ١٧٦٣ ، وذلك بضرب الانجليز في حرب البوير الاولى التي كانت السبب في اندلاع الحرب الثـــانية .

ومـــا كادت تنتهي هذه الحرب حتى اندلعت ثورة عرابي في مصر . فدعى كامبيتا ، الذي كان في ذلك الوقت رئيساً للحكومة الفرنسية بريطانيا الى مناقشة التدابير الواجب اتخاذها لمساعدة الخديوي . ولكن وزارة غامبيتا استقالت في مطلع عام ١٨٨٢ ، فوضعت هذه الدعوة على الرف مؤقتاً حتى يونيو (حزيران) اذ اندلعت الاضطرابات في الاسكندرية . فطلبت بريطانيا العظمى من فرنسا فوراً التعاون معهـــا لاعادة الامن والنظام ، غـــير ان دوفريسينيت ، الذي كانت بيده مقاليد السلطة ، رفض هذا الطلب ، كمـــا رفضته ايطاليا ايضاً . وفي يوليو (تموز) قصف الانجليز الاسكندرية ، وفي ١٣ من سبتمبر (ايلول) سحق السير غارنيه فولسلي عرابي باشا في التـــل الكبير . ومن مصر ، تسلل الانجليز الى السودان وفتحوها ، وفي عام ١٨٨٥ وقعت مأساة غوردون . واوقف اجتياح هذا البلد الواسع بسبب ازمة بنجه PENJEH التي ولدت من خلاف على الحدود بين بريطانيا العظمى وروسيا في التركستان . ولم يتابع اجتيـــاح السودان الا في عـــام ١٨٩٨ ، عندما انتصر الجنرال السير هربرت كيتشنر في ٢ من سبتمبر (ايلول) على السودانيين في ام درمـــان ، وضمت السودان الى الامبراطورية البريطانية .

في هذه الغضون ، كانت فرنسا قد وسعت سلطتها لتشمل المناطق الواسعة في الصحراء . فاحتلت في عام ١٨٨١ تونس ، مع معارضة الايطاليين واستنكارهم لذلك . وفي عام ١٨٨٣ ، فرضت الحماية على مدغسقر ، وبعد عامين ، ضمت التونكين . وعلى اثر ذلك احتلت بريطانيا – العظمى – بيرمانيا العليا . وفي عام ١٨٩٣ ، وقع حادث بين البلدين لخلاف على سيام . ولم تفلت هذه الدولة من الانضواء تحت لواء احدى هاتين الدولتين الا بسبب التنافس القائم فيما بينهما عليها . وفي عام ١٨٩٨ وقع حادث آخر في فاشودا ، وهو مخفر يقع على النيل الابيض ، على مسافة ٩٦٠ كم شمال الخرطوم ، كاد يؤدي الى الحرب فيما بينهما وجعل من الدولتين دولتين متعاديتين حتى عام ١٩٠٤ .

وفي هذا الوقت ، وفي عام ١٨٨٤ ، كان ليوبولد الثاني ملك بلجيكا قد سيطر على حوض الكونغو الواسع الثراء ، والذي تعادل مساحته ٧٩ مرة مساحة بلجيكا . وقد ادى هذا الاحتلال الى اثارة شهوات التجار الالمان الذين كانوا يهتمون بافريقيا . واقتنع بسمارك اخيراً بان الفرصة قد حانت لحصول المانيا على مستعمرات خاصة بها ، بعد الحاح التجار وكثرة مطالبتهم ، وبسبب المطالب المتزايدة للتجارة المتنامية لالمانيا ، بضرورة امتصاص مناطق تجارية اخرى لبضائعها . ونتج عن ذلك ان احتلت المانيا في عام ١٨٨٤ ساحل انغرا بيكينا في افريقيا الجنوبية الغربية ، والتوغو ، والكاميرون ، وجزء من غينيا – الجديدة ، ثم ما لبثت ان احتلت بالاضافة الى كل هذا مؤخرة زنجيبار التي اصبحت افريقيا الشرقية الالمانية . وقد ادى احتلال الالمان لهذه المناطق الى حدوث توتر سياسي بين المانيا وبريطانيا – العظمى ، لان الجنوب الغربي الافريقي الالماني كان مجاوراً لمستعمرة الكاب ، وغينيا

الجديدة قريبة من اوستراليا . ولكن بما ان احتلال الانجليز لمصر قد ازعج فرنسا واثار مخاوفها ، فان بريطانيا لم تكن في وضع يسمح لها بأن تندفع في النزاع ضد المانيا . ولهذا فان بسمارك عندما قدم يد الصداقة ، امسك بها غلادستون وحيى المانيا بصفتها حليفة لبريطانيا في مهمة نشر الحضارة والمدنية .

وحوالي نهاية القرن ، دخلت اليابان لعبة نهب واقامة المستعمرات . ففي عام ١٨٩٤ شنت الحرب ضد الصين وهزمتها ، واحتلت منها فورموزه وشبه جزيرة لياو — تونغ . وقد دفع هذا الاحتلال الياباني الدول الاوروبية الى دخول ميدان الوغى . فقد كانت روسيا تحاول منذ زمن طويل الحصول على مرفأ دافىء ليكون منفذاً لسيبريا . وكانت مطامحها مركزة على شبه جزيرة لياو — تونغ . فأجبرت روسيا اليابان على التخلي عنها مدعومة بفرنسا والمانيا ، وحصلت كمكافأة على ذلك ، على حق مرور السكة الحديدية التي تخترق سيبريا والتي كانت ما زالت في حيز البناء ، على الارض الصينية ، على حين منحت فرنسا تعديلا للحدود في وادي الميكونغ .

فعلى حين افادت روسيا وفرنسا مما كانوا يستمتعون بتسميته بالكرم الصيني ، لم تتلق المانيا اية مكافأة ، فاعتمدت على نفسها في عام ١٨٩٧ ، واحتلت خليج كياو — تشيو وطالبت روسيا بالتنازل عن بورت ارثر ، في شبه جزيرة لياو — تونغ ، وهو طلب لا يمكن للصين ان تقاومه . فعارضت بريطانيا العظمى هذا الطلب معارضة حازمة ، ولكن عندما وجدت نفسها امام الامر الواقع كظمت جماح غضبها ، واجبرت الصين على التنازل لها عن فاي — هاي — فاي . واثر هذا ، حصلت فرنسا على كوانغ — تشيو — فان.

وفي عام ١٩٠٠ حدث تمرد البوكسرز BOXERS، ومذبحة الاوروبيين وحصار الوفود الاجنبية في بكين ، وتخليصهم بقوة مسلحة دولية . وطبقاً لمسار الامور في ذلك الوقت ، كانت الصين تبدو وكأنها الدولة المقبلة المعدة للتجزئة .

وهكذا ، وفي نهاية القرن التاسع عشر ، كانت ثماني دول اوروبية هي بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، والمانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وبلجيكا ، والبلاد الواطئة ، التي لا تتجاوز مساحتها كلها ٢,٦٠٠,٠٠٠ كم٢ قد استحوذت ، في خلال جيل واحد من الزمان ، على ٢٨,٥٠٠,٠٠٠ كم٢ من الاراضي الاجنبية ، ضمتها الى اراضيها الوطنية . وكانت مساحة هذه الاراضي المحتلة تعادل مساحة الولايات المتحدة مضروبة بثلاث مرات ونصف ، كما تعادل هذه المساحة خمس مساحة الكرة الارضية . مثل هذا الفتح الواسع النطاق لم تكن له اية سابقة في التاريخ منذ غزو المغول في القرن الثالث عشر ، كما انه لم يكن هناك غزو سابق لهذا الغزو في التاريخ اتسم بمثل هذه السرعة ، وبالطابع السلمي منذ عصر الاسكندر الاكبر . وكان مصير هذه الفتوحات كمصير امبراطورية الاسكندر التي اقتتل من اجلها قواده العسكريون من بعده .

٢ – تطور الجيوش من عام ١٨٧٠ الى ١٩٠٣

توافقت مرحلة التوسع الاستعماري وتطابقت مع ثلاثة اختراعات هامة في مجال السلاح ، فقد شهدت تلك الفترة : استخدام بندقية التكرار ذات العيار الصغير ، التي ترمي دون دخان ، وتحسين الرشاش ، واستخدام مدفعية الرمي السريع .

وفي حوالي ١٨٧١ ، حققت البندقية ذات الطلقة الواحدة ، والتي تلقم

من المغلاق ، درجة كبيرة من الفاعلية ، حتى كانت المرحلة التالية التي حولتها الى بندقية تكرار او بندقية ذات مخزن للخرطوش . وكانت الفكرة قديمة جداً ، غير انهـــا لم تتحقق بكاملها الا باستخدام الغلاف المعدني للطاقات ، الذي قلل الى حد كبير من الاستعصاءات التي كانت تحدث في المغلاق . وكانت المانيا اول دولة اوروبية استعملت البندقية ذات الرمي التكراري ، اذ زودت في عام ١٨٨٤ بندقيتهـــا الموزر MAUSER نموذج ١٨٧١ بمخزن للطلقات . وكان المخزن عبارة عن انبوب ادخـــل في الحاضن تحت السبطانة ، وكان يحتوي على ثمـــانية خراطيش . وفي عام ١٨٨٥ ، وضعت فرنسا بندقية شبيهة بها ، وهي بندقية لوبيل LEBEL ، التي تستخدم البارود دون دخان ، وكانت لذلك ميزة كبيرة . ثم في عـــام ١٨٨٦ ، استخدم النمساويين المـــانليشر MANNLICHER وهي مزودة بعلبة – مخزن امام الجسير وتحت غرفة المغلاق . وبعد عامين ، تبنى الانجليز اللي– متفورد ، LEE-METFORD عيار ٧,٥ مم ، وهي بندقية ذات علبة – مخزن تتسع لثمـــاني خراطيش ، اصبحت عشرة فيمـــا بعد . وفي حوالي عـــام ١٩٠٠ ، كانت كل الجيوش تملك بنادق ذات مخازن ، متقاربة الفاعلية ، وتتراوح عياراتها بين ٦,٥ مم الى ٧,٨ مم . وكانت كلهـــا مزودة بمغالق متحركة ، وتستخدم البارود الذي لا يحدث دخاناً ، ومزودة بموجهات للمدى للرمي على مسافة ٢٠٠٠ متراً.

وتم تطور الرشاش ، وهو ايضاً محصلة فكرة قديمة ، في نفس الوقت الذي حققت فيه بندقية التكرار تقدمها . وقد جربت نمـــاذج متعددة ، تبنوا عضها ، كبندقية الكاتلنغ [١] المحسنة ، والنوردنفلدت (١٨٧٣) والهوتشكيس (١٨٧٥) والغاردنر (١٨٧٦) والبراوننغ (١٨٨٩) والكولت (١٨٩٥)

---

(١) CATLING سلاح ممتاز ، استعمل لاول مرة في نهاية حرب الوراثة

وكانت السنة الحاسمة في تطور هذه الاسلحة هي عـام ١٨٨٤ ، اذ حصل حيرام. س. ماكسيم في هذا العـام على براءة اختراع رشاش بسبطانة واحدة، تلقم وترمي باستخدام قوة الارتداد . وكان النموذج الاصلي يزن ١٨ كلغ . وكان يُبرد بواسطة الماء ، ويغذى بشريط من الخراطيش ، ويرمي ٢٠٠٠ طاقة في ثلاث دقائق . وقد تبنـاه الجيش البريطاني في عام ١٨٨٩ ، وكان مخصصاً لاحداث ثورة في تكتيك المشاة .

ونجم ادخال مدفعية الرمي السريع من المشروعات الموضوعة في عام ١٨٩١ ، في المانيا ، على يد الجنرال ويل WILLE ، وفي فرنسا على يد العقيد لانجلوا LANGLOIS . وقد وجد الاثنـان ان هنـاك استحالة في الحصول على سرعة رمي كبيرة ، اذا لم يمتص ارتداد السلاح بوسيلة من الوسائل . وتمت ابحاث تجريبية عديدة حول امتصاص الصدمة ، واخيراً توصلوا الى استخدام حاضن عديم التراجع ، امكن ان يضاف اليه درع يقي من الرصاص يحمي سدنة السلاح . وقد بقيت البندقية المزودة بمخزن (مشط) السلاح السائد الى ان وصلت هذه الخطوة الفنية التحسينية الى المدفعية . وعندئذ نافسهـا المدفع ذو الرمي السريع ، الذي كان مداه اكبر ، وكان في وسعه الرمي بنفس الايقاع ، ومن الممكن ان يصبح سلاحاً مستوراً ، بفضل رميه غير المباشر .

واثار الازدياد الهـائل لتعداد الجيوش مشكلة تموينهـا ، وتركزت المحاولة الاولى لحلهـا على القطر الميكانيكي . وكانت القاطرات قد استخدمت في حرب القرم ، في قطر قطارات من السيارات المحملة من مستودعـات بالاكلافـا الى الجبهة ، في سهول ممتنعة على العربـات التي تجرها الدواب . وقد استخدمت من جديد في الحروب الفرنسية الالمـانية والروسية ــ التركية ، كمـا استخدمت ايضاً في سحب المدافع الثقيلة وجرها . ومن عـام ١٨٧٢ الى نهاية القرن ، تمت بعض التجارب والمحاولات في مجال القاطرات في

انجلترا ، وفرنسا ، والمانيا ، وروسيا ، وايطاليا وسويسرا . وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٩٩ ، ارسلت الحكومة البريطانية ٨٤ قاطرة للاشتراك في حرب افريقيا الجنوبية . وارسلت قاطرات اخرى ، منهـــا ستة قطارات مدرعة للطرق ، مؤلفة من قاطرة واربعة عربـــات مدرعة . وكان سمك تصفيحهـــا يعادل ٦ سم ، وفي وسعه مقاومة الطلقات النارية التي تصيب الهدف مبـــاشرة من مسافة ٢٠ متراً . وكانت حجرة السائق ، وحجرات السيارات مزودة بفتحات للرمي بالبندقية . وقد فكروا في استخدام هذه القطارات المدرعة كابراج متحركة مستقلة تستطيع التنقـــل من موقع الى آخر عبر الحقول الجرداء . غير انه ليس هناك دلالات تؤكد انهـــا استعملت بهذا الشكل .

ومع ذلك ، فان هذه المشكلة لم يحلهـــا البخار ، وانمـــا حلها البترول ، الذي ادى انتاجه السريع في الولايات المتحدة ، ابتداء من عـــام ١٨٥٩ ، الى استخدامه تجارياً وعلى نطاق متزايد ، وقاد في عـــام ١٨٧٦ الى المحرك الثابت الغـــازي [١] A GAZ الذي اخترعه الدكتور ن. آ. اوتو . ثم تخيل غوتليب ديملر محرك احتراق داخلي مستخدمـــاً روح البترول الذي احكمه على دراجة عـــادية [٢] : تلك كانت المرحلة الاولى نحو انتـــاج السيارة الحديثة التي تسير بالبترول . وبعد سنتين تمكن بانهارد ولوفيسور من الحصول على براءات اختراع ديملر الفرنسية لاندفاع الآليات . ومنذ ذلك الوقت وحتى

---

(١) انها فكرة قديمة ، ويبدو ان كريستيان هيغنز بنى المحرك الاول في عام ١٦٨٣ . وكان يعمـــل بواسطة الهواء وبارود المدافع .

(٢) في عام ١٨٨٥ ، ايضاً ، وفي انجلترا ، سَيّرَ بتلر سيارة تسير على ثلاث عجلات بواسطة محرك احتراق داخلي يستخدم البخار المعدني .

عام ١٨٩٤ ، لم يوجهون اليهـــا الا اهتماماً ضئيلا ، ولكن في هذا العـــام . اعطت جريدة الجورنـــال الصغير LE PETIT JOURNAL دفعـــاً لصناعة السيارات الفرنسية ، بتنظيمها سباقـــاً تجريبياً للسيارات المدفوعة بمحركات من باريس الى روان . وقد اهتم النـــاس بهذا السباق، حتى انهم في العام التالي ، نظموا سباقاً من باريس الى بوردو ذهاباً وايابـــاً ولمسافة ٧٤٤ ميلا، تمكن الفائز في هذا السباق من قطع المسافة بمعدل وسطي يعادل ٢٤ كم في الساعة . وفي العـــام التالي ، في عام ١٨٩٦ ساهمت السيارات المزودة بمحركات للمرة الاولى في مناورات الجيش الفرنسي . وبعد ثلاث سنوات عرضت في انجلترا السيارة التعبوية الاولى المزودة بمحرك ، وهي آلية ذات اربع عجلات ، مزودة برشاش ماكسيم،وتستطيع الرمي عبر درع مدرع اثناء المسير.وفي حوالي نهـــاية القرن ، كان الاندفاع بواسطة محرك الاحتراق الداخلي قد حقق تقدماً كبيراً ، حتى ان السيد آرثر بالفور BALFOUR ، قال لمجلس العموم . في ١٧ من مـــايو (ايار) ١٩٠٠ ، انه حلم بان المستقبل سيعرف « طرقاً كبرى تنشأ لمسير الآليات السريعة وتخصص لسير السيارات » [١] بالاضافة الى السكك الحديدية ، وخطوط الترامواي .

غير ان اكبر انتصار حققه المحرك الجديد كان قد تحقق في هذا الوقت . ففي ١٧ من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٠٣ ، وعلى تـــل كيل دوفيل ، في كيتي هوك ، بكارولينا الشمالية ، طار اورفيل رايت مدة اثنتي عشرة ثانية في طائرة يدفعهـــا محرك ، وهكذا ، ومن جراء هذا الحدث ، اضاف الى الحرب بُعداً ثالثاً .

---

(١) المقدم اوتفريد لايريز OTFRIED LAYRIZ
MECHANICAL: TRACTION IN WAR FOR ROAD TRANSPORT (EDITION ANGLAISE, 1900) p. 96.

وقد احدث محرك الاحتراق الداخلي اكبر ثورة حدثت في الحياة المدنية وفي الحرب ، منذ ان اخضع الانسان البدائي الحصان لأول مرة . وكان اثره على الحضارة عميقاً جداً ، حتى انه لو كان من الممكن اليوم الغاء كل السيارات المزودة بمحركات بضربة من عصا سحرية ، لتوقفت الحياة تماماً ، ولغرقت في خضم من الفوضى المطلقة . فقد اصبح البترول منبعاً للقوة المحركة ضرورياً جداً ولا يمكن الاستغناء عنه ، حتى ان مشكلة الحصول عليه اضحت من اهم المسائل السياسية الحيوية . وقد بدّل البترول ، في الشؤون الادارية (اللوجيستية) وفي التكتيك تنظيم الجيوش ، ومحى وسائل النقل الحيوانية ، وأدى الى تبني آليات القتال المدرعة ، وفتح في الاجواء ، طريقاً عالمياً للتموين وللمدفعية ، وللجيوش المنقولة جواً . واذا ما اردنا مقارنة اثره على السلم والحرب ، نجد انه لم يكن هناك اكتشاف آخر في هذه المرحلة يوازيه في الاهمية سوى : البرق اللاسلكي .

فقد اعطى(رودولف هيرتز) شكلا نظرياً للبرق ، اللاسلكي لاول مرة في عام ١٨٨٧ ، مبرهناً ، على ان الشرارة الكهربائية ، في بعض الشروط ، تخلق اثراً ، ينتشر في الجو بشكل موجة كهرطيسية. ودرس علماء آخرون هذه المشكلة ، وفيما بين عام ١٨٩٤ وعام ١٨٩٦ ، وجه جو جليامو ماركوني كل اهتمامه الى تحسين الاجهزة الي تسمح بكشف الموجات الكهرطيسية . وقد نجح في ذلك ، حتى انه في عام ١٨٩٩ نقل برقية لاسلكية بين طرادين بحريين ، اثناء المناورات البحرية البريطانية ، وفي ١٢ من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٠١ ، ارسل اشارات بواسطة موجات كهرطيسية عبر الاطلنطي ، من كورنواي الى الارض الجديدة **TERRE - NEUVE** على مدى ٤٨٠٠ كم . وكان أثر البرق اللاسلكي على الحياة المدنية ، وعلى الاستراتيجية البحرية هائلا جداً ، لا يقل عن اثره على الحرب فوق الارض

وفي الاجواء . وقد ساهم البرق اللاسلكي في اعطـاء اثر عالمي للدعاية على الاقل ، وفي ازعـاج ومضايقة امم بكاملها بتحويل الاقوال والكتابـات الى سلاح حربي مزود بسرعة الضوء ، وبمدى عمـل عالمي ، هذا اذا لم نقل انه ساهم في خلق الحرب البسيكولوجية . وقد سبب بالاضافة الى كل هذا تطور العلم الالكتروني .

وفي عام ١٩٠٣ ، كان اثر هذه المستحدثات المذهلة يرقد خلف ستار المستقبـل الحديدي ، لكن هذا الستار لم يكن غير قابل للنفوذ بصورة مطلقة . ومع ذلك ، لم يتشبع فكر رجال الدولة والعسكريين به الى حد كافٍ ، حتى ان ادارة حرب المستقبـل عادت الى لعبة من لعب الصدف ، والى لعبة يلعبهـا لاعبون من العميان ، كانوا يحركون احجارهم في الظلام فوق رقعة جديدة تمـام الجدة .

٣ ـ آخر حروب التوسع

وفي نهاية القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، وقعت حربـان صغيرتـان وحرب كبرى : الحرب الاسبانية ـ الامريكية لعـام ١٨٩٨ ، وحرب البوير من عام ١٨٩٩ الى عـام ١٩٠٢ والحرب الروسية ـ اليابانية من عـام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ . وللحروب الثلاث اهمية تكتيكية كبرى ، خلافـاً لاهميتهـا السياسية ، لانها كانت الحروب الاولى التي تم فيهـا اختبار الاسلحة الجديدة .

وكان السبب الرئيسي لاولى هذه الحروب هو تصميم الولايـات المتحدة على طرد اسبانيا من بحر الآنتيـل ، مع تصميم بمشروع انشاء قناة بناما . وكان هذا الهدف هو هدف الحكومات المتعاقبة ولمدة طويلة ، منذ ايـام

جيفرسون ، اذ كانوا يخشون من وقوع كوبـا بين يدي دولة اوروبية غير اسبانيا . وقد قدمت الثورة الكوبية في عـام ١٨٩٥ ، التي تلتها اجراءات ردع قاسية ، انعكس اثرها على المصالح التجارية الامريكية ، قدمت الثورة للولايات المتحدة الامريكية ذريعة للتدخل . وكان للحرب ، على المستوى السياسي ، اهمية كبرى ، لانهـا جعلت من الولايات المتحدة ، الدولة العالمية ، دولة ذات نفوذ واثر في كل القارات . وعلى المستوى العسكري كانت الحرب مشكلة بسيطة . امـا المعركتان البحريتان التي تمتـا فيها فقد كانتا تنفيذاً بدلا من ان تكونا معارك ، دمر خلالهما عمـارتان بحريتان اسبانيتان ESCADRILLES في خليج كافيت ، في الفيليبين ، وفي عرض مياه خليج سانتياغو ، في كوبا ، مقابل ضابطين امريكيين قتلا ، وستة من الجنود البحارة جرحوا جروحـاً خفيفة ، في مواجهة العمارة الاولى ، وقتيلا وجريحا في مواجهة العمارة البحرية الثـانية . واثبتت هذه المعركة تفوق المراكب الحربية الحديثة على المراكب العتيقة . وفي الاشتباك البري الهـام والوحيد، وجد الامريكيون انفسهم في معركة الكاني EL CANEY او معركة تـل سان جوان في وضع غير متميز ابداً بالنسبة للاسبانيين ، لانهم كانوا مسلحين ببنادق وبمدفعية ترمي معظمهـا البارود الاسود ، على حين كان الاسبانيون يرمون بالبارود الذي لا يثير دخاناً [1] . وقد برزت الفضيلة الدفاعية للاعمـال الميدانية مرة اخرى من جديد . وقد كتب هربرت هـ. سارجنت SARGENT مـا يلي : « يمكن القول دون مبالغة ان جندياً متمركزاً خلف خنادق الكاني ، او على تـل سان جوان كان يساوي في

---

(١) ذكر تيودور روزفلت في كتابه THE ROUGH RIDERS ، ص ٩٨ مـا يلي : « كانت مدفعية الاسبانيين تتفوق علينـا تفوقاً كبيراً ، لانها كانت تستخدم البارود دون دخان » .

القتال ستة جنود او ثمانية ممن كـانوا يتقدمون عليه لمهاجمته »[١] .

وهناك حادث صغير جديد بان نشير اليه ، لانه برهن على ان روح الفروسية لم تكن شيئاً من مخلفات الماضي . فعندما اغرق المهندس ريشموند ب. هوبس ، ناقلة الفحم الامريكية ميريماك في مدخل مرفأ سانتياغو الضيق ، انطلق الاميرال الاسباني سيرفورا CERVERA في مركبه البخاري السريع وانقذها هي وبحارتها من الغرق . وفي اثناء النهار ، ارسل برقية الى الاميرال سامبسون ، قائد اسطول الحصار ، بواسطة الوسيط المفاوض بين الطرفين « ليرفع شجاعة البحارة (بحارة **ميريماك**) بشكل غير مألوف»[٢].

وكانت حرب البوير ، التي أحسن المارشال فوش تقدير اسبابها ، كما وصفها التاريخ الالماني اختباراً « بين الجندي المدرب على المناورة كآلة من الآلات ، والرجل المسلح ببندقية ويعمل من تلقاء بديهته ... فقد اعلنت الحرب تبعاً لصيغ جامدة ، وحسٍ سليم متين ، خالٍ من الاكراه »[٣] لا اختباراً بين الرصاصة والحربة فقط . وعندما اعلنت الحكومة البريطانية في ٩ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٨٩٩ — اي قبل يومين من بدء الحرب

---

(١)
HERBERT H. SARGENT, THE CAMPAIGN OF SANTIAGO DE CUBA (1907) Vol. II, p. 135.

(٢) راجع البرقية رقم ١١٣ للاميرال سامبسون في :
THE RELATIONS OF THE UNITED STATES AND SPAIN, CONTRE-AMIRAL FRANCH ENSOR CHADWICK (1911) Vol. II, p. 345.

(٣)
THE WAR IN SOUTH AFRICA. A GERMAN OFFICIAL ACCOUNT (1906) Vol, II. p. 336.

قرارها في رفع تعداد جيش افريقيا الجنوبية الى ٧٠,٠٠٠ جندي ، كان مدير STANDARD اللندنية يعبر عن الرأي العام بدقة متناهية عندما صرح قائلاً ما يلي : « ماذا تستطيع ان تـأمل عصابة غير النظاميين ، انصاف المدربين للجنرال جوبير ، ماذا تـأمل عمله ضد مثل هذا الجيش من حملة الحراب ، والسيوف ، والمدافع ؟ » فلم يتوقف هو ومواطنوه عن الاعتقاد بان ٧٠,٠٠٠ جندي ، معظمهم من المشاة ، ذهبوا لاخضاع ٩٠,٠٠٠ خيالا ، مسلحين ببنادق ، في منطقة مساحتهـا ١,١٠٠,٠٠٠ كم٢ ، فوق مساحات مترامية ، حيث يستطيع اي فارس امتطاء حصانه في اي اتجاه اسابيع بطولها .

وقد اصبح واضحاً للعيان في المعارك الصغيرة الي وقعت في الاشهر الاولى من الحرب ، انه قد حل مكان الرعب القديم من عدو مرئي ، الاحساس المعجز بالمسير نحو خصم غير مرئي ، وذلك باستخدام البارود الذي لا يحدث دخاناً . فقد غلف المهـاجم الآن فزع شامل ، اكثر من خطر محدد بمكان ، على حين كان في وسع المدافع ، المستعد دومـاً للالتجاء خلف اي ثنية من ثنايـا الارض البدائية ، او بعض الاحجار الجافة ، بسرعة رمي بندقيته ، أن يستخدم تشكيلات منتشرة لا مثيل لهـا في الحروب السابقة ، وان يلتف ، بالتالي، على اي هجوم جبهوي تقوم به المشاة. وهكذا في معركة المودر MODDER صف البوير ٣٠٠٠ مقاتل على جبهـة ٧٠٠٠ متراً ، في مارغرسفونتين MARGERSFONTEIN ، و ٥٠٠٠ رجل على ١٠٠٠٠ متراً ، وفي كولانزو COLENZO ٤٥٠٠ على جبهة ١٢٠٠٠ متراً . ومع ذلك لم تخرق هذه الجبهات برغم نحولها .

ومارس البوير حرب الانصار بعد معركة باردبرغ PARDEBERG في

١٨ من فبراير (شباط) ١٩٠٠ ، ومن الممكن ان نعتبر ان الحرب الحقيقية بدأت في هذه اللحظة . واستمرت حتى ٣١ من مايو (ايار) ١٩٠٢ ، وامتصت بكاملهـا ٤٥٠,٠٠٠ جندي ، كان عدد كبير منهم من المشاة الراكبين . وقد توصلوا الى الانتصار فيها بواسطة خطة جريئة اوقفت حركية العدو تماماً . فقد انشئت شبكة هائلة من خطوط الابراج المحصنة على آلاف الكيلومترات المربعة من مسرح العمليات ، لتجزئته الى مناطق سهلة على الخيول . ثم طهرت هذه المناطق فيمـا بعد بارتال راكبة . وكانت عملية استنزاف طويلة ، غير انها نجحت نجاحاً تامـاً .

وكانت اسباب الحرب الروسية – اليابانية توسع روسيا الى الشرق . وكان هذا التوسع يستهدف ضم كوريا ، وضرب زخم الامبريالية اليابانية . وفهم اليابانيون ان قواتهم لن تكون كافية لقتال الروس ، عندما ينتهي اصلاح قطع خط حديد سيبريا في بحيرة بايكال . فاتخذوا القرار بضرب الروس طالمـا تمنحهم الاستراتيجية بعض الميزات . فطالما بقي هذا القطع ، فان تعزيز القطعات الروسية في منشوريا سيكون بطيئـاً . وكانت فلاديفوستوك مغلقة بالجليد طيلة الشتاء ، على عكس بورت آرثر . فاذا ارسل الاسطول الروسي في البلطيق الى الشرق الاقصى ، فانه لن يتمكن من التصرف بقاعدة للعمليات خالية من الجليد اذا فقد بورت آرثر PORT - ARTHUR . وهكذا كانت خطة اليابانيين تتضمن انتزاع بورت – آرثر من الروس وحشد كل قواتهم البرية فيمـا بعد في معركة كبرى ، يمكن ان يحققوا بواسطتها اقناع الروس بانهـاء الحرب ، اذا مـا تعرضوا لخسائر كبيرة .

واعلنت الحرب بصورة رسمية في ١٩ من فبراير (شباط) ١٩٠٤ ،

ومن الممكن تصنيف العمليات التي تمت على الشكل التالي :

١) حصار بورت آرثر وسقوطها ، وتتضمن هذه العملية تدمير الاسطول الروسي في الميناء .

٢) سلسلة المعارك البرية ، التي فاز فيها اليابانيون ، وانتهت بمعركة موكدن ، التي نشبت من ٢٣ فبراير (شباط) الى ١٠ من مارس (آذار) ١٩٠٥ .

٣) تدمير الاسطول الروسي في البالطيق في مضيق تسوشيما ، في ٢٧ من مايو (ايار) ١٩٠٤ . وفضلا عن ان الجيش الروسي قد هزم في كل معركة خاضها ضد اليابانيين ، الا انه مع ذلك لم يتعرض لهزيمة حاسمة ، وكان يتقوى من يوم الى يوم ، على حين كانت الطاقة الحربية لليابان قد بدأت تنزف وتستنزف . ومن وجهة النظر الاستراتيجية الصرفة ، كانت اليابان اذن لا تملك سوى احتمالات ضئيلة لربح الحرب بالرغم من انتصاراتها التكتيكية .

وكان سبب انتصارها ناجماً عن انهيار الجبهة الداخلية الروسية . فقد ادى القهر والفساد ، والمآسي التي تعرضت لها منشوريا ، بدء من ١٤ يوليو (تموز) ١٩٠٤ الى اغتيال بليهف PLEHVE ، وزير داخلية روسيا . ثم تلى ذلك اغتيالات واضرابات ، وفي ٤ من فبراير (شباط) ١٩٠٥ ، اغتيل الدوق الكبير سيرج . وقد اقنع حادث الاغتيال والحوادث الي تلته القيصر نيقولا الثاني (١٨٩٤ — ١٩١٨) بالتفاهم مع الثوريين . وفي ٦ من يونيو (حزيران) وعد بدعوة الجمعية الوطنية . ولكن ، عندما وجدت المعارضة انه ينوي ان يحولها الى مجلس استشاري صرف ، قامت الاضطرابات العنيفة ، ووصلت ذروتها في سبتمبر (ايلول) في اضراب عام شل روسيا خلال عدة ايام . وفي اكتوبر (تشرين الاول) خضع القيصر ، وشُكِّل مجلس برلماني .

وفي هذه الغضون ، كانت الجبهة الداخلية الروسية قد اصبحت اخطر من

جبهتها الخارجية ، عندما عرض رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، في ١٠ من يونيو (حزيران) وساطته على المتنازعين . وقبـل الطرفان عرضه ، وفي ٩ من اغسطس (آب) عقدت محادثات السلام في بورتسماوث في نيو همشاير . وقبلت روسيا بموجب احكام الاتفاق الموقع في ٢٣ اغسطس (آب) اخلاء منشوريا ، والتنازل عن شبه جزيرة لياو – تونغ لليابان ، وعن نصف جزيرة سخالين واعترفت لهـا بالنفوذ في كوريا . وكانت هذه النتائج طفيفة وضئيلة اذا ما قورنت بنتائج الحرب . فقد جعلت هذه الحرب من اليابان الدولة الآسيوية الاولى ، واضعفت روسيا ، وجعلت من المانيا ، بتحريرها من مخاوف الحرب في جناحهـا الشرقي ، الدولة السائدة في اوروبا ، وجعلت الميزان السياسي يميـل بهذا الشكل . واضطر هذا الوضع بريطانيا العظمى الى التخلي عن سياسة انعزالها التقليدية ، التي كانت منذ عام ١٩١٥ محور سياسة السلم البريطانية . وبالاضافة الى ذلك ايقظت هذه الحرب آسيا وافريقيا لانها شككت في تفوق وتسلط الرجل الابيض على الرجـل الملون ، ووجهت ضربة قاتلة الى كـل الامبراطوريات الاستعمارية الاوروبية.

وكانت المدفعية والمنشآت الميدانية العاملين المسيطرين في هذه الحرب . وعندما كانت المدفعية اليابانية ذات الرمي السريع بقيادة جيدة ، كان النصر مضموناً بصورة عامة . فقد كان المدفع يضطر الخصم الى التخندق ، وكانت المنشأة المتخندقة تضطر المدفع الى الالتجاء خلف خط الافق والقيـام بالرمي غير المباشر . وكان الرمي المستور يتطلب اتصالات هاتفية ، كما كانت الخنادق بحاجة ماسة للاسلاك الشائكة ، وتبدت قيمة الرشاش متزايدة نحو المزيد لرميهم رمياً ضاماً ، على حين اختفت الخيالة من المسرح .

وكانت التعاليم الرئيسية لهذه الحرب من وجهة النظر التكتيكية :

١) اخفاق الهجمات الجبهية ونجاح اعمال الالتفاف والتطويق .
٢) القدرة الدفاعية الهائلة للتخندق الميداني وللاسلاك الشائكة .
٣) الآثار المميتة والمتزايدة للرشاش .
٤) وكان اهم مـــا برز من تعاليم في هذه الحرب ، هو قوة المدفعية ذات الرمي السريع .

وقد ذكر العقيد واترز في تقارير الضباط الانجليز المنتدبين في الجيش الياباني مـــا يلي : « انني لا ارى من سبب يمنع بان تكون المدفعية في غالب الاحيان العامل الحاسم في المعركة ، وذلك على ضوء تجربتي الخاصة ، وقد كانت المدفعية حاسمة بالتأكيد في معركة تيلليسو » [١] . وقد كتب الرائد ج. م. هوم HOME ما يلي : « لقد ترك كل ما رأيته الانطباع العميق بان المدفعية اصبحت بعد الآن السلاح الحاسم ، وان الاسلحة الاخرى هي اسلحة معاونة لها . ولن يكون في وسع المرء ان يلح كثيراً على اهمية المدفعية ، لانه اذا تساوت كل الامور الاخرى ، فان المعسكر الذي يملك افضل مدفعية سيربح دومـــاً ... واني مقتنع تمام الاقتناع بالأهمية الهائلة للمدفعية واتساءل ما اذا كان قد اصبح من المناسب دراسة زيادة عدد هذا السلاح ، حتى ولو تم ذلك على حساب الاسلحة الاخرى ... » .

« ومع التطور الغريب للمدفعية ، يبدو من الطبيعي انه لا يمكن استخدام نيران المشاة بشكل مجدٍ لمسافات تتجاوز ٦٠٠ متراً ، وانه يترتب على المدافع المعادية ان تكون قادرة على منع مشاة العدو من استخدام بنادقها فيمـــا يزيد عن هذه المسافات » [٢] .

---

(١)
THE RUSSO - JAPANEESE WAR - Reports from British officers (1908) Vol. III, p. 117.

(٢) المرجع المذكور في الملحوظة (١) صفحات ٢٠٩ـ ٢١٠ .

٤ ـ الخلافات والاتفاقات

كانت سياسة بسمارك منذ نهاية الحرب الفرنسية ـ الالمانية ، الى ان استقال في عام ١٨٩٠ ، الحفاظ على السلم الذي ربحته المانيا . ولتأمينه ، حاول بسمارك الحصول على صداقة روسيا . ولكي يعزل فرنسا ، عقد في عام ١٨٧٩ معاهدة دفاعية مع النمسا ، عرفت تحت اسم التحالف المزدوج . وانضمت ايطاليا الى هذه المعاهدة بعد عامين ، لانها تضايقت من احتلال فرنسا لتونس ، واصبحت المعاهدة المزدوجة ، التحالف الثلاثي . وفي عام ١٨٨٨ ، جلس غليوم الثاني على عرش المانيا ، وبعد عامين اقال بسمارك . ودخلت فرنسا في محادثات مع روسيا ، مرتعدة من سلوكه الشاذ والعدائي . وكانت نتيجة هذه المحادثات التي تمت بين عام ١٨٩٣ و ١٨٩٥ توصل الطرفين الى اتفاق دفاعي ، هو الاتفاق المزدوج .. DOUBLE ENTENTE

وهكذا نشأ حلفان متعارضان . غير ان السلم استمر في القارة مع ذلك لان بريطانيا العظمى لم تنضم الى اي حلف منهما . ولكن هذا الوضع الهادىء لم يستمر بكل اسف ، بسبب توسع التجارة الالمانية بسرعة فيما وراء البحار ، وبسبب نمو بحريتها التجارية ، التي بدأت تنافس مزيداً من التنافس التجارة الانجليزية [١] . وبالاضافة الى هذا ، زاد امبراطور المانيا من قوة

(١) في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٠٢ ، كتب العقيد ويليام روبرتسون (اصبح المارشال السير ويليام فيما بعد) ، عندما كان رئيساً للقسم الاجنبي في مصلحة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع البريطانية ما يلي في مذكرة من المذكرات : « ... ان اقوى دافع هو التنافس فيما بين المشروعات التجارية والاستعمارية » ..
SOLDIERS and STATESMEN (1926) Vol. I, p. 26).
وفي عام ١٨٨٠ ، كان مجموع عمليات التصدير والاستيراد الالمانية قد بلغ ٢٩٠,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني وفي عام ١٨٩٠ ـ ٣٨٤,١٠٠,٠٠٠ وفي ←

البحرية الالمانية ، ثم عزز قوتها من جديد في عام ١٩٠٠ ، لحماية التجارة الالمانية فيمـــا وراء البحار ولينتزع من فرنسا تفوقها البحري . وقد تم كل هذا بينمـــا كانت انجلترا مشغولة في افريقيا الجنوبية . وقد اثارت هذه التدابير ضجة كبيرة في الصحافة البريطانية .

وتبرز لنا هذه المنافسة احد الاسباب الاولى للحرب وهي : الكفـــاح الاقتصادي من اجـــل الحياة . فلم تكن المانيـــا ، ولا بريطانيا العظمى على خطأ . ولم تكن مطامعهما ولا مطامحهما هي التي كانت السبب في النزاع ، بل كان السبب هو الثورة الصناعية ، التي جعلت منهما متنافسين . اذ زادت هذه الثورة الى حد كبير من تعداد سكان البلدين ، لدرجة اصبح فيها البلدان مهددين من يوم الى آخر بالبطالة والمجاعة ، لو انهما حرما من التجـــارة الخارجية . وقد كتب جون مايناردكين KEYNES مسترجعاً الحرب العالمية الاولى : « ان سياسات القوة لا يمكن تجنبهـــا ، وليس هناك من شيء جديد جداً يمكن ان نتعلمه من هذه الحرب او من هدفها ، فقد دمرت انجلترا منافساً تجارياً ، كمـــا فعلت في القرون السابقة »[1] .

عام ١٩٠٠ــ٥٣٩،٨٠٠،٠٠٠ وفي عام ١٩٠٧ــ٨٠٤،٩٠٠،٠٠٠، وتجاوزت هذه الارقام الميزان التجاري الفرنسي (٥٠٦،٢٠٠،٠٠٠ جنيه استرليني) ، والولايات المتحدة (٦٨٣،٩٠٠،٠٠٠ جنيه استرليني) وتقاربت من ارقام بريطانيا (١،١٦٣،٨٠٠،٠٠٠ جنيه استرليني) .

(١) The ECONOMIC CONSEQUENCES of the PEACE (1920) p. 30.

في ١١ من سبتمبر (ايلول) ١٩١٩ ، كشف الرئيس وودرو ويلسون النقاب عن حقيقة المشكلة ، في حديث القاه في سان ــ لويس قائلا : « ايها المواطنون : هل هناك بيننا هنا رجل او امرأة ، بـــل هل هناك طفل ايضاً ، لايعرف بان سبب الحرب ، في عالمنا المعاصر ، هو التنافس الصناعي والتجاري؟. ان هذه الحرب ، كانت منذ بدايتهـــا ، حرباً تجارية وصناعية . انها ليست حرباً سياسية » .

وقد حطم ادوارد السابع (١٩٠١ – ١٩١٠) في عام ١٩٠٣ العزلة التي طوقت بريطانيا اثنــاء حرب البوير وبعدها . فقد قدم في ربيع هذا العام الى فرنسا في زيارة رسمية لباريس ، واستطاع سحره الشخصي ،وكراهيته لابن اخيه القيصر ، كسب الباريسيين الى جانبه . وتلت زيارته مفاوضات ادت الى عقد اتفاق فرنسي – انجليزي في عام ١٩٠٤ ، والى ابرام معاهدة صداقة تحولت الى حلف عسكري سري . وطبقــاً لرواية السير ويليام روبرتسون نوقشت خطط التعاون مع فرنسا بين مدير العمليات العسكرية والملحق العسكري الفرنسي لدى لندن في عــام ١٩٠٥ . « فقد اصبحت المحادثات ، بدء من عام ١٩٠٦ ، وثيقة جداً ، ومستمرة ، وتقوم بهــا هيئات الاركان العامة للجيشين بصورة مبــاشرة .. حتى ان اعضاء الحكومة لم يكونوا وحدهم يجهلون موضوعات هذه المحادثات فحسب ، بــل ان وزارة الخارجية (السير ادوارد غري GREY) ، لم تكن تعلم شيئاً عن نتائجها ايضاً ، مع انها هي التي امرت بذلك . وقد كتب غري الى رئيس الوزراء في عام ١٩١١ حول الموضوع قائلا ما يلي : « انني لا اعرف ابداً ، ما قرروه ... فالموقف الذي تبنينــاه هو الحرية المطلقة للحكومة ، ولكن العسكريين يعرفون ما ينبغي عليهم عمله ، اذا اعطى لهم الاذن بذلك » (١) . ويعلق السير ويليام روبرتسون بمــا يلي : « لن يفيد « العسكريين » فائدة كبرى « معرفتهم بما يترتب عليهم ان يفعلوه » الا اذا وضعت تحت تصرفهم الوسائل الكافية لعمله ، ولا يمكن ان يكون الوضع على هذه الشاكلة اذا كانت الوزارة تجهل ما

---

(١) ذكر ذلك GREY في :
TWENTY-FIVE YEARS (1892 - 1926)
(1925) p. 94.

كان يجري »[1] .

وقد سوت الحكومتان ، بموجب احكام هذا الاتفاق، خلافاتهما الاستعمارية فقد تلقت بريطانيا العظمى حرية كاملة للعمل في مصر ، وتلقت فرنسا حرية كاملة في المغرب ، على ان تحترم سلامة هذا البلد . ومع ذلك وقعت في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٠٤ اتفاقية كان الغرض منها تقسيم المغرب بين فرنسا واسبانيا ، وارسلت نسخة منهـــا الى وزارة الخارجية البريطانية . وقد تبدّى هذا الاتفاق المشبوه فيما بعد بانه مصدر حقيقي لكل الشرور والمتاعب .

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى ظهرت الصعوبات . ففي مارس (آذار) ١٩٠٥ ، اشتبه القيصر بان من الممكن ان تصبح المغرب تونساً جديدة فضلاً عن انه كان يجهل كل هذه المعاهدات السرية ، وسافر في زيارة رسمية لطنجه . وقد اثارت هذه البادرة حملة صحفية عنيفة جداً ، لدرجة اضطرت الرئيس تيودور روزفلت الى دخول الساحة الدولية واقتراح عقد مؤتمر لحل المشاكل ، وذلك كي يحول دون اعلان الحرب بين الاطراف المعنية . وانعقد هذا المؤتمر في الجيزيرة (اسبانيا) في ينـــاير (كانون الثاني)١٩٠٦ ، وتم فيه تأكيد تعهدات الدول بالمحافظة على استقلال المغرب .

---

(١) وقد كتب السير ويليام روبرتسون

SOLDIERS and STATESMEN Vol. I, p. 49.

انه في عام ١٩٠٦ « ... قدمت ادارة العمليـــات مذكرة عن القوات العسكرية الضرورية للحرب فيمـــا وراء البحار ..» وعالجت للمرة الاولى « التحالف العسكري مع فرنسا ضد المانيا » الذي وصف « باحتمال ينبغي اخذه بعين الاعتبار جدياً .. » وكانت هذه المذكرة تقترح ارسال قوة لا تقـــل عن اربعة الوية من الخيالة وثلاثة فيالق جيوش الى فرنسا (المرجع السابق جزء ١ ، صفحات ٢٨ و ٢٩) .

وبعد هذا المؤتمر بقليل ، توصلت الحكومة البريطانية الى اتفاق مع روسيا حرر هذه الاخيرة من اخطار الشرق الاقصى وسمح لها بتوجيه كل انتباهها الى اوروبا . وهكذا وجد تحالف ثلاثي في مواجهة الحلف الثلاثي ، الامر الذي يعني ان المانيا ستواجه الحرب على جبهتين ، في حـــالة اندلاع الحرب .

وفي حين قلبت الازمة المغربية العلاقات الدولية ، نشب ذعر دبره المستر موليز من شركة كوفانتري اوردنانس حول البحرية ، ارهب الحكومة والمعارضة والشعب .

واصبحت الصحافة هيستيرية الى درجة دفعت بالاميرال السير جون فيشر ، لورد الاميرالية البحرية البريطانية الى اعلام الملك بالوضع الحقيقي . فقد قال له في رسالة طويلة ما يلي :

« هناك واقع مؤكد هو ان المانيا في شهر مارس (آذار) من هذا العام ، عام ١٩٠٧ ، لم تضع اية بارجة ثقيلة في الترسانة ولم تبدأ منذ ثمانية عشر شهراً ببنـــاء اية سفينة قتال او طراد كبير .. ان نصف كل الاسطول الحربي الالماني يعادل بالكاد الطرادات المدرعة الانجليزية .. »[١] .

وفيما بعد ، في ٢١ من مارس (آذار) ١٩٠٩ ، كتب فيشر في رسالة وجهها الى اللورد ايشر ESHER ما يلي :

« لقد تحقق الآن الهدف الذي استهدفناه بحزم طيلة اربع سنوات مع اسطولين كاملين في المياه الوطنية ، كل واحد منهمـــا ، يتفوق بصورة مؤكدة على كل الاسطول الالماني ، الذي سيجند للحرب .. ولن يتغير هذا الوضع خلال

---

(١)
Amiral de la Flotte Lord - Fisher Meuories (1919) pp. 14 - 15.

سنوات .. وارجو ايضاً ان تنام قرير العين في سريرك .. »[١] .

وقد اطلع المستر آرثر بالفور ، رئيس المعارضة على هذا الموضوع . ومع ذلك ، قام بهجوم عنيف ضد المانيا بهدف تحريض الشعب ، اثناء الانتخابات العامة التي تمت في يناير (كانون الثاني) ١٩١٠ ، كي يعطي الشعب اصواته للحزب المحافظ . وقد وجه اليه ونستون تشرشل حملة مضادة « لانه حاول خلق الحوادث بين دولتين كبيرتين دون مبرر » .

ومات الملك ادوارد السابع في ٦ من مايو (ايار) ١٩١٠ . وخلفه ابنه جورج الخامس (١٩١٠ — ١٩٣٥) ، ولكن انفجر حادث آخر في المغرب قبل ان يتوج في ٢٢ من يونيو (حزيران) ١٩١١ . اذ احتلت الحكومة الفرنسية فاس ، بعد تصميمها على الحاق المغرب بها . فصرح القيصر ، الذي كان يجهل الاتفاقات والمعاهدات السرية ، بان هذا العمل كان خرقاً لمعاهدة الجيزيرة ALGESIRAS وقد كان كذلك بالفعل ، وعندما ارسل في ١ من يوليو (تموز) زورقاً مسلحاً هو البانتر PANTHERE الى اغادير لحماية المصالح التجارية والرعايا في المغرب ، اندفع لويد جورج في هجوم عنيف ضد المانيا ، فسارع هذا الهجوم باحتمال نشوب حرب عامة . ومن حسن الحظ ، انهم توصلوا في نوفمبر (تشرين الثاني) الى اتفاق حصلت فيه فرنسا على حرية العمل في المغرب ، وحصلت المانيا على جزء من الكونغو الفرنسي . ولم يرضى هذا الاتفاق ايطاليا ، فأعلنت الحرب على تركيا واجتاحت ليبيا واحتلت رودوس وبعض جزر الدوديكانيز ، خوفاً من ان تحتل فرنسا ليبيا بحجة حماية تجارتها ورعاياها ، هذا الاحتلال الذي قد يتم تحت هذه الذريعة بصورة طبيعية .

---

(١) فيشر ، المرجع المذكور ، صفحات ١٨٩ — ١٩٠ .

وبما ان روسيا عضو في التحالف الثلاثي الآن ، فان مطامحها التوسعية في جنوب شرق اوروبا اصبحت اكثر ملاءمة لها الآن مما كانت عليه في عام ١٨٧٧ . وكان غرضها ذا ثلاثة اهداف : القضاء على تركيا في اوروبا ، والاستيلاء على القسطنطينية ، واضعاف النمسا معنوياً بتخريب رصيدها في البلقان ، الامر الذي يضعف المانيا في الوقت ذاته . وكانت الادوات التي تنوي استخدامها هي الدول البلقانية ، وبخاصة صربيا وبلغاريا . وقد حصلت الاولى على استقلالها في عام ١٨٧٨ . اما الثانية فما زالت تابعة للسلطان . وكان هذا الوضع الشاذ قد جرح البلغاريين مدة طويلة . وفي ٥ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٠٨ ، اعلن الامير فرديناند استقلال مملكته وحصل على لقب الملك . فضمت النمسا – هنغاريا البوسنة والهرتسك اليها رداً على ذلك .

واقتنصت روسيا الفرصة المتاحة لها بتوحيد الدول البلقانية فوراً ، ونشرت بين صفوفهم الخوف من امتصاص النمسا تدريجياً لهم ، الا اذا تخلوا عن عداءاتهم المتبادلة ، وتوحدوا للدفاع المتبادل . وكانت النتيجة هي تشكيل عصبة البلقان . وبما ان تركيا وايطاليا كانتا في حالة حرب في هذه الفترة ، فقد اعلنت المونتينغرو الحرب على تركيا ، وانضمت اليها بلغاريا ، وصربيا ، واليونان . وهزم الاتراك . وفي ٣ من سبتمبر (ايلول) عقدت هدنة ، ووقعت معاهدة للسلام في لندن يوم ٣٠ من مايو (مايس) ١٩١٣ . وما ان تم ذلك حتى تخاصم المنتصرون على اسلاب المهزوم . فانقض البلغاريون على الصربيين واليونانيين . ودخل الرومانيون في هذا النزاع ، واستعاد الاتراك اندرينوبل ، وهزمت بلغاريا . وعندما انتهت حرب البلقان الثانية بمعاهدة بخارست في ١٠ من اغسطس (آب) ، كانت تركيا قد تقلصت في اوروبا ، ولم يبق لها سوى اندرينوبل والقسطنطينية وضاحيتها ، مع شبه جزيرة غاليبولي .

وقد اصبح التوتر حاداً جداً ، حتى ان العقيد هـاوس السفير المتجول للرئيس وودرو ويلسون ، نقـل الى الرئيس في ربيع عام ١٩١٤ اثناء اقامته في برلين في ذلك الوقت ما يلي : « ان المانيا بكاملها محملة بالكهرباء . واعصاب كل النـاس متوترة . وعندما ستقبل انجلترا ، ستنقض فرنسا وروسيا على المانيا والنمسا »[١] .

وكانت روسيا تخشى ان تسحب انجلترا موافقتهـا . ومن لندن كتب بنكندروف ، سفير روسيا الى سازانوف وزير الخارجية الروسية ما يلي : « من المستحيل ان يبقى التفاهم الانجليزي — الروسي ، اذا تفاهمت انجلترا والمانيا »[٢] وقد استشهد في الوقت ذاته بالمحاولات التي قامت بها المانيا لخرق التفاهم الروسي — الانجليزي . وكان الشيء الوحيد الذي تخشى منه روسيا هو التأجيل . فقد كان عمر الامبراطور فرانسوا — جوزيف ٨٤ عاماً ، وكان الارشيدوق فرانسوا — فرديناند ، الوريث ولي العهد ، يعارض في حركة صربيا الكبيرة.وكانت روسيا مصممة مهما كان الثمن ان يلتفت اليوغوسلافيون الى سانت — بترسبورغ ، لا الى فيينا . كان هذا هو الوضع عندما اغتيـل الارشيدوق وزوجته في ٢٨ من يونيو (حزيران) ١٩١٤ من قبل الارهابيين الصرب في سيراجيفو .

« وكانت صربيا قد تلقت تأكيداً من روسيا بانهـا في هذه المرة لن تتخلى عنهـا طبقاً لما ذكره بوغيتفيتش ، القائم بأعمـال صربيا في المانيا . وقد كتب بالاضافة الى ذلك :

---

(١) Colonel E. H. HOUSE: INTIMATE PAPERS (1926) Vol. I, p. 249.

(٢) Cité par CONRAD K. GRIEB dans uncovering of the forces of war (1947) p. 8.

« وان ما هو اكثر اهمية من كل هذا ، هو ان **صربيا** – كانت قد تلقت تأكيداً **بأن الحرب ضد المانيا والنمسا قد تقررت** وان اغتيال ولي عهد عرش النمسا يتيح حجة ملائمة للحرب لان انجلترا وفرنسا كانتا قد قبلتا ان تقودهما روسيا في النزاع فقط وهو بذاته ، ومن ذاته ، لم يكن سوى نزاعاً محلياً بين النمسا وصربيا).. فلو ان السير ادوارد غري .. صرح لروسيا ولفرنسا بكل بساطة (فلم يكن من الضروري ان يتحدث بذلك الى المانيا) بان انجلترا لا تهتم بالنزاع – مع احتفاظها بحرية عمل في كل ما كان سيحدث – لكان من الممكن ان لا تنشب الحرب الاوروبية . ولكن كل هذا ، بالطبع ، مع افتراض ان انجلترا لن تكون غارقة في النزاع الى درجة يصبح فيها تراجعها مستحيلاً »[1] .

ولسوء الحظ ان هذا هو الذي حدث . فقد اصبح تحالف عام ١٩٠٤ المحاط بعدم الكتمان حلفاً عسكرياً سرياً قطعياً لا يعرف عنه البرلمان البريطاني شيئاً .

وفي ٢٣ من يوليو (تموز) وقع انذار نمساوي مدته ٤٨ ساعة في بلغراد . وصرح سازانوف انه كان عملا عدوانياً لا سابقة له ، وان الوسيلة الوحيدة لمنع وقوع الحرب مع المانيا هو افهامها بانها ستواجه القوى المتحدة للتحالف . وقد استنفرت روسيا قواتها جزئياً ، والحت المانيا على تسوية هذه المشكلة بين النمسا وصربيا فقط .

وفي ٢٥ من يوليو (تموز) ردت صربيا على انذار النمسا . وبما ان الرد لم يكن كاملاً ، فقد اصدرت النمسا مرسوماً بالنفير العام . وفي اليوم التالي دعي مستشار المانيا السير ادوارد غوش سفير انجلترا في برلين ، واعلمه بان

---

(١) Causes of the war: An examination into the causes of the European war, with special reference to Russia and Serbia (Londres, 1920) pp. 65 - 68.

المانيا ستحترم سلامة فرنسا ، لو انتصرت في الحرب ، اذا وقفت انجلترا على الحياد . غير ان الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح .

وفي ٣١ من يوليو (تموز) كلف سفير المانيا في سانت — بترسبورغ بتوقيع انذار الى الحكومة الروسية للمطالبة بوقف النفير خلال ثمـــانية عشرة ساعة ، والا فان المانيا ستستنفر كـــل قواتهـــا . . غير ان روسيا لم ترد على الانذار ، ودخلت المانيا وروسيا الحرب في الاول من اغسطس (آب) ، واصدرت فرنسا مرسوم النفير العام .

وفي ٢ من اغسطس (آب) اعلنت ايطاليا حيادها (١) ، واخترقت دورية لخيالة الالمـــانية اللوكسمبورغ ، وقـــدم وزير المانيا في بروكسل الى الحكومة البلجيكية مذكرة يطالب فيهـــا بالسماح للقطعات الالمانية بالمرور من بلجيكا . ورفضت بلجيكا هذا الطلب . وفي صبيحة اليوم التالي ، وجه املك البلجيكيين نداء شخصيـــاً الى ملك انجلترا لحماية بلاده . وفي الساعة ١٨,٤٥ اعلنت المانيا الحرب على فرنسا ، وبعد ساعات ، اعلنت الحرب على بلجيكـــا . وفي الساعة ١٥,٠٠ من يوم ٤ من اغسطس (آب) كان السير ادوارد غوش مكلفـــاً من قبل وزارة الخارجية الانجليزية بالحصول على ضمان المـــاني باحترام حياد بلجيكا ، الذي كان مضموناً بالمعاهدة . وعندئذ ربيتهمان هولفيغ مستشار المانيا : « ان بريطانيا العظمى ستشن الحرب ضد عرق شقيق لمجرد قصاصة من الورق » (٢) . وفي منتصف ليل ٤ اغسطس (آب) ، اعلنت بريطانيا الحرب على المانيا .

---

(١) لم تعلن النمسا الحرب على روسيا الا في ٦ من اغسطس (آب) .

(٢) اذا كانت المعاهدة مع بلجيكا « قصاصة من الورق » فان معاهدة ١٨٣٩ ليست الا « اثراً مقدساً » . فشروطهـــا لم تحدد التزامات انجاترا ، وليس هناك من شروط تفرض عليهـــا ارسال قطعات الى بلجيكا للحرب ضد دولة تنتهك حرمة اراضيها .

الفصل التاسع

ادارة الحرب العالمية الاولى

١ - السياسة والحرب

كانت حدود الامبراطورية البريطانية في مطلع القرن العشرين هي شواطئ البحار والمحيطات . واصبحت الولايات المتحدة الامريكية قوة عالمية . ومع ان روسيا كانت متأخرة من الناحية الصناعية ، الا انها كانت تملك طاقة هائلة . اما المانيا وفرنسا فقد اصبحتا امبراطوريتين يسود فيهما الرخاء ، واذا كان التفاهم لا يسود بينهما ، كما لا يسود بين الدول الاوروبية الاخرى ، الا ان الامر كان على هذه الشاكلة منذ الف عام . غير ان الحرب نشبت في عام ١٩١٤ . وعندما انتهت في عام ١٩١٨ ، انهار كل هذا البناء الضخم للدول الاوروبية ، ولم يبق صامداً من الدول سوى الولايات المتحدة . فكانت بريطانيا مفلسة تماماً ، وكانت فرنسا تنزف آخر قطرة من دمها . اما روسيا والمانيا فكانتا معرضتين لاهوال الثورة . واختفت الامبراطورية النمساوية - الهنغارية ، وتزعزت اركان الامبراطورية العثمانية ، وتقوضت ايطاليا ، وتعرضت الدول الاوروبية الاخرى لنفس المصير العنيف . وكان عصر بكامله قد اختفى بين شواظ الحرائق .

ولو ان رجال الدولة والعسكريين استطاعوا التنبوء بالمصير الذي ستقوده اليه مشاحناتهم وخلافاتهم ودسائسهم واحلافهم ، هل كانوا يتعجلون النزاع ؟ انه سؤال يجدر طرحه لانه ليس سؤالاً لا فائدة منه : فحتى لو كانت

المشكلات التي كان من الواجب حلهـا معقدة جداً عليهم ، وحتى ولو انه كانت هناك ظروف قاهرة لا يستطيعون منعهـا ، اضطرتهم الى حل العقدة « الغوردية » بواسطة السيف ، أفلم يتمكنوا من التعلم من صفحات التاريخ كيف يحلونهـا بشيء من المهارة ؟ فقبل ما يقارب ٧٠ جيلا ، ألم يكتب بوليب : « هـل يمكن ان نعترف بان التاريخ هو المدرسة الحافلة بالدروس الاخلاقية ، لانه هو وحده الذي يسمح لنا بدون قلق او مخاطر بالحكم على افضل ما ينبغي عمله » (١) .

فلو انهم درسوا كلاوزفيتز ، لفهموا ان الحرب ترتبط بالسياسة، وتستخلص طابعهـا منها وان السياسة « اذا كانت عظيمة ، وكبيرة ، ، كانت الحرب كذلك » .

ولو ان الحرب اقتصرت على دولتين ، كمـا حدث في عام ١٨٧٠ ، لكانت مشاكلهمـا المتبادلة بسيطة جداً . ولكن هذه المشكلات كانت معقدة في عام ١٩١٤ لان الصراع نشب بين حلفين يشتملان لوحدهما على الجزء الاكبر من اوروبا . وكان معنى كل هذا ان الحرب ستشمـل كل اراضي القارة ، وان خاتمة هذه الحرب ، اي السلم الذي سيلي الحرب ، ينبغي ان يكون مفيداً للمنتصر ، ولهذا كان من واجب اعضاء كل حلف من الاحلاف ان يقرروا سياسة مشتركة توجههم الى هذا الهدف . واذا لم يخطط للحرب بهذا الشكل ، فانها ستكون بالضرورة حرباً فوضوية ، وسيكون السلم الذي ينتج عنهـا سلماً مزعزعاً .

وكان حلف دول الاتفاق ENTENTE معقداً اكثر من حلف الدولتين

---

(١) بوليب ، التاريخ ، الكتاب ١ ، ص ٣٥ .

المركزيتين ، المانيا والنمسا (١) . ولما كان هذا الحلف مضطراً الى العمل على خطوط خارجية ، فان من الممكن اذن ان نعتبر ان من الطبيعي عدم وجود سياسة مشتركة تكون مقبولة من كل اعضائه ، ولكن بالنسبة للدولتين الرئيسيتين فرنسا وبريطانيا العظمى ، لم يكن الوضع بالتأكيد كذلك : فمنذ عام ١٩٠٤ ، اتيح لهما الوقت الكافي لتبني سياسة مشتركة معتمدة على هدف سياسي ايجابي : وهو طبيعة السلم الذي تستفيدان من اقامته بصورة افضل . فقد كتب كلاوزفيتز : « ان تبعية وجهة النظر السياسية لوجهة النظر العسكرية امر مخالف للحس السليم »لان«السياسة هي الذكاء،والحرب هي الاداة» ولكن لم يكن هناك في اغسطس (آب) ١٩١٤ وجهة نظر سياسية فرنسية انجليزية (٢) ، وبالتالي فان وجهة النظر العسكرية تابعة لفراغ ملأ السياسة فاصبح وجهة النظر الوحيدة : وبعبارات اخرى ، كانت الوسيلة تحتكر النهاية .

وادى هذا الوضع طيلة الحرب الى صراع متناوب ومتواتر من اجل وحدة القيادة ، وكان صراعاً بلا جدوى (٣) . لانه اذا لم تتوفر وحدة السياسة ،

---

(١) اعلنت ايطاليا حيادها في ٢ من اغسطس (آب) واعادت بهذا الشكل الحلف الثلاثي الى شكله البدائي . ولم تنضم تركيا الى الدول المركزية الا في ٩ من اكتوبر (تشرين الاول) . وفي هذه الغضون ، انضمت اليابان الى دول الاتفاق **ENTENTE** في ١٥ من اغسطس (آب) .

(٢) تصريح السير ادوارد غري ، الفصل الثامن .

(٣) ان تعيين الجنرال فوش ، في ٢٦ من مارس (آذار) ١٩١٨ لتنسيق عمل الجيوش الحليفة على الجبهة الغربية ، هذا التنسيق الذي شمل كل الجيوش الحليفة في الاول من يوليو (تموز) لا يتعارض ابداً مع هذا الوضع ، لان سلطات فوش كانت محدودة جداً لدرجة لم يستطع معها ان يأمل من القواد العامين التابعين له ، السير دوغلاس هايغ ،والجنرالات بيتان ، وبيرشينغ ودياز الا تنفيذاً اختيارياً لتعليماته .

لا يمكن ان يكون هناك وحدة قيادة فعلية . وقد احس السير ويليــام روبرتسون بهذا الوضع احساساً كاملاً عندما اصبح رئيساً لهيئة الاركان العامة الامبراطورية فقد كتب ما يلي : « من الضروري قبل اقامة « وحدة القيادة » ان تتفاهم الحكومات الحليفة بعضها مع بعض حول السياسة العامة الواجب اتباعهــا وان تكون واثقة بان تفاهمها لن يتعكر صفوه . فبدون وحدة للسياسة ، تؤدي وحدة القيادة احياناً الى عمليات تقاد فقط لمصلحة حليف من الحلفاء ، بدلا من ان تقاد لمصلحة الآخرين ، وتناقض بهذا الشكل اهدافها الخاصة » (١) .

وبناء على هذا ، ولمــا كانت الامور على ما هي عليه في اغسطس (آب) ١٩١٤ ، فان اللورد كيتشنر كان على حق بالتأكيد عندما كتب الى السير جون فرنش FRENCH ، القائد العام البريطاني : « اني اريد ان تفهم بوضوح بان قيادتك مستقلة كل الاستقلال ، وانك لن تخضع لاوامر القائد الحليف بأي حال من الاحوال » (٢) . غير ان الاسباب التي دفعته ليعبر عن رأيه بهذا الشكل تشكل خطيئة كبرى ، لان هذه الاسباب في نظر السير ويليام روبرتسون هو « واجب بريطانيا العظمى بان تملك اقوى جيش في اوروبا ، عندمــا تنتهي الحرب ، لكي تضمن لنفسها بهذا الشكل افضل شروط للسلم تطالب بهــا وتفرضها » . فقد اهمل روبرتسون ذاته قراءة كلاوزفيتز . ولو انه قرأه لمــا وضع العربة قبــل الحصان . فالسلم المفروض المطالب به لا يمكن ان يكون في اي حال من الاحوال سوى هدنة . وهذا ما حدث فعلاً .

---

(١)

Soldiers and statesmen 1914 - 1918 (1926), Vol. II, pp. 296 - 297.

(٢)

British official history of the great war, France et Belgique, compilation du Brijadier général J. E. EDMONDS (1922) Vol. I, APP 8, p. 442.

اما فيما يتعلق بالاهداف المرسومة من قبل الحلفين ، فقد كان في وسع سياستهما المتبادلة تنسيقهما مع الوسائل الموضوعة تحت تصرفهما ومع الشروط الاستراتيجية والشروط الاخرى . ومع انه كان في مكنتهم ان يستنتجوها من الدوافع التي ادت الى انشاء الحلفين . فقد كانت اهداف فرنسا هي القضاء على المانيا ، واستعادة الالزاس واللورين واعادة تفوقها وسيادتها على القارة ، الذي فقدته بعد معركة سادوفا وسيدان . وكانت اهداف روسيا هي ابتلاع البلقان ، وبمعونة دول البلقان ، الاستيلاء على القسطنطينية وعلى منفذ الى البحر المتوسط . وتعني هذه الاهداف شل الامبراطورية النمساوية الهنغارية وتفكيك عراها . اما اهداف المانيا فكانت الحيلولة دون تنفيذ هذين الاحتمالين ، والحفاظ على سيادتها وتفوقها . وكان هدف بريطانيا العظمى هو محو المانيا كمنافس تجاري لها ، وهو امر لا تستطيع تحقيقه الا بمعونة فرنسا وروسيا . ويشكل موقفها وضعاً شاذاً ، كما كان في حروب التحالف التي اشتركت فيها . فاذا انهزمت الدول المركزية بصورة حاسمة ، فان سيادة فرنسا في اوروبا الغربية الذي سينجم عن هذه الهزيمة ، وتوسع روسيا في جنوب شرق اوروبا سيؤثر على التوازن الدولي فوق القارة ويدمر هذا التوازن الذي كانت المحافظة عليه هي السياسة التقليدية لبريطانيا العظمى . ففي الماضي ، انتصرت بريطانيا اكثر من مرة وتغلبت على صعوبات مماثلة بمحاولتها المفاوضة على السلم عندما ضعف خصمها الى حد كاف ، وقبل ان يتمكن حليفها القوي من خلافته في القارة . ولا يرتبط املها في تجديد مثل هذا الوضع ، بسياستها فحسب ، بل يرتبط ايضاً بسياسة خصمها الاقوى الا وهو المانيا .

٢ — مصير خطط الحرب

لو ان احد الفضوليين قـام في ٤ من اغسطس (آب) ١٩١٤ بجولة حول مائدة لعبة الحرب ، والقى نظرة سريعة على ايدي اللاعبين ، لراهن بعشرة ضد واحد بان المانيا ستربح . ومع ذلك ، بعد خمسة اسابيع عندما وضعت اوراق اللعب على المـائدة ، كان كل اللاعبين قد افلسوا من الناحية الاستراتيجية فكيف حدث هذا ؟ انه سؤال هام لان ادارة الحرب فيما بعد نجمت عن هذا السؤال .

عندما بدأت اللعبة المميتة ، كانت المانيا والنمسا تجدان نفسيهمـا في الوسط بين روسيا شرقاً ، وفرنسا ، وبريطانيا العظمى وبلجيكا غربـاً ، وصربيا جنوبـاً . وكان في وسعهما معـاً حشد ١٥٨ فرقة مشاة وخيالة لمواجهة ١٥٠ فرقة روسية و ٨٧ فرقة فرنسية ، وانجليزية ، وبلجيكية و ١٢ فرقة صربية . اذن فمن الناحية العددية كان الوضع ضدهمـا . ولكن ، لما كان في وسعهمـا ان تناورا على خطوط داخلية ، على حين كان خصومهما مضطرين الى العمل من الخارج ، كان ممكنـاً بالنسبة اليهما حشد القسم الاكبر من قواتهمـا على احد الخصوم ، اطول وقت كان في مكنتهمـا ضد الآخرين واحتواؤهم .

كانت هذه المشكلة هي المشكلة التي واجه حلهـا الكونت الفرد فون شليفن عندما مارس وظائف رئيس هيئة الاركان العامة الالمانية من عام ١٨٩١ الى ١٩٠٦ . وكان شليفن لا يجهل ابداً بان النفير الروسي سيكون ابطـأ من النفير الفرنسي . وتنبـأ بصورة صحيحة بان القسم الاكبر من القوات الفرنسية سيتجمع على خط ميزيير — ايبينـال MEZIERES - EPINAL . فاتخذ

بناء على ذلك قرار مواجهة الروس في بروسيا الشرقية بجيش مؤلف من عشرة فرق وبقطعات محلية (الجيش الثامن) ، على حين تتقدم الجيوش النمساوية في غاليسي . وقرر ايضاً نشر سبعة جيوش ضد فرنسا ، على خط كريفيلد — ميلوز من بينها خمسة جيوش (هي الاول ، الثاني ، الثالث ، الرابع ، الخامس) شمال متز ، وجيشين يشتملان على ٣٦ فيلق ونصف ، وسبع فرق خيالة ، و١٦ لواء حرس محلي (لاندوهر) وست فرق خاصة ERSATZ وهي فرق ذات تنظيم محلي خاص . وعلى الجناح الايسر خمسة فيالق ، وثلاث فرق خيالة . وكانت خطته تتضمن وضع الجناح الايسر في اللورين والالزاس ، بتماس مع القوات الفرنسية ، التي تقوم باحتوائها اولا ، لتقاتل تراجعياً امامها فيما بعد . وفي هذه الغضون ، ينتقـــل الجناح الايمن ، بالدوران حول ميتز METZ الى امـــام عـــبر اللوكسمبورغ ، وبلجيكا ، واللسان الارضي الهولندي في مايستريشت ليقوم بحركة تغيير في الاتجاه الى الجنوب الغربي ، مع طلائعه المتقدمة الى غرب باريس . ثم يدور هذا الجناح فيما بعد الى الشرق لينقض على مؤخرة الجيوش الفرنسية المشتبكة مع الجناح الايسر ، ولتردها ، وهي في حالة فوضى ، الى المانيا وسويسرا . وستكون هذه المعركة ، تكراراً على مقياس ضخم لمعركة لوتهن (١٧٥٧) التي ربحها فريدريك الثاني .

وفي عـــام ١٩٠٦ ، سلم شليفن خطته الى الجنرال هيلموث دومولتكه ابن اخ دومولتكه الكبير ، الذي انتقاه القيصر لخلافته بسبب اسمه . وكان عمره في عام (١٩١٤) ٦٨ عـــاماً . وكان رجلاً مريضاً ، مشبعاً بافكار الاركان العامة لعدم نقلهـــا حرفياً . وكرئيس لهيئة الاركان العامة ، كان قائداً عاماً بالاسم . ولكن عندما انتشرت جيوشه ، قام بدوره كشخص لا يزيد دوره عن دور الرجـــل الذي يعطي اشارة البدء بالسباق : فكل ما عمله هو انزال

العلم ، وترك ادارة العمليات لجنرالاته . فلم يكن يعلق اهمية كبيرة على التحقق من التفاصيل . وهناك ما هو اسوأ ، كان يخشى من هذه القيادة و « كان يحس بنوع من الرضى عندما كان الامبراطور يعلن مراراً وتكراراً بانه سيتسلم بنفسه زمام القيادة في الجبهة الغربية، في حالة اندلاع الحرب [١] » .

ومع ان دومولتكه قبل في عام ١٩٠٦ خطة شليفن كما كانت ، الا انه عدلها في عام ١٩١٢ بناء على نصائح واضعها . فقد ترك الامور على الجبهة الروسية ، كما كانت عليه ، لكنه على الجبهة الفرنسية ، استبدل الفكرة الاولية لمعركة مشابهة لمعركة لوتهن وضعها شليفن ، بمعركة مشابهة لمعركة كان (٢١٦ ق.م.) ، اي معركة تستهدف الانتصار بتطويق مزدوج ، بدلا من تطويق بسيط ، وزاد قوات الجناح الايسر ، لتنفيذها .

وكانت القوة العددية للجناح الايسر في خطة شليفن تبلغ ١٥ ٪ من قوات الجناح الايمن . فخفض دومولتكه هذه النسبة الى ٩ ٪ ، ناقلا فيلقين من الجناح الايسر الى الجناح الايمن ، عندما اصبح الفرنسيون في الالزاس واللورين مشتبكين مع الجناح الايسر . ولم يعزز هذا الاجراء الجناح الايمن فحسب ، بل انه جعل من الضروري انسحاب الجناح الايسر الذي ضعف ، وهذه هي اهم نقطة ، هذا الجناح الذي سيجذب بدوره الجيوش الفرنسية الى الشرق . وسيجذبها ابعد ما يمكن ان تتقدم هذه القوات الى الشرق ، وعندئذ يصبح هجومه على مؤخراتها من اقوى الهجمات حسماً . غير ان دومولتكه الغى هذه الحركة وجعل قوة الجناح الايسر تعادل ٤٢ ٪ من قوة الجناح الايمن .

(١)
WALTER GORLITZ: THE GERMAN GENERAL STAFF (1935) p. 144.

كانت الخطة الفرنسية نموذجاً من دسائس المكاتب المغلقة والمكائد . ففي عام ١٩١١ ، كان الجنرال ميشيل ، الذي كان في ذلك الوقت القائد العام المعين في حالة الحرب ، متفقاً مع الرأي القائل بان الالمان سيمرون من بلجيكا ، وان من الواجب ان تحشد اقوى القوات الفرنسية بناء على ذلك ، على الجناح الايسر . ولكن لجنة « سباكي فرنسا » لم تكن متفقة مع هذا الرأي . لان هذا الترتيب لن يحمي مناجم الحديد في اللورين بصورة كافية . ودعمت هيئة الاركان العامة اللجنة ، واقنعت وزير الحرب بتعيين الجنرال جوفر بدلا عن ميشيل ، بمناورات مريبة .

وكانت نظرية « الكتلة + السرعة » التي تدعو اليها في ذلك الوقت هيئة الاركان العامة الالمانية تلائم مزاج جوفر العنيف ملاءمة تامة . فقد كان الهجوم هدفه الاوحد والوحيد ، كما كان هدفاً لمعلمه السياسي ، الرئيس فالبير FALLIERES الذي اكد في عام ١٩١٢ ما يلي : « نحن مصممون على المسير بشكل مستقيم نحو العدو دون نوايا مسبقة .. فالهجوم هو وحده الذي يلائم مزاج جنودنا » (١) .

وكانت خطة الحرب المتبعة ، تتسم ببساطة محركة « وتعتمد بكاملها على الفكرة الاسطورية للهجوم » ، كما يقول جان دوبيير فو (٢) . وتعرف هذه الخطة باسم الخطة ١٧ وتستند الى فرضيتين مسلم بهما : (١)ان الالمان ان يزجون في بادىء الامر بتشكيلاتهم الاحتياطية بنفس مستوى زجهم

---

(١)
MARECHAL JOFFRE: Mémoires (1932) Vol. I, p. 34

(٢)
JEAN DE PIERREFEU: **PLUTARQUE A MENTI** (1922) p. 55.

لتشكيلات جيشهم العامل – على حين كان الجنرال ميشيل يتبنى عكس هذه الفرضية – ولن تكون قواتهم بالتالي قوية لدرجة تستطيع معها التقدم في بلجيكا واللورين في آن واحد . (٢) لما كان الجندي الفرنسي جندي لا يقاوم في الهجوم ، فان الشيء الوحيد الذي يترتب عمله هو نشر الجيوش الفرنسية بين ميزيير وايبينال ، والاندفاع الى امام ، وسحق مركز الخصم – او سحق ما يفترض بانه مركز الخصم – وشل المواصلات الالمانية في اللورين فيما بعد .

ومن الممكن عرض الخطط الاخرى للمتنازعين بصورة موجزة . فقد كان يترتب على بريطانيا العظمى مساعدة فرنسا بارسال فيلق غزو مؤلف من اربع فرق مشاة وفرقة خيالة ، غير ان بريطانيا لم تهيء حصاراً ضد المانيا يتجاوز الاستيلاء على البضائع المهربة ، والتي يسمح القانون البحري بتهريبها طبقاً لتصريح لندن . واعدت النمسا ستة جيوش : ثلاثة منها ذات اعداد ضخمة ، لتقطع بولونيا الروسية ، بالتعاون مع القوات الالمانية ، وثلاثة جيوش باعداد صغيرة مخففة للعمل ضد صربيا . وجندت روسيا ثمانية جيوش بقيادة الدوق – الكبير نيقولا : اثنان على الجبهة الشمالية – الغربية ، يسيران الى بروسيا الشرقية ، واربعة على الجبهة الجنوبية – الغربية تتقدم ضد النمساويين . اما الجيشان الاخيران فكانا مخصصان بافضلية اولى لحماية الاجناب والشواطىء . ومقراتهما العامة في سانت – بترسبورغ واوديسا . اما الخطتان البلجيكية والصربية فكانتا تقتصران على الدفاع .

وقد بدأت الحملات الخمس بآن واحد ، وكان مصير خططهما كما يلي :

انهارت الخطة الفرنسية في الصدام الاول . ومع ذلك حدث هذا الواقع الغريب الذي لا بد من عرضه وهو ان خطة ثانية انبعثت من انقاض هذه

المعركة وضعت اللمسة النهـائية لدمار الخطة الغربية الالمـانية ، على حين انتهت الخطة الالمـانية الشرقية ، التي بدت عند بدء انطلاقهـا محفوفة بالمخاطر ، بانتصار تكتيكي ساحق . وكانت الخطة النمساوية ضد صربيا اخفاقـاً محفوفاً بالفوضى ، كمـا كانت خطة روسيا ضد النمسا غير حاسمة وقاطعة ، مع ان نتيجتهـا انها جعلت النمسا عاجزة تمـاماً طيلة ما تبقى من الحرب . وقد كانت مأساة خطة دومولتكه ــ شليفن ، من بين هذه النجاحات والاخفاقات ، العامـل الذي يمارس اكبر اثر على ادارة الحرب فيما بعد .

ففي ١٤ من اغسطس (آب) عندما كان الجيش الاول الالمـاني ، الذي يقوده الجنرال فون كلوك VON CLACK مـا زال يشق ممراً له بالقوة عبر تحصينـات لييج ، كانت معركة الاختراق الهـائلة لجوفر التي يسميها الفرنسيون « معركة الحدود » قد شنت ، واستمرت دون توقف حتى ٢٥ من اغسطس (آب) . وهزم الفرنسيون في كـل مكان ، وتعرضوا لخسائر كبيرة وجدية وصلت الى ٣٠٠,٠٠٠ قتيـل ، وجريح ومفقود . والقت هذه الهزيمة بمركز ويسار القوات الفرنسية الى غرب فردان ، واثـارت حماسة مولتكه الى حد كبير فاعتبر انه ربح المعركة الحاسمة ضد فرنسا . ثم مـا لبث ، بناء على معلومات اقلقته تلقاها من الجيش الثامن في بروسيا الشرقية ، ان قرر تعزيز هذا الجيش بفيلقين وبفرقة خيـالة [1] سحبهم من الجبهة الفرنسية

---

(١) حتى انه فكر في بادىء الامر بارسال ستة فيالق(جيوش). وقد اقتنع اخيراً بارسال اثنين ، بالرغم من ان الجيش الثامن اعلمه بانه لا يحتـاج اليهما ، وانهما لو ارسلا ، فانهما سيصلان متأخرين جداً للمساهمة في معركة تاننبرغ ، التي كانت محتدمة آنئذ ، اذ بدأت في ٢٥ من اغسطس (آب) .

وبدلاً من ان يفرزهم من الجناح الايسر ، اخذ هذه القوات من الجيش الثاني والثالث الموجودين في الجناح الايمن ، وكان هذان الجيشان قد حرما من قبل من ثلاثة فيالق افرزت لمراقبة الجيش البلجيكي في انفرس ولحصار موبوج

وسار هذا التخفيض الهائل لقوة الجناح الايمن بالتوازي مع العمل المستقل لقادة جيشه ، الذي كان دومولتكه قد فقد السيطرة عليهم . وقد سبب هذا التخفيض انكماشاً داخلياً لمناورة تغيير الاتجاه الكبرى ، وقادت الجيش الاول الى الاتجاه نحو الجنوب – الشرقي ، شرقي باريس، بدلا من المسير الى الغرب ، وقد تركت عاصمة فرنسا وعقدة سككها الحديدية بدون حصار .

وفي اليوم الذي اتخذ فيه دومولتكه هذا القرار المميت ، قرر جوفر الذي اقلقه تقرب جيش فون كلوك على يسار الخط الفرنسي ، تشكيل جيش جديد ، هو الجيش السادس ، بقيادة الجنرال مونوري على مقربة من اميان . في هذا الوقت ، كان فون كلوك ينقض الى امام . ومع انه اطلع ، في ٢٩ ، على حدوث عمليات انزال قطعات فرنسية على اليابسة في اميان، الا انه لم يعرها الاهتمام الكافي . وفي الاول من سبتمبر (ايلول) ، امر جوفر مونوري بالانسحاب الى باريس ، وفي ٤ ، امره باجتياز نهر الاورسك OURCQ وبمهاجمة الجناح الايمن المكشوف لفون كلوك الذي كان يمسكه الفيلق الرابع بقيادة الجنرال فون غرونو . وفي اليوم التالي ، بدأت معركة الاورسك وهي مقدمة معركة المارن . وفي ٧ ، كانت نتيجة المعركة قد اصبحت غير مؤكدة ، حتى ان فون كلوك ، سحب فيلقه الثالث والتاسع من يساره ليساعد فون غرونو ، دون ان يستشير فون بولوف BULOW ، قائد الجيش الثاني

الموجود على جناحه الايسر مباشرة . وقد احدث هذا النقل ثغرة عرضها ٣٢ كم بين الجيش الاول والثاني ، تسلل منها الجيش الانجليزي بقيادة السير جون فرنش ، وقام بعملية الاختراق فيها .

في هذه الغضون ، تلقى دومولتكه الذي اقام مقر قيادته العامة في اللوكسمبورغ معلومات كافية تجعله قلقاً الى اكبر حد .. وبدلا من ان يذهب على الطبيعة لينسق الوضع الحرج على الجبهة لجيوشه ، الاول والثاني ، والثالث ، انتقى كمندوب لهذا العمل احد ضباط الاركان الاعوان ، المقدم هنتش ومنحه شفوياً كل السلطات للامر بتراجع جيوش الجناح الايمن الى الايسر ، اذا وجد ذلك ضرورياً . وكانت هذه المهمة من اغرب المهمات التي القيت على كاهل ضابط من الضباط الصغار .

وقد ذهب هنتش في مهمته في ٨ من سبتمبر (ايلول) ، ورأى الجيوش ، الخامس ، والرابع ، والثالث ، ثم وصل مقر قيادة الجيش الثاني عند هبوط الليل . وهناك اكتشف ان فون بولوف كان قد قرر اعطاء الامر لجيشه بالقتال تراجعياً ابتداء من اليوم التالي . وفي الساعة ٧ من صباح يوم ٩ ، ذهب هنتش الى المقر العام للجيش الاول ، فلم يجد فون كلوك هناك ، اذ كان غائباً . فقد كان مشغولاً بمعركته ضد مونوري . وكانت المعركة تتحول ضد هذا الاخير بالرغم من جهود الجنرال غاليبني [١] ، الذي دفع لمساعدته بالوحدات الاحتياطية الاخيرة التي كان يملكها في باريس، في « الاوتوبيسات و« سيارات الاجرة — التاكسي» لانقاذ الموقف ، وبدلا من ان يذهب هنتش لملاقاة فون كلوك ، اوصى الجنرال فون كوهل KUHL رئيس اركان فون كلوك ، باعطاء الامر الى الجيش الاول بالقتال تراجعياً الى سواسون .

(١) غاليبني كان الحاكم العسكري لباريس GALLIENI

وعندما عـاد فون كلوك ، الذي كان رأيه مخالفاً لهذا الرأي ، تقيد بالامر الجديد على مضض ، وتم هذا في الوقت الذي كان يفكر فيه مونوري بالقتال تراجعيـاً الى باريس . وهكذا قضت هيئة الاركان العامة على خطة مولتكه شليفن ، التي تصورتهـا الامر هيئة الاركان العامة بسبب افلاس القيادة .

وفي ١٣ من سبتمبر (ايلول) توقف الالمـان وجابهوا مطارديهم على الايسن . ودارت معركة مواقع . ثم تلاهـا فيمـا بعد « السباق الى البحر » الذي حاول فيه كـل من الطرفين تطويق خصمه مستخدمـاً فيالق جلبها من جنـاحيهما الغربيين المتقـابلان . لكن احدهمـا لم ينتصر على الآخر ، وبلغـا بحر الشمال في النهـاية . وكان المدافع ، في كل مرة يظهر بانه اقوى من المهاجم . وكان استخدام القذيفة والرفش ، والسلك الشائك « قد سحق كـل الهجمات على الجبهة الغربية ، كمـا لاحظ ذلك العقيد نيكرسون ، بشكل كـامل ، حتى انه من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٤ الى مارس (آذار) ١٩١٨ ، لم يحدث هجوم ، او هجوم واسع ، استطاع ان يحقق كنتيجة نقـل خط النار ١٥ كم في اتجاه او اتجاه معاكس » (١) . وهكذا ، كانت حرب المواقع هي النتيجة ، كمـا تنبـأ بذلك بلوخ . وقد اندهش من ذلك اللورد كيتشنر فعبر عن ذلك قائلاً ما يلي : « اني لا اعرف ما ينبغي عمله انها ليست حرباً » ! .

---

(١) كتب الجندي البسيط فرانك ريتشارد FRANK RICHARD :
« كان الاعداء يظهرون ويبدؤون بالتقدم . ومـا ان يتقدموا حتى يوقفوا فوراً : وكان من المستحيـل ان نخطىء اصابتهم بسبب وجود السترة الامامية التي تستند اليهـا بنادقنا . وكان الهجوم ينتهي قبـل ان يبدأ ... وكان في وسع عشرة رجـال يحتلون خندقـاً من الخنادق ان يوقفوا بسهولة خمسين يحاولون الاستيلاء على الخندق ،
(Old soldiers never die (1933) p. 36).

٣ ــ استراتيجية الحيل (التملص)

وكانت المشكلة الآن هي استعادة القدرة على الحركة . وكان حلها يرتبط بضرورة التغلب على المقاومة الثلاثية للقذيفة ، والرفش ، والسلك الشائك . وقد حاول العسكريون حلها بالطريقة التقليدية : اذ توجهوا الى المدفعية وحاولوا بواسطتها احداث ثغرة في الجبهة المتخندقة لخصمهم بالطلقات المتفجرة . ولو انهم فكروا ، بعد الحرب الروسية ــ اليابانية ، التي تم خلالها وضوح اهمية وقوة مدافع الرمي السريع المستخدمة مؤخراً ، لو انهم فكروا بالمشكلة ، لكان في وسعهم منع وقوعها ما دامت التحصينات ليست الا خطوطاً من المنشآت الميدانية الاصطناعية ، كما سنرى في المقطع التالي . ولكن نظراً لان الامور كانت على ما هي عليه في خريف عام ١٩١٤ ، فقد كانوا لا يملكون في ذلك الوقت مدافع باعداد كافية ، ولا قنابل لفتح الثغرة بالقوة ، كما انهم لم يدرسوا ابداً تكتيك الاختراق [١] . فقد اهملوا تقدير قوة المدفعية ذات الرمي السريع تقديراً صحيحاً ، ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان التموين بالذخائر يرتبط بالانتاج الصناعي .

وفيما يتعلق بالغلطة الاخيرة ، فان من الحق ان يوجه اللوم الى رجال الدولة ايضاً . ففي ينساير (كانون الثاني) ١٩١٤ مثلا ، استهزأ لويد جورج علناً من احتمال وقوع الحرب ، وألح على « انها انسب الفرص منذ

---

(١) عالج مؤلف هذا الكتاب ، قبل اعلان الحرب العالمية الاولى وكان ما زال في ذلك الوقت تلميذاً في مدرسة الحرب في كامبري ، هذه المشكلة في مقال عنوانه : « تكتيك الاختراق » ، طبع فيما بعد في عدد نوفمبر ١٩١٤ من مجلة
Journal of the Royal United Service Institution.

عشرين عــاماً » لتخفيض نفقات التسليح » (١) . وما كاد ينقضي شهر على الحرب ايضاً حتى بدأ التموين بذخــائر المدفعية ينضب ، لان كل المتنازعين قد اساؤوا تقدير مطالب العتــاد الحربي . وكانت النتيجة ان منيت كــل محاولات خرق الجبهة الغربية باخفاق كثير التكاليف .

وقد اتهم رجال دول الحلفــاء العسكريين بالافتقار الى الخيال (٢) بعد ان اغاظتهم الهجمات والانقضاضات المجدبة ، لانهم كانوا جاهلين بالاعتبارات

---

(١) راجع :

Soldiers and Statesmen, Vol. I, p. 38.

وقد صرح المستر لويد جورج في ٢٣ من يوليو (تموز) ١٩١٤ ، اثنــاء مناقشة القانون المالي في مجلس العموم ، بما يلي : « ان معارضة نفقات التسلح حركة عامة ودولية . ولست واثقــاً من انها ستؤتى ثمــارها في هذا العام او في العام المقبل ، ولكنني واثق من نجاحهــا . ويمكنني ملاحظة دلائل رد الفعــل ، وآثاراً متميزة لها في العالم كله » .

PARLIAMENTARY DE BATES, 5°=série, Vol. L X5, col. 727.

وفي اليوم نفسه قدمت النمسا لصربيا الانذار الذي فجر الحرب العالمية الاولى .

(٢) راجع :

La crise mondiale, 1915, de Winston S. Churchill édition française (1924) p. 20 et War Memoirs, de DAVID LIOYD GEORGE (1933) Vol. I, pp. 356 - 360.

فقد كتب تشرشل مندهشاً : « عندما وجد الفن العسكري نفسه في طريق مسدود ، بقي صامتــاً . » وقال لويد جورج مــا يلي : « لقد حير قرار الالمــان بالتخندق جنرالات الحلفاء الى حد كبير » و « اني لا ارى في اي مكان دليلاً على ان قادتنا وادلاءنا العسكريين يدرسون خططاً لتخليصنا من وضعنا السيء

التكتيكية ، وحاولوا استعادة الحركية بتبديل الجبهة ، كما لو ان موقع الجبهة هو الموقع الذي ينبغي ان يدان كسبب للجمود . وكان الشيء الذي عجزوا عن تقديره هو انهم لو وجدوا مكاناً آخر كانت فيه مقاومة العدو اقل من مقاومته على الجبهة الغربية ، فلن تكون المسألة بالنسبة اليهم سوى مسألة وقت ينقضي حتى تتفوق الشروط التكتيكية ذاتها . فقد كانت القذيفة ، والرفش ، والسلك الشائك هي الأعداء على كل الجبهات . وكان موقعها الجغرافي امراً عارضاً . وبالاضافة الى ذلك ، فان تبديل مسرح العمليات ، كما اشار نابليون الى ذلك ، مهمة من اصعب المهمات وأدقها ، لا ينبغي بالتالي ان نقوم به « ونحن راضين » [١] .

واذا قبلنا رأي كلاوزفيتز في الحرب ضد حلف من الدول ، **وجدنا ان الهدف الذي ينبغي تحقيقه في هذه الحالة هو هزيمة الشريك الرئيسي لاننا عندما نوجه الضربة الى الحليف الاقوى فانما نوجهها «لاننا نضرب فيه مركز الثقل العام للحرب كلها »** . الا ان هدف الحلفاء في عام ١٩١٤ كان الحاق هزيمة بألمانيا . لان هزيمتها تؤدي الى هزيمة كل حلفائها . ففي اي مكان يمكن ضرب المانيا باكبر فائدة ممكنة ؟ ان الجواب على هذا السؤال يرتبط باسهل خطوط العمليات من الناحية العملية بالنسبة للحلفاء الذي يتحكم فيها موقع قواعدهم الرئيسية . وكانت هذه القواعد هي فرنسا وبريطانيا العظمى ، ولا يوجد هناك ارض اخرى غير فرنسا ، تسمح بنشر وتموين كتل ضخمة مسلحة في الميدان في ذلك الوقت . ان القواعد الرئيسية ، ومسرح الحرب الرئيسي محددان بالجغرافيا و « اللوجيستيك » وليس هناك من قضم للجبهة يستطيع ان يبدل اي شيء .

---

(١)
Correspondance de Napoléon XVII, No. 14343 et XXXII, p. 240.

ولم يكن للحلفاء سياسة مشتركة توجههم في ادارة الحرب . فقد كان الجنرال جوفر يلح على حشد كل القوى الجاهزة في فرنسا . وكذلك ، عندما استقرت الجبهة وتحولت الى الجمود ، اقترح حليفه البريطاني سلسلة من الخطط المبهمة ، التي تجلب النصر . وفي فرنسا ، اقترح السير جون فرنش عملية مشتركة للقوات البرية والبحرية للاستيلاء على اوستاندوز يبروج والالتفاف على الجناح الالماني . واقترح اللورد فيشر . اميرال البحرية البريطانية هجوماً مماثلاً على ساحل شلزفيغ — هولشتاين . والح معلمه المستر تشرشل ، اللورد الاول في الاميرالية ، على القيام بغزو للدردنيل . على حين اقترح المستر لويد جورج في الاول من يناير (كانون الثاني) ١٩١٥ استدعاء فيلق الغزو البريطاني من فرنسا وارساله الى البلقان [١] ، فيما عدا احتياط عام يحتفظ به في بولون BOULOGNE وفي انجلترا . وفي هذه الغضون ، ارسلت الحكومة الهندية ، تحت رعاية وزير الدولة لشؤون الهند ، لواء الى الخليج العربي لحماية مصافي شركة الزيوت الايرانية في جزيرة عبدان واهتم زميله لشؤون المستعمرات بشن حروب صغيرة في افريقيا .

وقد كان تشرشل هو الزعيم القوي لاولئك الذين كانوا يريدون التخلص من الجمود في الجبهات . وبدأ مشروعه باقتحام الدردنيل واحتلال القسطنطينية والبوسفور في الفوز على سائر مشروعات منافسيه ، عندما انضمت تركيا الى الدول

---

(١) راجع « مذكرته عن استراتيجية الحرب » التي قدمها الى مجلس الدفاع

War Memoirs, Vol. 7, pp. 369 - 380

وقد اقترح فيها تشكيل جيش مؤلف من ٤٠٠,٠٠٠ الى ١,٦٠٠,٠٠٠ جندي ، يفترض ان يكون ٤٠٠,٠٠٠ من بينهم رومانيين ، يونانيين ، ومونتينغربيين « لمهاجمة النمسا في اضعف حدودها » .

المركزية في نهـاية اكتوبر . وفي ٢ من يناير (كانون الثاني) ١٩١٥ ، وجهت روسيا نداء غير متوقع اعطاه الافضلية . ففي هذا اليوم طلب الدوق الكبير نيقولا من البعثة العسكرية البريطانية المنتدبة الى مقره العـام ، ان تقترح على اللورد كيتشنر تخفيض الضغط عن كاهـل الروس ، اذا امكن ، على جبهة القفقاس ، بتنظيم تظاهرة بحرية او عسكرية ضد تركيا . وقد ابرق كيتشنر رداً على ذلك بالموافقة على اجراء هذه التظاهرة ، دون العودة الى مجلس الدفـاع ولا الى رئيس الوزراء ولكن بموافقة المستر تشرشل (١) . وهكذا بدأت حملة الدردنيل .

وفي ١٣ من يناير (كانون الثاني) اقنعت البلاغة القوية للمستر تشرشل مجلس الدفـاع بقبول هذا المشروع بشكـل قصفٍ محلي . وقد تحول فوراً الى عملية بحرية بشكـل خاص ، لاقتحام المضائق . وتطورت في النهاية لتغدو عملية مشتركة واسعة النطاق تشتمـل على اسطول قتال وجيش مؤلف من ٧٥,٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال السير ايان هاميلتون . وفي ١٨ من مارس (آذار) نفذ هجوم بحري دون اي نجاح ، خسر المهاجمون فيه ثلاثة مراكب قتال ، ولم يبدأ الجيش بالانزال على اليابسة (الابرار) في رأس هيلليس HELLÉS الا يوم ٢٥ من ابريـل (نيسان) .

---

(١) وقد طلب اللورد كيتشنر في الوقت ذاته الى السير جون فرنش رأيه عن ملاءمة العمليات على مسارح اخرى غير الجبهة الغربية . فاجابه السير جون : « ان مهاجمة تركيا تعني لعب اللعبة الالمانية والوصول الى الهدف الحقيقي الذي كانت ترمي اليه المانيا عندما اقنعت تركيا بالدخول في الحرب ، وهو : جذب القطعات خارج الهدف الحاسم الذي هو المانيا ذاتها » .
MARECHAL VICOMTE FRENCH: 1914 (1917) pp. 314 - 316

ومع ان القوات التركية التي جابهت الغزو كانت قوات هزيلة ، الا ان المهاجمين لم يحققوا تقدماً كبيراً الا قبل جنوح النهار ، واقترح الجنرال السير ويليام بيردوود ، قائد الفيلق الاوسترالي والنيوزيلاندي انسحاب القطعات بكاملها . وقد رد السير ايان هاميلتون على هذه النصيحة اليائسة قائلاً : « لقد حققتم المهمة الصعبة . وليس عليكم الآن الا ان تحفروا ، فاحفروا ، واحفروا الى ان تصبحوا في امان »[1] . وهكذا ، وفي خلال اثنتي عشرة ساعة ، بعد عمليات الانزال الاولى ، سيطرت طلقة البندقية والرفش والسلك الشائك على الوضع ، واقيمت جبهة غربية استمرت قائمة حتى تم الجلاء النهائي في ٩ من يناير (كانون الثاني) ١٩١٦ . وقد اشترك في هذه الحملة ٤١٠,٠٠٠ جندي انجليزي وفرنسي ، وقع من بينهم ٢٥٠,٠٠٠ بين قتيل وجريح ومفقود ، واسير ، او مات بسبب الاوبئة او تم اجلاؤهم لاسباب صحية .[2]

وقد قررت الحكومة الفرنسية خلال خريف عام ١٩١٥ ارسال فيلق غزو لمعاونة صربيا[3]، كأن حملة غاليبولي لم تكن درساً كافياً للعزوف عن تجارب اضافية في مجال استراتيجية التخلص **Stratégie d'échappataire**

---

(١)
MILITARY OPERATIONS GALLIPOLI (British Official History), par le brigadier général G. F. Aspinal Oglander (1929) Vol. I, p. 270.

(٢) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ٤٨٤ .

(٣) كان السبب اسمياً ، لان السبب الحقيقي هو ايجاد وظيفة للجنرال سراي **SARRAIL** اذ كان له نفوذ كبير على اليسار وكان اليسار يهدد في هذا الوقت باسقاط الحكومة .

واشتركت الحكومة البريطانية في حملة الغزو هذه ، وبدأت القوات الانجليزية في النزول على اليابسة في سالونيك يوم ٣ من اكتوبر (تشرين الاول). وكانت النتيجة حدوث حملة الحلفاء المقدونية ، او على حد تعبير الالمان : « تشكيلة اكبر معسكر اعتقال للحلفاء » ضد « جيش معاد اسر نفسه بنفسه [١] » وقد كتب الجنرال ادموند انه خلال ثلاث سنوات حول سالونيك « حُبِس جيش كبير تابع للحلفاء في عام ١٩١٧ ، وكان متوسط تعداد القوات الانجليزية ٢٠٢,٢٦٥ جندي ، بالاضافة الى الجنود الفرنسيين ، والايطاليين ، والروس ، والصربيين ، اي ان مجموع القوات يزيد عن ٦٠٠,٠٠٠ جندي وأوقف هذا الجيش بنصف الجيش البلغاري مع بعض الجنود الالمان » [٢] . ومرة اخرى ، بدت المقاومة الثلاثية للدفاع قوة لا تقهر . وكانت نتيجة هذا العمل التملصي ٤٨١,٢٦٢ مريضاً انجليزياً قبلوا في المستشفيات و ٢٦,٧٥٠ قتيلاً في المعركة .

وفي هذا الوقت ، اصبح اللواء المنعزل في عبدان جيشاً هدفه احتلال بغداد ، تعويضاً عن الاخفاق الذي تعرضت له غاليبولي ، وافلاس عملية سالونيك . وهكذا اتخذت حملة ما بين النهرين الكثيرة التكاليف شكلها . وفي ٧ من ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٥ طوق الاتراك الجنرال طاوزند TOWNSHEND وجيشه في كوت — العمارة ، وفي ٢٩ من ابريل (نيسان) ١٩١٦ استسلم ١٠,٠٦١ جندي انجليزي وهندي و ٣,٢٤٨ نصيراً . « لقد كلفت المدينة في مجموعها ، وفي النهاية ، الامبراطورية البريطانية

---

(١) Sir JAMES E. EDMONDS: A short History of World War (1951) p. 124.

(٢) المرجع المذكور في الملحوظة (٣) ص ١٢٤ .

٤٠,٠٠٠ قتيلاً » [1] . وفي سبتمبر (ايلول) ١٩١٧ كان عدد المطعمين من القوة قد بلغ ٣٤٠,٠٠٠ تقريباً ، وتجاوز هذا العدد في عام ١٩١٨ في نهاية الحرب رقم ٤١٤,٠٠٠ كان من بينهم ٢١٧,٠٠٠ غير مقاتل . وقد بلغت الخسائر ٩٣,٥٠٠ .

وبالاضافة الى هذه العمليات التشتيتية الثلاث الكبرى ، نجمت عملية رابعة عن حماية قناة السويس : ففي يناير ١٩١٥ ، هددت القناة بعصابة مؤلفة من ١٥ الى ٢٠,٠٠٠ جندي تركي وبدوي ، قضي عليها بسهولة ، وحتى ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٦ اقتصرت العمليات مبدئياً على الدفاع . ثم اعتمد فيما بعد على استراتيجية هجومية ، بعد تعيين المستر لويد جورج رئيساً للوزراء ؛ وقد طرح لويد جورج ، منذ البدء ، كمبدأ ، القضاء على المانيا بسهولة فيما لو تم سحق حلفائها — وهو عكس المبدأ الذي اقترحه كلاوزفيتز — وكلف هيئة اركانه التي لم تكن متحمسة كثيراً بدراسة توسيع العمليات في القناة لتشمل فلسطين ، مع احتلال القدس كهدف رئيس ، وكان يفتش بهذا العمل عن نجاح كبير ، يقوي موقفه السياسي . وهكذا ولدت مشكلة اخرى كثيرة التكاليف وذات اهمية ثانوية ، استمرت الى نهاية الحرب . و « كان اقصى عدد للجنود المشتبكين في معركة فلسطين في وقت من الاوقات قد بلغ ٤٣٢,٨٥٧ ، كما بلغت الخسائر في القتال حوالي ٥٨,٠٠٠ تقريباً . ومع ذلك فان هذا الرقم ضئيل جداً اذا ما قورن بالخسائر الكاملة ، لان عدد الجنود المشتبكين في القتال من كل الرتب ، حتى اكتوبر (تشرين الاول)

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، ص ٣٨٦ ، EDMONDS

١٩١٨ بلغ ١,١٩٢,٥١١ »[1] طبقاً لرأي السير ويليام روبرتسون .

وكانت كل هذه المحاولات المحيطية لاكتشاف جبهة يمكن اختراقها تبديداً في الجهد وفي القوات – وهو عامل حيوي في حرب الكتل – كثير التكاليف . فقد اثقل الجمود كاهلهم بازدراء ساخر .

٤ – استراتيجيه الأعياء

عندما بلغ الالمـــان والانجليز في خريف عام ١٩١٤ المانش في نيوبور NEWPORT ، كان للجبهة الغربية شكل نتوء ضخم ، يتحدب نحو الغرب بين البحر وجبال الفوج ، وقمته على مقربة من كومبين COMPIEGNE . وكانت خطة جوفر في عام ١٩١٥ هي قطع هذا النتوء « البروز » SAILLANT بهجوم مزدوج : فقد كان يترتب على الانجليز ان يهاجموا باتجاه الشرق في أرتوا ، ويترتب على الفرنسيين ان يهاجموا باتجاه الشمال في شامبان . وقد بقيت هذه الخطة ، من اول الحرب الى نهايتهـــا معيار الاستراتيجية الفرنسية ، وشنت سلسلة من المعارك في عام ١٩١٥ ، تقيدت بهـــا ، وكان اكثرها طموحاً المعركة الثالثة في ارتوا – فقد عرف الجزء البريطاني منهـــا تحت اسم معركة لوس LOOS (٢٥ سبتمبر) – ايلول – ١٥ اكتوبر (تشرين لاول) – ومعركة شامبان CHAMPAGNE الثانية (٢٥ سبتمبر –٦ اكتوبر).

---

(١)

Soldiers and Statesmen Vol. II, p. 189.

عندما تهمل الخسائر ، تشتمـــل الارقام المذكورة على عدد كبير من غير المقاتلين . وبحسب رأي الجنرال ادموند (المرجع المذكور سابقاً ، ص ٣٧٦)، اكانت الخسائر الناجمة عن الامراض والاوبئة تقدر بـ ٥٠٣,٣٧٧ .

وفي كل هذه المعارك التي لم تكن لهـا اية نتيجة سوى فتح ثغرة في النتوء ، برز واقعان :

الاول ، هو عدم تناسب الخسائر مع الارباح . فمثلاً ، خسر الفرنسيون في معركة أرتوا – لوس الثالثة ٤٨,٢٠٠ جندياً ، كما خسر الانجليز ٤٨,٢٦٧ وكانت الخسائر الفرنسية في معركة شامبان الثانية ١٤٣,٥٦٧ . وفي كل مرة لم يحتلوا الا شبكة خنادق خط النار الالماني ، في بعض المواقع ، بعمق ٩٠٠ متراً .

والواقع الثاني هو ان القصف الرهيب للمدفعية سمح للمشاة باحتلال كل خنادق خط النار المعادي او جزء منه ، في كل الهجمات منذ مطلع هذه السنة . ويثبت هذا الامر انه لو كان هناك ما يكفي من المدفعية خلال المرحلة الحركية من الحرب ، لكان من الممكن خرق الجبهة التي لم تكن متخندقة ، او كانت قد تخندقت بصورة خفيفة ، في هذه الفترة . وكان هذا الدرس هو احد الدروس التي اعطاها نابليون لعصره عندما قال : « لا يمكن شن الحرب الا بواسطة المدافع » [١] . وقد افلتت منهم الآن هذه الفرصة ، واصبحت خنادق الجبهة عميقة اكثر فأكثر . فتخيلت هيئة الاركان العامة الفرنسية عند ذاك وبسذاجة انها اكتشفت سر الانتصار في الحكمة التالية : « المدفعية تغزو الارض ، والمشاة تحتلها » . وتقهقر التكتيك وعاد مشكلة هجمات كتلوية تتم بالحربة – او بطلقات القنابل بالاحرى – وحل التمرين مكان المناورة . وحلت المفاجأة والقصف مكان صفات القائد . وتراجع التكتيك فأصبح في المستوى الذي كان عليه ايام الاسبارطيين في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح . مع فرق واضح هو ان الجنرالات لم يكونوا يذهبون ابداً الى القتال .

(١) Correspondance XIV No. 11896

ومن المفهوم ان الارباح الطفيفة والخسائر الضخمة لهذه المعارك قد افقدت السياسيين صوابهم واتاحت لهم المبررات لاتباع سياسة الحيلة والتخلص . ومن الواجب ان نقول : اذا كان الاستنزاف والاعياء ، كما نصح به القادة ، قد قبل كتكتيك طبيعي . واذا كانت الدول المركزية قد رفضت الاستسلام ، فان الحرب لا يمكن ان تنتهي الا بتدمير متبادل . ومن ناحية اخرى ، نظراً لان الحرب كانت نزاعاً بين حلفين ، فان اعضاء الحلفين لا يستطيعون ان يعملوا منفردين بصورة حرة . وابتداء من خريف عام ١٩١٤ ، كان الروس قد تعرضوا لسلسلة من الهزائم المدمرة . فكانت جيوش الاتفاق ENTENTE لا تستطيع اذن ان تبقى سلبية وتترك حليفها في المأزق . وكانت الضرورة تفرض عليها ان تهرع لمعونته ، لتأمين ايطاليا التي انضمت الى الحلفاء ، في ابريل (نيسان) ١٩١٥ فقط ، من تصميم شركائها .

ولكي نجهر بالحقيقة ، لم تكن حرب الكتل المعتمدة على بندقية الرمي التكراري ، والرشاش مستحيلة ، كما صرح بذلك بلوخ وتنبأ . فقد كانت على الاكثر اداة سياسة لا تعطي ثمراتها ، لانه لم يكن في وسع احد في أي مكان ان يتملص ويتوارى من الرصاص ، ولا ان يدمر شبكة من الخنادق موضوعة بشكل جيد بصورة حاسمة .

وكان من الممكن الالتفاف على الجبهات مراراً ، على المسرح الشرقي للحرب ، نظراً لوجود اراض واسعة . ولكن الجبهات بقيت على المسرح الغربي جبهات لا يمكن خرقها . ومن الغريب مع ذلك ان العسكريين اكتشفوا ببطء الصعوبة المتناهية لحرب الخنادق . فقد علمتهم التجربة الآن انه مع كمية كافية من المدفعية ، يستطيعون احتلال خط النار لعدوهم ، واستنتجوا من ذلك ان في وسعهم احتلال خطه الثاني وخطه الثالث والرابع الخ.. بمدفعية اقوى ، الى ان يتم الخرق تماماً . ولكنّ ما لم ينجحوا في فهمه هو

انهم كلما قصفوا خنادق العدو بمزيد من القنابل ، كلما دمروا الارض واحدثوا فيها مزيداً من التخريب . وتتحول ساحة المعركة الطبيعية الى منطقة تملؤها حفر القنابل . اي انهم ازالوا حاجزاً من الحواجز ، بخلقهم حاجزاً جديداً آخر ، يجعل المسير الى امام صعباً جداً ، حتى ان المشاة ، لو اجتازت منطقة الحفر ، فلن يكون في وسعهم تموينها . ونتج عن ذلك ضرورة انشاء طرق وسط هذا الخراب تسمح بتقدم المدافع وآليات التموين. وحتى يتم انشاء مثل هذه الطرق ، يكون العدو قد تخندق وتحصن من جديد . وينبغي عندئذ ان نشن معركة خرق جديدة .

وقد تقرر في مطلع ديسمبر (كانون الاول) في مؤتمر للحلفاء برئاسة الجنرال جوفر ، اعداد هجوم في الربيع « يتضمن الحد الاقصى من القوات » على الجبهة الغربية ، وذلك بالرغم من ضحايا عام ١٩١٥ . ولكن الالمان ضربوا في فردان قبل ان تتم تحضيرات الهجوم .

وكان هدف هجوم فردان اضعاف « الضغط العنيف الذي تمارسه انجلترا دوماً على حلفائها » طبقاً لما اعلنه الجنرال فون فالكنهاين الذي خلف دومولتكه كرئيس لهيئة الاركان العامة الالمانية . وبما ان « فرنسا تصل الى اقصى جهدها العسكري » لو انتزعت منها فردان فاننا « نجتاز الحد في هذه الحالة ، وعندئذ تحرم بريطانيا من افضل سيوفها » . وقد انتقيت فردان لان المحافظة عليها ستضطر هيئة الاركان العامة الفرنسية « الى استخدام آخر رجل لديها واذا ما لجأت الى مثل هذا العمل ، فان القطعات الفرنسية ستستنزف بخسائرها الدامية ، لانه سيستحيل عليها تجنب القتال ، سواء حققنا هدفنا

ام لم نحققه »⁽¹⁾ كما كتب فالكنهاين . وكانت فردان اذن معركة استنزاف اخرى .

وفي ٢١ من فبراير (شباط) ١٩١٦ ، شنت المعركة على جبهة عرضها ٣٢ كيلومتراً . ومع ان الفرنسيين كانوا على علم بقرب وقوع الهجوم ، غير انه كان مفاجأة بالنسبة اليهم ، لان القصف بالمدفعية اقتصر على ٢٤ ساعة فقط بدلا من اسبوع واكثر كما جرت العادة . ودامت المعركة حتى ١١ من يوليو (تموز) ، وهو التاريخ الذي تحقق فيه خرق لثمانية كيلومترات ، مقابل ٢٨١,٠٠٠ جندي خسرهم الجانب الالماني ، و ٣١٥,٠٠٠ خسرهم الفرنسيون .

ولتخفيف الضغط عن فردان ، شن الهجوم الفرنسي — البريطاني المعد للربيع ، والمعروف تحت اسم معركة السوم ، والذي أجل مدة طويلة ، على جبهة ٤٠ كم في ١ من يوليو (تموز) ١٩١٦ . وسبقه قصف بالمدفعية دام ثمانية ايام القي خلالها ١,٧٣٨,٠٠٠ قنبلة على الدفاعات المعادية . وكان ادخال « السد الزاحف » مفاجأته التكتيكية ، اذ ان المشاة تقدمت الى امام تحت حمايته من هدف الى هدف . دامت المعركة حتى ١١ من نوفمبر ، التاريخ الذي احتلت فيه قسيمة من الارض طولها ٤٨ كيلومتراً وعمقها الاقصى ١٢ كم ، مقابل خسائر في الجانب الانجليزي بلغت ٤١٩,٦٥٤ ، و ١٩٤,٤٥١ في الجانب الفرنسي . وكانت خسائر الالمان حوالي نصف مليون جندي .

---

(١)
GENERAL ERIC VON FALKENHAYN: «Le commandement suprême de l'armée Allemande (1914 - 1916) et ses décisions essentielles) édition française (1921) pp. 162 - 168.

وكان السير دوغلاس هايغ [١] راضياً جداً بنتيجة المعركة ، وصرح في DISPATCH ، بانه « لم يشك ابداً بكفاءة الحلفاء » وقدرتهم على الوصول الى الهدف . وكان السير ويليام روبرتسون ينصح الحكومة بالتهيوء « لمعركة اقسى واطول ، والى بذل جهد اكبر في الوسائل من الجهد الذي اعتادوا عليه حتى ذلك الوقت » [٢] . وقد كان للخسائر الهائلة رد فعل عنيف على الموقف السياسي .

وبمعركة السوم ، اصبح استقرار الجبهات وجمودها شاملاً كل الجبهات وكان الايطاليون قد استنزفوا الى آخر قطرة في ثماني معارك على الايزونو . ومع ان هجوم الجنرال بروسيلوف على الجبهة الشرقية ، نجح في اسر عدد هائل من النمساويين ، الا انه كلف روسيا خسارة مليون جندي . وبما انه كان يبدو ان لا امل ابداً في الحصول على الحسم بالقوة فوق ساحة المعركة ، فقد اصبحت مسألة مفاوضات السلم جديرة بالاعتبار في لندن ، وبرلين ، وفيينا . وفي ١٤ من نوفمبر (تشرين الثاني) اقترح اللورد لانسداون LANSDOWNE ، وزير الدولة في حكومة آسكيس ASQUITH فحص احتمالات السلم ، ولكن حكومة اسكيس سقطت في ٧ من ديسمبر (كانون الاول) ، واستلم لويد جورج الذي كان قد تعهد بمتابعة الحرب بصورة

---

(١) خلف الجنرال السير دوغلاس هايغ كقائد عام المارشال السير جون فرنش في ١٥ من ديسمبر ١٩١٥ . وبعد ثمانية ايام ، سمي الجنرال السير ويليام روبرتسون رئيس اركان المارشال فرنش رئيساً للاركان العامة الامبراطورية البريطانية . وحل محله اللواء السير ل. كيجل . وكان الثلاثة من الدعاة المتحمسين لاستراتيجية الاستنزاف .

(٢) Soldiers and Statesmen, Vol. I, p. 279.

اقوى ، رئاسة الحكومة . وبعد خمسة ايـام ، تراجعت المانيا وحلفـاؤها عن نداءاتهـا التي اعلنت فيها بدراسة اقتراحات السلم .

وكانت الرغبة بالسلام لدى النمسا رغبة حقيقية من دون شك ، ولكن من الممكن ان نتساءل مـا اذا كانت هذه الرغبة صادقة لدى الالمان . اما روسيا فهي تتزعزع الآن ، وعندما تسقط ، سيكون في وسع المـانيا نقل مايون جندي الى الجبهة الغربية . وكانت النتيجة على كل حال ان اصدر القيصر الامر بشن حرب الغواصات دون قيد او شرط في ٣١ من ينـاير (كانون الثاني) ١٩١٧ . وقد اثـار هذا التدبير الولايات المتحدة ، فقُطِعَتْ العلاقات بعد يومين بين واشنطن وبرلين .

وبناء على هذا ، اتخذ قرار بالقيام بسلسلة من الهجمات على كل الجبهات ، التي تعتبر الجبهة الغربية الجبهة الرئيسية للحلفاء فيها ، وذلك في مؤتمر لدول الحلفاء انعقد في ١٥ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٦ لدراسة خطة حملة عام ١٩١٧ . وبعد شهر ، قبل الجنرال نيفيـل NIVELLE الذي خلف جوفر ، في ١٣ من ديسمبر (كانون الاول) كقائد عـام للجيوش الفرنسية ، هذا القرار ، واتفق ان يكون الانجليز اول المهاجمين على جبهة آراس ARRAS لجذب القوات الاحتياطية المعادية واستنزافها ، ثم يهاجم الفرنسيون الايسن . وكن الهدف الذي يستهدفونه حاسماً بشكـل خاص : وهو خرق موقع العدو وتحطيمه . لكن اذا بدا ان الخرق غير كاف ، توقف المعركة ، وينقل الهجوم الى جبهة الفلاندر .

وبدأت اولى هذه المعارك في ٩ من أبريل (نيسان) ، مبتدئة بقصف ٢٧٠,٠٠٠ قنبلة . واستمرت حتى ٣ من مايو (ايار) وهو التاريخ الذي تحقق فيه تقدم يساوي ثمانية كيلومترات على جبهة ٣٢ كيلومتراً ، وحتى ٢١ من

مايو ، مقابل ١٥٨,٠٠٠ بين قتيل وجريح انجليزي ، و ١٥٠,٠٠٠ الماني حسب بعض التقديرات . وبعد شن الهجوم الفرنسي على الايسن بثمانية ايام ، مني بالاخفاق التام وأدى الى الفشل . وقد كلف هذا الهجوم الفرنسيين ١٨٧,٠٠٠ قتيلاً وجريحاً ومفقوداً [1] كما كلف الالمان ١٦٣,٠٠٠ . واستبدل نيفل بالجنرال بيتان وكانت المعنويات في الجيش الفرنسي قد تدنت الى درجة هائلة ، حتى ان ٥٤ فرقة مشاة ثارت بين ٢٥ مايو و ١٠ يونيو (حزيران) .

وفي هذه الغضون ، وقع حادثان بدلا شكل الحرب تماماً . ففي ٨ من مارس (آذار) انفجرت الاحداث في بتروغراد . وفي يوم ١١ ثار الحرس الامبراطوري ، وفي اليوم التالي اجتاحت الثورة المدينة . وفي ١٥ ، تنازل نيقولا الثاني ، وتشكلت حكومة موقتة ، برئاسة الامير لفوف ، اعترفت دول الحلفاء بها رسمياً في يوم ٢٢ . وكان الحدث الثاني اعلان الولايات المتحدة الحرب على المانيا في ٦ من ابريل (نيسان) .

فماذا كانت تعني هذه الاحداث ، وما الذي تخفيه ؟ انها تخفي عمليتي تعزيز لمسرح الحرب الفرنسي . فمن جهة ، هناك دولة لم تعد قادرة على الحرب ، واحداث الثورة تنهشها . كما ان لالمانيا الحق في الاعتماد ، بناء على هذا ، على نقل ما لا يقل عن مليون جندي من الجبهة الشرقية . وتملك بريطانيا العظمى وفرنسا الاسباب ذاتها للاعتماد على وصول ما لا يقل عن مليون جندي امريكي الى جبهتهما ، في مستقبل ليس ببعيد ، وفي

---

(١) يشير التاريخ الفرنسي الرسمي ، المعتمد على تقارير نيفيل الى خسارة ٩٦١٢٨ ، وهناك تقدير آخر يقدر الخسائر بـ ١١٨,٠٠٠ بين تاريخ ١٦ و ٣٠ ابريل (نيسان) .

تاريخ محدد . وقد اقترحت حكومة ريبو الفرنسية ، نظراً لانها في وضع مزعزع ، بعد ان خلفت في مارس (آذار) حكومة بريان ، تأجيل كل العمليات الهجومية ، حتى تتمكن من الاعتماد على العون الامريكي .

غير ان هايغ ، وروبرتسون ، وبيتان ، ونيفيل كانوا يفكرون بصورة مختلفة . فقد كتب روبرتسون في احدى المذكرات ما يلي : « كلنا متفقون على ان من الممكن تحقيق هدفنا بالهجوم على اهداف محدودة دون تأخير ، مع استخدام مدفعيتنا الى اقصى ما يمكن . وفي وسعنا ان نأمل ، بهذا الشكل ، التوصل الى غاياتنا بالحد الادنى من الخسائر الممكنة »[١] . وقد قبل المستر لويد جورج هذه السياسة ، التي انكمشت فيما بعد ، وعادت فاقتصرت على الخطة التي اقترحها في يناير (كانون الثاني) وهي : التعاون مع ايطاليا في هجوم على النمسا .

واذا اردنا القول الحق ، فان الهجوم المحدود ليس الهجوم الذي كان يرغب في شنه هايغ . فقد كان هايغ منذ تعيينه قائداً عاماً في ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٥ يبيت لمعركة حاسمة في الفلاندر ، وكانت فكرة هذه المعركة تلاحقه حتى انه كان يؤمن بقدرته على هزيمة الالمان لوحده ، قبل وصول الامريكيين .

وكانت النتيجة هي حملة الفلاندر في الصيف وفي الخريف والتي تعرض فيها الحلفاء لكثير من الخسائر . وبدأت في ٧ يونيو (حزيران) بمعركة ميسين MESSINES الظافرة المحدودة ، والتي سبقها تمهيد بالمدفعية

---

(١)

Soldiers and Statesmen, Vol. II, p. 325.

دام سبعة عشر يوماً ، قصفت فيهـــا ٣,٥٠٠,٠٠٠ قنبلة ، وافتتحت بانفجار ١٩ لغمـــاً محشواً بـ ٥٠٠,٠٠٠ كيلوغراماً من المتفجرات القوية . وانتهت في ١٤ يونيو (حزيران) ، عندما بلغت خسائر البريطانيين ١٧,٠٠٠ ، وخسائر الالمـــان ٢٥,٠٠٠ بينهم ٧٥٠٠ اسيراً ، و « يبدو ان هذه المعركة هي المعركة الهامة الاولى التي كانت خسائر البريطانيين فيهـــا اقل من خسائر الالمان » [١] حسب رأي الاستاذ كروتفيـــل .

وتلاها في ٣١ من يوليو (تموز) معركة ايبر YPRES الثالثة التي حشدت فيهـــا اكبر قوة للمدفعية عرفها تاريخ انجلترا . فقد استمر القصف الاولي ، في مجموعه ، ١٩ يوماً ، واطلقت ٤٠,١٠٠,٠٠٠ قنبلة تزن ١٠٧,٠٠٠ طن ، القيت على ساحة المعركة المقبلة في ارض واطئة . وتبدل معالم سطح هذه المساحة وتحولت الى حفر ، وسدود ، واقنية ، ودمرت فيهـــا الطرق ، وخلق فيها مستنقع لا يمكن اجتيـــازه ، تمرغت فيها المشاة وغاصت ثلاثة اشهر ونصف ؛ وعندما انتهت المعركة في ١٠ من نوفمبر (تشرين الثاني) ، كان الالمان قد وصلوا الى الخلف على جبهة ١٦ كم وبعمق اقصى ٨ كم ، مقابل ٢٠٠,٠٠٠ قتيـــل وجريح ومفقود واسير من جانبهم ،و ٣٠٠,٠٠٠ من جانب اعدائهم)[٢]

---

(١)
CRUTWELL: A History of the Great War, 1914 - 1918 (1934) p. 438.

(٢) هذه التقديرات مأخوذة من مقال للكابتن ب. هـ. ليدل هارت في :
Le Journal of the Royal United Service Institution.
عدد نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٩ . اما ارقام التاريخ الرسمي البريطاني فقد زورت لاسباب دعـــائية .

ملاحظة : يمكن للقارىء الاستزادة حول موضوع الغازات في كتاب « نظرة جديدة الى الحرب » منشورات الدار القومية ــ القاهرة . المعرّب .

وهكذا انتهت آخر معارك الاستنزاف الكبرى بالمدفعية على الجبهة الغربية ، وعندما نعيد دراستها ، نفهم لماذا كان الرجال السياسيون متعجلين لتجنبها .

٥ ـ عودة الحركيه

كانت استعادة الحركية مسألة انسانية في جوهرها . فليست الخنادق بدون المشاة الا سلسلة متصلة من الحفر والحواجز . فقد كان الانسان ، ببندقيته ورشاشه في الخندق خلف الاسلاك الشائكة هو الذي يمنحهـا القيمة التكتيكية ، وبناء على هذا ، يكمن الحل ، إما بالقضاء على الجنود في الخنادق ، او بنزع سلاحهم . ومن الممكن حل المشكلة اذا كان من الممكن التوصل الى ذلك دون انقضاء اشهر في التحضير والتمهيد ، ودون قلب وحرث ساحة المعركة الذي يمنع كل تقدم للآليات ، لان قصف ساحة المعركة اشهراً طويلة يحرم المهاجم من عنصر المفاجأة ويقلب له الارض لتغدو غير صالحة للمسير .

ونفذ الالمـان اول محاولة . وبالرغم من اشتراكهم باتفاقية لاهاي لعام ١٨٩٩ التي تحرم استخدام السموم كأسلحة حربية ، قرروا تبني اقتراح دندونالد في عـام ١٨١٢ وعـام ١٨٥٥ ، وخنق الجنود الذين يحتلون الخنـادق المعادية بالغازات السامة . وقد اختاروا الكلور ، وهو مادة تجارية معروفة ، يمكن الحصول عليه بكميات كبيرة ، ينبعث من اوعية معدنية توضع على سترة خنادق الخط الاول . ومن حسن حظ الانجليز والفرنسيين ، ان الالمان لم يعوا انهم كانوا يملكون وسيلة لربح المعركة . وبدلا من ان ينتظروا حتى يجمعوا عدداً كافيـاً من الاسطوانات لاحداث اختناق جبهة واسعة ، اعتبروا ، كمـا يبدو ، هجومهم بالغازات المتلفة GAZ DELETERE تجربة لا تتسم باهمية كبرى . وكان المكان المتبقي هو قطاع من الواجهة الشمالية

الشرقية لنتوء ايبر ، في نقطة اتصال الخطوط الفرنسية والانجليزية ، الذي تمسكه قطعات شمالية — افريقية وكندية .

ووقع الهجوم في الساعة الخامسة من صباح ٢٢ ابريل (نيسان) ١٩١٥ ، وابتدأ بقصف عنيف . وعندما توقف القصف ، ارتفعت سحابة من الغاز الاصفر المائل الى الخضار من خط النار الالماني وانتقلت الى العدو . وكانت آثارها مدمرة تماماً : فقد اختنق كل الجنود الموجودون على اجناب السحابة ، حتى الموت ، وفروا الى الخلف في ذعر لا يمكن وصفه . ثم استخدم الغاز مرة اخرى يوم ٢٤ ، وكانت نتيجته انسحاب الخط الفرنسي — البريطاني الى خمسة كيلومترات الى وراء ، الى المناطق المجاورة لايبر . ولكن الشيء الذي اهمل الالمان تقديره هو ان الهجوم بغاز الكلور ، لا يمكن تكراره بنجاح مماثل لان من الممكن مجابهته بالاقنعة الواقية او بمعاطف من القطن مبللة بمحلول كيميائي خاص . وقد وزعت هذه التجهيزات فوراً على جيوش التحالف ، واستبدلت في عام ١٩١٦ بالاقنعة الواقية من الغازات [1] .

وكان للهجوم بالغازات محاذير كثيرة ، لان فعاليتها ترتبط ارتباطاً تاماً باتجاه الهواء ، وسرعته . وكانت الاسطوانات ثقيلة في الحمل ، ومن الصعب مركزتها نظراً لضخامتها . وعندما تُمركز في الاماكن المعدة لها ، يصبح من المستحيل على الجنود ان يعيشوا الى جانبها لانها تثبط عزائمهم ومعنوياتهم وخاصة اذا اضطروا الى البقاء بجانبها اسابيع متواصلة ، يمكن خلالها لقصف المدفعية المعادي ان يصيبها بقنبلة عارضة فتنفجر . وكان الهجوم بواسطتها طريقة ثابتة في الهجوم .

---

(١) في عام ١٨٥٤ ، وقبل ان يقدم اللورد دندونالد اقتراحاً الى اللورد باغور باستخدام ابخرة الكبريت كغاز خانق ، اخترع الدكتور ستنهوس القناع التنفسي الاول الواقي من الغازات باستخدام فحم الخشب .

وقد تغلبوا على هذه المحاذير بتبني قنبلة الغاز [١] التي لا تتـأثر بالريح ، وتسمح بانطلاق كميـات مفاجئة من الغازات على اهداف منتقاة ، لا تتطلب تدريبـاً خاصاً ، وتحقق فوق كل هذا طريقة هجوم متحركة . وكان المحذور الوحيد هو طاقة القنبلة الضعيفة غير انهم تغلبوا على جزء من هذا المحذور باستخدام غازات اقوى من الكلور وبخاصة الفوسجن والغاز الخردلي .

ويدعى هذا الغاز الاخير ايضاً بالصليب الاصفر والايبريت ، وهو مادة كيميائية ، ومنفّط ثابت . ولكن هذا الغـاز ، نادراً ما يقتل . غير ان الجنود المصابين به ، بشكـل سائل او بخار ، يتعرضون لحروق قوية في الجلد . وتظهر هذه الحروق بعد اربع الى ١٢ ساعة ، وتشفى ببطء شديد . ونظراً لانه يكفي جزء من الغاز لاربعة ملايين جزء من الهواء لاحداث الحروق ، فقد كان ملائمـاً جداً لقنابل المدفعية ، وتكفي بعض قنابل الغاز لاحداث عدد من الخسائر عدة ساعات ، وعدة ايام فيمـا بعد ، لان ثباته في الهواء ، لا تعرض للاضمحلال وامتصاص الارض له الا ببطء شديد .

واستخدم الالمان الغاز الخردلي لاول مرة في نتوء ايبر في ١١ من يوليو (تموز) ١٩١٧ ، واحدث في الاسابيع الستة التالية ، اكثر من ٢٠,٠٠٠ اصابة في صفوف البريطانيين . ومنذ ذلك الوقت بدأ الانجليز والفرنسيون في صناعته بكميات كبيرة .

---

(١) وقنبلة الهاون والقاذف ليفنز للمسافات القصيرة . والقاذف عبـارة عن اسطوانة تحوي ١٣,٥ كغ من الغاز . ويمكن تربيضه في خندق ضعيف العمق ويستخدم للرمي بعمليـات . وفي احد الايام رمى الانجليز منه ٢٥٠٠ صلية على لانز .

وتم اول استخدام ماهر للغازات في محاولة خرق قام بها الجنرال فون هوتيه HUTIER اثنـاء هجومه على جبهة ريغا في ١ من سبتمبر (ايلول) ١٩١٧. فقد انتقى هوتيه قطاعـاً من الخطوط الروسية عرضه ١٤٠٠ متراً ، وحشد امامه مدفعية قوية – مدفعاً في كـل مترين ونصف – واغرقه بقنابل الغازات وهاجمه فيمـا بعد . وانتهت العملية بكاملهـا في بضع ساعات . ويعود سبب نجاحها الى تكتيكهـا الذي لم يكن هدفه تدمير الاسلاك والخنادق بل شل المدافعين عنهـا .

واستعان الالمان بهذا التكتيك في معاركهم الكبرى على الجبهة الغربية في مارس (آذار) وابريل (نيسان) ومايو (ايار) ويونيو (حزيران) ١٩١٨ . واستخدموا فيهـا الفوسجن والغاز الخردلي بشكل هائـل قبل الهجوم ، بهدف اضعاف معنويات الخصم . ومن تاريخ ٢١ مارس الى ٥ ابريـل كانت الغازات احد العوامل الهامة [1] التي سمحت للالمان بدفع الانجليز الى الخلف ، على جبهة ٢٠ كم بين آراس ولافير ، والتقدم حوالي ٦٥ كم . وفي ابريل (نيسان) أغرقت آرمانتيير بالغـاز الخردلي ، حتى ان الناس يروون ان الغاز كان يسيـل في اقنية الصرف في الشوارع ، وهكذا تمكن الالمان من الاستيلاء على المدينة دون الدخول اليهـا بخسائر لا تذكر .

وقد تعرض الامريكيون لخسائر كبيرة اثناء هجومهم على بروزسانت ميهيـل SAINT MIHIEL في سبتمبر (ايلول) ١٩١٨ والعمليات

---

(١) كتب الجنرال لودندورف في « ذكريات الحرب » مـا يلي :
« ... كان يعتمد اثر مدفعيتنـا على الغازات (جزء ٢ ، ص ٢١٢) ، وكان
« هدف نيرانها القصيرة والعنيفة ، شل المدفعية المعادية .. وتثبيت المشاة في
الملاجىء (جزء ٢ ، ص ١٩٢) .

اللاحقة من جراء قصف قنــابل الغازات الالمانية . ومن المثمر ان نلاحظ بان ٧٠,٧٢٥ من الاصابات اي ما يعادل ٢٧,٤ ٪ من اصل مجموع الاصابات التي بلغت ٢٥٨,٣٣٨ كانت بسبب الغازات (١) . وكذلك ، كانت هنــاك ٤٦,٤١٩ اصابة قاتلة من بين مجموع الاصابات ، ليس من بينهــا سوى ١٤٠٠ اصابة مميتة بسبب الغازات ، اي ٢ ٪ مقابل ٢٤,٨٥ ٪ . كانت الغازات خلافــاً لما يعتقد البعض ، اكثر الاسلحة المستخدمة في الحرب « انسانية » واكثر فاعلية . وكان ارتداء القناع الواقي « التنفسي » يقلل من قيمة المقاتل الى النصف ، ولا يؤمن حماية كافية ضد الغاز الخردلي ، على حين كان يعطي حصانة كافية ١٠٠ ٪ .

وكان الشرط الثــاني لحل مشكلة الجمود والاستقرار ، كما قلنا سابقاً ، هو نزع سلاح المدافع وتحويل بندقيته ورشاشه الى سلاحين غير فعالين . وكان من الممكن التوصل الى ذلك بحماية المهاجم بدرع يحمي من الرصاص ، ذو حجم كاف لحماية الجسم اثنــاء التنقل . وبما انه سيكون ثقيلاً جداً ، كان من الضروري نقله على آلية متحركة تحتاج الى تصفيح . ويترتب على الآلية ان تكون صالحة للسير على الطرقات وفوق ساحات المعارك المغطاة بالخنادق ، وان تكون مجهزة بالجنازير بدلا من العجلات . وقد أدت هذه الشروط الثلاثة الى تبني دبابة الانقضاض ، وهي قلعة متحركة ، او كمــا سميت في بادىء الامر « مركب ارضي » .

وكانت فكرة انشاء الدبابة فكرة قديمة ، الا انهــا كانت غير قابلة للتنفيذ قبل اختراع المحركات الانفجارية . فمــا ان ظهر الجمود واستقرار الجبهات

---

(١) راجع :
CHEMICAL WARFARE, du brigadier - général AMOS. A. FRIES et du Major CLARENCE J. WEST (1921) p. 388.

بصورة منعزلة في انجلترا وفرنسا ، حتى اقترح عدد من الاشخاص المشبعين بالخيال عدة اقتراحات عن امكانية استعادة الحركية بفضل التصفيح [١] .

واستخدمت دبابـــات الانقضاض لاول مرة في ١٥ من سبتمبر (ايلول) ١٩١٦ اثناء معركة السوم . ولم يكن هناك سوى عدد قليل من الدبابات التي زجت في القتال ، بسبب بعض الحوادث الميكانيكية ، وصعوبات ساحة المعركة المزروعة بالخنادق والحفر . لكن الذين اشتركوا مع الدبابات برهنوا على ان في الامكان خرق الجمود واستقرار الجبهـــات بميكانيك محسن ، وبعدد كبير من الآليات المصفحة المستخدمة بكتـــل كبرى ، لا بزمر صغيرة . وقد تأكدت هذه الملاحظة بمـــا قاله الالمان « من ان الجنود احسوا بعجزهم عن مقاومة الدبابـــات » [٢] ، اي انهم كانوا يحسون بانهم منزوعي السلاح . ومن سوء الحظ ان القيادة العامة البريطانية لم تقدر هذه النقطة حق التقدير ، الأمر الذي أدى الى الاستمرار في استخدام الدبابات بزمر صغيرة ، حتى معركة كامبري .

وكان الهدف المرسوم في معركة كامبري ، هو القيام بخرق مفـــاجىء لأربعة خطوط من الخنادق والتحصينات ، خلال ١٢ ساعة ، ودون اي نوع من تحضير وتمهيد المدفعية الأولي . وكان من الواجب ان تسبق تسع كتائب من الدباباتاي ما يعادل ٣٧٨ آلية قتال فيلقي مشاة الى الخط هندنبورغ (سيغفريد)، وهو من اروع الخطوط المحصنة في الجبهة الغربية . وكان هذا الخط محميـــاً باسلاك شائكة كثيفة جداً ، معظمهـــا يقع في سفح – معاكس ، ويتطلب

---

(١) راجع :

The TANKS, the History of the Royal Tank Régiment and its predecessors du capitaine B.H. LIDDEL HART (1959), Vol. I, Chapitre II.

(٢) ليدل هارت ، المرجع المذكور ، جزء ١ ، ص ٧٥ .

خرقهـا قصفاً مدفعيـاً يستمر عدة اسابيع ، وعدداً من آلاف اطنان القنابل .

وبدأ الانقضاض فوق ارض في حالة جيدة في الساعة ٦٢٠ من يوم ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ . وفر العدو بعد ان امسك الذعر بخنـاقه . وفي الساعة ١٦,٠٠ تحقق الخرق على جبهة ٣ كم من قاعدة انطلاق عرضها ٤ كم . وفي معركة ايبر الثالثة تحقق تقدم مساوٍ لمثـل هذا التقدم دون اختراق ولكن خلال ثلاثة اشهر . ووقع ٨٠٠٠ اسير بين يدي المهاجمين ، كما غنموا مائة مدفع . وبلغ عدد الاسرى وحدهم ضعف عدد الخسائر التي تعرض لها الفيلقان المهاجمـان .

وكان نقص القوات الاحتياطية قد أدى الى انتهاء المعركة باخفاق رهيب ، ولكن لم يكن هناك شك بان اعـادة ادخال التصفيح في المعركة ، كمـا فعل جوميني قبل قرن من الزمان ، سيحـل مشكلة جمود الجبهات واستقرارها . وقد برهنت على ذلك معركة اميان الحاسمة التي شنت في ٨ من اغسطس (آب) ١٩١٨ بصورة قاطعة .

فقد قادت ٤٦٢ دبابة قتال ، بالتعاون مع الطيران ، في هذه المعركة ٣ فيالق من الجيش الرابع البريطاني ، الذي كان يقوده السير هنري راولنسون RAWLINSON [1] . ومن جديد، كانت المفاجأة كاملة ، وكان الذعر في اقصاه ، وخرقت الجبهة الالمانية .

وقد كتب محرر التقرير الرسمي الالمـاني للمعركة ما يلي : « وعندما غابت شمس يوم ٨ اغسطس (آب) كانت اكبر هزيمة تعرض لهـا الجيش الالماني

---

(١) كان مدعوماً على جناحه الايمن بالجيش الفرنسي الاول الذي لم يكن يملك دبابات .

منذ مطلع الحرب حتى ذلك التاريخ . قد اصبحت امراً واقعاً [١] » . وقد دفعه الى عنونة تقريره بكارثة ٨ اغسطس (آب) ١٩١٨ الذعر الذي سببته الدبابات لا آثارها القاتلة . ولم تكن هذه الكارثة سبباً في التعجيل بالتراجع النهائي بعد معركة كانت حامية الوطيس بين الطرفين . بل كانت الهزيمة الاولى التي تمت بدون قتال ، الامر الذي جعل منها شيئاً جديداً لم ينشر بعد . فبدون دبابة الانقضاض ، لم يكن من الممكن حدوث مفاجأة مماثلة للمفاجأة التي حدثت . فمباغتة الانقضاض هي التي اطلقت الارجاف . ولنضف الى ذلك احساس الجندي الراجل الذي كان يواجه خصماً لا تستطيع طلقات البندقية او الرشاش ايقافه ، وهو احساس بالعجز التام يدفعه بصورة غريزية الى تضخيم الخطر لتخفيف عار استسلامه او فراره الفوري من المعركة امام مثل هذا الخطر : فقد كانت الدبابة سلاحاً نفسياً اكثر من ان تكون سلاحاً مادياً .

على ان لودندورف لم ينخدع ابداً بالوضع الجديد الذي خلقته دبابة الانقضاض ، فقد كتب قائلاً ما يلي : « لقد وقع كل ما كنت اخشاه وما ضمنته تحذيراتي التي وجهتها في نقطة من الجبهة .. وكان يوم ٨ اغسطس (آب) علامة من علامات انهيار قوتنا العسكرية ، حرمني من التطلع لايجاد الوسائل العسكرية القادرة على تعزيز الوضع وقلبه لصالحنا ، نظراً للموقف الذي كنا نعانيه في القوات الاحتياطية . وعلى العكس كنت مقتنعاً بان تدابير القيادة العليا التي كنت اضعها حتى ذلك الوقت على قاعدة متينة ، بقدر ما يكون ذلك مستطاعاً في الحرب ، اصبحت الآن تنخر من اساسها . وهكذا اتخذت ادارة الحرب طابع لعبة من لعب الصدفة التي لا يمكن تبريرها ،

---

(١) Citation de la British Official History, 1918, Vol. IV, p. 88

على حد تعبير كنت استخدمه آنئذ ، وهي لعبة كنت اعتبرها دوماً لعبة مشؤومة . فلا يجوز باي حال من الاحوال ان يصبح مصير الشعب الالماني هدفاً للصدفة او غرضاً لها . لذا كان من الواجب انهاء الحرب [١] » .

٦ – انهيار الجبهات الداخلية

اذا كان تركيز القصف الناري بقنابل الغاز والهجمات الضخمة للدبابات قد برهن على ان من الممكن خرق الجبهة المتخندقة للعدو ، الا ان هذا التركيز لم يفعل شيئاً سوى فتح باب العطالة والجمود . فقد كانت استعادة القدرة على الحركة التامة لا تتطلب ان يتبع الخرق والثغرة المفتوحة في الجبهة استثمار سريع بالخيالة ، كما كان القادة العسكريون يفكرون بصورة عامة ، بل ان يتم هذا الاستثمار بوحدات من الدبابات يمكن تموينها بوسائل نقل قادرة على عبور كل الاراضي ، اي على آليات نصف مجنزرة . وفي عام ١٩١٨ لم تكن هذه الآليات موجودة بعد ، ولا يمكن بالتالي استعادة الحركية التامة . وكانت النتيجة كما كان يتوقع بلوخ ان الحرب لم تنته بالقتال ، وانما انتهت بالمجاعة والثورة .

وخلافاً للانهاك الذي كان يزداد بلا انقطاع بسبب طول مدة الحرب ، فان اهم عاملين من العوامل التي كانت سبباً في انهيار الامبراطوريات المركزية ، كانا حصار الانجليز ، واستخدام الحكومة البريطانية الدعاية بمهارة وذكاء : فقد اصاب العامل الاول الاحتياجات الاساسية للعدو ، على حين ضرب الثاني قوته المعنوية .

---

(١) الجنرال لودندورف : ذكريات الحرب Souvenirs de Guerre ١٩١٤ – ١٩١٨ الطبعة الفرنسية (١٩٢٠) الجزء ٢ ص ٣٠٥ .

ففي ربيع عام ١٩١٧ ، كان كل المتنازعين قد اضنتهم الحرب ، ووصلوا الى حالة من الارهاق ، حتى ان عدوى ثورة مارس (آذار) الروسية انتشر نحو الغرب كسحب من البارود . وكانت هذه العدوى الثورية السبب في التمرد الذي حصل في الجيش الفرنسي [١] الى حد كبير . وانتقلت العدوى الى القطعات الالمانية في روسيا . وساهمت الثورة الروسية ايضاً في مأساة كابوريتو CAPORETTO التي فرَّ خلالها ٤٠٠,٠٠٠ جندي من ساحة المعركة . ومنذ ٢٦ مايو (ايار) كان سير ويليـــام روبرتسون يكتب في رسالة الى السير دوغلاس هايغ : « اني اخشى ان يكون من الواجب ان نقبل في الوقت الحاضر وجود نوع من الاضطراب في البلاد ناجم عن عدوى الثورة الروسية . فقد حدث مؤخراً ، بعض الاضرابات المؤلمة ، وهنـــاك كثير من الاستياء [٢] » .

وعندما نشبت الحرب ، نفذ الحصار بتصريح اعلنته لندن ، لم يصبح فعالاً الا عندما عززت الحواجز والموانع تدريجيـــاً بسلسلة من مراسيم — القوانين الانجليزية . وكان المرسوم الثاني من المراسيم بقانون ، الذي نشر في ٢٩ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٤ يمنع شحن كـــل مواد التموين الى المانيا والنمسا . ورد الالمـــان على ذلك باعلان الحصار بالغواصات في كل المياه المحيطة ببريطانيا العظمى وايرلنده . وقد ادى هذا القرار الى نسف اللوزيتانيا

---

(١) في ١٦ من ابريـــل (نيسان) تمردت الالوية الروسية التي ارسلت الى فرنسا في عـــام ١٩١٦ ، والتي كانت جريدتهـــا المفضلة هي الجريدة التي ينشرها تروتسكي قبـــل ابعاده ، تمردت هذه الالوية في معسكر لاكورتين ولم تستسلم الا بعد قصف دام ثلاثة ايام .

(٢)
Soldiers and Statesmen Vol. I, p. 313

في ٧ مايو (ايار) ، والى موت ١٢٨ امريكي ، الامر الذي جعـــل الولايات المتحدة تقشعر من الهول ، وتعلن الحرب بصيحات عـــالية . وفي ١٥ من مايو (ايار) ، بعد ان تخلصت الحكومة البريطانية من المعـــارضة الامريكية لتفتيش المراكب في البحر ، وبمرسوم — بقانون اعلنت اعتبار كل انواع البضائع الصادرة من المانيا او المشحونة اليهـــا بضائع مهربة . وبهذا الشكل اقيم الحصار الشامل ، وامر القيصر بايقاف كـــل الهجمات ضد المراكب الحيادية ، والمراكب التجارية التي تنقـــل الركاب المسافرين ، بعد ان ارهبته صرخة الغضب والسخط الامريكية . واستمر هذا الوضع حتى ٣١ من يناير (كانون الثاني) ١٩١٧ حيث اعلن القيصر حرب الغواصات حتى النهاية ، كما رأينا . وفي ابريل (نيسان) اعلنت الولايات المتحدة الحرب على المانيا .

واصاب الحصار الرجال والنساء والاطفال ، والمصانع ، ومزارع البلاد المعـــادية . وفي صيف ١٩١٨ ، لو لم يكن في وسع الامبراطوريات المركزية التصرف في حبوب رومانيا واوكرانيا لاضطرتها المجاعة الى الاستسلام . وفي هذا الوقت تناقص انتاج المواشي في النمسا — هنغاريا — ابتداء من اغسطس (آب) ١٩١٤ من ١٧,٣٢٤,٠٠٠ رأس الى ٣,٥١٨,٠٠٠ رأس بالنسبة للانعام ومن ٧,٦٧٨,٠٠٠ الى ٢١٤,٠٠٠ بالنسبة للخنازير [١] . وقد قدروا ايضاً ان « ٨٠,٠٠٠ من غير المقاتلين ماتوا بسبب الجوع او بسبب امراض تعزى الى سوء التغذية ، اي مـــا يعادل من ماتوا غرقاً بسبب هجمات الغواصات ضد المراكب الانجليزية ، مضروباً بخمسين مرة » [٢] ، وذلك في المانيا ، خلال السنتين الاخيرتين من الحصار .

---

(١) (British Official History 1949) Military Operations, Italy, 1915 - 1919. p. 379.

(٢) ARTHUR BRYANT: UNFINISHED (1940) p. 3. voir aussi pp. 9 - 10.

وخلق تضييق الحصار ارضاً خصبة لبذر بذور الدعـاية في المانيا . ولم يكن هناك اية حرب سابقة ، بمـا فيها حرب الانفصال بقدر عنف هذه الحرب ودنائتها . ففي الحروب النابوليونية في عام ١٨٧٠ ، حرص المتنازعون على عدم تشجيع الثورة بدلا من تخميرها في البلدان المعادية . وكان في وسع نابليون ان يطلق « الحقد المكبوت » للارقاء الروس والاوكرانيين في عام ١٨١٢ لصالحه ، وان يحرض على الثورة في فرنسا اثنـاء حكم المائة يوم ، الا انه امتنع عن ذلك [١] . وقد اشمـأز الدوق ويلينغتون ، كما يذكر لنا ذلك بنفسه ، من إحداث اية ثورة في اي بلد من البلدان . وفي عـام ١٨٧٠ ، لم يساعد بسمـارك كومونة باريس . امـا السبب في ذلك فيعود الى انهم في الماضي كانوا يشنون الحرب لتبديل سياسة العدو ، لا تبديل حكومته التي تصنع هذه السياسة . وكان هدف الحرب هو تبديل خط الحكومة السياسي . فلو ان هذه الحكومة قلبت ، فلن يكون هناك سلطة ثابتة يمكن اجراء مفاوضات السلم معهـا . فقد كان العالم في ذلك الوقت سليم الفكر ، وكان من الممكن ان تعتبر فكرة خلق فوضى اجتماعية في بلد معـاد فكرة مضادة للحس السليم بالنسبة اليه .

ان الحرب الدعائية اداة ديموقراطية بحد ذاتها للسيطرة على افكار الجماهير ، و « الارادة العامة » التي تحدث عنها روسو . وتستهدف هذه الحرب :

١) تحريض الجماهير وتحريكها على جبتهها الداخلية .

٢) ربح جماهير الشعوب الحيادية الى جانب القضية التي ندافع عنها .

٣) زعزعة افكار الجماهير على الجبهة الداخلية للعدو .

---

(١) EUGENE TARLE: Napoléon (1936) pp. 289 - 281.

ونتوصل الى تحقيق اول هدف من هذه الاهداف بايقاظ الغرائز البدائية الكامنة لدى الفرد ، وتوجيههـــا في مجرى محدد ، مع تصوير العدو على انه شيطان مريد .

اما الهدف الثاني فيتضمن جذب الامم الحيادية واقناعها بقبول حقيقـــة شيطانية الخصم والايمـــان بها ، وذلك على غرار الدعاية البريطانية التي نجحت في الولايات المتحدة.فقد كان الامريكيون مدفوعين بأفكار مؤداها ان الجنود الألمان كانوا يقطعون ايدي الاطفـــال البلجيكيين ، ويصلبون اسراهم (١) « فدخل الامريكيون الحرب بهستيرية انفعالية لا يمكن للمرء ان يفهمها الا عندما يلتقط قوة الاثارة التي يخلقهـــا شعور عـــام لامة بكاملهـــا وضعت في ظروف عدائية .. وقد وصف هذا الانفعـــال الجنوني شبه البدائي ، الذي كان من الممكن ان يخنـــق الشعب الامريكي في بعض الاحيـــان ، وصف مؤخراً وكتب عنه بصورة موجزة وبطريقة رائعة حقـــاً، كما يلي :

« كنـــا نمتلىء بحقد جماعي يصعد الى رؤوسنا . ويتذكر كاتب هذا المقال انه حضر اجتماعاً كبيراً عقد في بريطانيا ــ الجديدة في كنف كنيسة مسيحية ، فليغفر لي الله .. وكان احد الخطباء يطالب بان يغلى القيصر في الزيت ، عندما يؤسر . وصعد كل الحاضرين على الكراسي ، وهم يطلقون صرخات التأييد الجنونية . تلك هي التدابير التي وجدنا انفسنا محاطين بها . وذلك كان نوع الجنون الذي تملكنـــا (٢) » .

---

(١) راجع

ARTHUR PONSONBY: Flashehood in War Time (1936)

الذي يقدم جدولاً بالاعمال الشنيعة المدعاة .

(٢)

James du ane Squires: British Propaganda at Home and in the United States from 1914 to 1917 (1935) pp. 67 - 68.

وفي الملحق جدول بـ ٢٧٧ منشوراً وكتاب دعاية انجليزية ارسلت الى الولايات المتحدة اثنـــاء السنوات التي جئنا على ذكرها .

وقد كتب موريسون وكوماجيه : « كانت احد اكثر الاكتشافات رعباً في الحرب كلها هي السهولة التي سمح فيها للتقنية الحديثة والتلقين الجماعي لحكومة من الحكومات باقناع شعب زكي ، متمتع بالتقاليد الفردية والديموقراطية ، بان يصدق كل ما تريد الحكومة تصديقه » (١) .

ويتضمن الهدف الثالث تفكيك العدو نفسياً بزعزعة ولاء شعبه وقواته المسلحة ، وذلك بنزع سلاحه معنوياً . وفضلاً عن مكر هذا الشكل من الهجوم وخبثه ، فقد ذكره لودندورف في مذكراته عدة مرات ، واشار الى انه كان ، مع الحصار الذي فرض ، اقوى عامل من عوامل هزيمة الخصم . فقد كتب قائلاً :

« كان حصار الابادة والمجاعة اللذين فرضا علينا ، مع الدعاية المعادية الموجهة ضدنا ، وكلها كانت مترابطة بشكل وثيق للكفاح ضد العرق الالماني والروح الالمانية ، كانت كل هذه الاساليب تؤثر علينا بثقلها ، ويزداد ثقلها مع استمرار الحرب ... وقد بدأ الحصار والدعاية يزعزعان معنوياتنا تدريجياً ، ويهزان ثقتنا بالنصر النهائي .. وقد فقد الكثيرون كل احساس الماني صرف ، ولم يعودوا يفكرون ابداً بالوطن . فقد انتقلت الانسانية الى المقام الاول ... وفقدنا الثقة بانفسنا .. ووجدت العقيدة الثورية التي كانت الدعاية المعادية والبلشفية تبشر بها وتدعو اليها ، الروح الالمانية مهيأة لتقبلها ... وحصلت هذه العقائد المزيفة على تأثير اكبر لدى الجماهير . وتلقى الشعب الالماني ، سواء في الداخل ام في مواجهة العدو طلقة الموت ... فقد كانت عيوننا مركزة على الدعاية المعادية ، كعيون الارنب عندما

---

(١) MORISON et Commager, op, cit, Vol. II p. 479.

تتركز على الحية الرقطاء . وكانت الدعاية مـــاهرة في استخدامها الوسائل الهائلة التي تملكهـــا ، وكانت تعمل معتمدة على افكار مدهشة تؤثر على الجماهير ، وذات علاقة وثيقة بالوضع العسكري . وكانت تستخدم كـــل الوسائل دون ان يحاسبها ضميرها على ذلك ... واخيراً ، ابتداء من مطلع عام ١٩١٨ ، راحت تبشر بفكرة ثورة اجتماعية ، بالاضافة الى فكرة ثورة سياسية . وصورت الدعاية الحرب على انهـــا عمل قامت به الطبقات الحاكمة على حساب العمـــال ، وصرحت هـــذه الدعـــاية ان انتصار الالمـــان سيكون وبالاً على العمال ومأساه لهم .. ووجدنا انفسنا ، حيال الدول الحيادية ، امام نوع من الحصار المعنوي .. لقد فقدنا كل رصيد . امـــا رصيد الخصم فكان يزداد بنسب مفرطة .. وكان هدف الدعـــاية الامريكية والانجليزية، المعترف به هو الثورة الداخلية في المانيا [١] » .

وعندما اشار لودندورف الى ان الدعـــاية الحليفة نشرت ابتداء من مطلع عام ١٩١٨ فكرة تفجير ثورة اجتماعية ، كان قد اطلع بالطبع على « النقاط الاربعة عشرة » للرئيس ويلسون التي اعانهـــا في ٨ من يناير (كانون الثاني)[٢] وبعد شهر من اعلان هذه النقاط ، اضاف الرئيس الى تصريحه ما يلي : لن

---

(١)
LUDENDORFF, op. cit, Vol. I, p. 395
وقد كتب لودندورف ان الحكومة الالمانية : « لم تكن تفهم طبيعة الدعاية . فقد كانوا يستبعدونها كوسيلة من الوسائل الحربية لانها مظهر من مظاهر الشعوذة ، في حين على العكس ، نجد ان احد وجوه الدعـــاية الحقيقية هي ان لا يشك الانسان بوجودها : فهي تعمل دون ضجيج » (الجزء ١ ، صفحة ٤١٦) . « ولم يكن هناك وزارة للدعاية في المانيا » (الجزء ٢ ، صفحة ٣٢٣).

(٢) انظر الملحق ٢ .

يكون هناك ضم ، ولا جزية ، ولا تعويضات انتقامية . ان حق تقرير المصير سيكون مقبولا كمبدأ الزامي . وكل تسوية اقليمية ستتم لفائدة ومصلحة الشعوب المعنيـــة .

وفضلاً عن ان النقاط الاربعة عشرة لم تكن مخصصة للدعـــاية ابداً ، الا انها كانت كذلك في الواقع وبطريقة خبيثة جداً . فقد استولى الحلفـــاء بهذه الطرق على خيال عالم اضنته الحرب ، وقدموا لالمانيا فرصة انهاء الحرب بسلم يتم بعد مفاوضات . وفضلا عن ان القيصر ومستشاريه قد رفضوا اخذ هذه النقاط بعين الاعتبار ، الا انهـــا حفرت في قلب الشعب الالماني ، وادت الى انهاء الحرب في النهاية .

ودخل لودندورف في ٢٨ من سبتمبر (ايلول) الى مكتب الفيلدمارشال فون هندنبورغ بعد ان كدته معركة ٨ اغسطس (آب) والهزائم التي تلتها ، واعلمه بانه من غير الممكن تأخير الهدنة وقتاً اطول . وقد كتب قائلاً : لم اكن أفكر في التخلي عن الجبهة الشرقية . فقد كنت اؤمن بأن دول الاتفاق ENTENTE ستعترف بخطر البلشفية للذي يهددها [١] » ، غير انه انخدع في هذه النقطة .

وفي ٣ من اكتوبر (تشرين الاول) وجه مستشار المانيا الى الرئيس ويلسون مذكرة صرح فيهـــا بان الحكومة الالمانية تقبل « النقاط الاربعة عشرة » والتصريحات اللاحقة لها كأساس لمفاوضات السلم . وتتالت الاتصالات الديبلوماسية فيمـــا بعد حتى تاريخ ٢٣ اكتوبر (تشرين الاول) . وفي هذا التاريخ ، كان من واجب الرئيس ويلسون ان يفهم ان الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله هو انقاذ ما تبقى من استقرار اوروبا ، نظراً للشروط الثورية

(١) لودندورف ، المرجع المذكور ، جزء ٢ ، ص ٣٤٥ .

الراجحة . بدلا من ان يحاول ، قدر استطاعته دعم الحكومات المعادية القائمة وان لا يضعفها تحت اي سبب من الاسباب ، قرر وصمم القضاء عليها . وفي هذا اليوم بالذات ، اعلم الحكومة الالمانية انه اذا كان مضطراً للمفاوضة مع القـــادة العسكريين والاوتوقراطيين الملكيين الالمان ، الا انه لا يطالب بمفاوضات للسلم ، بـــل يطالب باستسلام عام . وكان معنى هذا القرار تنازل الحكومة الالمانية عن السلطة ، واستبدالها بمجلس اشتراكي ثوري . وفي ٣ من نوفمبر (تشرين الثاني) تمرد رجال البحرية الالمانية في كييـــل ، وتعرضت برلين لغزو الثورة . وفي ٢٩ تنازل القيصر وفي ١١ ، وفي محطة روتوند وفي غابة كومبين ، ابرمت الهدنة بين الحلفاء والدول المتحالفة معهم ، والمانيا .

وحدث تقريباً نفس الشي بالنسبة للنمسا — هنغاريا ، لان ويلسون كان يلح على تلبية مطامح السلافيين في النمسا وفي هنغاريا ، وعلى ان يكون تحقيق هذه المطامح شرطاً من شروط الهدنة . وهنا ، تشكلت حكومات مستقلة في بودابست ، وبراغ ، ولايباخ ، وسيراجيفو ، وكراكوفي ولامبرغ . واقيمت حكومة حيادية في فيينـــا للقضاء على الادارة المركزية . وفي ١٢ من نوفمبر (تشرين الثاني) امتنع الامبراطور شارل عن الاشتراك فيهـــا . فاعلنت الجمهورية في فيينـــا . وبهذا الشكل زالت السلالة الملكية النمساوية الهنغارية القديمة من الوجود .

وبهذا الشكل زرعت الفوضى في اوروبا .

الفصل العاشر

لينين والثورة الروسية

١ – لينين وثورة مارس (آذار)

كانت ثورة مارس (آذار) ١٩١٧ في بتروغراد تمرداً شعبياً لا تمرداً ثورياً ، قام نتيجة للاستياء العام والتعب الذي سببته الحرب لروسيا. وكان في روسيا آنئذ ثلاثة احزاب في الدوما [١] : الديموقراطيون الدستوريون او « الكاديت » الذين كانوا يدعون الى ملكية دستورية ، والاشتراكيون الديموقراطيون ، وهم ماركسيون ، والاشتراكيون الثوريون ، ويمثلون الفلاحين . وعندما تنازل نيقولا الثاني عن العرش في ١٥ من مارس (آذار) كان اول هذه الاحزاب هو الذي تمكن من السلطة وشكل حكومة ائتلافية موقتة يرأسها الامير جريجوار لفوف .

وقد قررت الحكومة الموقتة الوفاء بالتزاماتها ازاء حلفاء روسيا ومتابعة الحرب الى جانبهم بالرغم من اجماع الرأي العام على المطالبة بالسلم – وقد

(١) الدوما : كلمة دوما تعني « هيئة استشارية » . وقد عايش مجلس الدوما الامبراطوري القديم الثورة ستة اشهر بشكل ديموقراطي ثم انتهى امره بشكل طبيعي في عام ١٩١٧ .

رفض سوفييت بتروغراد الاعتراف بهذا القرار فوراً [١] — ووجه في ٢٧ من مارس (آذار) نداء الى شعوب العالم يدعوها فوراً الى ايقاف القتال [٢] . وبما ان سوفييت بتروغراد يمثل اهم عناصر السلطة الحقيقية : من جنود وعمال ومستخدمي السكك الحديدية ، والبريد ، والبرق والمصالح العامة الاخرى . وبما انه كان يعبر ايضاً عن آمال الشعب ومطامحه فان سلطة الحكومة الموقتة ولدت كما يبدو وهي ميتة . وقد فتح هذا الانفصال بين المسؤولية والسلطة الطريق للينين ، وقاد هذا الانفصال ، في خضم الفوضى السائدة الى ثورة اكتوبر [٣] .

كان فلاديمير ايليتش اوليانوف (١٨٧٠ — ١٩٢٤) معروفاً اكثر تحت اسم لينين . وكان دافق الحيوية وقليل التزمت ولا يؤيد مبدأ ماركس القائل

(١) تشكلت مجالس السوفييتات لاول مرة في عام ١٩٠٥، وكان اصلها لجان الاضراب التي تحولت الى مجالس شعبية محلية منتخبة من قبل الجنود ، والعمال ، والفلاحين . وكانت كل مجموعة من الافراد حرة في تشكيل مجلس سوفييت .

— المعرّب —

(٢) وقد سئمت شعوب الاقليات من الحرب ايضاً . وقد طالبت الدول التالية بالترتيب باستقلالها او بحكمها الذاتي : فنلندا ، ايستونيا ، بولونيا ، ليتوانيا ، اوكرانيا ، القفقاس ، وسيبريا .

(٣) كانت روسيا تتمسك حتى عام ١٩١٨ بالتقويم اليولي ، الذي كان متأخراً في ذلك الوقت ثلاثة عشر يوماً عن التقويم الجريفوري المطبق في عام ١٥٨٢ . فبحسب التقويم الاول ، استولى لينين على السلطة في ٢٥ من اكتوبر (تشرين الاول) اي ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) حسب التقويم الثاني .

بان النظام الاجتماعي الجديد لن يبلغ مرحلة نموه الكاملة الا عندما تحط الرأسمالية من مكانة الرأسماليين وتدفع بهم الى مستوى البروليتاريين ، وبهذا الشكل كان يهدم الجدلية التاريخية لماركس (١) .

وعندما انفجرت ثورة مارس (آذار) في بتروغراد كان لينين لاجئاً معدماً في خارج بلاده لا يملك فلساً واحداً . وكان يعيش في غرفة واحدة استأجرها في مدينة زوريخ بسويسرا من مصلح احذية . وكان هناك عدد كبير من مجموعة انصاره الصغيرة مسجونين في روسيا . وكان العالم الخارجي آنئذ يجهل كل شيء عنه . وقد قضى كل وقته في سويسرا يهاجم خصومه ويحرض انصاره . ولم يكن للحرب بالنسبة اليه سوى غاية واحدة : تدمير النظام الرأسمالي بتحويل الحرب الى حرب اهلية تشنها البروليتاريا . وكان يطالب باستخدام كل وسائل التشتيت ، وتنظيم الاضرابات والتظاهر في الشوارع والدعاية في الخنادق : « ان الشعار هو الحرب الاهلية ، لا السلم المدني » .

وعندما بدأت الحرب كانت السياسة الالمانية تهاجم الجبهة الداخلية الروسية باقامة وتشكيل حركات انفصالية لشعوب الاقليات في روسيا تطالب بالاستقلال والحكم الذاتي ، وكانت هذه السياسة تقوم بذلك وهي تقاتل

---

(١) طبقاً للجدلية الماركسية ، من التناقض مع قوانين التاريخ ان تقوم ثورة بروليتارية في بلد اكثريته من الفلاحين حيث يكون الشعب غائصاً ، كما كتب ماركس حتى اذنيه في « البلاد الريفية » (البيان الشيوعي ، ص ١٨) ولم يكن هناك شيء يثيره كالنزعة السلافية بعقيدتها التي تؤمن بان مهمة روسيا هي بعث الغرب وتجديد اخلاقياته

R. N. CAREW HUNTS - The Theory and the Practice of Communism (1950) p. 131.

الجيش الروسي ، وتستخدم ايضاً الثوريين الروس المهاجرين خارج بلادهم لاثارة اضطرابات في الجيش وفي المصانع الروسية [١] .

وفي مارس (آذار) ١٩١٥ ، اتصلت القيادة الالمانية العليا لاول مرة بلينين في زوريخ بواسطة احد العملاء ، غير انها قطعت الاتصال به الى اليوم الذي اندلعت فيه ثورة اكتوبر ، عندما كشفت ان هدفه لم يكن هزيمة روسيا لحساب المانيا ، بل بالاحرى تقويض حكم القياصرة للتعجيل بقيام ثورة بروليتارية . وقد عاودت الاتصال به في الظروف التالية :

في ١٦ مارس (آذار) ١٩١٧ ، كانت كروبسكايا زوجة لينين تغسل اطباق الاكل بعد وجبة الظهر ، عندما ظهر فجأة صديق بولوني في الغرفة وصاح قائلاً وهو يلهث من التعب : « هـل سمعت بالخبر ؟ هناك ثورة في روسيا ! » . وبالرغم من ان لينين كان متشائماً من اهمية هذه الثورة لانها كانت تمرداً بورجوازياً صرفاً ، الا انه قرر ان يعود الى روسيا . وكتب الى صديق من اصدقائه يطلب اليه الحصول على جواز سفر له . وقد قدم طلب الجواز الى البارون رومبرغ ، وزير المانيا في برن ، الذي نقله الى برلين طالباً اعطاءه التعليمات حول هذا الموضوع .

وفي هذه الغضون ، كانت البرافدا قد ضمت لينين الى هيئة مراسليها ليكتب اليها « رسائل من الخارج » . وفي هذه الرسائل ، كان لينين يشبه

---

(٢) قارن هذا الكلام مع ما كتبه كلاوزفيتز في كتابه « في الحرب » ــ الجزء الثالث ــ الفصل التاسع فيما يتعلق بمعركة بونابرت في روسيا ، مع الفصل السادس من هذا الكتاب ــ ٩ ــ نظريات كلاوزفيتز .

كل المتنازعين « بكتلة دموية ملتصقة » [١] . ويوضح فيها هدفه من تشجيع الحرب الاهلية في روسيا وتقويض الحكومة الموقتة . وكانت القيادة الالمانية العليا في هذا الوقت مطلعة على نوايا الحكومة الموقتة في عدم ايقاف القتال ، وكان انهاء هذه الحرب بالنسبة للحكومة الالمانية ضرورة تمليها المصالح العليا لكي تستطيع نقل قطعاتها من الجبهة الشرقية الى الجبهة الغربية . وهكذا قررت الحكومة الالمانية ، فور استلامها لبرقية رومبرغ ان تلعب لعبتها وان ترسل لينين الى روسيا . وتلقى رومبرغ التعليمات لتنظيم نقل لينين مع ٣١ ثوري آخرين (١٩ منهم من البولشفيك) الى السويد والى المانيا . وقد كتب الجنرال هوفمان ما يلي : « في هذا الوقت لم يكن هناك شخص قادر على توقع النتائج الحتمية لوصول هؤلاء الرجال . بالنسبة لروسيا وجميع اوروبا . » [٢] . ومع ذلك كانت هيئة الاركان العامة الالمانية مطلعة اطلاعاً كاملاً على نوايا لينين .

بهذا الشكل اجتازت الثورة العالمية بتصميم الحاجز المانع الذي كان منتصباً امامها . فقد ذهب لينين وجيشه المؤلف من ١٩ نصيراً من برن ، **مشبعين بالتصميم ، لا على اسقاط الحكومة الموقتة فحسب بل على دعم الكفاح الثوري ضد البورجوازية الالمانية ايضاً** . وقد كتب لينين قبل سفره الى العمال السويسريين قائلاً : « اننا ذاهبون ... ذاهبون لخوض كفاح

---

(١)

LENINE: Oeuvres choisies, édition française (1948) Vol. I, p. 901.

والى هذا الجزء تعود كل الاستشهادات الموجودة في صلب هذا الفصل .

(٢)

Major général Max-Hoffman, War Diairies and Other Papers, Vol. II, p. 177.

ثوري ضد الالمان .. ان البروليتاريا الالمانية هي اكثر حلفاء الثورة البروليتارية الروسية والعالمية اهلاً للثقة ، والتي يمكن ان نعتمد عليها بصورة اكبر [١] » .

وصل لينين الى بتروغراد ليلة ١٦ من ابريل (نيسان) وتكلم في اليوم التالي في المؤتمر الوطني لمجالس السوفييتات الروسية . وطالب بتشديد الدعاية في الجيش لتحويل الحرب الامبراطورية الى حرب بروليتارية وتقويض الحكومة الموقتة وتبديلها « بجمهورية سوفييتات العمال ، والشغيلة الزراعيين ، والفلاحين » . وابتداء من هذه اللحظة ، وفي كل يوم ، وفي كل الساعات تقريباً ، كان يتحدث الى جماهير بتروغراد ، ويؤجج التمرد ويحرض عليه ، ويهاجم الحرب ويُشَنِّعُ فيها ، ويطلق الوعود ذات اليمين وذات الشمال ليحقق ما تطمح الجماهير اليه .

واخيراً ، في الاول من يوليو (تموز) قامت الحكومة الموقتة من جديد بالهجوم على المانيا ، وبذلك اكدت اقواله ورفعت من شأنها . وقد صادف في اول الامر بعض النجاح ، الا انه اصطدم بصعوبات فيما بعد اذ ان الالمان عندما قاموا بهجوم معاكس في ١٩ ، قتل الانصار البولشفيك ضباطهم وفروا ، وكان لينين قد ادخل هؤلاء الانصار في الفرق الروسية ، وكانوا قد خربوا ولاء الجنود ، حتى ان الالوية الروسية تمردت لواء اثر لواء . وأدت هذه الاحداث مع التصريح الذي صدر بمنح الحكم الذاتي لاوكرانيا الى سقوط حكومة لفوف . وحلت محلها في ٢٢ من يوليو (تموز) حكومة اخرى برئاسة الكسندر كيرنسكي . وشكلت هذه الحكومة من

---

(١) Lénine, Collected Works, Vol. XX pp. 85 - 87.

ممثلين عن كل الاحزاب ، فيما عدا الاحزاب الملكية والبولشفية ، والاحزاب اليمينية المتطرفة واليسارية المتطرفة . ووسط الفوضى والغموض الغي المقر المركزي لبولشفياك بتروغراد . واوقف تروتسكي وعدد كبير من البولشفيك . وفر لينين ، متنكراً في زي سائق قاطرة من قاطرات السكك الحديدية الى فنلندا ، وبقي فيها متخفياً طيلة الاشهر الثلاثة التالية (١) .

٢ ـ الدولة والثورة

وفي فنلندا ، بقي وضع بتروغراد ماثلاً امام عيني لينين ، وقضى وقته في كتابة افضل آثاره المشهورة : **الدولة والثورة : العقيدة الماركسية للدولة ومهمة البروليتاريا في الثورة** (٢) .

وكان ما كتبه وثيقة كثيرة الدلالة ، لانها برهنت على ان لينين الذي كان يملك ذكاءً حاداً ، وارادة حديدية ، كان اساساً رجلاً طوباوياً . وفضلا عن انه في مرات عديدة ، ربط تعاليم ماركس بالظروف الموضوعية الراهنة ، عندما كان العمل يتطلب ذلك ، الا انه كان غير قادر ، عندما لا يكون

---

(١) اننا نلفت نظر القارىء الكريم الى ان جميع تقييمات المؤلف للأفكار والمنجزات والخطط التي مارسها لينين وطرحتها الماركسية ـ اللينينية انما هي تقييمات جائرة وظالمة لأنه انطلق من موقع العداء فكراً وتحركاً . وكان كل ما كتبه بعيداً عن الامانة العلمية . والواقع فهذا يتطلب منا ان نقرأ الفصول التالية بحذر وتجرد واننا ستَنشُرد ملاحظاتنا في المجالات الضرورية والهامة مع بيان الحقائق المسلّمة أمانة منا ووفاء لهذه الحقائق . المعرّب

(٢) Oeuvres choisies, édition française (1948).

ملتزمــاً كل الالتزام ، بان يرى ابعد من احلام البيـــان الشيوعي . وكان من الغريب ايضاً انه بعد عشرين عاماً من النشاط الثوري ، كان مضطراً لتعليم انصاره مـــا كان يقوله لهم مئات المرات ، ومع ذلك ، وبما ان ثورة اكتوبر تستند الى اعادة طبع ونشر افكار ماركس ، يبدو من الملائم ان نذكر بعض المقاطع التي لها علاقة بالموضوع بصورة اقوى واكثر .

وبما ان الدولة جهــاز للتحكم بالطبقات ، فان النتيجة الحتمية لذلك هي « ان البروليتاريا لن تستطيع قلب البورجوازية دون ان تستولي في بادىء الامر على السلطة السياسية ، ودون ان تقيم سيادتهـــا السياسية ، ودون « ان تكون منظمة في طبقـــة سائدة وان تشكل دولة » . وينتج عن ذلك ان « هذه الدولة البروليتارية المستحيلة وغير المفيدة في مجتمع يزول فيه التناقض بين الطبقات ، ستبدأ في الاضمحلال منذ انتصارها » (١) .

وبناء على ذلك ، فان على الثورة ان « **تحشد كل قواها التدميرية** ضد سلطة الدولة » مع « مهمة تخريب وتدمير جهـــاز الدولة ، لا مهمة تحسين هذا الجهاز (Vol. II p. 185)

« نحن لسنا طوبـــاويين .. اننا نريد الثورة الاشتراكية مع النـــاس كما هم

---

(١) لتوضيح هذه الفكرة — راجع لينين — الدولة والثورة — دار دمشق للطباعة والنشر . فقد استشهد لينين لتفسير « فنـــاء » الدولة بما كتبه آنجلس : « تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائـــل الانتاج بادىء ذي بدء الى ملكية الدولة . لكنهـــا اذ تفعل ذلك تقضي على نفسهـــا بصفتها بروليتاريا ، تقضي على سائر الفوارق الطبقية .... وتقضي بالتالي على الدولة بصفتها دولة .. ان الدولة لم « تُلغَ » . بل هي تفنى ... » ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .. المعرّب

عليه اليوم ، مع هؤلاء الناس الذين لن يستغنون عن الخضوع ، عن المراقبة ، عن « المراقبين » و « المحاسبين » [١] .

« ولكن ينبغي الخضوع للطليعة المسلحة ، لطليعة جميع المستثمرين وجميع الشغيلة للبروليتاريا . يمكن وينبغي ان يشرع على الفور بين عشية وضحاها ، بالاستعاضة عن « الترؤس » الخاص بموظفي الدولة بوظائف « المراقبين والمحاسبين البسيطة بوظائف هي منذ اليوم في مستوى تطور سكان المدن بوجه عـــام ويمكن القيام بها تمـــاماً مقابل « اجرة العامل » (لينين — المختارات — مجلد ٢ — جزء ١ — ص ٤٢٤) .

« وسننظم نحن العمـــال ، مستمدين قوتنا من خبرتنا العمـــالية الانتاج الكبير معتمدين على مـــا خلفته الرأسمالية كنقطة انطلاق لنا ... وذلك باقامة انضباط قاس ونظام حديدي يحافظ عليه العمال المسلحون، واسياد السلطة ..هذه هي مهمتنا البروليتارية . ولهذا السبب فان في وسعنا ، ومن واجبنا ان نبدأ بتحقيق الثورة البروليتارية.وستقود كل هذه التدابير الاولية المستندة الى الانتاج الكبير ،من تلقاء ذاتها الى « الاضمحلال» التدريجي لكل بيروقراطية، والى اقامة نظام تدريجي — نظام بدون معترضين ، لا يشبه ابداً نظـــام استعباد المـــأجورين — ان هذه التدابير ستؤدي الى اقامة نظام يشغـــل فيه كل الناس ، كـــل بدوره وظائف الرقابة والمحاسبة ، التي تُبَسَّطُ بالتدريج كي تصبح هذه الوظائف في النهـــاية عادة من العادات ، لتختفي في النهـــاية كوظائف **خاصة** تقوم بهـــا فئة خاصة من الافراد » [٢] (Vol. II, p. 201)

---

(١) راجع لينين — المختارات — المجلد ٢ — الجزء الاول — ص ٤٢٣ .
(٢) احتفظنا هنا بالترجمة الحرفية وقورنت مع النص العربي المنقول عن الروسية
المعرّب

« ... وينسى البعض دوماً ان الغاء الدولة هو ايضاً الغاء الديموقراطية »
(Vol. II, p. 227)

« ان الديموقراطية هي الدولة التي تعترف بخضوع الاقلية للاكثرية ، اي ان تنظيم **العنف** تمارسه طبقة ضد طبقة اخرى بصورة منهجية ، بجزء من الشعب ضد الجزء الآخر » .

« ان هدفنا **النهائي** هو القضاء على الدولة ، اي على كل عنف منظم دائم ، على كل عنف حيال الناس بوجه عام . ونحن لا نتوقع حلول نظام اجتماعي لا يراعى فيه مبدأ خضوع الاقلية للاكثرية . ولكن بما اننا نطمح الى الاشتراكية ، فنحن مقتنعون بانها ستؤدي الى الشيوعية ، وستزول بالتالي كل ضرورة للاستعانة بالعنف بصورة عامة ضد الناس ، وسيزول **خضوع** انسان الى انسان آخر ، وسيزول خضوع جزء من الشعب الى جزء آخر لان الناس سيتعودون على مراعاة الشروط الاولية للحياة في المجتمع ، بدون عنف وبدون خضوع » . (Vol. II, p. 228) (لينين— المختارات — المجلد ٢ — جزء اول — ص ٤٦١) .

« وفي المجتمع الشيوعي فقط ، عندما تحطم مقاومة الرأسماليين بصورة نهائية ، يتلاشى الرأسماليون ، وتنعدم الطبقات (اي عندما لا يكون هناك تمييز بين اعضاء المجتمع فيما يتعلق بعلاقاتهم مع الوسائل الجماعية للانتاج عندئذٍ فقط«تزول الدولة » و « **يصبح بالامكان الحديث عن الحرية** » . وعندئذ فقط يغدو من الممكن اقامة وتطبيق ديموقراطية كاملة دون استثناءات حقاً » . (Vol. II, p. 235) (المرجع السابق ص ٤٦٨) .

« ان الاساس الاقتصادي لاضمحلال الدولة اضمحلالاً تاماً هو تطور الشيوعية تطوراً كبيراً يزول معه كل التناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي» .

« ... وسيؤدي نزع ملكية الرأسماليين بالضرورة الى تطور عجيب للقوى المنتجة في المجتمع البشري . ولكن ما لا نعرفه وما لا نستطيع معرفته هو درجة سرعة هذا التطور والوقت الذي يصل فيه الى الانتهاء من تقسيم العمل ، والى ازالة التناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، والى تحول العمل « الى ضرورة حيوية اولى » هذا ما لا نعرفه وما لا **نستطيع** معرفته » (١)
(Vol. II, p. 241

« الاحصاء والرقابة ، هي الشيء **الأساسي** لتنظيم المجتمع الشيوعي في **مرحلته الاولى** ، وتسيير حركته بصورة منتظمة . وهنا يتحول كل المواطنين الى مستخدمين مأجورين للدولة التي يشكلها العمال المسلحون . ويصبح **كل** المواطنين مستخدمين وعمالاً « لكارتل » ، واحد هو كارتل **الدولة** يملكه الشعب بأجمعه . **وكل** ما نبغيه هو ان يعمل الجميع بنسبة متساوية ، وان يراعوا حجم العمل بدقة ، وان يتلقوا اجراً متناسباً مع هذا العمل . وقد **بسطت** الرقابة والاحصاء في كل هذه المجالات الى اقصى الحدود في النظام الرأسمالي الذي قصرها على ابسط عمليات التسجيل والمراقبة ، وتسليم وصولات ملائمة — وكل الاشياء هي في متناول من يعرف القراءة والكتابة ويعرف العمليات الحسابية الاربع .. » (٢) .

« وسيصبح المجتمع كله مكتباً ومعملاً واحداً يتساوى فيه الجميع ، في العمل وفي الأجر » (Vol. II, p. 246) (٣)

---

(١) لينين — المختارات — المجلد ٢ — الجزء الاول — ص ٤٧٥ .
(٢) لينين — المختارات — المجلد ٢ — الجزء الاول — ص ٤٨٠ .
قورنت الترجمة العربية هنا عن الفرنسية مع النص الاصلي المنقول عن الروسية فوجدت مطابقة للمعنى .
(٣) المرجع المذكور ص ٤٨١ .

ان لينين ، مثله مثـل الموظف الحكومي الصيني القديم الذي ورد ذكره في قصة **THE GOLDEN JOURNEY TO SAMARAKAND** – الرحلة الذهبية الى سمرقند – هذا الموظف : « **الذي لم يغادر في السابق ابداً بوابة قصره، غير انه أصبح اعمى لكثرة ما قرأ من المؤلفات الكبرى عن الحرب** فهو لم يترك ابداً غرفته في زوريخ ليتجول ، في مصنع من مصانعهـا المتعددة ، ولم يعرف عنه ابداً ، انه مارس اي عمـل يدوي في حياته ، كمعلمه ماركس . ولو انه مـارس اي عمل يدوي لكان له رأي آخر . فقد كان لينين رجلاً تسلط عليه وهم ابدي . وكمـا سنرى ، فان هذا الوهم قد خدعه . فقد كان مكانه في التـاريخ هو مكان الرجل الذي طبق لاول مرة تعاليم ماركس على مقياس كبير وبرهن للعالم في منتهى الحرية ان هذه التعاليم كانت أداة من ادوات الفوضى (١) .

---

(١) ان هذا التقييم للينين وافكاره تقييم نابع عن عداء نظري وحركي لا يستند الى نقاش علمي ، ولا يؤيده منطق التاريخ . وليس ادل على ذلك من المنجزات الهـائلة التي تحققت في الاتحاد السوفييتي منذ ان تولى لينين السلطة فباشر في تطبيق افكاره الماركسية – اللينينية .

إن حديث المؤلف عن ان (هذه التعاليم كانت اداة من ادوات الفوضى) لم يعد بحاجة الى نقد ، فقد نقضته احداث التاريخ التي اثبتت ان تلك التعاليم اخرجت روسيا من الفوضى ووضعتها على ابواب مسيرة تقدمية اصبح بها الاتحاد السوفييتي القوة المتقدمة التقدمية الاولى في العالم .

– المعرب –

٣ ـ لينين وثورة اكتوبر

ادى فشل هجوم الصيف ، والشلل الذي اصاب الحكومة الموقتة الى عودة عدد متزايد من النواب البولشفيك الى المؤتمر الوطني لسوفييتات [1] روسيا . وتبدت قوتهم المتصاعدة ، في ١٢ من سبتمبر (ايلول)، عندما اقر سوفييت بتروغراد اقتراحـاً بلشفيـاً ، يطالب بايقاف القتال . واحرز هذا الاقتراح ٢٧٩ صوتـاً ضد ١١٥ . وقد شجع هذا القرار لينين ، الذي كان في ذلك الوقت في فنلندا ، فضغط على اللجنة المركزية البلشفية التي كانت تعقد اجتماعاتها في معهد سمولني في بتروغراد ، لاجراء مزيد من الضغط على حكومة كيرنسكي . ونتج عن ذلك خروج تروتسكي من السجن مع زعماء بلاشفة آخرين ، وكان اخلاء سبيلهم دليلا على ضعف الحكومة ، الامر الذي زاد الوضع خطورة وحدة . وبدأت مجالس السوفييتات تتحرك ، في كل انحاء البلاد ، لا لتصوت على قرارات البلاشفة فحسب ، بل لتطالب ايضاً باجتماع جديد للمؤتمر الوطني الثاني لسوفييتات روسيا .

الا ان لينين كان يريد افعالا ، لا مؤتمرات ، وكان يريد قيام تمرد لا قيام جدال وحوار . لأن من الممكن ان يستمر الحوار والنقاش بين الروس الى مـا لا نهاية . وكان يؤكد بالتالي على ضرورة قيام ثورة مسلحة ، كان الوقت

---

(١) كلمة سوفييت تعني « مجلس » . وبقيام الثورة ارتبط اسم سوفييت بنوع من البرلمـان ينتخبه اعضاء المنظمات الاقتصادية للطبقة العاملـة ، كسوفييت مندوبي العمـال والجنود والفلاحين وهناك سوفييتات في كل مدينة وقرية في روسيا ، وفي الاحيـاء ، وفي المقاطعات . وهنـاك اللجنة المركزية لمنظمـات السوفييت لعموم روسيا يطلق عليهـا اسم « تسايكا » ومقرها العاصمة . ـ المعرّب ـ

« ملائماً لها كل الملاءمة ولكن كامينيف وزينوفييف » في بتروغراد يعارضانها . وقرر لينين العودة الى بتروغراد ، بعد ان استشاط غضباً من هذه المعارضة ، وذلك كي يتحاشى وقوع انشقاق في صفوف الحزب . فسافر سراً في ٢٣ من اكتوبر وتنكر ، واختفى في لسنويه على مقربة من العاصمة . وفي ٢٥ ، انشأ سوفييت بتروغراد لجنة عسكرية ثورية ، برئاسة تروتسكي ، لاعداد التمرد وتحضيره . وفي اليوم التالي ، ربح تروتسكي الى جانبه حامية قلعتي السانت – بيير وبول ، واستولى على عدتهما من الاسلحة والذخيرة مع ١٠,٠٠٠ بندقية وزعها مباشرة على الحرس الاحمر . ومنذ شهر يونيو (حزيران) كان الحرس الاحمر قد شكل ونظم في سرايا داخل المصانع ، الا ان الحكومة الموقتة لم تكن تريد نزع سلاحهم او انها كانت عاجزة عن ذلك .

وكان هذا العمل هو ضربة الخلاص الحقيقية للحكومة الموقتة ، لانه فضلا عن ان كيرنسكي اعلن حالة الطوارىء في ٥ من نوفمبر (تشرين الثاني) ، واعتبر اللجنة العسكرية الثورية خارجة عن القانون ، وامر بايقاف تروتسكي . الا ان اوامره بقيت حروفاً ميتة لانه كان محروماً من الوسائل العسكرية التي تسمح له بتنفيذ اوامره .

وعقد لينين في لسنويه عدة اجتماعات مع انصاره ناقشوا فيها خطط التمرد ، غير انه لم يستطع ان يتوصل الى الاتفاق معهم على تاريخ محدد للقيام به . وكان من المفروض ان يجتمع المؤتمر الثاني لمجالس السوفييت في ٧ من نوفمبر (تشرين الثاني) . ونظرا لان لينين كان مقتنعاً بضرورة توجيه ضربة من الضربات قبل ان يتمكن المؤتمر من تنظيم نفسه ، كتب في ليلة ٦ من نوفمبر (تشرين الثاني) الى اللجنة المركزية للحزب ما يلي :

« ان الانتظار مستحيل .. فلو انتظرنا سنخسر كل شيء ... ينبغي ان لا تترك السلطة باي حال من الاحوال ، وبأية طريقة من الطرق ، في يد كيرنسكي واتباعه حتى ٢٥ (بأسلوبه القديم) ، لابد من حسم هذه المشكلة في هذا المساء او في هذه الليلة .. سنخسر كل شيء في سبيل احترام شيء شكلي هو انتظار تصويت غير مؤكد في ٢٥ من اكتوبر (تشرين الاول) . ان الحكومة تتردد . وعلينا ان نجهز عليها باي ثمن [١] » .

وفي ساعة متأخرة من ليلة ٦ من نوفمبر (تشرين الثاني) ، تحرك لينين متنكراً من لسنويه الى سمولني ليقود التمرد بنفسه . وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، ارسل هو وتروتسكي الحرس الاحمر ليستولي على المقسم الهاتفي العام ، وعلى محطات السكك الحديدية ومكتب البرق ، والمصانع الكهربائية ، ومصرف الدولة ، وعلى بعض النقاط الحيوية الاخرى. وحوالي الساعة العاشرة صباحاً ، انهار كل البناء الحكومي [٢] لدرجة استطاع فيها لينين ان يصرخ هازئاً بما يلي :

« افتتح المؤتمر الثاني للسوفييتات ، ولمندوبي عمال وجنود روسيا .... واعتماداً على قوة ارادة الاغلبية الساحقة من العمال ، والجنود ، والفلاحين ، واعتماداً على قوة التمرد الظافر للعمال ولحماية بتروغراد ... يمسك المؤتمر الآن بالسلطة ... ان سلطة السوفييتات تقترح سلماً ديموقراطياً فورياً لكل الشعوب وهدنة فورية على كل الجبهات .. وسيؤمن المؤتمر استدعاء المجلس التأسيسي على كل الجبهات [٣] »

(١)

Lènine: oeuvres choisies, Vol. II, p. 158.

(٢) فركيرنسكي من بتروغراد في ٧ من نوفمبر (تشرين الثاني) .

(٣)

Lènine: oeuvres choisier, Vol. II, p. 265.

وانتخب فيمـــا بعد مجلس لمفوضي الشعب ، برئاسة لينين ، بالتصفيق والتـــأييد لحكم روسيا الى ان يتم انتخاب المجلس التأسيسي .

في هذا الوقت ، اضرب كـــل الموظفين . ومع ذلك سمي الوزراء الجدد (المفوضون) خلال وقت قصير ، وتمركزت كـــل مصالح الحكومة في معهد سمولني . فاحتـــل لينين غرفة من الغرف فيه بصفته رئيساً للحكومة ، كمـــا احتل تروتسكي ، المكلف بالشؤون الخارجية غرفة اخرى ، واحتلت وزارة الحرب ، وعلى رأسهـــا ستالين غرفة ثالثة ، واحتلـــت وزارة الداخلية غرفة رابعة ، وهكذا ... « وكان المستخدمون في وزارة الشؤون الخارجية يخفون سجلاتهم ويرفضون تسليم مفاتيح مكاتبهم الى تروتسكي» و « في البنوك ، كان المتطوعون الذين يعرفون بالكـــاد القراءة والكتابة ، يحاولون فهم الكتب الكبرى والسجلات التي يتجاوز فهمهـــا قدراتهـــم وكفاءاتهم » [1] . وكان الوزراء الذين عينوا مجدداً يهرعون ، الى الممرات واحداً اثر الآخر ليخطبوا في الجماهير الثـــائرة، ثم يعودون من جديد الى مكاتبهم ليحولوا البروليتـــاريا الى طبقة سائدة .

وقد تم هذا التحول بسلسلة من المراسيم المذهلة ، التي صدر منهـــا ١٩٣ مرسومـــاً على الاقل بين ٨ من نوفمبر (تشرين الثاني) ونهـــاية العام . والغيت الملكية الخاصة ، واعلنت الارض ملكـــاً للشعب . واخذ العمـــال مسؤولية تسيير المصانع ، واممت البنوك ، والغيت البورصة ، والغيت كل ديون الدولة ، وثُبتت الاجور بـ ٥٠٠ روبل في الشهر ، وحلت محاكم العمال والفلاحين محـــل المحاكم الجنائية ، وسلح العمال وشكلوا في مليشيا ،

---

(١)
ALAN Moorheed: The Russian révolution (1958), p. 284.

ونشرت كــل الاتفاقات السرية الخ .. وبهذا الشكـــل انتزعت كل مؤسسات الدولة ، وامسكت الفوضى بزمام الحكومة ، تحت ستار البروليتاريا وعلمها .

وبمــا ان مؤتمر السوفييتات لم يكن مجلساً نيابيــاً ، فان لينين لم يكن يملك وسائل تحويـــل مراسيمه الى مراسيم شرعية . ونظراً لان الاضرابــات استمرت في الوزارات ، فان لينين احيى من جديد ، لكي يؤكد سلطته ويدعمهــا ، الاوخرانا OKHRAN A القيصرية (البوليس السري) بشكل التشيكــا TCHEKA الذي بدأ ، تحت ادارة البلشفيكي البولوني المتعصب دزيرزينسكي في القضاء على المعارضة، وفي اجبار الطبقة السائدة على العمل .

قــام لينين فيما بعد باحدى خطواته المشهورة الى وراء . فنظراً لان الغالبية العظمى من الشعب على وشك التمرد ، ونظراً لان الحزب البلشفي لم يكن يمثل من الشعب سوى جزء ضئيل ، فقد قرر توسيع قاعدة عمليــاته ليربح الى جانب قضيته الفلاحين الذين كانوا يعدون ٨٠ ٪ من الشعب . ولكي يحقق هذا المشروع جزئيــاً ، دعى الاشتراكيين الثوريين اليساريين [١] ، الذين كان يلعنهم ويهاجمهم ، حتى ذلك الوقت ، الى الانضمام اليه . فقبلوا ، حتى ان هذا التحالف عزز موقف البلاشفة ازاء الجماهير وجعله موقفــاً مقبولاً . فبوجود فلاحي الجنــاح اليساري كحلفاء ، كان موقع لينين افضل للقضاء على البورجوازية ، اذ بانضمــام الثوريين ، يصبح الفلاحون تحت

---

(١) الاشتراكيون الثوريون اليساريون : يتبنى هؤلاء برنامج ديكتاتورية الطبقة العاملة ، الا انهم ترددوا ، بادىء بدء ، في التعاون مع البلاشفة ثم ما لبثوا ان بقوا في الحكومة السوفييتية وشغلوا المناصب الوزارية وخاصة وزارة الزراعة . — المعرّب —

رحمته [١] . وكانت معرفة التوقف عن الاندفاع في العمل بصورة منفردة ، والتعاون مع الخصوم مبدأ من المبادىء الموجهة لفن لينين الثوري ، حققت اه في عدة مناسبات نتائج رائعة ، وذلك مأخوذ من تعبيره الخاص القائل : « خطوة الى الوراء للقيام بخطوتين الى الامام » .

وفي ٢٥ من نوفمبر (تشرين الثاني) افتتحت المعركة النهائية للصراع على السلطة في انتخابات المجلس التأسيسي . وكانت نتائج هذه الانتخابات مذهلة جداً . فمن اصل ٤١,٧٠٠,٠٠٠ صوتاً ، لم يحصل البلاشفة الا على ٩,٨٠٠,٠٠٠ ، على حين حصل الاشتراكيون الثوريون اليمينيون على ٢١,٠٠٠,٠٠٠ صوتاً . فما ان عرفت النتائج حتى قام لينين بمحاولة لاسقاط المجلس بالرغم من انه اصبح خارجاً على القانون . ولكن ، بالرغم من جهوده للعمل على منع الاجتماع واخفاقه ، اجتمع المجلس وصوت على قرار بافتتاح دورات المجلس في قصر توريد في ١٨ من يناير (كانون الثاني) ١٩١٨ . وفي اليوم المقرر للاجتماع ، طوق لينين المبنى ، واحتل ممراته بحرسه الليتواني ، وببحارة كرونسدات ، ورفع الجلسة . وفي اليوم التالي ، في الوقت الذي كانت فيه ابواب القصر محروسة بحراس ثوريين ، كانت اللجنة التنفيذية لمؤتمر السوفييتات تعلن حل المجلس . وبهذا الشكل اقام لينين حكمه الاوتوقراطي وغدا سيد بتروغراد .

ومنذ تلك اللحظة ، لم تعد هزيمة روسيا هي الهدف الذي يستهدفه لينين ، فقد اصبحت المانيا اخطر اعدائه وكان يشمئز من الحصول على انتصار روسي بالتعاون مع الحلفاء ، لان مثل هذا الانتصار يفقد الثورة سمعتها ورصيدها في اعين البروليتاريا الالمانية . وكان ايمان لينين بالثورة الاممية

---

(١) انظر الملحق رقم ١ : آراء لينين عن المشكلة الفلاحية .

يجعله يضع كـــل آماله في ثورة المانيا . وبالاضافة الى ذلك كان مقتنعـــاً بامكان نشوب الحرب الديبلوماسية والنفسية بآن واحد ضد الدول المركزية والحلفاء . وبناء على ذلك اعطى في ٩ من نوفمبر (تشرين الثاني) تعليمات لتروتسكي بدعوة الحلفاء ودعوة الدول المركزية لابرام الهدنة فوراً . وشن فيما بعد هجومه النفسي الاول : فاصدر بيانـــاً يدعو فيه الشعوب المتصارعة الى ايقاف القتال فيمـــا بينها دون استشارة حكوماتها . وطبع الاتفاقات السرية التي وقعهـــا الحلفاء مع روسيا ، والتي تفضح اهدافهم الامبريالية ، وراح يلح على مفاوضات للسلم ، تتضمن كأساس لهـــا : « عدم ضم اي بلد من البلدان الى بلد آخر ، ورفض مسألة التعويضات » ، وقد اعلن هذه المبادىء بشكل شعارات ، وكتب في هذا الموضوع مـــا يلي : « ان مثل هذه الشروط لن تكون مقبولة من الرأسماليين ، الا انها ستثير لدى كل الشعوب ، شعوراً بالتعاطف وانفجاراً حماسياً رائعين ، كمـــا انها ستسبب سخطاً عامـــاً عنيفاً جداً ضد استمرار حرب القرصنة ، وبهذا الشكل نصل على وجه التأكيد دفعة واحدة . الى توقيع اتفاقية هدنة ، والى قبول البدء بمحادثات سلمية [١] » .

غير ان النتيجة جاءت على غير ما كان يتوقع . فبالرغم من ان المانيا ، كانت راغبة جداً في ايقاف الحرب على جبهتهـــا الشرقية ، ودخلت في محادثات مع روسيا ، وعقدت معهـــا هدنة في ٥ من ديسمبر (كانون الاول) الا ان الحلفاء احتجوا على ابرام سلم منفرد وازداد عداؤهم للبـــلاشفة . وتمت مناقشات طويلة مع الالمان نتيجة لهذه الهدنة استطاع لينين ان يحول الهدنة

---

(١)
Lènine: «Les tâches de la révolution» oeuvres choisies, Vol. II p. 144.
لينين : « مهمات الثورة » المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، ص ١٤٤ النص الفرنسي .

خلالهـا الى منصة عامة لنشر الثورة في المانيا . وبينمـا كانت المناقشات مستمرة ، كان نشاط الدعـاية البلشفية في قمته موجهاً ضد الجيش الالماني . فقد وزعت بصورة سرية مئات الالوف من المنشورات الثورية ، واكثر من مليون نسخة من بيان النقاط الاربعة عشرة التي اعلنهـا الرئيس ويلسون ، بين صفوف الجنود الالمان . حتى ان اسرى الحرب الالمان تلقوا من التربية العقائدية ممـا اضطر السلطات عند عودتهم الى المانيا ، الى ان تحجزهم في معسكرات حجر سياسي » . وقد كتـب الجنرال هوفمان : « لقد أفسدت البلشفية جيشنا الظافر في الجبهة الشرقية . فقد وصلنـا الى مرحلة كنا عاجزين فيها عن اللجوء الى نقل بعض فرقنا من الجبهة الشرقية الى الجبهة الغربية » [1] .

وقد قطعت القيادة الالمـانية العليا المفاوضات في ١٧ من فبراير (شباط) ١٩١٨ وبدأت بالمسير الى بتروغراد لكي تضع حـداً لهذه الدعاية ، ولهذه المماطلات . وهنـا خضع لينين الذي لم يكن يملك جيشاً يطلب اليه دعمه في هذا الوقت ، امـام هذا الضغط ، بالرغم من المعارضة العنيفة لعدد من انصاره . ووقعت اتفاقية السلم في ٣ من مـارس (آذار) في برست ليتوفسك. وكان اهم درس كـان ينبغي على لينين استخلاصه من هذه المفاوضـات ، انه لا فائدة ترجى من الحرب النفسية الا مجرد نجاح موقت اذا لم يكن هناك قوات مسلحة قادرة على دعم هذه المفاوضات . وامر لينين بعد ذلك تروتسكي في ٢٣ من فبراير (شباط) بتجنيد جيش احمر .

واحتل الالمان ، بموجب احكام الاتفاقية ، ايستونيا وجزء من ليتوانيا .

---

(١) Cité par John W. Wheeler - Bennet dans: Brest-Litovsk: The Forgotten Peace (1938) p. 352. Voir aussi. Ludendorff: Souvenirs de guerre, Vol. II. p. 304.

واضطر الروس الى اخلاء فنلندا واوكرانيا والى التنازل عن كارس ، وارداهام وباطوم لتركيا ، وخسرت روسيا ٢٦ ٪ من سكانها و ٢٧ ٪ من اراضيها القابلة للزراعة ، و ٢٦ ٪ من سككها الحديدية وثلاثة ارباع انتاج الحديد والفحم (١) . وكانت هذه الخسائر مخجلة وساحقة لدرجة ان الاشتراكيين والثوريين اليساريين استقالوا من الحكومة ، وتبع ذلك تمرد للفلاحين في اماكن متعددة ، غير ان البلاشفة قضوا عليه دون شفقة ولا رحمة .

وهكذا لم تكد اتفاقية السلم توقع ، حتى واجه النظام السوفييتي تدخل حلفاء روسيا (٢) . وفي الوقت نفسه ، انفجرت الحرب الاهلية من البلطيق الى البحر الاسود ، ومن مورمانسك الى فلاديفوستوك . وفي ابريل (نيسان) ، انزل اليابانيون قطعات في فلاديفوستوك ، وفي يوليو (تموز) نزلت قوات حليفة في مورمانسك، على حين كان الجنرالات الروس البيض كولتشاك وكورنيلوف (ودينيكين فيما بعد، وفرانجل، ويودنيدنيتش ، القادمين من اومسك ، والبحر الاسود ، والقرم وايستونيا ، يسيرون الى موسكو ، التي اصبحت في ١٥ من مارس (آذار) مقراً للحكومة السوفييتية .

---

(١)

Voir Léonard Schaqiro: The Communist Party of the Soviet Union (1960) p. 186.

(٢) حوالي نهاية عام ١٩١٨ ، بلغ تعداد قوات التدخل ما يقارب من ٣٠٠,٠٠٠ جندي : بين فرنسيين ، وانجليز ، وامريكيين ، وايطاليين ، ويابانيين ، والمان ، وبلطيقيين ، وبولونيين ، ويونانيين ، وفنلنديين ، وتشيكيين ، وسلوفاكيين ، وايستونيين ، وليتوانيين في اركانجلسك ، ومورمانسك ، وفنلندا ، وايستونيا ، وليتوانيا ، وبولاوينا ، وفي البحر الاسود ، وعلى الطريق الحديدي لما وراء سيبريا وفلاديفوستوك .

وقد سبب التدخل الاجنبي ارهابــاً عاماً ، كالارهاب الذي احدثه التدخل الاجنبي ابــان الثورة الفرنسية . ووسط هذا المناخ العام ، وفي ١٦ من يوليو (تموز) ذبح نيقولا الثاني وعائلته .

وبلغت الحرب الاهلية ذروتها الحرجة في خريف عــام ١٩١٩ ، وشتاء ١٩٢٠ . وهزم الجنرالات الروس واحداً اثر آخر . وتعود هزيمتهم في جزء منهــا الى الدعــاية البلشفية ، وفي جزء آخر الى الجيش الاحمر . ولكن هزيمتهم الاساسيــة تعود بصورة خاصة لان هدفهم كان اعــادة النظام القديم . فقد خسروا بسبب هذا الواقع دعم الفلاحين الذين كــانوا يخشون من ان تعــاد الاراضي التي حصلوا عليهــا مؤخراً الى ملاكها السابقين . وعندمــا توقفت الحرب الاهلية استدعيــت قوات التدخــل لتعود الى بلادها ، الا ان الاضطرابات استمرت في روسيا . وفي ٢٥ من ابريل (نيسان) ١٩٢٠ سار البولونيون ، بقيادة المارشال بيلسودسكي الى كييف ، ثم اعيدوا الى فارسوفيا ، حيث قاموا بين ١٦ الى ٢٥ من اغسطس (آب) بالحاق الهزيمة بالجنرال ميخائيل توخاتشفسكي : وانقذت اوروبا الوسطى من غزو سوفييتي [1] . وقد سمى اللورد دابرنون **D'ABER NON** سفير انجلترا لدى المانيا من عام ١٩٢٠ الى ١٩٢٦ كتابه عن تاريخ هذه الحملة :

The eighteenth decicive battle of the world.

« المعركة الثامنة عشرة ، احدى المعارك الحاسمة في التاريخ » . وهو لا يبالغ ابداً في اهميتهــا ، لانه لو خضعت بولونيا في ذلك الوقت ، فلا شيء يستطيع منع قبــائل توخاتشفسكي التترية من اختراق المــانيا . والتفسير

---

(١) انظر بيلسودسكي : **Année 1920 (1929) p. 255** للحكم على توخاتشفسكي في هذه المعركة .

الذي سنذكره فيما بعد يظهر بوضوح ان هذا الهدف كان هدف لينين النهائي

« عندما نهاجم بولونيا فاننا نهاجم الحلفاء . وعندما نسحق الجيش البولوني ، فاننا نحطم معاهدة فرساي التي يستند اليها كل نظام العلاقات الدولية الحالية » .

« فلو امكن تحويل بولونيا الى بلد شيوعي ... تزول معاهدة فرساي ، ويقضى ايضاً[1] على الجهاز الذي اقيم على انقاض الانتصار ضد المانيا » .

وفي الاول من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٠ ، وقعت اتفاقية للسلم بين بولونيا وروسيا وفي ١٨ من مارس (آذار) من العام الثاني ، وقع اتفاق السلام في ريغا . وهكذا وضع الامل في الثورة البروليتارية الاممية في ثلاجة .

٤ – نهاية الطوباوية

اننا لا نجد شيئاً يتنافى مع المنطق في رغبة الطبقات « التي لا تملك » في ان تتملك ثروة الطبقات « المالكة » . ان هذا الواقع جزء اساسي من قانون الحياة الحيوانية . فالدب ينهب خلايا النحل ، ويسطو الذئب على قطعان الاغنام . وعندما تنتشر « الطبيعة ذات الاسنان والاظافر الدموية » ببعدها الانساني لا نجد شيئاً لا عقلانياً في نظرية ماركس القائلة بقيام طبقة اجتماعية ، وهبت لها السلطة بافتراس طبقة اخرى . ولكن ما هو غير عقلاني في هذه النظرية هو الافتراض بان الدب ، عندما ينهب خلية النحل ، يقوم بوظيفة النحلة ، او ان الذئب الذي يسطو على قطعان الاغنام يصبح مسالماً بقدر الغنم .

---

(١) انظر :

T.A. Taracouzio في War and Peace in Soviet diplomacy (1940) p. 101.

ومن المفيد ان نلاحظ ان لينين وصف معاهدة فرساي بانها « مشينة وشرهة اكثر بمائة مرة من اتفاقية برست – ليتوفسك (المرجع ذاته ، صفحة ١٧٩) .

ومن المدهش ان يؤمن رجل كماركس ، على جانب كبير من الذكاء ، بنظرية اكل اللحوم البشرية كطقس من الطقوس على المستوى الاجتماعي ، وبأن انتزاع قوى الانتاج من ايدي البورجوازية وحصرها بين يدي البروليتاريا ، يجعل البروليتاريا تحصل بصورة آلية على كفاءات الطبقة الحاكمة . ومن المدهش ايضاً ان يحاول رجل من وزن لينين ومن مقامه تطبيق هذه الفكرة عملياً .

وقد توصل لينين ، كما رأينا فيما مضى ، بعد دراسة ماركس دراسة عميقة خلال عشرين سنة ، الى استنتاج امكانية استبدال ما كان يسميه « بالتسلسل الاداري » لموظفي الدولة « بين عشية وضحاها » بوظائف بسيطة من المراقبين » و « المحاسبين » ، وهي « وظائف ملائمة جداً لمستوى تطور أبناء المدن بصورة عامة » و « بعمليات هي في متناول من يعرف القراءة والكتابة » .

فقد كتب ف. ل. بوران ما يلي : « ان تنظيم البروليتاريا وتحويلها الى طبقة سائدة ليست الا جملة سطحية ، وسخفاً ردده ماركس ... فهي تعني مستقبلاً خداعاً خالياً من اي ظل للحقيقة فيه [١] . » فالبروليتاريا ليست طبقة تمثل الاقلية في كل بلد من البلدان فحسب ، وهذا يعني ان عليها ان تفرض ، كطبقة حاكمة ، ارادتها على غالبية الشعب ، وعلى الطبقة التي تمثل الاقلية النسبية من الرأسماليين ، بل ان اعضاءها ايضاً ، مثلهم مثل اعضاء الطبقات الاخرى ، تتحكم فيهم الطبيعة البشرية بصورة فردية ، والغرائز التي لا يمكن استئصالها . وهي التي وجهت تاريخ الانسان منذ جذوره الاصلية

ان الفلاحين لم يستولوا على الارض ، ليشتغلوا فيها فحسب ، بل

---

(١) V. L. Borin: Civilisation at Bay (1951), p. 74.

لكي يحصلوا منهـا على المكاسب ايضاً . ولم يكونوا يزرعون منهـا الا الجزء الضروري لتلبية حاجاتهم الخاصة ، لان عمال الصناعة لم يكونوا يملكون شيئاً من انتاجهم ليقدموه لهم مقابل انتاجهم الزراعي . وقد كتب بوران ما يلي : كـان العمـال في المصانع مشغولين في انتخاب لجانهـم وفي الجـدل والمناقشات . فقد اصبحوا الآن الطبقة الحاكمة ، التي لا تتلقى الاوامر من احد وكانوا يأخذون الامور بالرفق بصورة خاصة . وعندما كانوا يحتاجون الى تجديد نعـال احذيتهم كانوا يقطعون سيور نقـل الحركة التابعة لآلاتهم . فقد كانت هذه الآلات وسيورها ملكـاً خاصاً بهم . وبهذا الشكـل ، بدلا من ان يتطور الانتاج الصناعي وينمو في فترة قصيرة ، توقف بسرعة [1] » . ونظراً لان العمال لم يكونوا يملكون الا النذر اليسير ، او لم يكونوا يملكون شيئـاً لمبادلته مع الفلاحين ، اجتاحت المجاعة المدن ، وبدأ العمال في الفرار من المصانع وهرعوا الى الارياف بحثـاً عن الغذاء .

وبعد ثلاثة اشهر بالضبط من تحول البروليتاريا الى طبقة حاكمة كتب لينين في كتيبه الصغير العنوان التالي : « كيف تنظم المنافسة » :

« إن العمال والفلاحين لا يجترؤون حتى الآن ، لان فكرة كونهم الآن الطبقة السائدة ... فكرة لم تترسخ في اذهانهم بعد ... ان الاحصاء والاشراف هي المهمة الاقتصادية الرئيسية لكل لجنة مصنع او لكل جهاز اشراف عمالي بصورة عامة ...فقد اصبحت الارض والبنوك ، والفبارك ، والمصانع ملكاً للشعب كله . أمنوا **بانفسكم** الاحصاء والاشراف على الانتاج وتوزيع مواده .. هذا الطريق ، **وحده** هو المنفذ المؤدي الى انتصار الاشتراكية .. ولكي تنظموا هذا الاحصاء وهذا الاشراف ، بصورة ملائمة وحسنة ، بصورة **متناسبة تناسباً**

---

(١) المرجع نفسه ـــ بوران **Borin**

كاملاً مع قوى كل عامل ،وكل فلاح شريف ، وذكي ، وخفيف في عمله ، لكي تنظموا ذلك ينبغي عليكم ان توقظوا مواهبكم النابعة من بيئاتكم الخاصة (١) كمنظمين » .

وبعد اربعة اشهر ، بدأت النغمة في التبدل . ففي ٢٨ من ابريل (نيسان) ١٩١٨ صرح لينين في مقال بعنوان : « المهمات الفورية لسلطة السوفييتات » بما يلي :

« ان التحول الاشتراكي مستحيل تحت ادارة الاخصائيين في مختلف ميادين العلم ، والفن ، والتجربة ... ان معظم الاخصائيين بورجوازيين بالضرورة فلو ان طبقتنا البروليتارية حسمت مشكلة الاحصاء والاشراف والتنظيم بسرعة ، لكان في وسعنا نحن .. ان نخضع الاخصائيين البورجوازيين بفضل تعميم الاحصاء والاشراف ... وينبغي علينا ان نستعين الآن بالاسلوب البورجوازي القديم ، وان نقبل دفع ثمن مرتفع جداً « لخدمات » اكبر الاخصائيين البورجوازيين .. وتطرح المشكلة نفسها نظراً لأن هناك بضعة مئات من الاخصائيين الاجانب الذين استدعيناهم : فهل من الممكن اعتبار انفاق ما يعادل من ٥٠ الى ١٠٠ مليون روبل سنوياً تخصص لاعادة تنظيم عمل الشعب تبعاً لآخر صرخة من صرخات العلم والتقنية انفاقاً مرهقاً او مبالغاً فيه ؟ كلا ، بالطبع . .. فان كل العناصر الشريفة والواعية في صفوف العمال والفلاحين الفقراء ستتفق معنا في الاعتراف باننا لسنا في وضع يسمح لنا بالاستغناء دفعة واحدة عن التركة المشؤومة التي خلفتها لنا الرأسمالية « الا » اذا طهرنا صفوفنا .. من المتخاذلين ، والطفيليين ، والمبددين بالثروة (فكل الارض اليوم ، وكل المصانع ، وكل السكك الحديدية تشكل « ثروة »

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، الجزء ٢ ، ص ٣٠٣ .. النص الفرنسي .

الجمهورية السوفيتية [1] » .

وبعد شهر ، عندما دخلت الحرب الاهلية مرحلتها الاولية ، اعطى لينين في كتيبه « المجاعة » جدولاً ممزقاً لشروط الحياة في بتروغراد في المناطق الصناعية ، التي يعزوها الى قيام البورجوازية والكولاك (الفلاحون الاغنياء) « بالمضاربة في الحبوب والمواد الغذائية الاخرى » لا الى التجربة الاشتراكية ذاتهـا [2] . وعندما انتهت الحرب الاهلية وتوقف تدخل الحلفاء كان هناك مئات الالوف من الاشخاص قد ماتوا جوعاً ، ولم يبق من سكان بتروغراد الذي يبلغ ٢ مليون سوى ٧٠٠,٠٠٠ .

وبمرور الوقت ، ومع ربيع عام ١٩٢١ ، كان لينين يرى الوضع جيداً . ولكي يتوفر الخبز للمواطنين في الاتحاد السوفييتي استدعى في ٨ من مارس (آذار) المؤتمر العاشر للحزب . واتخذ في هذا المؤتمر قراراً بالغـاء كل المراسيم المتعلقة بالزراعة : فقد اصبح الفلاحون احراراً في العودة الى المشروع الخاص ، واستئجار الشغيلة ، وبيع محاصيلهم بالاسعار التي يحصلون عليها . وقد سمي هذا الاصلاح بالسياسة الاقتصادية الجديدة ، وكانت هذه السياسة تراجعاً للاشتراكية .

---

(١)
Lènine: oeuvres choisies, Vol. II. p. 378.
المؤلفات المختارة ، جزء ٢ — ص ٣٧٨ — النص الفرنسي .

(٢)
Lénine: «de la famine» lettre aux ouvriers de pètrograd (24 mai 1918) oeuvres choisies.
« حول المجاعة » رسالة الى عمال بتروغراد (٢٤ مايو سنة ١٩١٨)
المؤلفات المختارة جزء ٢ ، ص ٤٠٩ .

وفي كتيب مؤرخ في ٥ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢١ [١] يفسر لينين بان تقدم الثورة : « في اتجاه يدمر النظام القديم بصورة مباشرة وشاملة ، وتبديله بنظام جديد من الاقتصاد الاشتراكي » كان خطأ . ومنذ الربيع ، حل محل ذلك « اسلوب آخر من نموذج اصلاحي » كان الهدف منه « انعاش التجارة ، والصناعة الصغيرة ، والرأسمالية ، مع محاولة التحكم فيها بحكمة وعلى درجات » « .. فقد دق الثوريون الحقيقيون في معظم الاحيان اعناقهم عندما كانوا ينكبون على كتابة « الثورة » باحرف كبيرة ، وعندما كانوا يشيدون « الثورة » بغرض تحقيق نهاية حاسمة لها تقريباً .. » . ولا بد لبروليتاريا الدولة من ان تعي « بكل قواها » بان « التجارة هي الرباط الاقتصادي الوحيد الممكن بين عشرات الملايين من الزراع الصغار والصناعة الثقيلة » .

وبعد عام ، وفي كتيب من كتيبات الدعاية عنوانه « خمس سنوات من الثورة الروسية ، وآفاق الثورة العالمية [٢] » وضع لينين خطاً متوازياً بين السياسة الاقتصادية الجديدة — ورأسمالية الدولة ، التي تعتبر « عنصراً لا اشتراكياً » ، كما سماها ، وتساءل فيما اذا كان من الواجب ان تقدر بصورة افضل من الاشتراكية ؟! واليكم جوابه على ذلك : « ستكون رأسمالية الدولة مع انها ليست شكلا اشتراكياً ، بالنسبة الينا وبالنسبة لروسيا ، نظاماً

---

(١)
Lènine: «sur le rôle de l'or oujourd'hui et oprès la victoire complète du socialisme» (5 novembre 1921) oeuvres choisies, Vol. II, p. 918.

(٢) لينين : « خمس سنوات من الثورة الروسية وآفاق الثورة العالمية ». (١٣ نوفمبر ١٩٢٢) .

Oeuvres choisies, Vol. II, p. 991.

ملائمـــاً بصورة افضل من الشكل القائم حالياً » و « الى نقطة محددة من هذه الحقيقة : نعم ، في الواقع ، الافضل لنـــا ان ننتقل بادىء بدء الى رأسمالية الدولة لنصل فيمـــا بعد الى الاشتراكية .. » ثم تساءل فيمـــا بعد قائلا ما يلي : « الى اين وصلت الامور اليوم ... منذ ان منحنـــا حرية التجارة للفلاحين ؟ والجواب واضح ، ومؤكد للجميع : ففي سنة واحدة ، لم تتغلب الفلاحة على المجاعة فحسب ، بـــل انها دفعت الضريبة من انتاجها بنسب هائلة ، حتى اننـــا استلمنا مئات ملايين البود(البود يعادل ١٦,٣٣ كغ)من الحبوب.وقد تم كل ذلك دون تطبيق اي تدبير من تدابير الاكراه والالزام ... وانني اعتبر ان ما حققته كان كثيراً حتى الآن .. فهناك دفع عام للصناعة الخفيفة ، وبدء من ذلك ، هناك تحسن واضح وملموس في اوضاع عمال بتروغراد وموسكو » ولكن وضع الصناعة الثقيلة ما زال خطيراً حتى الآن : فقد بقيت هذه الصناعة احتكاراً للدولة .

وبالرغم من هذا التحسن ، نجد لينين ، وقد اصبح رجلا واقعيـــاً في المقال الاخير الذي كتبه ، بتاريخ ٣ من مارس (آذار) ١٩٢٢ ، بعنوان : « الافضل يساوي اقل ، ولكنه افضل [١] » .

وقد اضاف لينين قائلاً : « غير ان السنوات الخمس الاولى قد ملأت عقولنا بالحذر والتشاؤم . ونحن ميالون . بالرغم عنـــا ، بان نتشبع بهذا الشعور ازاء اولئك الذين يتحدثون اكثر من اللازم ، وبسهولة كبرى في امور كثيرة. ولنأخذ الثقافة « البروليتارية » مثلا على ذلك : اذ يكفي في رأيهم ان نبدأ في الحصول على ثقافة بورجوازية حقيقية ... ان الامور تسير بصورة سيئة جداً في جهاز دولتنا ، ان لم نقل ان الامور تجري فيهـــا بصورة سيئة جداً وقبيحة ،

---

(١) لينين : المؤلفات المختارة ، الجزء ٢ ، ص ١٠٣١ (النص الفرنسي)

مما يضطرنا في بادىء الامر الى التفكير بصورة جدية في كيفية القضاء على عيوب هذا الجهاز ... وقد حان الوقت لكي نحتكم الى العقل للقضاء على عيوب هذا الجهاز .. ان علينا ان نشرع في التحقق باعتناء ودقة من التدابير التي نعلنها في كل ساعة ، والتي نتخذها في كل دقيقة ، ونبرهن فيما بعد في كل ثانية على عدم استقرارها نظراً لارتجالها ، وخلوها من المنطق واتسامها بعدم الفهم ... وها هي خمس سنوات نحاول فيها جاهدين تحسين جهاز دولتنا . غير ان نشاط هذه السنوات لم يكن الا نشاطاً غير منظم ولا جدوى منه ، بل اظهر لنا بانه ضار ايضاً . فقد اعطانا هذا النشاط غير المجدي مظهراً باننا نعمل . والحقيقة ، كان هذا النشاط يرسخ مؤسساتنا وعقولنا . ولا بد من ان يتبدل هذا النشاط في النهاية . وعلينا ان نطبق هذه القاعدة : الافضل يساوي اقل من ناحية الكمية ، ولكنه افضل كيفياً . وينبغي ان نطبق ايضاً هذه القاعدة الاخرى : الافضل ان نتوصل الى هدفنا خلال عامين او ثلاثة اعوام ، من ان نتعجل الاشياء دون امل باعداد مادة بشرية حسنة ... وكل العالم يعرف انه ليس هناك من مؤسسات اسوأ تنظيماً من المؤسسات التابعة لمفوضية التفتيش العمالي والفلاحي ، وانه لا يمكننا في الظروف الحالية ان نطالب هذه المفوضية بشيء .. فاذا لم نتسلح بالصبر ، واذا لم نكرس عدة سنوات من الجهد في هذا العمل ، فالافضل لنا ان لا نقوم به » .

وهكذا نرى ان الحالم قد استيقظ ليكتشف ان الرؤية الساحرة في البركة الماركسية والتي آمن فيها بتعصب ، وفتش عنها بشغف ونهم ، لم تكن الا وهماً من الاوهام ، وقبساً زائلاً لم يقده الى جنة العمال ، بل الى جنة اصحاب المصارف والى الرأسمالية الشاملة .

وحول هذا الاستنتاج اللاماركسي ، انكبَّ خلفه جوزيف ستالين (١٨٧٩ — ١٩٥٣) في جمع كل خيوط السلطة في يديه ، الامر الذي كان يتطلب الغاء الحكومات المحلية ، والقضاء على الاستغلال الذاتي

السياسي ، والثقافي والاقتصادي للجمهوريات السوفييتية . وقد كلفه تحقيق ذلك تسع سنوات تمت خلالها عملية التصنيع ، وجماعية الارض على الالوف من النفوس البشرية . ورافقتها عمليات تطهير شرسة في الحزب ، مات فيها رفاق لينين القدماء . وبهذا الشكل ، بدلا من ان تضمحل الدولة وتزول كما تنبأ ماركس وكما آمن بذلك لينين بتعصب ، غدت الدولة من جديد اوتوقراطية ، وهو الشكل الوحيد من الحكم الذي عرفه الروس في تاريخهم [١] .

---

(١) يلاحظ القارىء الكريم معي ان رأي المؤلف في هذا الفصل من مطلعه الى نهايته رأي مغرض وموتور في مفهوم الماركسية — اللينينية للصراع الطبقي ولطبيعة الدولة كأداة قهر طبقي يكشف عن سمة من سمات التفكير الرأسمالي الاستعماري الذي يرى في انتزاع الطبقات المستغَلّة لملكية وسائل الانتاج الخاصة وتحويلها الى ملكية عامة عملية افتراس حيواني . انه قول اشبه بقول شاعر الغابه في نشوة خيالية عاطفية . وهذا النوع من التفكير الرأسمالي الاستعماري إنما هو قاعدة مسلكية الطبقات الرأسمالية الاستعمارية ولكنه ليس قانون التاريخ . اما قدرة الطبقات العاملة على ادارة وسائل الانتاج وتطويرها ورفع الانتاجية في المجتمع الاشتراكي فانها حقائق اثبتتها التجربة من حيث اثبتت تفوق تلك الطبقات في هذا المجتمع تفوقاً ملحوظاً فاقت قدرة الطبقات الرأسمالية المستغلة ومجتمعاتها الطبقية .

وقد لجأ المؤلف الى تقييم مراحل مستقلة من الثورة الاشتراكية السوفييتية ، ان مثل هذا التقييم لا يستقيم وهو غير علمي. فلا يجوز بأي حال من الاحوال تقييم كل مرحلة من المراحل منعزلة عن مسار الثورة كلها ، وبصورة منعزلة عن الضغوط الاجنبية الرهيبة التي واجهتها اول ثورة انسانية في هذا العصر .

— المعرّب —

الفصل الحادي عشر

الحرب الثورية السوفييتية

١ – السياسة والحرب

ان السياسة السوفيتية الداخلية والخارجية مماثلة لسياسة القبائل البدائية التي تحدثنا عنها في الفقرة الرابعة من الفصل الثاني. فللبقاء على قيد الحياة، لا بد للجماعة الداخلية (الشيوعية) من التماسك والانسجام، ولا بد لها من الخضوع للسلطة كي تستطيع ممارسة اقوى ضغط ممكن على الجماعة الخارجية (الرأسمالية). فبالنسبة لرجل القبيلة، كما بالنسبة للثوري يسود المبدأ التالي: «دمر غيرك او تدمر انت». تلك هي حكمة الحكومة، وليس هناك من تمييز بين السلم والحرب كما في عالم الحيوان. ولهذا فان «الخاصة المميزة» للحرب السوفيتية هي «قابلية التبادل الداخلية بين الاسلحة السياسية والعسكرية.» كما لاحظ السيد بريون ديكستر. «فهجوم سلمي» في موسكو، ومحاضرة ثقافية في فارسوفيا، واضراب في فرنسا، وعصيان مسلح في تشيكوسلوفاكيا، وغزو لليونان وكوريا بقطعات مجهزة من الرأس الى اخمص القدم، كل هذا ليس سوى ادوات لحرب وحيدة يشنها ويوقفها جهاز مركزي واحد [١]».

---

(١) بريون ديكستر: «كلاوزفيتز والاستراتيجية السوفييتية»
Bryon Dexter Foreign Offairs, octobre 1950, Vol. XXIX No. 1, p. 41.

فان اكثر الحروب دموية بالنسبة للماركسي ، واكثر مراحل السلم هدوء وصفاء ليست في حد ذاتها ، كما اشار الى ذلك البيان الشيوعي في الصفحة الاولى منه ، الا مراحل من الصراع الطبقي والدائم والمستمر وهو « صراع خفي تارة ، ومكشوف تارة اخرى » ينتهي « اما باقامة المجتمع من جديد على اسس ثورية ، او بالدمار المشترك للطبقات المتصارعة »(١) .

وتتفق نظرية الحرب الموحدة ، وحرب كل الابعاد ، التي يقودها ذكاء عالٍ ومركزي ، تتفق مع ملاحظة كلاوزفيتز القائلة « بان الحرب تنتمي الى ميدان الوجود الاجتماعي » وهذا يعني « انها ليست فعلا يحققه العسكريون فحسب ، بل انها تعبير عن صراع الافكار ، والاهداف ، وطراز الحياة في مجتمع من المجتمعات ضد المجتمع الآخر »(٢) . وقد فصل كلاوزفيتز هذا التعريف بصورة افضل عندما كتب ما يلي : « اننا نرى ان علينا في كل الظروف اعتبار الحرب اداة سياسية » اي اداة لها علاقات في الوقت ذاته مع الحرب والسلم » لا شيئاً مستقلاً بحد ذاته . وبهذا يمكن ان نتحاشى التناقض مع كل تاريخ الحرب . وتكفي هذه الفكرة لان تفتح امامنا كتاب التاريخ

---

(١) يعالج المؤلف هنا الموضوع من زاويته الخاصة كعسكري استعماري . فقد نددت الاشتراكية بالحرب الا انها في الوقت ذاته تؤمن بالحروب العادلة . وتؤمن بضرورة دراسة كل حرب على حدة دراسة تاريخية ، على ضوء التفسير المادي للتاريخ . ويميز لينين في كتابه « الاشتراكية والحرب » بين الحرب الهجومية والدفاعية وبين الحرب الامبريالية وحروب التحرير العادلة التي تشن لقهر الشعوب واستعبادها . راجع كتاب .. « الاشتراكية والحرب » لينين — المعرّب .

(٢) المرجع المذكور سابقاً .

الكبير وتجعلنا نقدر تجاربه بشكـــل ذكي . وهي تدلنا كم تختلف الحروب بناء على طبيعة دوافعهـــا والظروف التي تولدها (١) » .

ولن نصاب بالدهشة اذا علمنـــا ان هذه الملاحظات كانت في ذهن لينين عندما كان يتحدث الى المؤتمر السادس للدولة الشيوعية اذ قال ما يلي :

« ينبغي على البروليتاريا ان تحلل بدقة المدى التاريخي والسياسي ، من وجهة نظر الطبقات لكل حرب ، وان عليهـــا ان تقدر باعتناء خاص ، من وجهة نظر الثورة العالمية ، دور الطبقات السائدة التي تساهم في الحرب في كل البلدان (٢) .

ومع ذلك ، فان هناك فرقاً كبيراً جداً بين هذين التقديرين لانه ، اذا كان كلاوزفيتز لم يناقش ابداً سوى الاخلاقيات ، كعـــامل من عوامل الحياة الاجتماعية ، وكما كانت تتصورها الشعوب المتمدنة ، الا ان لينين امتنع عن ذلك ، وارجع الحرب واعادها الى صراع حيواني صرف ، يسمح فيه بتوجيه كل الضربات .

وقد قال لينين « اننا نرفض كل العبر الاخلاقية النابعة من مفاهيم لا انسانية ومخالفة للاشتراكية . ونقول ان ذلك يعتبر خيبة امل ، وخدعة محسوبة لصالح الملاكين والرأسماليين . ونقول ان عبرتنا تابعة بصورة كاملة لمصلحة صراع طبقات البروليتاريا : الجماعة الداخلية » .. ونقول ايضاً : ان سلوكنـــا الاخلاقي هو الذي يفيد في تدمير مجتمع المستغلين (بكسر الغين) القديم « الجماعة

---

(١) كلاوزفيتز : « في الحرب » الصفحة ٦٨ فرنسي ، وص (٩٩) في الترجمة العربية الصادرة عن دار الكاتب العربي عام ١٩٦٩ . المعرّب

(٢) ذكر ذلك تراكوزيو في :

War and Peace in Soviet Diplomacy (1940, p. 24).

الخارجية » وبتوحيد العمال حول البروليتاريا التي هي في سبيلها الى انشاء مجتمع شيوعي جديد .. ونحن لا نؤمن بسلوك اخلاقي ابدي [١] .

وبناء على هذا ، فان الاخلاق السوفييتية هي الانتهازية ، كما في الحرب القبلية ، وبما ان الاعتبارات الاخلاقية مستبعدة منها فان للمخاتلة الاولوية على الفضائل الخلقية . ويتصدر الانقضاض البسيكولوجي غير المباشر الانقضاض المادي المباشر ، لانه ما دام العدو يتمسك بقانون اخلاقي ، فانه يجد نفسه في موقع غير ملائم بالنسبة لخصمه اللا أخلاقي والمادي [٢] .

---

(١) ذكر هذا كارو هانت CAREW HANT ، المرجع المذكور سابقاً ص ٧٩ – ٨٠ . تبعاً لرأي تروتسكي : « ان اعلى اشكال الصراع الطبقي هو الحرب الاهلية التي تنسف كل عرف اخلاقي للطبقات المعادية نسفاً تاماً » (ص ٨١) .

(٢) هذا الكلام مردود اذ بالمقابل متى كانت الحروب التي شنتها انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا والنمسا وروسيا القيصرية خلال عقود من السنين ، حروباً غير انتهازية . فقد مارست هذه الدول سياسة نهب المستعمرات واضطهاد الامم ، وسحق الطبقات المستغلة (بفتح الغين) . متى كانت دول الغرب الامبريالية اخلاقية ؟ اذا كانت الحرب استمراراً للسياسة بوسائل اخرى ، فقد كانت الحروب الاستعمارية استمراراً لسياسة استعباد الامم . ان الحرب الحالية التي تشن ضد الدول العربية استمرار للسياسة الامبريالية والصهيونية في تمزيق الوطن العربي ومنع تحرره الوطني والقومي ، والانساني . وتتميز كل الحروب الامبريالية بمعاداتها لقضية التحرر القومي ، ومنعها للدول المتحررة من تطوير قواها المنتجة ، لاحكام استمرار استثمارها واستثمار مواردها .

— المعرب —

والحرب مطلقة في كل ابعادها ، ولا تتوقف الا عندما تدمر الرأسمالية « الجماعة الخارجية » ، تدميراً تاماً . بناء على هذا وطبقاً لرأي لينين :

« لا يستطيع الاشتراكيون ان يكونوا معادين لكل نوع من انواع الحروب وان يبقوا اشتراكيين . فنحن نكافح ضد السبب الحقيقي والأولي للحروب : وهو الرأسمالية . ولكن ما دامت الرأسمالية لم تباد حتى الآن ، فاننا لا نكافح ضد الحرب بصورة عامة ، بل نكافح ضد الحرب الرجعية . و « في الوقت ذاته » نكافح من اجل الحرب الثورية [١] » .

او ايضاً :

« نحن لا نعيش فقط في دولة واحدة ، بل في نظام مؤلف من دول متعددة ، وليس من المعقول ان تستطيع جمهورية السوفييت الحياة لمدة طويلة جنباً الى جنب مع الدول الرأسمالية . وبمرور الزمن لا بد من ان ينتصر طرف من الاطراف . وقبل ان يحدث هذا ، فان سلسلة من المصادمات المخيفة بين الجمهورية السوفييتية والدول البورجوازية سيكون امراً لا يمكن تجنبه » [٢] .

وبما ان الحرب والثورة تعبيران قابلان للتبديل فيما بينهما ، تبعاً لنظرية ماركس ، فان علينا ان نفتش عن اكبر اقتصاد بالقوى في تحويل الصراع الدولي او الامبريالي الى حرب اهلية ، اي الى حرب يدمر فيها الخصم نفسه بنفسه . والهدف من هذه النزاعات ان نجعل منها « القابلة » المولدة للثورة بهجمات سياسية وبسيكولوجية مستمرة : بدعاية منهجية ، واحداث اضرابات ، وتآخي الجماهير ، والتحريض على التمرد والفرار . وينبغي ان يكون في ذهننا ، انه في صراع عسكري صرف ، ينبغي ان توجد القوات

---

(١) تاراكوزيو المرجع المذكور ، ص ٢٨ .

(٢) ذكر ذلك ستالين في كتابه مسائل اللينينية (١٩٤٦) الجزء الاول ، ص ١٥١ (مسألة انتصار الاشتراكية في بلد واحد) .

الاحتياطية في الشعب المسلح للبلدان المتصارعة . وفي حرب ثورية ، ينبغي ان نفتش عن هذه القوات الاحتياطية في صراع الطبقات داخل البلد المعادي ، وفي طبقته البروليتارية المستاءة وفي حركات تحرر مستعمراته واقلياته ، وفي الصراعات بين احزابه غير البروليتارية .

ولتحقيق هذا الهدف لم ينظم الجيش الاحمر ويدرب ، منذ اول ايام تأسيسه ليكون اداة عسكرية فحسب ، بل ليكون اداة ثورية ايضاً . وتبعاً لرواية بول فرفاك ، عندما اجتاح توخاتشفسكي بولونيا في عام ١٩٢٠ كان يتبع جيشه المؤلف من ٢٠٠,٠٠٠ جندي جماعة مؤلفة من ٨٠٠,٠٠٠ سياسي ، وشرطي ، وسارق ، كانت مهمتهم بلشفة الاراضي المحتلة ، وابادة الاغنياء ، ورمي البورجوازيين والارستوقراطيين بالرصاص [١] . وفضلا عن ان رقم ٨٠٠,٠٠٠ هو رقم ضخم ، ومن الصعب قبول صحته ، الا ان توخاتشفسكي قد استخدم عدداً لا بأس به ، لانه اعلمنا ذلك بنفسه عندما روى ان جيشه كان مسبوقاً بطليعة من رجال الدعاية . وقد كتب لورد دابرنون قائلا ما يلي :

« كانت موسكو تملك عدداً كبيراً من الجواسيس ، ورجال الدعاية ، والعملاء السريين ، والاصدقاء المختفين الذين تسللوا الى الارض البولونية وخربوا مقاومة بعض عناصر الشعب البولوني .. ولم تكن الخدمات التي قدمها هؤلاء الانصار العزل من السلاح اقل فاعلية من الخدمات التي ادى اليها ضغط الجيش . وكان الاسلوب المطبق هو تجنب كل هجوم جبهي كلما كان ذلك ممكناً ، والالتفاف على المواقع بمسيرات جانبية ، وبالتسلل والدعاية » [٢] .

---

(١)

PAUL FERVACQUE: le chef de l'armée Rouge. Mikïl Toukhatchevski (1928), p. 124.

(٢)

Lord d'aBernon: The eighteenth decisive battle of the World. p. 28.

واخيراً فان لينين يرى :

ان علينا ان نقيِّم الحرب « لا بعدد الخسائر التي سببتهـــا ، بل بنتائجها السياسية . وينبغي ان توضع مصالح الطبقة فوق مصالح الافراد الذين يموتون ويعانون من الحرب . واذا خدمت الحرب مصالح البروليتاريا ، كطبقة ليس هنـــاك غيرها ، وامنت تحريرها من قبضة « الرأسمـــالية » وضمنت حرية كفاحهـــا وتطورها — فان مثل هذه الحرب تعتبر تقدمـــاً بصرف النظر عن الضحايا والآلام التي تشتمـــل عليها [١] »

٢ — لينين وكلاوزفيتز

لقد كان لينين مسحوراً بكتاب « في الحرب » الذي ألفه كلاوزفيتز ، مثله مثل انجلس وماركس . ولم يدرسه بحدس وانتباه فقط ، بل وضع عليه ملاحظات هامة ايضاً [٢] . فقد وضع ملحوظات على كل فصل « الحرب هي

(١)
Cité par Taracouzio, op. cit. p. 53.

(٢) طبعت البرافدا الملاحظات التي وضعها لينين على هامش الكتاب لاول مرة في عـــام ١٩٢٣ ، ثم اعيد طبعهـــا عدة مرات ، انظر كتاب ريمون ل. غارتهوف .
How Russia Makes War ((1959) p. 54)
وهناك ترجمة فرنسية لبرتهودت س. فريلد :
«Cahier de Lènine No. 18674 des archives de l'institat Lènine de Moscou.
والاسس النظرية للحرب والسلم في الاتحاد السوفييتي .
(Paris, édition Médieis 1945. pp. 47 - 90).

اداة السياسة » (١) . ووصف لينين هذا الفصل بانه « اهم فصل » في الكتاب وهو امر لا شك فيه . وتظهر الاستشهادات التالية انه يدين بالكثير لكلاوزفيتز :

فتحت عنوان « الحرب هي استمرار السياسة بوسائل (اي بالعنف) اخرى ، كتب لينين ما يلي : « هذه الكلمة المأثورة ، انما قالها كلاوزفيتز ، وهو من اعمق الكتاب في القضايا العسكرية (٢) . وبحق اعتبر الماركسيون دائماً هذه الفكرة اساساً نظرياً للمفاهيم حول صفة كل حرب معينة » (٣) . وفي مناسبة اخرى وصف لينين كلاوزفيتز « بانه من اشهر كتاب فلسفة الحروب وتاريخها انه كاتب اصبحت افكاره الاساسية اليوم المكتسبات التي لا تناقش لكل شخص يفكر (٤) » .

ونجد الاثر الذي مارسه كلاوزفيتز على فكر لينين منتشراً في مؤلفاته العديدة فنجده مثلاً يدعو انصاره في كتابه :

«La catastrophe imminente et les moyens de la conjures»

الذي كتبه في سبتمبر (ايلول) ١٩١٧ لان يتذكروا « ان طابع الحرب محدد بمسألة معرفة ما هي السياسة التي تتابعها الحرب (فالحرب هي استمرار السياسة) ، « وما هي الطبقة التي تقوم بالحرب ، وما هي

---

(١) راجع كلاوزفيتز « في الحرب » — الجزء الثالث — الكتاب الثامن — الفصل الرابع — منشورات المؤسسة العامة للتأليف والنشر (دار الكاتب العربي) القاهرة . — المعرب —

(٢) راجع لينين — الاشتراكية والحرب — ص ١٥ . — المعرب —

(٣)
Lènine: Collected Works (édition anglaise) Vol. XVIII p. 224.

او راجع لينين — الاشتراكية والحرب — ص ١٥ — المعرب —

(٤) ذكر ذلك غارتهوف في المرجع المذكور سابقاً ، ص ٥٥ .

اهدافها »[١] . « ان الحرب ذاتها لا تعدل الاتجاه الذي تتخذه السياسة قبل الحرب ، فهي لا تفعل سوى الاسراع في تطويرها[٢] » .

وفي « نصائح غائب » الذي كتبه في ٢١ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٧ لتهيئة الثورة ، رسم لينين فن العصيان الواجب اتباعه . فقد قال : « ان العصيان المسلح هو شكل خاص من اشكال الكفاح السياسي » ، وهي حقيقة عبر عنهـا ماركس بصورة باهرة عندما كتب : « **ان العصيان فن ، كفن الحرب** » . واضاف فيمـا بعد قائلا ما يلي : « وها هي بعض القواعد الرئيسية التي وضعهـا ماركس لهذا الفن » وهي مرتبطـة ارتباطـاً وثيقـاً بمبادىء الحرب التي وضعها كلاوزفيتز[٣] . اما فيما يتعلق بالعصيان المسلح :

١ ــ « ينبغي ان لا **نلعب** مع العصيان ، وعندما نبدأ فيه ، ينبغي ان نكون مقتنعين **بفكرة المسير فيه الى النهاية** » .

٢ ــ « ينبغي ان نجمع ، في المكان الحاسم ، وفي اللحظة الحاسمة **قوات متفوقة** على قوات الخصم تفوقاً كبيراً ، والا فان الخصم ، نظراً لانه افضل تنظيمـاً واعداداً ، سيبيد المتمردين » .

٣ ــ « عندما يبدأ العصيان ، ينبغي العمل باكبر **تصميم** ممكن على الحسم وان ننتقل مهما كـان الثمن الى الهجوم . فالدفـاع يعني موت العصيـان المسلح » .

---

(١) لينين : المؤلفات المختارة بالفرنسية ، الجزء الثاني ، صفحة ١٣٢ .
(٢) ذكر ذلك تاراكوزيوفي ، المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .
(٣) انظر الفصل الرابع ، الكتاب السادس ، « في الحرب » ــ الجزء الثاني ــ من كتاب كلاوزفيتز باللغة العربية ــ منشورات دار الكاتب العربي ــ القاهرة . المعرّب

٤ — « ينبغي ان نحاول اخذ العدو وهو في حالة عدم استعداد ، وان نغتنم الفرصة التي تكون فيهـا قطعاته منتشرة » .

٥ — ينبغي ان نحصل **كل يوم** على هذا النجاح ، حتى ولو كان قليل الاهمية ويمكنننـا القول : « في كل ساعة ، عندما يكون العصيان في مدينة من المدن » مع الاحتفاظ « بالميزة المعنوية » مهما كان الثمن .

وقد لخص ماركس تعاليم كل الثورات عن العصيان المسلح عندما ذكر بكلمة دانتون (الذي وصفه بانه) : « اكبر معلم من معلمي التكتيك الثوري الذي عرفه العالم» : « مزيداً من الجرأة ، ومن الجرأة ايضاً ومن الجرأة دائماً»[١]

ويذكر ستالين هذه التعليمات في كتابه **مسائل اللينينية** ويضيف اليها قائلاً :

يقول لينين : « في وسعنا ان نعتبر ان الوقت قد حان للمعركة الحاسمة **اذا** « كانت كل القوى الطبقية المعادية لنا ، في وضع صعب بصورة كافية ، وفي وضع تمزق داخلي كاف ، وقد ضعفت ضعفاً كبيراً بصراع يتجاوز حدود وسائلها» **واذا** « كانت كل العناصر الوسيطة مترددة ، ومتذبذبة ، وغير متينة : فقد انكشفت البورجوازية الصغيرة ، وديموقراطية البورجوازية الصغيرة في مواجهة البورجوازية ، وفقدت شرفهـا امام الشعب بما فيه الكفاية بسبب فشلهـا العملي » . — **واذا** « ظهر في صفوف البروليتاريا ، حركة رأي عـام قوي وبدأ في كسب الجماهير لاكبر عمل حاسم ، ولاكثر الاعمال جرأة وثورية ضد البورجوازية . عندئذ تكون الثورة ناضجة ، وفي هذه الحالة لو اخذنا بعين الاعتبار كل الشروط المذكورة اعلاه .. ولو انتقينا الفرصة بصورة جيدة ، فان انتصارنا مضمون »[٢] .

---

(١) لينين : المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، ص ١٥١ ، طبعة فرنسية .

(٢) جوزيف ستالين : مسائل اللينينية ص ٦٦ (النص الفرنسي) .

وبالرغم من ان الدفاع في رأيه موت لكل عصيان مسلح ، الا ان لينين وجه انتباهاً كبيراً لنظريات كلاوزفيتز عن الدفاع والهجوم ـــ المضاد . وقد كتب عن الاحزاب الثورية التي تعلمت كيف تهاجم : « ان عليهـــا ان تفهم الآن ان من الضروري تتميم هذا العلم بعلم التراجع الذي يتم طبقـــاً للقواعد » . وان « من المستحيل الانتصار دون تعلم علم الهجوم والتراجع الذين يتمان طبقاً للقواعد » [١] .

وبعبارات اخرى ، ليس هدف الاستراتيجية ربح المعارك فحسب ، بل ايضاً ربح الوقت اللازم لجمع القوات القادرة على ربحها . وقال ستالين ايضاً ان لينين عمـــل بهذا الشكل اثناء مفاوضات برست ليتوفسك ، ليكون في وسعه اعداد الهجمات ضد كولتشاك ودينيكين . وبعد ثلاث سنوات من توقيع معاهدة برست ـــ ليتوفسك كتب لينين ايضاً « اليوم يفهم الجميع حتى آخر سخيف وبليد « ان صلح برست ـــ ليتوفسك » كان تنازلا عزز مواقعنا وجزء قوى الامبريالية الدولية » [٢و٣] .

---

(١) المرجع المذكور ص ٦٧ .

(٢) المرجع المذكور ص ٦٨ .

(٣) هنا لا بد من تعليق بسيط ، فقد كانت القيصرية في رأي لينين تحارب لصرف الانتباه عن الاستياء المتعاظم في داخل البلاد ولسحق الحركة الثورية الصاعدة . وكانت القيصرية تحارب ايضاً بغية الاستيلاء على غاليسي وخنق حرية الاوكرانيين نهائياً ، والاستيلاء على ارمينيا والقسطنطينية . فهل تعتبر هذه الاهداف في نظر المؤلف اهدافاً مشروعة للحرب ؟ ! ـــ المعرب ـــ

فاذا قلنا الآن ان آنجلس وماركس ، ولينين [١] ، هؤلاء الذين يعتبرون اشهر العقائدين الثوريين منذ الثورة الفرنسية ، والذين لم يكن احدهم جندياً في يوم من الايام ، اذا قلنا كم يدين هؤلاء بافكارهم الاستراتيجية لكلاوزفيتز فان ذلك بالتأكيد هو اعظم تحية توجه لكلاوزفيتز نظراً لفكره النفاذ في طبيعة الحرب .

٣ ــ الدولية (الشيوعية) الثالثة

ونظراً لان ثورة اكتوبر اعطت لعمال العالم وطناً تقاتل من اجله ، فان لينين كان يأمل في قيام ثورة عالمية فيما بعد . وقد كتب في ٢٠ من يناير (كانون الثاني) ١٩١٨ ، وهو مشبع بهذه الآمال الكبار ما يلي : « لا بد من قيام الثورة الاشتراكية في اوروبا ، وانهــا لآتية بدون شك . وتستند كل آمالنا في الانتصار النهــائي للاشتراكية الى هذا التأكيد والى هــذا التنبوء

---

(١) كتب البروفسور فيرنرها هلفيغ WERNER HAHLWEG في مقاله : « كلاوزفيتز ، لينين والمظاهر العسكرية الشيوعية اليوم » في
Journal of the Royal United Service Institution, mai 1940.
: ان كتاب « في الحرب » كان معروفــاً ايضاً من القادة الشيوعيين الآخرين كتروتسكي ، وستالين ، ورادیك وفرونزيه ، ومن المارشالات الروس كشابوشنيكوف وجوكوف .. وعندما نشبت الحرب ، في عام ١٩٤١ بين روسيا والمانيا ، كان هنالك في الاتحاد السوفييتي خمس ترجمات روسية لكتاب « في الحرب » .. وكانت نظريات كلاوزفيتز مرتبطة بالتقنية العسكرية الروسية لدرجة نبالغ فيهــا اذا ادعينا بانه من غير الممكن فهم هذه التقنية دون فهم نظريات كلاوزفيتز » .

العلمي » [١] . ومن جديد ، وفي ٧ من مارس (آذار) اي بعد اربعة ايام من توقيع معاهدة برست – ليتوفسك اضاف لينين قائلا : « .. لا جدال في اننـا لن نتغلب على كل صعوبات ثورتنا الا عندما تصل الثورة الاشتراكية العالمية الى مرحلة النضج ، وهي تنضج الآن في كل مكان » [٢] .

ولكن بالرغم من توقعاته ، وبعد هدنة ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨ لم يكن هنـاك ثورة تنضج . وعندما طرقت الحرب الاهلية ابواب الاتحاد السوفييتي في العـام التالي ، فهم لينين ان الثورة العالمية لا تقوم بدون اداة ثورية عالمية . فمثـل هذه الاداة ضرورة مزدوجة في الوقت الحالي ، **لا لتدمير الرأسمالية فحسب ، بل لمنع تدمير الثورة الأم ايضاً** . وبناء على ذلك احيى في ٤ من مارس (آذار) ١٩١٩ الدولية الثالثة (الشيوعية) او الكومنترن ، وهو تنظيم الاحزاب الشيوعية في كل البلدان ، مستقـل اسماً عن موسكو ومخصص للحلول مكان الدولية الثانية التي انهارت في عام ١٩١٤ [٣] .

وتشير التعليمات التي اعطاها المؤتمر الاول للكومنترن بوضوح الى الخطر الذي وجد فيه الاتحاد السوفييتي نفسه في ذلك الوقت . كانت هذه التعليمات

---

(١) لينين : المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، صفحة ٣١٧ (النص الفرنسي) .

(٢) لينين : المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٥٠ (النص الفرنسي)

(٣) كانت الدولية الثانية قد قبلت تركيب فلسفة الدولة الليبرالية وسياسة ماركس الاقتصادية وآمنت بالتطور السلمي للاشتراكية . وعند اعلان الحرب في عام ١٩١٤ انقسمت الى جماعتين : « الاشتراكيون الوطنيون » الذين دعموا الحرب ، و « الاشتراكيون السلميون » الذين عارضوها . ولم توافق اية جماعة على الثورة العالمية .

تحرّض عمــال العالم على مطالبة حكوماتهم بمــا يلي : ايقاف التدخل في روسيا ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية الروسية ، ودعوة روسيا الى مؤتمر للسلم ، ورفع الحصار الاقتصادي ، وعودة التجارة مع روسيا . ولكن لم ينتج شيء عن ذلك ، لان الاحزاب الشيوعية المشغولة في صراعاتها ، كانت عاجزة عن تخمير الثورة ، كما كانت البروليتاريا الروسية ذاتها عاجزة بدورها ايضاً عن ادارة الدولة وحكمهــا .

لقد فقد لينين ثقته في الحزب ، بعد ان تبددت اوهامه نظراً لعدم كفاءة البروليتاريا ، ومنذ انتهــاء الحرب الاهلية . وفي ابريــل (نيسان) — مايو (ايار) ١٩٢٠ ، كتب المقال التالي : « اليسارية مرض طفولي من امراض الشيوعية » ، وكان هذا المقال موجهــاً الى كل الاحزاب الشيوعية التابعة للدولية الثالثة ، وكان هدفه تحويل هذه الاحزاب الى اداة ثورية نشيطة . وقد اشار في هذا المقال « الى انه اذا لم يرسخ انضباط حديدي حقيقي ودقيق في الاحزاب » فان الانتصار على البورجوازية امر مستحيل . وطرح فيما بعد السؤال التالي :

كيف يمكن تعزيز الانضباط وتقوية دعائمه ؟ وكان جوابه هو الجواب التالي :

« يكون ذلك ، في اول الامر ، في وجدان الطليعة البروليتارية (اي الحزب) واخلاصه للثورة ، وسيطرته على ذاته ، وروح التضحية لديه ، وبطولته . ويكون ذلك فيمــا بعد بقابليته على الارتباط .. وعلى الالتحام والذوبان في **جمهرة الشغيلة** الواسعة جداً ، وفي المقام الاول في التحامه وذوبانه في الجمهرة البروليتارية ، ولكن **مع جمهرة الشغيلة** غير البروليتارية ايضاً . وثالثاً يكون ذلك بصواب الادارة السياسية التي تحققهــا هذه الطليعة ، وبصواب استراتيجيتهــا وتكتيكها السياسي . وعندما تنعدم هذه الشروط في حزب

ثوري قادر حقيقة على ان يكون حزب طبقة الطليعة المدعوة لتقويض البورجوازية ولتحويل كل المجتمع ، يكون الانضباط غير قابل للتحقيق [١] » .

وكان يهاجم في مقاله الطائفية الضيقة للاحزاب الشيوعية التي كان موقفها ازاء اللاشيوعيين موقفاً يتسم بعداء مستحكم . اذ ان هذا الموقف لم يفعل شيئاً سوى التحام صفوف البورجوازية ، بدلاً من تشتيتها وتغيير موقفها . وكان يسمي هذا الموقف « خيانة للثورة . ويدعم الرأي القائل بان التهرب من كل اتفاق وسطي مبدئياً عمل طفولي . ولكي يدعم فكرته ، كان يبرز دور الرفيقة سيلفيا بانكهيرست ، المناضلة المعروفة والتي كانت ترى انه : « لا ينبغي على الحزب الشيوعي ان يبرم اية اتفاقات وسطية .. ان عليه ان يحافظ على عقيدته بصفاء .. ان مهمته هي السير الى امام ، دون توقف ودون ان ينحرف عن طريقه ، وان يسير في خط مستقيم نحو الثورة الشيوعية » .

وقد صرح لينين : « ان شعار الى امام ، دون عقد اتفاقات وحلول وسطى ودون انحراف عن الطريق » .. ان هذا الشعار خاطىء من اساسه اذا كانت تنادي به اقلية من العمال عاجزة كل العجز عن القيام بأي عمل . ان رفع مثل هذا الشعار كالمثل الذي يضربه ١٠,٠٠٠ جندي يلقون بانفسهم في المعركة ضد ٥٠,٠٠٠ من اعدائهم ، في حين كان ينبغي عليهم « ان يتوقفوا » و « ان يقوموا بانعطاف ما » ، وان يبرموا « اتفاقاً وسطاً » ليتيحوا لمائة الف من النجدات التي وعدوا بها الوقت الكافي للوصول ، علماً بانهم لا يستطيعون دخول المعركة فوراً . ان مثل هذا التفكير مراهقة من مراهقات

---

(١) — لينين — المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، صفحة ٦٩٤ (النص الفرنسي) .

المفكرين ، وهو لا يمثل تكتيكاً جدياً لطبقة ثورية [١] » .

وقد طبقت السياسة المعروضة في خطوطها العامة في هذه الاطروحة في المؤتمر الثاني للكومنترن الذي انعقد في يوليو (تموز) اغسطس (آب) ١٩٢٠ . وقد اتفق في هذا المؤتمر على انه من الحيوي جداً ، لتقويض الحكومات البورجوازية والاستيلاء على سلطتها ، خلق طبقة من السياسيين البروليتاريين لالهائهم ، وافسادهم ، ولسبقهم بتكتيكات حصان طرواده . وقد صادق المؤتمر ايضاً على سياسة تسلل الشغيلة الشيوعيين في صفوف النقابات العمالية بهدف ضمان الاشراف عليها . وكان التكتيك الذي ينبغي ان تطبقه الخلايا هو كسب ثقة العمال في بادىء الامر بتحسين وضعهم ، وعندما تتحقق هذه النتيجة ، تزرع الفوضى عن طريق المبالغة في تصوير المظالم الموجودة ، وفي تخمير شكاوى ومظالم جديدة . وينبغي ان يتلقى هؤلاء العملاء التعليمات بان لا يعلقوا اية اهمية على الاتفاقات الجماعية المبرمة بين اصحاب العمل والمأجورين ، وان يعملوا في الظل كدود الخشب ، وان يخربوا روح الانضباط في المصانع .

وفضلا عن هذا ، هناك شيء هام جداً ايضاً ، وهو العناصر الشيوعية السرية التي تتألف من اعضاء غير مرتبطين بالحزب ، يجندون للتسلل في المنظمات البورجوازية المختلفة الانواع ، ولانشاء منظمات واندية ، واندية للمحاضرات الخ .. وطبعها تدريجياً بالماركسية . واليوم ، بعد اربعين سنة من انعقاد المؤتمر الثاني ، تتضاعف منظمات التآمر والأفساد في كل بلد من بلدان العالم . وقد منع حزب العمال ، في بريطانيا وحدها على اعضائه الانتساب الى اكثر من اربعين من هذه المنظمات ، التي تتبنى الشعارات التالية : الحرية ،

---

(١) لينين — المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، ص ٧٥٠ و ٧٥١ (النص الفرنسي) ..

حرية التعبير ، سلم ، نزع سلاح ، استعمار ، تمييز عنصري ، اخاء عالمي ، وكل الشعارات الاخرى التي تثير الحساسية الشعبية وتخرب الانضباط الوطني ، والنظام الاجتماعي .

وبانشاء الدولية الثالثة ، كان لينين قد انهى تنظيمه للثورة (١) .

٤ ـ السلم ، أداة الثورة

ان قلب الكلمات مبدأ اساسي من مبادىء الدياليكتيك الماركسي . فعندما يكون المدلول المقبول لكلمة او فكرة ملتبساً وغامضاً ، لا تتستر وراءه نوايا الماركسيين فحسب ، بل ان فكرة اللاشيوعيون تتحول الى فكرة خاطئة . فالالتباس العقلي يؤدي الى كابوس له معنى ، تبدو الاشياء فيه راسخة ومتوازنة ، مع انها مقلوبة في الحقيقة .

ونجد سياق الالتواء العقلي هذا في معظم المؤتمرات بين الدول الشيوعية واللا ـ شيوعية . فنزع السلاح له دلالة مختلفة بالنسبة لبعض هذه الدول عن دلالة الدول الاخرى . وكذلك السلم ، له معنى مختلف بالنسبة لكل من هذه الدول . فعلى حين نجد ان السلم هو حالة انسجام دولية بالنسبة للدول اللا ـ شيوعية ، فهو بالنسبة للشيوعيين حالة فتنة دولية . فاذا استشهدنا بميلتون (خطأ) ، فاننا نقول ان رأيه : « ان للسلم انتصاراته التي لا تقل شهرة عن انتصارات الحرب » لان الشيوعيين يقولون بان الحرب والسلم هما تعبيران

(١) افلست الدولية (الاممية) الثانية لان اغلبية الاحزاب الاشتراكية طبقت تكتيكاً رجعياً ، ووقفت الى جانب حكوماتها ، والطبقات البورجوازية فيها ، وخانت الاشتراكية . ـ المعرّب ـ

متبادلان لنزاع لا يمكن ان ينتهي الا عندما تحل البركة الماركسية . فالشيوعيون متعصبون للسلم لان هدفهم النهائي سلمي .

فلو قيم هذا الاسلوب المتميز « من المحادثات ذات المعنى المزدوج » بقيمته الحقيقية ، لن يكون من الضروري ان يهرع رؤساء الدول الغربية ورؤساء وزاراتهم ومارشالاتهم المتقاعدين الى موسكو ليكتشفوا ما خفي في رأس زعماء الكرملين ، فهم لن يكتشفوا شيئاً ، مثلهم مثل اولئك الذين يهرعون الى مكة المكرمة ليكتشفوا خفايا الاسلام ، فلا يتوصلون الى شيء . فطلبنا الى الحاكم الحالي للكرملين السيد ن. خروتشيف ان يتخلى عن **البيان الشيوعي** يساوي ويوازي دعوة اسقف كانتور بري للتخلي عن **الوصية الجديدة** .

ان الشيوعية دين من الاديان لا يضعف من قوتها بالنسبة للاديان الاخرى كونها ملحدة . **انها فكرة ثابتة** ، وايمان يعتبره عدد كبير من الروس فوق كل نقد . وان البعد العالمي لهجوم السلم الشيوعي هو النداء الذي يوجهه الى الاشتراكيين المسيحيين الكثيرين في الغرب ، ومنذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ، نبهنا اوسكار ليفي ، الذي ترجم مؤلفات نيتشه الى اللغة الانجليزية ، ان الشيوعية ، بالرغم من انكارها لوجود الله ، هرطقة مسيحية [١] . فهي ايمان دولي ، واممي . وهي تنتقل الى جنة من الجنان لا يقوم فيها الصراع لان الملكية فيها ملكية جماعية . وبالتالي ، فلا مبرر فيها لاي صراع .

---

(١) نسي ماركس ان الانسان يحارب ايضاً دفاعاً عن افكاره ، كما يحارب دفاعاً عن احتياجاته . فلو اصبح العالم كله شيوعياً ، لظهر بالتأكيد عدد من الطوائف الشيوعية المتعارضة والمتعادية بقدر ما يوجد من طوائف مسيحية متعارضة ومتعادية . وفي زمن لينين ، كانت المشاجرات بسبب التفسير الصحيح لعقائد ماركس عنيفة ومتواصلة . وقد قام ستالين بتصفية كل اولئك الذين لم يكونوا متفقين معه ، بما فيهم كل انصار لينين الذين بقوا على قيد الحياة بعد مماته .

فهي تتوقع جنة تعود فيهـــا الانسانية الى حالتها البدائية البريئة ، عندما يقضى على شيطان الرأسمالية قضاء تاماً . فهي عقيدة ابدية ، وهي مسيحية ايضاً ، فالبروليتاريا هي مسيحهـــا المنتظر . وهي تأخذ جانب الفقير ، والضعيف ، والمضطهد ، وتتيح المجال لمشاعر الغضب ضد الغني ، والرجل المثقف ، والرجل المتعلم . **ان البيان الشيوعي موعظتها فوق الجبل .**

وقد كتب اوسكار ليفي ان .. « هناك روسيا واحداً على الاقل لم ينسى الرباط القائم بين البلشفية والمسيحية . انه لوناشارسكي ، اول وزير سوفييتي للتعليم ، الذي ردد في الايام الجميلة للثورة ، هذه الجملة المأثورة : « لو عاد المسيح الى الارض ، لانضم فوراً الى الحزب الشيوعي » [١] .

ان هذا القول يوحي بان على المسيحيين ان يفعلوا الشيء ذاته ، وهذا يكشف عن رباط آخر بين الدينين . فكلاهما مذهبان يحركهمـــا التبشير والدعوة لاعتناقهما ، وكلاهما يناديان بان حرب الكلام اقوى من حرب السيف . اذن ، بما ان رجال الدولة والسياسيين الغربيين ، يجهلون جهلا فاضحاً فن الحرب الماركسية ، اذن هناك مجال للاشارة وللتكرار بان السلم اداة تشتيت بالنسبة للماركسيين ، اي انها اداة غزو ، بقدر ما هي مهلة مستخدمة لاعداد الحرب وتحضيرها ، فاذا كان من الواجب عقد اتفاقية سلم بين بلد شيوعي ودولة رأسمالية ، فليس الهدف من ذلك ايقاف القتال ، بل بالاحرى نقل القتال من ساحة معركة الجيوش الى ساحة معركة الطبقات . اذن فالسلم في نظر الشيوعيين ليس الا مناورة في كفاح لا يتوقف . واذا لم يعط السلم اي امتياز للطبقات اللا ــ شيوعية ، فذلك لكي يستطيع الشيوعيين تفكيكهـــا والعمل على انحلالها .
عندما استلم لينين السلطة ، كان مرسومه الاول او تصريحه الاول الدعوة

---

(١) المرجع المذكوز سابقاً ، ص ٦٤ .

الى مفاوضات سلم فورية . ولم يكن الهدف من هذه الدعوة ، كما رأينا وضع حد نهائي للحرب ، بل كان الهدف من ذلك تحويلها الى سلسلة من الحروب الاهلية الثورية ، اي الى حروب ابادة متبادلة بدلا من معارك دولية تستطيع الدولة البلشفية المولودة حديثاً ان تربح خلالها مهلة من الوقت ، وكما كتب تاراكوزيو : « من الناحية العملية ، ينبغي ان يكون السلم بالنسبة للماركسي **وضعاً قائماً** Statu quo موقتاً ، ويستمر فيه النضال الطبقي ، على حين ينبغي ان يتضمن السلم في الخارج ، بالنسبة للاتحاد السوفييتي أمناً دولياً » (١) .

وبعد معاهدة ريغا التي عقدت في مارس (آذار) ١٩٢١ ، والى ان تم توقيع معاهدة عدم الاعتداء الجرمانية — السوفييتية في موسكو بتاريخ ٢٣ من اغسطس (آب) ١٩٣٩ ، والتي كان الدافع اليها ان الاتحاد السوفييتي لم يكن يملك قوة كافية تسمح له بخوض الحرب ، حتى هذا الوقت ، كان السلم هدفاً من اهداف السياسة الخارجية الرسمية السوفييتية ، ضاعف الاتحاد السوفييتي تحت ستاره تحضيراته العسكرية ، وتابع الحرب خلاله على المستوى البسيكولوجي . وقد اقرت الدورة الاولى الكاملة الموسعة للدولية الشيوعية هذه السياسة ووافقت عليها في مارس (آذار) ١٩٢٢ ، تقرر فيها : « تتم الثورة البروليتارية بهزيمة الرأسمالية » وهي « الوسيلة الفعالة الوحيدة لمنع وقوع الحرب » (٢) . وكانت التأكيدات المتكررة باستمرار عن مقاصد الكرملين السلمية قد حصلت خلال سبعة عشر عاماً على اثر هائل ، وكسبت الى صفها تعاطف الجماهير البروليتارية في البلدان الرأسمالية واعجابها .

وزادت نظرية الدفاع « عن بناء الاشتراكية في بلد واحد » من حدة هذه

---

(١) تاراكوزيو ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٥٨ .
(٢) ذكرها تاراكوزيو ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٥٨ .

السياسة ، التي دفعت الدول الرأسمالية الى الظن بان البلاشفة الروس تخلوا عن مشروع الثورة العالمية . وقد اعلن لينين هذا التخلي في عام ١٩٢٢ ، بهدف تنمية العلاقات الاقتصادية مع العالم الخارجي ، كما طبق ستالين هذا المبدأ في عام ١٩٢٥ . وكانت هذه السياسة سياسة طويلة المدى كي يكون في وسع البلاشفة الروس توجيه الثورة العالمية فيما بعد بدلا من ان يكونوا مرتبطين بها.

وبارتباط وثيق مع سياسة السلم السوفييتية وجهت الدعوة الى نزع السلاح نزعاً تاماً ، وقد اقترح هذه الدعوة ليتفينوف في الدورة الرابعةللجنةالتحضيرية لنزع السلاح ، في ٣٠ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٧ ثم كررت هذه الدعوة في مناسبات عديدة بدء من هذا التاريخ حتى ابريل (نيسان) ١٩٣٢ عندما انهى المؤتمر العام لنزع السلاح اعماله . وقد طالب ليتفينوف المؤتمر العام : بتسريح القوات المسلحة البرية ، والبحرية والجوية ، وتدمير كل الاسلحة ، والمراكب الحربية ، والقلاع وكل المصانع الحربية ، والغاء الخدمة العسكرية الالزامية ، وايقاف كل الميزانيات الحربية ، والقضاء على كل التنظيمات العسكرية والبحرية التي ينبغي ان يحل مكانها قوات قومية من البوليس بقوة كافية للمحافظة على القانون والنظام في الداخل .

وكان ليتفينوف يعرف بالطبع ان هذه الاقتراحات الطوباوية سترفض ، وعندما يرفضها المؤتمر ، يقدم بدلا عنها فوراً مشروع اتفاق آخر يقترح فيه نزع سلاح جزئي وتدريجي . وقد اثار هذا المشروع مناقشة اكاديمية مستمرة عن الحرب الجوية ، وغازات القتال ، والتمييز بين الاسلحة الهجومية — المدافع الضخمة والدبابات الثقيلة — والاسلحة الدفاعية — مدافع ودبابات ذات عيارات ومديات اقل — وفي النهاية ، وبعد مناقشات مجدية استمرت اسابيع انفض مؤتمر نزع السلاح . ولم يكن له اية نتيجة سوى السماح للمندوبين السوفييت بترك هذه المبارزة الكلامية متوجين باكاليل السلم .

وكان الحوار على كل حال مزاحاً سيئاً لانه لو قبلت اقتراحات ليتفينوف، لكان ذلك مخالفة لنظرية ماركس التي تعتبر الحرب طبقاً لها ضرورة حتمية الى ان تزول كل الفروق بين الطبقات . الم يقل لينين :

« ليس في وسعنا حقاً ان ننسى ، دون ان نغدو بورجوازيين مسالمين او انتهازيين ، اننا نعيش في مجتمع طبقي ، وانه ليس هناك من وسيلة للتخلص منه الا بالصراع الطبقي وبهزيمة الطبقة الحاكمة .. وينبغي ان يكون شعارنا هو تسليح البروليتاريا بهدف الحاق الهزيمة بالبورجوازية والغائها ونزع سلاحها [١]»

بالاضافة الى هذا ، فان كل نظرية الحرب الطبقية كانت مستندة الى العنف ، كما قال لينين :

فمنذ وجدت الحضارة بصورة عامة ، وحتى القرن العشرين ، لا تستند هذه النظرية على الكلمات والعصي فحسب ، بل تستند الى **الجيش** ايضاً » [٢] .

وكما اشرنا فيما سبق ، لم ينظم الجيش الاحمر ويدرب لحماية الاتحاد السوفييتي فحسب ، بل ليشكل ايضاً شرطه ثورية ، وقوة بوليسية معكوسة ، لان هدفه كان تخمير التمرد بدلا من القضاء عليه .

فلم يكن السلاح ولا عدد الرجال المسلحين هو الذي ضمن النصر للسوفييت من عام ١٩١٨ الى ١٩٢٢ . لقد كان شيئاً آخر ، كما صرح بذلك لينين :

« اننا لم نستطع النجاة وضرب تحالف دول الاتفاق المدعوم بالجيوش البيضاء الا لان هذه الدول كانت تفتقر الى الوحدة . وحتى هذا اليوم ، لم نكن دوماً

---

(١) تاراكوزيو ، المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(٢) تاراكوزيو ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

منتصرين لان هناك خلافات جدية تسود صفوف هذه الدول الامبريالية فحسب بل انتصرنا لان هذه الخلافات لم تكن مجرد نزاعات داخلية عارضة ، بل كانت صراعات اقتصادية متأصلة الجذور تخوضها الدول الامبريالية » [١] .

ان هدف كل اقتراحات السلم السوفييتية هو خلق التشويش في صفوف خصوم الاتحاد السوفييتي وزيادة حدته . « فالتعايش السلمي » يبدو سلمياً الى اقصى الدرجات . ولكنه يعني في لغة السوفييت ، وجود انـــاء من الحامض على الجانب ، يتبخر ويثير تآكلا تدريجياً [٢] . وكل اقتراحات السلم هذه دون استثناء بذور للفتنة ، تولد ضمن اطار الامم ، وما بين الامم ذاتها مناقشات وتولد انعدام الوحدة . ان سياسة فرق تسد سلاح سياسة السلم السوفييتية ، وله نفس الروعة التي كانت له ايام الرومان [٣] .

---

(١) تاراكوزيو ، المرجع السابق — ص ١٣٧ .

(٢) لو قبلنا معنى التعايش السلمي كمـــا يعطيه المعجم وجدنا ان هذا المعنى مخالف للمعنى الذي اراد ماركس ان يقوله عن « الصراع الطبقي » . لقد كان من الضروري ان يشار الى هذه الخاصة المميزة ويؤكد عليها في كل مناسبة « للمتحدثين بمعنيين » من السوفييت .

(٣) كان الاتحاد السوفييتي اول دولة في العالم قدمت برنامجاً لنزع السلاح الشامل والتام ، في اعوام ١٩٢٧ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ ، وفي ١٩٦٢ . ويقترح هذا المشروع ، ضمن اطار سياسة التعايش السلمي نزع السلاح نزعـــاً تاماً خلال اربعة اعوام . وقدم الاتحاد السوفياتي « اعلاناً حول تحويل الاموال والموارد التي يوفرها نزع السلاح الى الاحتياجات السلمية » . وقد وقف الاتحاد السوفييتي الى جانب مصر ايام العدوان الثلاثي ، والى جانب سوريا عام ١٩٥٧ ، والى جانب الاردن ولبنان عام ١٩٥٨ ، والى جانب العرب عام ١٩٦٧ . والمعروف انه لم يشعل اي حرب خلال اكثر من نصف قرن . كل هذا يدحض اقوال المؤلف . — المعرّب —

الفصل الثاني عشر

العشرون عاماً من الهدنة

١ ـ السلم القرطاجني

في عـــام ١٩٣٠ ، استعرض فيرّورو في احدى محاضراته اثني عشر عاماً من الفوضى في الماضي ، وفي خلال هذه المحاضرة وجه الملاحظة التالية : « إن في وسع حضارتنــا ان تشن الحرب ، غير انهـــا نسيت اسلوب ارساء السلم » [١] . وتعليقي على هذا ، انهـــا كانت حقاً عاجزة عن ارساء اسس للسلم لأنهـــا نسيت طريقة خوض الحرب ، ففقدت الحرب مدلولهـــا ومعناها واحتكرت وسائلهـــا نهايتها . وكل ما حدث في الحروب التي شنت في الماضي ان النزاع استمر تحت شكل آخر . اذ لم يكن من الممكن اقامة سلم على هذا الاساس .

كان ذلك صحيحاً ، لا بالنسبة للينين فحسب ، الذي كان يعتبر السلم اداة تشتيت ، كمـــا رأينا ، بل كان صحيحاً ايضاً بالنسبة للذين انتصروا في الحرب ، والذين حولوا السلم ، كمـــا سنرى الآن ، الى اداة للتحكم . وبالنسبة لكلا الطرفين ، كان الهدف واحداً وهو : اخضاع الخصم . وفي كلا المعسكرين

---

(١) GUGLIELMO FERRORO: Guerre et paix (1933) p. 148.
ص ١٤٨ .

كانت الوسائل متشابهة : الاكراه . وكان الاول يخرب مقاومة ضحيته بالهجوم البسيكولوجي . امـــا الآخر فيخربهـــا بالهجوم الاقتصادي ، تحت شكـــل حصار ، اقامته كـــل الاطراف وحافظت عليه حتى يوليو (تموز) ١٩١٩ ، كمسدس مصوب الى ظهر الضحية حتى تضع توقيعهـــا على اتفاقية سلم يمليها خصمهـــا [١] . وكان هذا العمل في منتهى السخف لان سلمـــاً لا تسامح فيه ، كمـــا اشار فاتيل VATTEL قبل سنـــة ، تعسف لن يحتمله أي شعب من الشعوب الا طيلة الوقت الذي لا يملك فيه من الوسائل ما يسمح له بالغائه و « يقف ضد هذا السلم المهين الرجال الاقوياء في اول فرصة سانحة » [٢] .

وفي ٥ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨ ، نقل الرئيس ويلسون الى المانيا شروط الهدنة التي يقبلهـــا الحلفاء ، ورغبتهم « بعقد اتفاقية السلام مع حكومة المانيا تبعـــاً للشروط التي وردت في خطابه الموجه الى الكونغرس في ٨ من يناير (كانون الثاني) ١٩١٨ ، وتبعـــاً لمبادىء التسوية المذكورة في خطبه

---

(١) خلال العامين الاخيرين من الحرب ، مات اكثر من مليون جندي (غير مقاتل) جوعـــاً في المانيا والنمسا ، وفي ١٣ من ديسمبر (كانون الاول) عندما طالب الالمان ملحين السماح لهم باستيراد القمح ، والمواد الدهنية ، والحليب المكثف ، والمواد الطبية الخ ، رفض طلبهم . وفي بوهيميـــا في فبراير (شباط) ١٩٢٠ كانت نسبة ٢٠ ٪ من المواليد الجدد يولدون ميتين ، ومات ٤٠ ٪ منهم في الشهر الاول من ولادتهم . ولم يرفع الحصار جزئيـــاً الا في مارس (آذار) ١٩١٩ عندما أعلم اللورد بلومر قائد جيش الراين البريطاني ، الحكومة البريطانية ان جنوده « لا يستطيعون تحمـــل منظر الاطفال الذين يموتون من الجوع » .

(٢) انظر الفصل الاول من هذا الكتاب للاستزادة من الموضوع .

السابقة »(١) .

وقد كتب كينز عن هذا الموضوع مـــا يلي : « ان طبيعة الحلف بين المـــانيا والحلفاء ... واضحة ودقيقة . فشروط السلم تتطابق مع خطب الرئيس » ، والهدف من مؤتمر السلام هو « مناقشة تفاصيل التطبيق » . وكان الحلف يتضمن في تفصيلاته خصائص مميزة خطيرة وملزمة ، اذ كانت بعض شروطه تتضمن اجبار المـــانيا على قبول شروط الهدنة التي تحولها الى دولة عاجزة تمـــاماً . ونظراً لان المانيا قد استسلمت من تلقـــاء ذاتها وقبلت الحلف بسبب عجزها ، فان مشكلة وفـــاء الحلفاء بالتزاماتهم ازاءها مشكلة من مشاكل الشرف . واذا وقعت بعض الالتباسات او حدث بعض الغموض فيمـــا يتعلق بالتفاصيل ، فان الحلفاء يتعهدون بعدم استخدامه لصالحهم »(٢) .

ولقد قبلت المانيا الحلف لان شعبهـــا كان يتضور من الجوع . وفي الساعة الخامسة من يوم ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨ ، وقع ممثلوها احكام اتفاقية الهدنة . ومع ذلك ، عندما فرضت معاهدة فرساي في ٢٨ من يونيو (حزيران) ١٩١٩ « كان ١٩ شرطـــاً من اصل ٢٣ شرط من شروط السلم التي فرضها الرئيس ويلسون ، قد خرقت بصورة واضحة طبقـــاً لرأي هارولد نيقولسون »(٣) . فكيف حدثت هذه النتيجة ؟ كانت هذه النتيجة

---

(١) ذكر ذلك جون ماينارد كينز (اصبح فيما بعد لورد كينز) في كتابه The Economic Consequences of the Peace (1919) p. 54
كان كينز الممثـــل الرسمي للخزينة البريطانية في مؤتمر السلام في باريس . راجع الملحق ٢ في آخر هذا الكتاب المتضمن مبادىء ويلسون .

(٢) المرجع المذكور صفحة ٥٥ KEYNES

(٣) هارولد نيقولسون : ص ١٣ (١٩٣٩) ١٩١٩ Peacemaking

محصلة مجموعة من المثــل العليا ، والاخلاق المنحطة . وكانت ايضاً محصلة امزجة مختلفة لصناع المعاهدة الرئيسيين الثلاثة — وودرو ويلسون، جورج كليمانصو ، دافيد لويد جورج — اذ هُذِبت المعاهدة أو بولغ في قسوة شروطها لملاءمتهــا مع مزاج الجماهير الديموقراطية العاطفية .

كان الرئيس ويلسون يتمتع بروح تيوقراطية وحازمة . وكان يثق ثقة عمياء بالديموقراطية ، ويؤمن بان صوت الشعب ممــاثل لحكم الله . وكان يحاول ان يجسم صورة ميثاقه الصوفي . وكان مقتنعــاً بانه لو ضمن معاهدات السلام ، فلن تكون هنــاك اهمية كبيرة لمــا قد تتضمنه من تناقضات ، وظلم من اي نوع كان وخرق واضح لمبادئه الخاصة [١] لان سحر هذا الميثاق سيصلح مع الزمن كل الاخطاء بارادة كــل شعوب العالم . وقد صرح امام الكونغرس في ١١ فبراير (شباط) ١٩١٨ قائلا ما يلي : « لن يكون هناك ضم ، ولا جزية ، ولا تعويضات انتقامية ... ان حق تقرير المصير ليس جملة بسيطة . انه مبدأ عمل الزامي سيهمــل رجال الدولة منذ الآن مخاطره واخطاره على مسؤوليتهم [٢] ومع ذلك فان كينز يقول عن ويلسون مــا يلي : « لم يكن لديه خطة ولا مشروع ، ولا افكار بناءة لكي يحول الاوامر التي كان يصدرها من البيت الابيض الى مبادىء حية » [٣] .

وفي عــام ١٩١٨ كان كليمانصو عجوزاً يبلغ من العمر ٧٧ عاماً وقد تبددت الاوهــام من رأسه . فعندما علم بان المانيا قد قبلت شروط الهدنة

---

(١) المرجع المذكور ، ص ٥٣ KEYNES

(٢) وقبل نصف قرن كان سلفه ابراهام لينكولن قد قام بحرب من اشد الحروب شراسة واكثرها هولا لينقذ بلاده من هذا « المبدأ الالزامي » .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٩ . KEYNES

صاح وفرحة الانتصار على شفتيه : « **واخيراً ! جاء اليوم الذي كنت انتظره منذ نصف قرن ! لقد حان هذا اليوم ، حـــان يوم الثأر!** » [١] لقد كان كليمانصو الصورة الالهية للقبلية الفرنسية ولكنه لم يكن منافقـــاً ذا وجهين . كانت سياسته تأخير الساعة وتدمير كل ما بنته المانيا منذ عام ١٨٧٠ . وقد كتب س. هاوارد ايليس عنه مـــا يلي : « لم يكن يقدم طيلة مؤتمر السلام سوى الحقد والخوف ، والرغبة الصادقة بوقاحة في تدمير « المانيا » ومنعهـــا من التقدم الى الابد » [٢] . وكان هو الذي سيطر على المؤتمر ، لا الرئيس ويلسون . وكان ميثاق الرئيس في رأيه مسخرة عاطفية : « **اربعة عشر امرأً ! بهذا الشكل كان يصيح متعجبـــاً وباستهزاء ، انه لشيء قاس الى حد ما ! ان الله لم يصدر الا عشرة اوامر فقط !**» ومن سوء حظ فرنسا ان مأساة عام ١٩٤٠ نجمت عن شعاره التالي : « لقد انتهت الحرب ، والحرب مستمرة » [٣].

وكان لويد جورج في بادىء الامر فناناً في السلطة ، ثم اصبح صانعاً للسلم فيمـــا بعد . وكان يعرف اي سلم يطالب به . غير انه ، بسبب الحماس الذي سببه انتهـــاء الحرب ، وضع السلطة الى امـــام وقرر مدفوعاً بمد الانفعال الشعبي ، ان يدعو البلاد الى التفتيش عن انتداب لا يمكن الجدل فيه .

وفي اليوم التالي للهدنة ، كان يقول في خطاب وجهه الى نـــاخبيه الليبراليين مـــا يلي : « ليس هناك من تسوية دائمة اذا كانت هذه التسوية مخالفة لمبادىء

---

(١) ذكرت هذه الجملة في كتاب
FURST BULOWDEN Kuiurdigkeinten (1931)
– الجزء الثالث – صفحة ٣٠٢ .

(٢)
The origin, Structure and Working of the League of NATIONS (1928) p. 43.

(٣) ذكر ذلك BRYANT في المرجع المذكور سابقاً ، ص ٤٥ .

العدالة الابدية ... وينبغي ان لا نقبل بان يكون الشعور بالثأر ، وروح العنف ، والجشع اقوى من المبادىء الاساسية للاستقامة »[١] . وبعد عشرة ايام اوحت اليه هذه المشاعر ببيانه الانتخابي ، ولكن بشكل اكثر اعتدالا . وبما ان هذه المشاعر لم تلاقي هوى كبيراً لدى الجماهير ، فان رئيس الوزراء صرح ، في ٢٩ من نوفمبر (تشرين الثاني) ان « على المانيا ان تدفع كل نفقات الحرب حتى اقصى امكانياتها » . وذلك كي يؤجج حماسة الجماهير . وقبل ان تهضم الجماهير هذه الفكرة الجديدة ، وتتقبلها صاح السيد جورج بارن ، وهو العضو العمالي في وزارة الحرب ، الذي كان مطلعاً كل الاطلاع على مشاعر الشعب وعواطفه ، صاح من منصته قائلا ما يلي : « اني اوافقك في الرأي على شنق القيصر » . وكانت رائحة الدم تنبعث من هذا التصريح . كما اعطت الديموقراطية البريطانية صوتها بانفعال . وفي ١١ من ديسمبر (كانون الثاني) ، قبل الانتخابات بثلاثة ايام استسلم لويد جورج امام « الارادة العامة » ، وفي بيانه الاخير ، كان يعد الناخبين المعتوهين : « باعدام القيصر ، وبعقاب المسؤولين عن اعمال العنف ، وبتعويضات كبيرة ينبغي ان تدفعها المانيا » . وقد حققت هذه الوعود نصراً سياسياً كبيراً . وعندما اذيعت نتائج الانتخابات ، في ٢٨ من ديسمبر (كانون الاول) ، عادت الحكومة الائتلافية الى السلطة باغلبية ٢٦٢ صوتاً على كل الاحزاب المستقلة

لماذا قام لويد جورج بهذه المناورة السياسية ؟ مما لا شك فيه ان الجواب الذي قدمه هاوارد ايليس كان هو الجواب الصحيح على هذا السؤال ، قال هاوارد : « كان لويد جورج يرى بصورة عامة افضل ما يمكن عمله ، وكان يطبق دوماً اسوأ الحلول ، عندما يبدو له ذلك ضرورياً ، لكي لا يؤثر على احتفاظه بالسلطة ... ونجح في الانتخابات العامة بأكثرية ساحقة لانه

---

(١) ذكر ذلك نيقولسون NICOLSON ، المرجع المذكور سابقاً ، ص١

وعد بشنق القيصر ، وبالزام المانيا على دفع ثمن الحرب التي اشعلتها » . واثناء اجتماع بلجنة الهدنة « وفي الفرص النادرة التي حاول فيها الارتفاع فوق شهوات الشعب الدموية ، كان عليه ان يواجه خطراً محتملاً بخسارة كل مناصبه ، فكان يتحول عن موقفه هذا بسرعة » [١] .

وهذا ما جعل قانون الحقد البدائي يتحكم بمؤتمر السلام ، ووجدت الديموقراطيات التي اطلقتها الحرب من عقالها ، في كليمانصو ، رجل حكمتها (كاتون ٢) .

واجتمع مؤتمر السلام بصورة رسمية في ١٨ من يناير (كانون الثاني) ١٩١٩ . وبما ان مهمته كانت صياغة معاهدة السلام ، كان من الضروري ان يكون هدفه القضاء على الدوافع التي كانت سبباً في الحرب . وتبعاً لرأي كين « كانت اكثر المسائل جدية ، والتي تتطلب انتباه المؤتمر اليها ، مسائل مالية واقتصادية لا مسائل سياسية او اقليمية » [٢] . ومع ذلك ، بدلا من ان يعالج المؤتمر هذه المسائل ، ويجد لها الحلول المناسبة ، زاد في حدتها بالقرارات التي اتخذها ، وكان اهمها القرارات التالية :

ففي المجال **الاقليمي** : قرر اعادة الالزاس واللورين الى فرنسا ، والتخلي لبولونيا عن الجزء الاكبر من مقاطعة بوزن (الممر البولوني) مع ٦٠٠,٠٠٠

---

(١) هاوارد ايليس ، المرجع المذكور سابقاً ، صفحات ٤٢ ، ٤٤ .

(٢) تبدو صدارة فرنسا في الاسماء الفرنسية لمعاهدات السلام : معاهدة فرساي لالمانيا في ٢٨ يونيو (حزيران) ١٩١٩ ، نويي لبلغاريا في ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٩ ، تريانون لهنغاريا ، في ٤ يونيو (حزيران) ١٩٢٠ ، سان جرمان للنمسا في ١٦ يوليو (تموز) ١٩٢٠ ، وسيفر لتركيا في ١٠ اغسطس (آب) ١٩٢٠ .

المـــاني ، وتحويل مدينة دانتزيغ ذات الاكثرية الالمانية الى مدينة حرة ووضعها تحت حماية عصبة الامم . والتخلي عن ميمل لليتوانيا ، وعن دوبين — ماليدي الى بلجيكا . وكانت هذه التغيرات الجغرافية تعني اقتطاع ٧٢٥٠٠ كم٢ من الارض الالمانية التي يقطنهـــا ٧,٠٠٠,٠٠٠ من المواطنين الالمان . وبالاضافة الى ذلك نزعت ملكية المانيا لامبراطوريتها الاستعمارية التي تعتبر الثالثة في العالم .

وفي المجال **الصناعي** : التخلي لفرنسا عن حوض السار لمدة ١٥ عاماً [١] ، والتخلي لبولونيا عن مناجم الفحم في سيليزيا — العليا . وقد خسرت المانيا بسبب انتزاع هذه الاراضي ، مضافـــاً اليها خسارة الالزاس واللورين ٦٠,٨٠٠,٠٠٠ طنـــاً من الفحم سنوياً ، وكانت مضطرة فوق هذه الخسارة الى تسليم فرنسا وبلجيكا وايطاليا واللوكسمبورغ كل عـــام ولمدة ١٠ سنوات ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً من الفحم .

وفي المجال **التجاري** : اضطرت المانيا الى تسليم كل مراكبهـــا التجارية التي تتجاوز حمولتهـــا الخالصة ١٦٠٠ طن ؛ كما اضطرت الى التخلي عن نصف مراكبهـــا التي تزن حمولتهـــا من ١٠٠٠ الى ١٦٠٠ طن ، وربع المراكب الحاملة لشباكات صيد الاسماك وزوارق الصيد ، وعن خمس طاقتها من مراكب الملاحة الداخلية ، وعن ٥,٠٠٠ قاطرة سكة حديد ، و ١٥٠,٠٠٠ مقطورة حديدية في حالة حسنة ، اضطرت الى التخلى عن كل هذا الى دول الحلفاء .

---

(١) يسكن الالمان وحدهم حوض السار ، وكان حوض السار جزء من المانية خلال ١٠٠٠ عـــام . وقد وضعت مناجم الفحم في هذا الحوض تحت تصرف فرنسا تعويضاً عن الاضرار التي لحقت بمناجمهـــا .

وفي المجـال **المالي** : تمت مصادرة كل الاستثمارات والاموال الالمانية في الخارج ، سواء منهـا العامة او الخاصة ، وعينت لجنة اصلاحات لتقدير دين المانيا للحلفاء . وقد قدر هذا الدين في عام ١٩٢١ بـ ١٣٢ مليار مارك ذهبي اي ما يعادل التعويضات التي طالبت المانيا فرنسا بهـا في عام ١٨٧١ مضروبة بثلاثة وثلاثين ضعفاً .

وفي المجال **العسكري** : تم تحويل رينانيا الى منطقة منزوعة السلاح ، وحرم على المانيا اقتناء المراكب الحربية الكبيرة ، والغواصات في سلاح بحريتهـا . وفرض عليهـا تخفيض تعداد الجيش الى ما يعادل ١٠٠,٠٠٠ ضابط وجندي يخدمون لمدة طويلة . وبمـا انه كان محظوراً عليها ايضاً اقتناء دبابات الانقضاض والمدافع الثقيلة ، والطائرات العسكرية ، والمدفعية المضادة للطائرات ، فقد تحول جيشهـا الى بوليس محلي .

وفي المجال **المعنوي** : تقرر محاكمة زعمائها ، ومحاكمة معظم امرائها ، وجنرالاتها ، واتهامهم بانهم « مجرموا حرب » . وكانت آخر اهانة لحقت بالالمان هي مـا نصت عليه المعاهدة من مطالبة المانيا بالاعتراف بمسؤوليتها عن اندلاع الحرب كلهـا .

وقد درس كينز هذه الشروط وصرح بانه مهتم الى حد كبير « لا بعدالة المعاهدة ، ولكن بحكمتهـا وبنتائجها » (١) . وكتب قائلا : « ان الهدف من كتابي هو البرهنة على ان السلم القرطاجني ، ليس في **الواقع العملي** ، عادلا ، ولا ممكنـاً » (٢) .

---

(١) كينز ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٦٠ .
(٢) كينز ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٣٣ .

وبعد سنوات ، وفي عام ١٩٤٦ ، رفضت تنبؤات كين في كتاب عنوانه : **السلم القرطاجني او النتائج الاقتصاديةللسيد كينز** . وكان هذا الكتاب لمؤلف فرنسي شاب ولامع هو ايتين مانتو ، قتل في المانيا بطريقة مؤلمة قبل استسلام المانيا غير المشروط الذي تم في ٧ من مايو (مايس) ١٩٤٥ بثمانية ايام . وعلى عكس كينز ، كان مانتو يدعي بان العدالة تقضي بان تدفع المانيا تعويضاً بالاضرار الناجمة عن الحرب [١] ، وراح يبرهن على ان عدداً كبيراً من تنبؤات كين لم تؤكدها الاحداث اللاحقة . كان في هذا على حق ، الا ان صحة نقده كانت مستندة ، لا الى شروط المعاهدة التي بنى عليها كينز تنبؤاته ، بل بالأحرى على فشل المنتصرين في تحويل هذه الشروط الى شروط عملية . وكان مرد ذلك ، لا الى تشدد المانيا فحسب ، بل الى الالتباس الذي نجم عن محاولات المنتصرين لتنفيذها ايضاً . فقد اكتشفوا فوراً انه من المفيد بالنسبة اليهم ، لكي ينعشوا تجارتهم الدولية ، ان يعيدوا بناء اقتصاد المانيا بدلا من ان يعوقوا نموه . وقد تنبأ كينز بذلك : فعدم اللجوء الى هذه الوسيلة سيؤدي بالتأكيد الى انفجار آخر في اوروبا .

وقد كتب كينز حول هذا الموضوع ما يلي : « لو تابعنا افقار اوروبا الوسطى عن تصميم وتعمد لوجدنا ان الثأر ، واني لاجرؤ على التنبؤ به ، لن يتأخر طويلا . فلا شيء يستطيع ان يؤخر لفترة طويلة هذه الحرب الاهلية الحاسمة بين القوى الرجعية ، والاضطرابات الثورية اليائسة ، والتي ستسمو فوق اهوال الحرب الاخيرة مع المانيا ، وستدمر المنتصر اياً كان » [٢] .

---

(١) لمقارنة هذه الملاحظات مع ملاحظات فاتيل عن اسلوب اقامة السلام . انظر الفصل ١ ، ص ١٤ .

(٢) كينز — المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٥١ .

وتنبأ كينز بالاضافة الى ذلك بأن الوسيلة الوحيدة للحصول على كل التعويضات هي في تنمية تجارة المـانيا وصناعتهـا خلال خمس او ست سنوات ، ومنحها قروضاً ضخمة ، وجعلهـا اقوى دولة صناعية في اوروبا [١] . وقد اضطر سير الاحداث المنتصرين على الاندفاع في هذا السبيل بصورة عمياء وغامضة .

وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٢٢ ، لم تقم المانيا بدفع الغرامـات المفروضة عليهـا . ولإلزامها على دفعهـا ، احتلت القطعات الفرنسيـة والبلجيكية الروهر في ١١ من ينـاير (كانون الثاني) ١٩٢٣ . فانهـارت قيمة المارك نتيجة لهذا العمل ، وبلغت قيمته في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) التـالي رقمـاً مذهلاً يعادل ٤٢٠٠ مليار في الدولار الواحد . ثم ثبت سعره بـ ١٠٠٠ مليار من الماركات ــ الورقية للرنتمارك الواحد RENTENMARK وفي ابريل (نيسان) ١٩٢٤ اوصت لجنة داوز DAWES بمنح المانيا قرضاً يعادل ٨٠٠ مليون مارك ــ ذهبي لاعطائها اساساً جديداً لعملتهـا . وما كاد هذا القرض يمنح لالمانيا حتى بدأت الرساميل الاجنبية تندفع اليهـا ، وطيلة المدة التي استغرقتهـا خطة داوز ، اي حتى عام ١٩٢٩ ، كانت حصيلة وارداتهـا الخالصة تعادل اكثر من ضعف مجموع الغرامة المفروضة عليها . وقد اعترف مانتو بهذا قائلا : « لقد دفعت التعويضات باموال الرأسماليين الاجانب ، لا من اقتصاد الشعب الالماني والضرائب المفروضة عليه » [٢] . وقد كتب مانتو ايضاً : « لقد تنبـأ كينز بعدم امكان تنفيذ شروط التعويضات . فهي لم تنفذ فعلاً . وهذه النتيجة التي توصل اليهـا استحق عليها هالة النبوة

(١) كينز ــ المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٨٩ .
(٢) كينز ــ المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٤٧ .

النورانية »(١) . ولم يكن هذا هو كل مـا تنبأ به ، فهناك ايضاً نبؤة اخرى هي التـالية :

« وعندما تستعيد المانيا قوتهـا وعزتها ، وهذا ما سيحدث في يوم ما ، ستنقضي سنوات عديدة قبـل ان تحول عينيهـا نحو الغرب . ان مستقبل المـانيا اليوم هو باتجاه الشرق ، وفي هذا الاتجاه ستنتقل بالتأكيد آمالهـا ومطامحها ، عندما ستبعث من جديد »(٢) .

وقد عرض الاستاذ كـار E. H. CARR النقطة الرئيسية لكل هذه المسألة بصورة موجزة اذ قال : « ان المنتصرين في عام ١٩١٨ » خسروا السلم « في اوروبا الوسطى لانهم ثابروا على تبني مبدأ التفتيت السياسي والاقتصادي في فترة كانت تتطلب مزيداً من الوحدات الكبرى السياسية والاقتصادية »(٣) . وبعبارات اخرى ، كان من الممكن ان يكون هدف المعاهدة سلامة اوروبا ، ولو لسبب بسيط هو القضاء على الشروط الاقتصادية للحرب .

وفي ٢٨ من يونيو (حزيران) ١٩١٩ ، وقع المندوبون الالمان المفوضون معاهدة فرساي تحت التهديد بالحصار ، وكانت هذه المعاهدة من النـاحية الاخلاقية اتفاقية لاقيمة لها ولا اثر . وكانت الاتفاقيات الاخرى سيئة ايضاً ، وبخاصة منهـا اتفاقيات تريانون وسان جرمان اللتـان نظمتا الفوضى في

---

(١) كينز المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٥٥ .

(٢) كينز : ص ١٨٦ —

A Revision of the treaty (1922)

(٣) ص ٢٩٤

E. H. CARR: The Twenty Years of Crisis (1940)

اوروبا الوسطى [١] . كل هذه المعاهدات دون استثنـــاء ، بدلا من ان تنص على منع اي ضم ، او جزية ، او تعويضات انتقامية ، طبعت بطابع هذه الجراثيم الحربية المؤذية . امـــا فيما يتعلق بمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسهـــا ، والتصرف بمقدراتها ، فان المفاوضين لم يعتبروه سوى « جملة بسيطة » بدلا من ان يأخذوه بعين الاعتبار على انه « مبدأ عمل الزامي » .

وقد كتب العقيد هوفمـــان نيكرسون انه كان يشك بانه « ... كان في وسع اسوأ عصابة من الحكام الاوتوقراطيين المعروفين في التاريخ امثال : نيرون ، هيليوكابال ، وسيزاربورجيا ، ولويس الخامس عشر ان تجمع معاً مـــا يكفي من الذكاء والارادة الطيبة لتعمـــل شيئاً نظراً لمـــا كان عليه الوضع في اوروبا في عـــام ١٩١٩ » . ومع ذلك ، عندما تمت التسوية النهائية ، لم يكن ويلسون ، ولا كليمانصو ، ولا لويد جورج هم الذين أعدوا الخيانة ، بل ان الذي هيـــأ لها ، كمـــا اشار الى ذلك العقيد نيكرسون ، هو الديموقراطية ولا مسؤولية الجماهير ، هذه الديموقراطية التي تطورت اثنـــاء الحرب . وقد اضاف نيكرسون قائلا : « فضلا عن انه من غير الممكن تفـــادي الحرب الى حد ما ، فان من الممكن ، مع ذلك ، احتواء اهوالها ؛ واعمـــالها الشرسة بدون الديموقراطية ، وذلك باقامة حكومات غير خاضعة للانتخابات ، وغير

---

(١) طبقـــاً لاحكام معاهدة تريانون ، حرمت هنغاريا من ٧١ ٪ من اراضيهـــا ، وضم ٣ ملايين هنغاري الى تشيكوسلوفاكيا ، ورومـــانيا ، ويوغوسلافيا . وطبقـــاً لاحكام اتفاقية سان جرمان ، ضيقت مساحة الارض النمساوية الى مـــا يعادل الثلثين الذين ينطقون اللغة الالمانية ومنعوا من الانضمام الى المانيا ضمن اطار اية وحدة من الوحدات . وقد ضم ٣,٥٠٠,٠٠٠ من رعاياها الالمان الى تشيكوسلوفاكيا و ٢٣٠,٠٠٠ الى ايطاليا .

ملزمة بالتالي بين آن وآخر على ايقاظ الانفعال الشعبي ، والانحناء امامه »[1] .

ولكن الذي غاب عن مدمري الديموقراطية المدعين ، انه منذ ذلك الوقت تحول « التهرب من الانتخابات » بصورة خفية الى فلسفة للحياة وتصور للعالم نجما عن الحرب Weltanschaung . وبدأت احداث لا يدركها الرجال في التعبير عن نفسها حول مركز جذب سياسي جديد ، كان يبدو انه يوجه مركب الامم المتمردة في العالم ، بالرغم من كونه غير مرئي ، نحو نظام دولي جديد ، كان مستحيلاً ان نقول بانه افضل او اسوأ من الانظمة القديمة .

٢ ــ أدولف هتلر

قيل اثناء الحرب ، ان الشعوب المتحالفة كانت تقاتل لانقاذ الديموقراطية في العالم غير اننا اكتشفنا ، بعد الانتصار ، ان العكس هو الصحيح . وبدلاً من ان تنقذ الديموقراطية في العالم غدت مزعزعة ومضطربة ، حتى ان الحكام الديكتاتوريين ،خرجوا ، واحداً اثر آخر من وسط الفوضى لاقامة اوتوقراطيات مختلفة النماذج في بولونيا ، وفي تركيا ، وفي ايطاليا ، وفي اسبانيا وفي البرتغال ، وفي النمسا وفي المانيا . وكان هؤلاء الحكام الديكتاتوريون يتفقون في شيء مشترك واحد هو : الفزع من البلشفية . فقد وقفوا يعارضون بالتالي ، لا النظام الديموقراطي القديم فحسب ، بل وقفوا ايضاً ضد النظام الماركسي الجديد الذي توطد في روسيا ، وهدد كل البلاد غير الشيوعية ، في المرحلة النهائية من الحرب وكل فترة ما بعد الحرب .

ومن بين كل الحكام الديكتاتوريين كان ادولف هتلر (١٨٨٩ ــ ١٩٤٥)

---

(١) العقيد هوفمان نيكرسون : ص ١١٢
CAN WE LIMIT WAR (1934)

الوحيد الذي وصل الى قمة السلّم في التاريخ ، وكان واحداً من اغرب رجال هذا العصر . ولد هتلر في(برونو ــ آم ــ إن) في ٢٠ من ابريل (نيسان) ١٨٨٩. وقد حصل ، اثناء الحرب ، على رتبة عريف ، واصبح فيما بعد العضو السابع لجماعة سياسية غامضة في ميونيخ ، سمت نفسها « حزب العمال الالمان » . وفي عام ١٩٢٣ ، بينما كان الفرنسيون يحتلون الروهر ويشجعون في رينانيا حركة انفصالية شيوعية ، وحركة انفصالية كاثوليكية في البافيير ، حصل ادولف هتلر فجأة على الشهرة . وفي ٩ من نوفمبر (تشرين الثاني) حاول لودندورف وهتلر القيام بانقلاب في ميونيخ . وبالرغم من فشل هذا الانقلاب ، فان قضيته في المحاكم كانت انتصاراً سياسياً ، لانها جعلت منه واحداً من اكثر الرجال اثارة للجدل والحوار في المانيا حوله . واثناء اعتقاله في قلعة لاندسبرغ ــ آم ــ ليش ، كتب الجزء الاول من كتابه « **كفاحي** ».

كان هتلر التجسيد الحي **للدكتور جيكل والسيد هايد** . فمن ناحية ، اخرج المانيا من العبودية التي اغرقتها فيها معاهدة فرساي ، ومن التضخم الذي تبع احتلال الفرنسيين للروهر ، واعاد اليها هيبتها القومية واقتصادها . ومن ناحية اخرى ، عامل عدداً كبيراً من المواطنين معاملة سيئة ، فجعل اسمه اسماً مكروهاً في العالم كله .

وقد كان هتلر عالماً نفسياً محنكاً ، واكبر ديماغوجي عرفته كل الازمان ، ورجلاً كان في وسعه ان يسبر حمق الطبيعة الانسانية الى أعمق اعماقها ، وأن يُقَطِّرَ انفعالات الجماهير ويحولها الى سموم سياسية قوية . وكان يثق فوق ذلك ثقة مطلقة بنفسه ، وايماناً يتجاوز العقلانية في عدم امكانية التغلب عليه وقهره ، الامر الذي كان يؤمن له جاذبية شخصية لا تقاوم . وكانت موهبته الرئيسية كرجل دولة هي مهارته في الاحساس باللحظة

البسيكولوجية الملائمة للعمل وفي تحينها . وقد قال في يوم من الايام الى هرمان روشنينغ ما يلي :

« لا فائدة ابداً من ان يجهد الانسان نفسه في البحث والتفتيش . ولا جدوى من ان تتعب نفسك ، عندما تكون فكرة من الافكار غير ناضجة ، فلن تستطيع بعثها واحياءها . وانا اعرف ذلك جيداً لانني فنان وأعرف ذلك ايضاً كرجل دولة . فليس هناك سوى شيء واحد ينبغي عماه : الصبر ، العودة الى الوراء ، البدء من جديد والعودة الى وراء ايضاً . وعندئذ يتم العمل في اللاشعور . ويتضح الموضوع ، واحياناً ايضاً ، يموت تماماً . واذا لم تكن لديّ القناعة الداخلية التامة والمطلقة بان **الحل موجود** ، وانه ينبغي ان يكون كذلك ، فاني امتنع عن القيام باي عمل ، حتى ولو الحوا علي بان « اعمل » ، فاني لن اعمل شيئاً ، اني سأنتظر ولولا ذلك لعرف الله الى أين سأسير . ولكن إذا كلمني صوت الله ، عندئذ ، أعرف أني اصبت الهدف وان العمل قد حان وقته » [1] .

وكان غورينغ يتحدث الى السير نيفيل هندرسون قائلا : « وعندما يحين وقت العمل ، وعندما يتعلق الموضوع باتخاذ قرار من القرارات ، لم يكن احد منا يقوم باي عمل اكثر من ان يعد الاحجار التي يقف عليها ، فالفوهرر هو الوحيد الذي يقرر » [2] .

وقد كتب روشنينغ ، الذي لم يكن من اولئك الذين كانوا يتملقون هتلر :

« لقد سنحت لي الفرصة لاتفحص نفسي ، ببرود تام ، واني اعترف بانني في وجود هتلر وحضوره ، كنت احس باني واقع تحت سيطرة اجد

---

(١) هرمان روشنينغ : **هتلر قال لي** ، الطبعة الفرنسية (١٩٤٥) ص ٢٠٧

(٢ (السير نيفيل هندرسون : **عامان مع هتلر** ، الطبعة الفرنسية (١٩٤٠) ص ٣٠١ . SIR NEVILEO HENDERSEN.

بعض العنـاء في التخلص منهـا فيما بعد ، فهو بالرغم من كل شيء نموذج فريد جداً من الرجال . ولا يجدي اعتباره شخصية كاريكاتورية متحركة يمكن الاستهزاء بهـا ، كما يمكن للانسان ان يسخر من نفسه . ونحن نقترب من الحقيقة بصورة اكثر عندما نفكر بمغناطيسية الطبيب المشهور . والدجال الكبير . ان عصرنا هو العصر الذي ينحني امام الدجل » (١) .

ويحمل هذا التقدير طابع الحقيقة . فقد كان هتلر نتاج البربرية في زمنه . فهي تناسبه كقفاز جلدي . وهنا تكمن الساطة التي لا تقاوم التي جعلت منه ساحراً للشعب الالمـاني .

٣ ــ سياسة هتلر الخارجية

ان مبادىء الحزب الاشتراكي الوطني منتشرة دون نظام في فصول مختلفة من كتاب **كفاحي** ، وهو مؤلف ليست له اية قيمة ادبية ، غير انه ليس ثرثرة فـارغة تفوه بهـا مجنون ، كما وصفه الناس في بعض الاحيان . انه اشبه برؤيا يوحنا الانجيلي ، وهو كتاب يكتشف فيه المرء المطامح الشعورية واللاشعورية لهتلر . وقد عدل بعض ما ورد فيه في خطبه اللاحقة (٢) ، وينبغي ان يكون ماثلاً في ذهننا ان هذا المؤلف كتب في عام ١٩٢٥ ، في مرحلة كان فيهـا بعض الناس لا يرون ابعد من المستقبل المباشر . ومع ذلك ، فان هذا الكتاب نسخة كاملة ، لا ، لمـا كان هتلر ينوي عمله ، في السنوات التي سبقت وصوله الى السلطة ، بـل ايضاً لما فعله حقاً ، برغم الغموض

---

(١) راجع :

NORMAN H. BAYNES, SPEECHS OF ADOLPH HITLER, 1922 - 1939 (1942) et GORDON W. PRANGE: Hitler's Worlds (speeches 1922 - 1943 (1944).

واللبس الذي احاط بذلك الزمن .

فعلى حين نرى ان المبدأ الاساسي للماركسية محدد من الناحية الاقتصادية بصراع الطبقات ، نرى ان المبدأ الاساسي للحزب الوطني الاشتراكي محدد بيولوجياً بصراع العروق . كان هتلر تلميذاً لداروين . فبالنسبة اليه : ينبغي ان « نخضع للقوانين الابدية للحياة فوق الارض ، التي تجعل من الوجود صراعاً ، وقتالاً مستمراً » (ص : ٦٧٨) [1] « فالذي يريد ان يعيش يقاتل اذن ! ومن يرفض القتال في هذا العالم الذي يسود فيه قانون المعركة المستمرة ، لا يستحق ان يعيش » (ص ٢٨٨) .

وكان هتلر يقول لروشنينغ حول مسألة العرق :

« لقد افرغت فكرة الامة من كل محتوى .. فليس للامة سوى قيمة موقتة . اتركوا الامة للديموقراطيين والليبراليين ... اما نحن فسنضع لهم مبدأ اكثر جدة ، هو مبدأ العرق . فليست الشعوب التي حددها التاريخ هي التي ستكون مواد بناء نظام المستقبل ... بالطبع ، انا اعرف جيداً انه ليست هناك عروق بالمعنى العلمي للكلمة ... الا انني ، بصفتي رجل سياسة ، احتاج ايضاً الى مفهوم يسمح لي بحل النظام القائم في العالم ومجابهة التاريخ بتدمير التاريخ ، ينبغي ان احرر العالم من ماضيه التاريخي . ان الامم هي المواد المرئية من تاريخنا . وينبغي اذن ان امزج هذه الامم ، وان اصبها ثانية في نظام أعلى ، اذا كنت اريد ان اضع حداً لفوضى ماضٍ اصبح بلا معنى . ولتحقيق هذه المهمة ، ارى ان مفهوم العرق مفهوم قابل للاستخدام . وانطلاقاً من مبدأ الأمة ، قادت فرنسا ثورتها الكبرى الى ما وراء حدودها . وبمفهوم العرق ، سيقود الحزب الاشتراكي — الوطني ثورته الى ان يقام نظام جديد في العالم » .

---

(١) ان أرقام الصفحات المعطاة كمرجع مأخوذة من الطبعة الفرنسية لكتاب « كفاحي » تحت عنوان « كفاحي » (١٩٣٤) .

« سأنشر في كل اوروبا وفي العالم كله الطريقة الجديدة للاعتناء بالانتقاء الذي يعد له الحزب الاشتراكي – الوطني ... ان الصفوة الفعالة من الامم ، اي الصفوة المقاتلة ، والعنصر الشمالي [1] ستسود وستوفر سادة جدد لكل البائعين ... ولكل دعاة السلام والاتقياء ، ولكل رجال الاعمال الذين يحتكرون السلطة اليوم » [2] .

كانت سياسة هتلر الخارجية تنبع من مفهومه للصراع البيولوجي ، فالقوة تتصدر الحق وتغلبه ، لا في الغابات فحسب ، بل في الامور الدولية ايضاً . والامة الاقوى تنتصر على الامة الاضعف . وهي بالتالي الامة القادرة على البقاء. وسيتحكم بالمستقبل في نظر هتلر شعب السادة **HERRENVOL K** لا البروليتاريا كما كان ماركس يتصور ، ولن تتحكم البورجوازية في المستقبل ، بل يتحكم به العرق المتفوق ؛ ونموذج من الانسان الذي صوره نيتشه . وقد هاجم الشيوعيون والديموقراطيون هذه الايديولوجية العرقية بعنف لانها تتجاوز الطبقات وكل الامم : فقد كانوا يرون فيها عدواً مشتركاً .

ومن هذا المفهوم انبعث الحلم النابوليوني لهتلر – رؤيته للمستقبل – هذه الرؤيا التي كانت مماثلة الى حد كبير لرؤيا امبراطور الفرنسيين الكبير ، التي حدثنا عنها لاس كيسيس [3] : وهي وضع القارة الاوروبية تحت زعامة المانيا (بدلا من فرنسا) بصنع وحدتها وبالقضاء على اسباب الحروب ، وبالقضاء

(١) بكلمة « عنصر شمالي » يريد ان يقول : البشر من النموذج الشمالي ، اكثر من : البشر الذين ينتمون الى الدم الشمالي ، وبشر يتمتعون بثقافة وايمان وطنيين اشتراكيين : « الرجل البطولي » مقابل « الرجل الاقتصادي » .

(٢) روشنينغ ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٥٨ .

(٣) راجع الفصل الثالث ، الفقرة ٤ .

على الخوف من البلشفية وبوضع حد « للاستثمار البلوتوقراطي » بتخليص اوروبا من عوائق رأسمالية الارتهان الدولية [١] .

وكان قد قرر لتحقيق هذا الحلم ان تكون مراحله كالتالي :

١) الغـاء معاهدة فرساي .

٢) ضم النمسا وكل الاقليات الالمانية التي تعيش في الدول المجاورة الى المانيا

٣) السيطرة الاقتصادية على اوروبا .

٤) خلق مدى حيوي في اوروبا الشرقية ، اي احتلالها واستعمارها على نطاق واسع .

وقد ادت المراحل الثلاث وانعكاساتها الى اعلان الحرب العالمية الثانية . وسندرسها بامعان في الفصل الثاني . امـا المرحلة الرابعة ، التي ناقشهـا في كتابه « **كفاحي** » ، فانها انما تشكل موضوع هذا الجزء .

وفي عام ١٩٢٥ ، كان هتلر يعتبر عن حق ان انجلترا كانت مركز ثقـل المشكلة ، بالرغم من ان فرنسا كانت « العدو المميت الذي لا يرحم للشعب الالماني » (ص ٦١٦) . وقد صرح هتلر بان سياسة انجلترا كانت « سياسة تأليب الشعوب الاوروبية ضد بعضهـا بعضاً . ان الانجليز يترصدون ميزان القوى في القارة حتى اذا ظهر لهم ان هناك دولة ستبدل من هذا النظام في ميزان القوى عمدت فوراً الى اضعافهـا لئلا تمكن هذه الدولة من الظهور على مسرح «السياسة العالمية » ، كي « تؤمن مؤخراتهـا ، ولكي تستطيع بأمن كامل تحقيق اهداف الديبلوماسية البريطانية التي تتابعهـا في مجال السياسة العالمية » (ص٦٠٩) وبالتالي ، فليس من مصلحتهـا ان تزول المانيا كقوة اوروبية كبرى .

---

(١) Capitalisme Hypothécaire International – او رأسمالية الائتمان الدولية

وقد اضاف قائلاً ما يلي ايضاً : « ان ما تتمناه انجلترا دوماً هو منع اية قوة قارية من مضاعفة قواتهـا الى درجة تستطيع فيها ان تلعب دوراً هاماً في السياسة العالمية ... وما تسعى اليه فرنسا دوماً هو ان تمنع المانيا من ان تشكل قوة متجانسة » ، وبهذا الشكل « تحقق تجانسهـا في اوروبا » . وبناء على هذا فان « الهدف النهائي للديبلوماسية الفرنسية سيكون الى الابد متعارضاً مـع الاتجاهات الاساسية للديبلوماسية الانجليزية » (ص ٦١٤) . فكيف يمكن لالمانيا اذن ان تستفيد من هاتين السياستين المتباعدتين ؟

وها هو جوابه على هذا السؤال : « انها تستفيد فقط فيمـا لو تحالفنا مع انجلترا ، وأمنّا مؤاخراتنا ، عندئذ نستطيع ان نبدأ حملة الجرمانيين الجديدة » ، اي توسيع المانيا باتجاه الشرق . بناء على ذلك « ولكي نحصل على رضى انجلترا وبركاتهـا ، تهون كل تضحية مهما كانت كبيرة » (ص ١٤٢) . وهكذا اعتبر الشعب الانجليزي لمدة طويلة اهم الحلفاء في العالم كله ، لان في وسع اية حكومة تتحالف معه ان تعتمد على عناد حكومته الصريح ... وتصميمها الحازم على القتال حتى النصر » (صفحة ٣٣٣) [1] وكان الحل الوحيد هو التحالف مع روسيا ، وينبغي ان نتذكر ان المانيا وروسيا قد وقعتا مؤخراً معاهدة صداقة متبادلة في رابولو (١٦ من ابريل) نيسان (١٩٢٢) .

وكان هتلر يعارض التحالف مع روسيا معارضة عنيفة ، اذ كان يقول : « ان التحالف الذي لا تشتمـل اهدافه ايضاً على احتمال حرب من الحروب مجرد من المعنى والقيمة » . (صفحة ٦٥٨) . اذ ان السبب لا يعود الى انه من غير الممكن الاعتماد على الروس ، بـل لان « عقد اي تحالف مع روسيا يشير الى احتمال وقوع الحرب ، فتكون النتيجة هي نهاية المانيا » (ص ٦٥٩).

---

(١) في عام ١٩٣٥ ، استخدم هتلر تعابير مماثلة تقريباً في حديث مع المؤلف

وبالاضافة الى ذلك « كيف يمكن ان نفسر للعامل الالمـــاني ان البلشفية جريمة ضد الانسانية جديرة بالعقاب ، عندما نتحالف نحن مع منظمات هذا الجنس الخبيث ... ان الكفاح ضد البلشفية العالمية اليهودية يتطلب موقفـــاً واضحاً ازاء روسيا السوفييتية » (ص ٦٦١) .

وقد عرض فكرته هذه في عبارات محددة تمـــاماً :

« ان على السياسة الخارجية للدولة العنصرية ان تؤمن مقومات الحياة على هذا الكوكب للعرق الذي يضم الدولة ، مع اقامة رباط عادل ، ومطابـــق للقوانين الطبيعية بين عدد السكان وزيادتهم المقررة من جهة ، وبين مساحة الارض وقيمتهـــا من ناحية اخرى ... بالاضافة الى هذا لا ينبغي ان نعتبر كرباط سليم سوى الوضع الذي يكون فيه غذاء شعب من الشعوب مؤمناً بموارده الخاصة فقط ومن ارضه الوطنية » (ص ٦٤٠) .

« وينبغي على الحركة الوطنية – الاشتراكية ان تعمـــل جاهدة لتزيل التناقض بين تعداد شعبنـــا ، وضيق مساحة ارضه ، لان الارض تعتبر كمصدر من مصادر الاعـــالة وكنقطة استناد للقوة السياسية » (ص ٦٤٤) . « .. كانت حدود الرايخ في عام ١٩١٤ اقل من حدود غير معقولة . والواقع انها لم تكن تضم كل السكان الذين يتمتعون بالجنسية الالمـــانية ، ولم تكن منصفة ابداً ، من وجهة النظر الاستراتيجية » (ص ٦٤٧) ... « ان حدود عام ١٩١٤ لا تتمتع باية قيمة لمستقبل الامة الالمانية » (ص ٦٤٩) .

ويتابع هتلر بعد هذا العرض قائلا :

« ونحن الوطنيين الاشتراكيين ، علينـــا ان نتمسك بصورة لا تتزعزع بهدف سياستنـــا الخارجية وهي : اعطاء الشعب الالماني الارض التي يجب

ان تعود اليه في هذا العالم[١] وهذا العمل هو العمل الوحيد الذي يبرر اهراق الدماء امام الله ، وامام الاجيال القادمة ... ويتناسى اعداء التوسع ان ما من شعب في هذا العالم تمكن من امتلاك شبر واحد بفضل احترامه لحقوق الآخرين وتقيده بالقوانين المنزلة . ان الحدود الالمانية هي حدود طارئة وموقتة تمت خلال الكفاح السياسي الابدي » (ص ٦٥١) .

وها هي الخاتمة التي جعلت العالم يهب في عام ١٩٤١ :

« كم نحن مقتنعون اليوم بضرورة تسوية الحساب مع فرنسا ، وسيبقى الوضع بالنسبة الينا عديم الفاعلية اذا اقتصرت اهداف سياستنا الخارجية على هذا القدر . ولا يمكن تفسير هذا العمل الا لتغطية مؤاخراتنا من اجل توسيع رقعة الوطن في اوروبا » (ص ٦٥١) .

« وعلينا نحن الوطنيين الاشتراكيين ان نسعى لتبديل سياسة المانيا الخارجية ، وان نبدأ حيث انتهى اجدادنا منذ ستمائة سنة . ويجب ان نعمل على وقف الزحف الجرماني نحو جنوب اوروبا وغربها ، ونوجه انظارنا الى الشرق . ونضع حداً للسياسة الاستعمارية والتجارية لما قبل الحرب ونفتتح سياسة المستقبل الاقليمية » .

« ولكن اذا كنا نتحدث اليوم عن اراض جديدة في اوروبا ، فلن نستطيع ان نفكر في بادىء الامر في روسيا وفي الدول المجاورة التي ترتبط بها » (ص ٦٥٢) .

« فمنذ قرون ، كانت روسيا تعيش على حساب النواة الجرمانية لطبقاتها

---

(١) في مطلع كتابه « **كفاحي** » (ص ١٣٨ والصفحات التالية) ، يتوسع هتلر في حق احتلال امة لأرض امة اخرى ، اذا كان تزايد عدد السكان يطالب بذلك ، من وجهة النظر البيولوجية .

العليا الحاكمة ... واخذ اليهودي مكانها ... ولن يستطيع اليهودي ، بمرور الزمن ، المحافظة على الدولة القوية . فهو نفسه ليس عنصراً منظماً ، انه ليس الا خميرة من خمائر التفتيت . ان دولة الشرق الكبيرة ناضجة للانهيار ... وقد انتقانا القدر لنشاهد مصيبة ، ستكون اقوى دليل على صحة النظريات العنصرية فيما يتعلق بالعروق البشرية » (ص ٦٥٣) .

٤ ــ طريق الحرب

بين عام ١٩٢٤ ، وهي الفترة التي كان هتلر سجيناً فيها في لاندسبرغ وعام ١٩٢٩ بدأت شروط الحياة في المانيا تتحسن بسرعة ، بفضل القروض الاجنبية التي اخذت تتدفق الى البلاد ، والتي بلغت ٧٥٠ مليون جنيه استرليني . ومع ذلك ، رغم بعث الرخاء من جديد في المانيا ، فان هتلر ، عندما اطلق سراحه من السجن ، استمر في عناده واستمر في توقعه لمصيبة وشيكة الوقوع . وقد وقعت هذه المصيبة في عام ١٩٢٩ . فقد حدث هبوط رهيب للاسعار في بورصة امريكا أدى الى ازمة نقدية عالمية استمرت حتى عام ١٩٣٢ .

وكانت هذه الازمة قاتلة ومميتة للرخاء المصطنع في المانيا . وفي عام ١٩٣٠ ، كان على الحكومة الالمانية ان تقدم يد المعونة الى ١٧,٥٠٠,٠٠٠ الماني . وفي عام ١٩٣١ ، مات ١٥,٠٠٠,٠٠٠ جوعاً . وارتفع عدد اصوات الشيوعيين من ٣,٢٦٥,٠٠٠ في عام ١٩٢٨ الى ٤,٥٩٢,٠٠٠ صوتاً في عام ١٩٣٠ ، وارتفعت اصوات الوطنيين ــ الاشتراكيين من ٨١٠,٠٠٠ صوتاً الى ٦,٤٠٩,٠٠٠ . وفي هذه الغضون ، كان عدد العاطلين عن العمل يرتفع من ١,٣٢٠,٠٠٠ في سبتمبر (ايلول) ١٩٢٩ الى اكثر من ٦,٠٠٠,٠٠٠

في عام ١٩٣٢ [١] . وفي ٣١ من يوليو (تموز) ١٩٣٢ حصل الوطنيون الاشتراكيون في انتخابات الريخستاغ على ١٣,٧٤٥,٠٠٠ صوتاً ، وغدوا اكبر حزب في البلاد . [٢] وبناء على هذه النتائج ، استدعى الرئيس هندنبورغ في ٣٠ من يناير (كانون الثاني) ١٩٣٣ هتلر لتسلم وظائف المستشار وتشكيل الحكومة [٣] . وعندما مات هندنبورغ في ٢ من اغسطس (آب) ١٩٣٤ ، دمجت وظائف الرئيس مع وظائف المستشار ، واصبح هتلر فوهرر الشعب الالماني والقائد العام لقوات الرايخ المساحة التي اقسمت بمين الاخلاص لشخصه ، في الوقت ذاته .

بدأ هتلر بعد تعيينه مستشاراً بوقت قصير بمهاجمة معاهدة فرساي . وفي ١٧ من مايو (ايار) ١٩٣٣ ، صرح في الرايخستاغ ان الدولة الوحيدة التي نزع سلاحها هي المانيا ، وان اية دولة من الدول الاخرى لم تنفذ التزاماتها المتفق عليها في المعاهدة لكي يكون الجميع سواء . ثم عاد الى الهجوم على المعاهدة بعد خمسة اشهر ، وفي ١٤ من اكتوبر (تشرين الاول) اعلن في خطاب آخر ان المانيا انسحبت من مؤتمر نزع السلاح ومن عصبة الامم [٤] نظراً لرفض مساواتها في الحقوق مع الدول الاخرى وانه « ليس هناك من

(١) ان هذه الارقام هي ارقام العاطلين المسجلين وهناك بالاضافة الى هذا عدد كبير لم يكن مسجلا او انهم يعملون نصف الوقت .

(٢) حصل الاشتراكيون — الديموقراطيون على ٨,٠٠٠,٠٠٠ صوتاً ، وحصل الشيوعيون على ٥,٢٥٠,٠٠٠ حصل الوسط على ٤,٥٠٠,٠٠٠ .

(٣) قال هتلر في خطاب القاه في ميونيخ يوم ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٣٣ « نحن نعاني من البؤس الذي سببه الآخرون لنا » .

(٤) قبلت المانيا كعضو في عصبة الامم في ٨ من سبتمبر (ايلول) ١٩٢٦

حرب قادرة على ان تفرض قيوداً دائمة على البشرية ، ولا سلماً يمكن ان يكون تخليداً لأي حرب من الحروب » [١] .

وفيما بعد ، في ٢٦ من يناير (كانون الثاني) ١٩٣٤ وقع هتلر حلفاً سلمياً لمدة عشر سنوات مع بولونيا ، بغرض تأمين جناح المانيا الشرقي . وبعد عام واحد ، عندما تم الاستفتاء الشعبي في منطقة السار وكانت ٩٥ ٪ من الاصوات الى جانب العودة الى المانيا تشجع هتلر الى حد كبير ، واعلن في ١٦ من مارس (آذار) ١٩٣٥ عن نيته في اعادة التجنيد الاجباري ، وتشكيل جيش سلمي مؤلف من ٣٦ فرقة واعادة انشاء الطيران الالماني . وكان الرد على خرق المعاهدة هو المعاهدة الفرنسية – السوفييتية للدعم المتبادل في اوروبا الشرقية ، التي وقعت في ٢ من مايو (ايار) ، وتبعها بعد خمسة عشر يوماً معاهدة مماثلة بين فرنسا والاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا ، ثم في ١٨ من يونيو (حزيران) وقعت بريطانيا العظمى اتفاقاً وحيد الطرف مع المانيا . وطبقاً لهذا الاتفاق سمح لالمانيا بان تزيد نسبة قوتها البحرية الى ما يعادل ٣٥ ٪ من قوة البحرية البريطانية . وعندما هاجم موسوليني الحبشة في اكتوبر (تشرين الاول) فرضت عصبة الامم ، وبريطانيا العظمى على رأسها ، في ١٨ من نوفمبر (تشرين الثاني) عقوبات اقتصادية عليها ، الامر الذي دفع بالدوتشي ، عن غير رضى منه ، الى احضان هتلر .

وعدلت المعاهدة الفرنسية – السوفييتية في ٢٧ من فبراير (شباط) ١٩٣٦ . وعندها صرح هتلر ، بالرغم من ان الجيش الالماني كان ما زال في مرحلة لاعداد ، بان معاهدة لوكارنو لعام ١٩٢٥ [٢] قد خرقت ، واحتل رينانيا

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ١٠٩٤ .

(٢) معاهدة الضمان المتبادل الموقعة بين بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، المانيا ، وايطاليا ، وبلجيكا للمحافظة على السلام بينها في كل الظروف .

في ٧ من مارس (آذار) مع انها كانت منزوعة السلاح . وبعد ثمـــانية ايام ، قال في خطاب القاه في ميونيخ : « اني اسير بنفس الثقة التي يتمتع بهـــا السائر في نومه الى الجهة التي تدلني عليهـــا العناية الالهية . » وكان هتلر يحس بالالهام بأن الفرقة القائمة بين فرنسا وبريطانيا تعوض عجزه العسكري الى حد كبير .

وفي مايو (ايار) شكل ليون بلوم حكومته اليسارية المؤلفة من الجبهة الشعبية في فرنسا . وفضلا عن ان الشيوعيين لم ينضموا اليهـــا رسمياً ، الا انهم مارسوا فيها نفوذاً هـــائلاً . وقد قسّم هذا الوضع ، مرتبطـــاً مع المعاهدة الفرنسية السوفييتية ، القارة الاوروبية الى معسكرين عقائديين عندما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية في ١٧ من يوليو (تموز) . وتدخلت روسيا الى جـــانب الجمهوريين ، الذين كان جزء كبير منهم يتألف من الشيوعيين والفوضويين . ودعمت المانيا وايطاليا القوميين بقيادة الجنرال فرانسيسكو فرانكو ، على حين كانت حكومة بلوم تزود الجمهوريين بالسلاح . وكان الرأي العـــام البريطاني الى جانبهم . وفي اكتوبر (تشرين الاول) وقعت المانيا وايطاليا معاهدة ارست أسس محور روما — برلين ، وفي ٢٥ من نوفمبر (تشرين الثاني) ابرم حلف مضاد للكومنترن بين المانيا واليابان .

وعندما كانت هذه الاحداث تؤرق اوروبا ، كانت بريطانيا العظمى تغرق وتغرق مزيداً من الغرق في حمـــأة النزعة السلمية . وقد اوغلت في هذه الحمأة لدرجة اكد فيهـــا ١١ مليون من المواطنين ثقتهم التي لا تتزعزع في عصبة الامم كأداة للسلم في ربيع عام ١٩٣٥ ، عندما حدث الاستفتاء المشهور للسلام الذي قامت به هذه العصبة . وقد ازعج هذا التصويت الحكومـــة

البريطانية ، واعـاق عملها في كل مسائل الدفاع القومي (١) .

وبعد ان كان هتلر يتملص دون توقف من معاهدة فرساي ، استعان باسلوب مالي اثار عداء الدول التجارية الكبرى ، وبخاصة ، الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، اللتان تمثلان لوحدهمـا قوة المال في العالم ، وذلك كي يستطيع تخليص المانيا من وصاية الرأسمالية الدولية . واعترف هتلر في كتابه « **كفاحي** » بوجود شكلين من الرأسمالية يستند اولهما الى ناتج العمل الخلاق ، ويستند الآخر الى الاستنزاف (ص ٢٠٨) ، وقد كتب حول الشكل الاخير مـا يلي :

« لم تكتف الرأسمالية العالمية باثـارة المشاعر من اجل الحرب ، بل انها ايضاً الآن ، وقد انتهت الحرب ، لم تمتنع عن تحويل الحياة الى جحيم لا يطاق . ان النضال ضد الرأسمالية المـالية ورأسمالية القروض اصبح اهم نقطة في كفاح الامة الالمـانية من اجل استقلالها وحريتهـا الاقتصادية . (ص ٢١٢).

وكان يدعي انه، طالمـا كان النظام النقدي الدولي مستنداً الى الذهب ، فان في وسع الدولة التي تحتكره ان تفرض ارادتها على الدول التي تفتقر اليه .

---

(١) بالرغم من ايمان عدد كبير من انصار عصبة الامم بان من الواجب اعتماد الامن الجماعي على قوة السلاح ، الا ان الغالبية العظمى من الناخبين لم تكن مقتنعة بذلك . وهذا ما يؤكده حديث السيد ستانلي بالدوين الموجه الى مجلس العموم في ١٢ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ : « افترضوا انني توجهت الى الشعب قائلاً : « ان المانيا تعيد تسليحها ، وعلينـا ان نعيد تسليحنـا ! » فهـل يؤمن احد منكم بان هذا الشعب المسالم سينضم الى جانب هذا النداء ؟ اني غير قادر على تصور شيء ، كان سببـاً في رأيي ، لخسارتنا في الانتخابـات » . (ذكرها تشرشل في : **مذكراتي عن الحرب العالمية الثانية** ، الطبعة الفرنسية ، (١٩٤٨) الجزء الاول ، ص ٢٢١) .

ومن الممكن الحصول على هذه النتيجة باستنزاف مصادر التبادل وباجبار الدول الاخرى بهذا الشكل على قبول قروض اجنبية بفائدة كي تستطيع المفاوضة على انتاجهـــا .

نقرر بنـــاء على هذا :

١) رفض القروض الاجنبية ذات الفوائد ، واستناد العملة الالمانية الى الانتاج بدلا من الذهب .

٢) ان يقوم بعمليات الاستيراد بتبادل مبـــاشر في البضائع ، بالمقايضة السلعية ، وبدعم عمليات التصدير عندما يكون ذلك ضرورياً .

٣) ايقاف ما كان يسمى « حرية التبديـــل » ، اي السماح في التلاعب بالعملات ونقـــل ثروات من بلد الى آخر تبعـــاً للوضع السياسي .

٤) يتم ربح المـــال عندما يكون هناك عمل لليد العاملة ، ومواد اولية بدلا من الاستدانة بواسطة القروض .

وبمـــا ان حياة رأسمالية القروض ترتبط بمنح القروض ذات الفوائد ، فان عدداً من الدول الاخرى ستحذو حذو هتلر [١] ، في حال نجاحه . وتأتي اللحظة التي تقوم فيهـــا الدول المحرومة من الذهب بعملية تبادل البضائع مقابل سلع معينة ، ويفقد الذهب كل قوته . وهكذا اصبح افلاس الأسلوب المالي الهتلري هدفاً من اهداف رأسمالية الاقراض .

---

(١) جريدة التايمز ، الصادرة في لندن ، تاريخ ١١ و ١٢ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٠ — اشارت هذه الجريدة الى أنه ، باسلوب هتلر : « لن تصادف المـــانيا صعوبات مالية جديدة » وانه لم « يسمع احداً ابداً بالحديث عن ضرورة زيادة — الضرائب ، ووضع اموال احتياطية اجبارية ، او منح قروض حربية كبيرة . كان مـــا يسمع دوماً هو العكس » .

وفي سبتمبر ١٩٣٧ ، بدأت ازمة جديدة في امريكا ، وتطورت بسرعة هائلة حتى ان البورصة .. انهارت في ١٩ من اكتوبر (تشرين الاول) . وبعد شهر ، سجل احصاء العاطلين عن العمل ١١,٠٠٠,٠٠٠ عاطل تماماً و ٥,٥٠٠,٠٠٠ من العاطلين عن العمل جزئياً . وقد زادت هذه الازمة ، مضافاً اليها اسلوب المقايضة السلعية لهتلر ، من حدة الصراع الاقتصادي الذي اصبح عنيفاً جداً ، حتى ان الملحق العسكري لدى السفارة الامريكية في برلين ، اشار في ابريل (نيسان) ١٩٣٩ الى ذلك قائلا ما يلي : ...« لو درسنا الوضع الحالي على ضوء الحرب الحقيقية التي تشنها المانيا حالياً ، لبدا هذا الوضع واضحاً كل الوضوح . انها حرب اقتصادية ، تحارب فيها المانيا من اجل وجودها ذاته . ان المانيا بحاجة الى منافذ لبضائعها . والا فالموت ينتظرها ، وهي لا تريد ان تموت »(١) .

وعندما اصابت الازمة الولايات المتحدة ، كان هتلر قد انهى الجزء الاول من حملته الهجومية ضد معاهدة فرساي . وكان قد قضى على البطالة في المانيا ، وبعث رخاءها من جديد ، واعاد تسايح رينانيا ، وكسب الى جانب قضيته ايطاليا واليابان . وكان في سبيله الى انشاء جيش وطيران قويين . وكان اهم من كل هذا كله هو انه كان قد وطد سلطته في كل انحاء الرايخ بقوة وحزم . وكان مسموحاً له بالتالي بان ينتقل الى الجزء الثاني من حملته .

وكان قد كتب قبل ثلاثة عشر عاماً في كتابه « **كفاحي** » : « يجب ان يضم الرايخ ، كدولة ، كل الالمان » (ص ٣٩٦) ، اي ينبغي ان يضم النمسا والمان السوديت في تشيكوسلوفاكيا ، وان يعني عودة دانتزيغ والغاء الممر

---

(١)
Robert E. Sherwood : Le Memorial de Roosvelt, d'après les papiers de Harry Hopkins, édition française (1950) vol I, pp. (1951) p. 124.

البولوني . عندئذ ، وعندئذ فقط تلغى معاهدة فرساي ، وتغدو المانيا في القارة الاوروبية السيد الحقيقي بدلاً من ان تكون الدولة المنبوذة .

وقد اصبحت النمسا بحل ملكية الهابسبورغ في عام ١٩١٨ حطاماً اقتصادياً ، وكان عدد من سكانها يعتقدون بان الاتحاد مع المانيا هو الامل الوحيد لنهوضها وقد استغل هذا الامل في فيينا حزب وطني ــ اشتراكي نمساوي كثير الضجيج ، كانت قوته تتزايد باستمرار ، وكان يطالب بحق تقرير المصير .

وفي ١١ من فبراير (شباط) ١٩٣٨ دعى هتلر مستشار النمسا كورت فون شوسشنيغ الى برختسغادن . وعند وصوله تلقى شوسشنيغ اخطاراً بانذار طالبه الفوهرر بتوقيعه ، والا عوقبت بلاده بالغزو المسلح ، فاضطر الى توقيعه . وكان هذا الانذار يتضمن استسلام النمسا الى المانيا . وفي مطلع مارس (آذار) ، استعان شوسشنيغ بحيلة يائسة وهي اجراء استفتاء عام في ١٣ من مارس (آذار) لكي يضمن ارادة الشعب النمساوي ووقوفه الى جانبه . وعندما علم هتلر بذلك في ٩ من مارس (آذار) ثار غاضباً وامر الجيش باجتياز الحدود النمساوية ، وقام الجيش بذلك يوم ١٢ . وبهذا الشكل امتص الرايخ النمسا ، وابتهج بهذا العمل عدد كبير من النمساويين . والتف الالمان على النمسا ، ووصلت الحدود الالمانية الى الحدود الايطالية . وكان الاحتجاج هو كل ما فعلته الدول الغربية ، الامر الذي لم يثبط عزيمة هتلر وشجاعته لينتقل الى المرحلة التالية وهي : تحرير المان السوديت .

وكانت تشيكوسلوفاكيا ، على عكس النمسا ، دولة متعددة القوميات ، ويشكل ٣,٥٠٠,٠٠٠ الماني من سكان السوديت ، تحت قيادة كونراد هانلين ، الجزء الاكبر والاهم من اقلياتها . وفي عام ١٩١٩ ، تحركت العصى الويلسونية (نسبة الى الرئيس ويلسون) لحق تقرير المصير ، تحت اسم

الديموقراطية ، لتخلق دولة تشيكوسلوفاكيا . والآن وفي عام ١٩٣٨ ، يقرر هتلر تحريكهـا ، باسم الوطنية – الاشتراكية ، ليدمر تشيكوسلوفاكيا ، جاعلاً من هانلين حصان طرواده . فدعاه الى برلين في ١٨ من مارس (آذار).

وفي ٢٠ من مايو ، اعلنت الحكومة التشيكية النفير الجزئي (التعبئة الجزئية) ، بعد ان اقلقتهـا الاشاعات عن حشد قطعات المانية على مقربة من الحدود . وقد فوجىء هتلر بتأكيد فرنسا ، مدعومة من قبـل روسيا ، بوعدها بمساعدة تشيكوسلوفاكيا . لم يكن هتلر مستعداً لحرب عامة . فأخر مشروعه الى ١٢ من سبتمبر (ايلول) ، حيث هاجم في هذا اليوم في خطاب عنيف الحكومة التشيكية ، وكأنه يعطي الاشارة ببدء العصيان في السوديت . وعندما رأى رئيس وزراء فرنسا ادوارد دالادييه العصيان الذي حدث ، وخوفاً من نشوب حرب عامة فيما لو تدخلت فرنسا، التجأ الى رئيس وزراء تشامبرلان يستشيره فيما ينبغي عمله . ولكن يدا تشامبرلان كانتا مقيدتين بعدم استعداد بلاده التام للحرب ، وكان هتلر يعرف ذلك . وفي ١٥ ذهب تشامبرلان على متن احدى الطائرات الى برختسغادن ليتفاوض مع هتلر . وقام برحلة ثانية في ٢٢ وبرحلة ثالثة يوم ٢٨ . وانتهت الرحلة بمؤتمر حضره هتلر ، وموسوليني ، وتشامبرلان ودالادييه . ولم يدع الاتحاد السوفييتي الى هذا المؤتمر ، كمـا ان المؤتمرين لم يأخذوا رأي تشيكوسلوفاكيا . نتج عن ذلك انتصار حاسم لهتلر : ففي عشرة ايام ، بدءً من اول اكتوبر (تشرين الثاني) ، كان على السوديت ان تخضع وتنضم لالمانيا . وفي ٣٠ استسلمت الحكومة التشيكية برئاسة ادوارد بينس وتصاعد نفوذ هتلر مزيداً من التصاعد ايضاً .

وبالرغم من النجاح الذي حققه هتلر ، الا انه لم يكن ينوي التوقف . فمن ٢١ اكتوبر (تشرين الاول) الى ١٧ ديسمبر (كانون الثاني) ، اذاع سلسلة من التوجيهات امر فيهـا الجيش بالاستعداد لاحتلال تشيكوسلوفاكيا ، وميحيل ، ودانتزيغ ، واثنـاء استعدادات جيشه كان الحظ الى جانبه .

ومن ٦ الى ٩ مارس (آذار) ١٩٣٩ ، اقال الرئيس التشيكوسلوفاكي حكومات سلوفاكيا وروتينيـــا ، لكي يقضي على مؤامرات الانفصاليين . وعلى هذا استعان رئيس وزراء سلوفاكيا المخلوع ، جوزيف تيزو بهتلر ، ولدى وصوله الى برلين في ١٣ من مارس (آذار) ، قدم هذا الاخير فوراً ضمانة باستقلال سلوفاكيا . وقد علم رئيس سلوفاكيا الجديد كارول سيدرو بهذا النبــأ فوراً ، وتحت التهديد بغزو الماني مسلح اضطر الى قبول الانذار الالمـــاني .

وبينمـــا كان تيزو في برلين ، استدعى هتلر الرئيس هاشا الى برلين في ١٤ من مارس (آذار) . وهناك تسلم الانذار الذي يتضمن خضـــــوع تشيكوسلوفاكيا التي ستمنح استقلالها الذاتي داخل اطار الرايخ ، اذا لم تقاوم . واذا ما قاومت فلن يكون مصيرها سوى الغزو والاحتلال . وفيمـــا بعد ، اعد مشروع بيان يوقعه هاشا ينص على ان الرئيس التشيكي « يضع مصير الشعب التشيكي بين يدي الفوهرر ، وهو يثق في هذا المصير ثقة مطلقة »[١] .

وبعد ساعتين ، اجتازت القطعات الالمانية الحدود التشيكية . وعندما احتج سفراء فرنسا انجلترا ، اعلمهم الالمان بان الفوهرر استجاب الى طلب الرئيس التشيكي .

ثم انتقـــل هتلر الى المرحلة الاخيرة التي كانت قاتلة ومميتة ، هذه المرة ، بعد ان اسكره نجاحه ، واهمـــل خصومه في ازدراء تام . وبدلا من ان ينتظر عاماً او عامين حتى تهدأ العاصفة السياسية التي اثارها ، طالب في ٢ من مارس (آذار) بعودة ميميـــل لالمانيا واحتلهـــا فوراً . وقدم في الوقت ذاته مقترحات لبولونيا لاعادة دانتزيغ الى المانيا وبنـــاء خط حديدي ، وطريق بري دولي

---

(١) ذكر ذلك ألان بولـّوك : ص ٤٤٥

عبر الممر البولوني . وقد اعلن رئيس الوزراء البريطاني عندئذ ، مدهوشاً ، في مجلس العموم :

« .. ان حكومة جلالته تعتبر نفسهـا ملتزمة بتقديم الدعم المستطاع للحكومة البولونية فيمـا لو تم اي عمل يهدد بصورة واضحة استقلال بولونيا ، وتقرر الحكومة البولونية لاسباب حيوية ، مقاومته بكل قواها الوطنية . وقد أعطت حكومة جلالته الى الحكومة البولونية تأكيدات في هذا المجال » [١] .

وانضمت فرنسا الى بريطانيا العظمى . وفي ١٣ من ابريل (نيسان) توسعت الضمانات غير المقيدة بالشروط الممنوحة الى بولونيا فشملت رومانيا واليونان .

وفضلا عن انه كان في وسع هتلر ان يعتبر هذه الضمانات من قبيـل الخداع ، فقد كان الشيء الوحيد الذي يتوجب عليه تجنبه ، هو الحرب على جبهتين . وبالرغم من رأيه الذي عبر عنه في كتابه **كفاحي** من ان التحالف العسكري مع روسيا « سيكون علامة حرب جديدة تكون نتيجتهـا نهاية المانيا . » ، قرر ان يحصل على هذا التحالف ، وهذا ما فعله . ففي ٢١ من اغسطس (آب) ، وحسب تعبير السير ونستون تشرشل « انفجر الخبر المشؤوم في العالم كقنبلة » [٢] : فقد اعلنت وكالة تاس السوفييتية ان مبعوثاً خاصاً لهتلر طار الى موسكو لتوقيع معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتي . وقد وقع الحلف في ٢٣ من اغسطس (آب) وحصل ستالين على ما كان يريده وهو : الحرب في اوروبا الغربية والسلم في الاتحاد السوفييتي .

واعلنت الحكومة البريطانية ، فور وصول النبـأ ، تصميمها على الوفاء بالتزاماتها تجاه بولونيا ، وفي ٢٥ ، نشرت معاهدة قانونية مع بولونيا . وبهذا

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ــ الجزء الاول ــ (ص ٣٥٣) .
(٢) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ، ص ٤٠١ .

الشكل فجر القرار غير المقيد بشروط الصادر في ٣١ من مارس (آذار) الحرب ، التي فرضت الاستسلام غير المشروط على المانيا بعد ست سنوات . وفي الاول من سبتمبر (ايلول) اجتازت القطعات الالمانية الحدود البولونية ، رانتهت هدنة العشرين عاماً .

٥ ـ النظريات واخطاء التكتيكات

تميزت الحرب العالمية الاولى عن الحروب السابقة ، على المستوى التكتيكي ، باستخدام ثلاثة اسلحة جديدة : **الغازات الخانقة ، الطائرة ، ودبابة الانقضاض** وبالرغم من قوة السلاح الاول المؤكدة فاننـــا لن نقف عندها طويلا ، لأن دراسة هذا السلاح اهملت بعد الحرب [١] ، ولم يستخدم كسلاح في الحرب العالمية الثانية . فلو ان الحرب العالمية الاولى استمرت عاماً آخر ، وهو ما فهمه عدد معين من الافراد لعم استخدام هذه الاسلحة على نطاق واسع . فدبابة الانقضاض والطائرة زادا من سرعة القطعات لدرجة كان من المنتظر ان تتطور تكتيكات جديدة ، كان من الممكن ان تمـــارس اثراً جذرياً على فن الحرب . فقد اتاحت دبابة الانقضاض بابطالها مفعول الرصاص ، للحركات البرية الصفحية (التي تجري على صفحة البلاد) أمنـــاً كان حتى ذلك الوقت منيعاً جداً . وبتجاوز حدود ساحة المعركة ، وبتحويل السماوات الى طريق

---

(١) ان عدم استخدامه ناجم عن الانفعال الشعبي ضده . ولا مانع من ان نشير الى انه منذ عام ١٨٦٤ ،وصف احدهم واسمه ريتشادسون M. R. W. في : The POPULAR SCIENCE REVIEW جيشاً خُدِّرَ ونوم بغازات غير سامة (ذكر ذلك آموس آ. فريز وكلارانس .ح . ويست) في مجلة الحرب الكيماوية CHEMICAL WARFARE صفحات ٤ و ٥ .

عالمي ، اضافت الطائرة ايضاً بعداً جديداً للحرب . وكلا السلاحين كانا يرجحان الهجوم .

وكان الجنرال الايطالي جيليو دوهيه اول داعية للاستخـــدام الهجومي للطيران . وقد عرض نظرياته في مؤلفه **السيطرة الجوية** [١]، وكان لهذه النظريات اثر عميق على الحرب ، وطبقهـــا الجنرال ويليام ميتشل في الولايات المتحدة ، الى حد كبير ، كمـــا طبقها ايضاً السير هيوترنشار في انجلترا .

وقد اعتبر دوهيه من التقدميين المبشرين بمستقبل هذه الاسلحة ، غير انه كان في الحقيقة رجعيـــاً في مادة التكتيك ، لانه كان يعود في هذا المجال الى اعمال قصف المدفعية الكثيفة للحرب العالمية الاولى ، اذ كانت هذه العمليات تدميراً صرفاً . وكان بدعوته ينقـــل هذا التدمير من المستوى الافقي الى المستوى العامودي . وكان يشبه الطائرة « بمدفع خاص قادر على رمي قذائف لمسافة تعادل مدى عملهـــا » . فالقوة الجوية ليست بالتالي في نظره الا « بطارية مدفعية قوية » . وكان يدعي انه لمـــا كانت الطائرة « مستقلة عن سطح الارض ، ونظراً لانها وسيلة عمل اسرع من اية وسيلة اخرى من وسائل العمل ، فهي اذن **افضل** سلاح هجومي (ص ٤٨) . وقد اضاف قائلا : « ان قوة النيران هي العامل الحاسم في القتال الجوي ، لان السرعة لا تفيد الا في اللحاق بالخصم او الفرار منه . والطائرة البطيئة المسلحة بشكل تشكل حولها سداً نارياً تجد

---

(١) طبع في فرنسا عام ١٩٣٢ تحت عنوان : **الحرب الجوية** ، للمؤلف الجنرال دوهيه . وكان الكتاب عبارة عن خلاصة افكار الجنرال حول : **نظرات في حرب المستقبل ، السيطرة الجوية ، حرب .... ١٩** ومراجع هذا الفصل مأخوذة من كتاب **الحرب الجوية** .

نفسهـا في وضع تستطيع فيه اسقاط طائرة مقاتلة اسرع منها » (ص ٧٩)[١].
بناء على هذا ، ليس من الضروري في الحرب الجوية ، ان نأخذ الدفاع بعين الاعتبار ، سواء اكان ذلك في الجو ، او في الارض ، وبالتالي ، ينبغي على الطيران ان يعمل دون ان يترتب عليه الارتباط بالجيوش والاساطيل « وينبغي استخدام كل الموارد الممكنة لتعزيز الطيران المستقـل كي يكون قادراً على القيام بالعمليات ، والدفاع عن نفسه في الجو بواسطة هجمات قوية وعنيفة ..» وهذا « التأكيد اساسي جداً ولا يقبـل أية استثناءات » « .. ان الطيران المساعد (طيران الدعم) [٢] غير مفيد ، ويعتبر نوعاً من هدر الطاقات ، ومضر » (ص ٦٦) . « .. ان استخدام المدفعية ضد الطائرات خسارة لا مبرر لها وتبديد للطاقات والموارد » (ص ٩٧) .

ان الهدف الاول للهجوم الجوي هو الحصول على السيطرة الجوية . « فالحصول على السيطرة الجوية يعني ان نكون قادرين على منع العدو من الطيران ، مع بقائنا ، نحن قادرين على الاشعاع في الاجواء (ص ٥٩) . » « فالحصول على السيطرة الجوية يعني الانتصار ، والانهزام في الجو يعني الهزيمة وفي كل مرة من المرات نتحول فيهـا عن الهدف الاساسي ، نرتكب خطأ ... فلا يمكن تحقيق الهدف الاساسي الا بالوسائل الجوية . فالوسائل الحربيـة الموجودة فوق الارض ، وفي البحار لا تستطيع ان تساهم في تحقيق هذا الهدف **ولا يمكن تأمين الدفاع القومي الا بقوة جوية قادرة ، في حالة النزاع ، على**

(١) هذا الكلام يناقض ما كتبه في الصفحة ٧٢ : « : « سيكون الجيش الجوي مؤلفاً من اسراب قاذفة واسراب مقاتلة . ومهمة الاولى مهاجمـة الاهداف الارضية ، امـا الاسراب الثانية فمهمتها هي السماح بهذه الهجمات ، حتى في حالة قيام رد جوي معاد » .

(٢) الطيران المفرز للتعاون مع الجيش البري الخ ...

كسب السيطرة الجوية (صفحات ٦٠ — ٦١) . » وقد كرر دوهيه هذا المبدأ مرات عديدة ، وهو يقبل ، دون اية مبررات يقدمها ، ان من الممكن الحصول على السيطرة الجوية ، بطيران متفوق ، في بضعة ايام تلي بدء النزاع .

وعندما يحصل طرف من الاطراف على التفوق الجوي ، تبدأ المرحلة الثانية : وهدف هذه المرحلة هو سحق العدو . ومن الواجب ان تكون اهدافها : المؤسسات الصناعية والتجارية ، والابنية الهـامة ... الطرق ومراكز المواصلات وتجمعات السكان المدنيين » . وبالاضافة الى هذا « فان حرب المستقبل ستكون اساساً **ضد سكان المدن العزل من السلاح ، وضد المراكز الصناعية** » . « والمبدأ الاساسي للقصف الجوي هو المبدأ التالي : ينبغي ان يدمر القصف الهدف المتبقي تدميراً تاماً ، بشكـل يكون فيه تدخل واحد ضروري ، ضد الهدف ذاته » (ص ٥٦) . ويبدو هذا الامر سهلا ، لاننا لا يمكننـا ان ننكر ان « ١٠٠٠ طن من القنابل المتفجرة ، والحارقة والسامة ، اذا صبت على باريس او لندن قد تدمر هاتين المدينتين » « وسيحدث بالضرورة تفكك عميق في الجهـاز العضوي القومي » في بلد يتعرض لمثل هذا النوع من القذف المميت الذي لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، والمنصب عليه من السماء . « ولن يمر وقت طويل الا وتتحرك فيه الشعوب مدفوعة بغريزة المحافظة على البقاء لتطالب فقط بأي ثمن بايقاف القتال ، وربمـا تطالب بهذا قبل ان يتم النفير العام ، وقبل ان تخرج الاساطيل من موانئهـا » (ص ١٠٢) وذلك كي تضع حداً للآلام والاهوال . واستنتج دوهيه من كل هذا العرض مـا يلي .. « ان الامة التي سيطرت على الجو ، والتي تستطيع ، منذ ان تتحقق سيادتها عليه ، ان تبقي في العمليات الجوية مائة طائرة ، او ٥٠ ، بـل ٢٠ فقط من طائراتها (قوة ٦٠٠٠ حصان) ستربح الحرب بصورة حاسمة ، لانها ستكون قادرة على تحطيم البنية الاجتماعية لخصمهـا في اقل من اسبوع ، **مهما كان بمقدور جيشها واسطولها البحري ان يفعلا** » .

ويرى دوهيه ان « الهجوم الجوي سيحدث حسماً سريعاً جداً للنزاع المسلح » (ص ٦٢) « لان هجماته ستنعكس آثارها ، بصورة مباشرة وعنيفة جداً ، ضد العناصر التي تتمتع بمقاومة اقل » (ص ١٠٥) . وهذه العناصر هي السكان المدنيون .

ولا يلتفت دوهيه ابداً الى الحرب البرية المقبلة ، ولا يعير تحولها الى حرب ميكانيكية اي اهتمام . فقد كتب قائلاً : « ان الحرب البرية ، ستكون ذات طابع ثابت ، مماثل لطابع الحرب الماضية ... ويمكن القول انه ستنشأ من جديد جبهات متواصلة تتشكل من تلقاء ذاتها .. مماثلة للجبهات التي نشأت في الحرب العالمية الاولى .. وستتعرض كل نظريات ومفاهيم حرب الحركة الى الاخفاق في هذه الجبهات المتواصلة . » (ص ٤٤) . وتساهم هذه الاعتبارات في تعزيز حججه في عدم امكانية ربح اي حرب الا بواسطة القوات الجوية .

واقتصر دعاة دور دبابات الانقضاض في المستقبل على ضباط اركان الدبابات الفرنسيين والبريطانيين . ولكن على حين ، تعلق الاولون بالتعاون الوثيق بين الدبابات والمشاة — وهذا ما اوضحه وابرزه التكتيك المستخدم في كامبري — كان الضباط الانجليز قد اخذوا بعين الاعتبار ، منذ اليوم الاول لظهور الدبابات ، استخدام دبابات الانقضاض بصورة مستقلة ، والتطور المقبل لجيوش الدبابات المتضمنة كل صنوف الاسلحة . وكانت هذه الافكار مستندة الى التصور التقليدي للمعركة كاشتباك وكصراع بين القوات المسلحة للطرفين . وبالرغم من ان هذه الافكار صالحة من وجهة النظر التكتيكية ، غير انها تستبعد استخدام تصميم تكتيكي مختلف عنها كل الاختلاف ، كانت دبابة الانقضاض تتيح استخدامه بصورة عملية . وقد تصور مؤلف هذا الكتاب هذا التكتيك في صيف عام ١٩١٧ ، وتأكد لديه تماماً في شهر مارس (آذار) من العام التالي ، عندما خرق الالمان جبهة الجيش الخامس الانجليزي .

فقد رأى المؤلف ، وسط الهزيمة التي حدثت للجيش آنئذ ، عشرات الالوف من الجنود تأمرهم هيئات اركانهم بالتراجع ، بعد ان اذهلهـا الارجاف والفزع . ورأى بأم عينيه انسحاب مقر قيادة الجيش ، ثم مقر قيادة الفيلق ، ثم الفرقة ، ثم اللواء في آخر الامر ، او العكس ـ بالعكس . وقد ادرك المؤلف العلاقة الوثيقة القائمة بين الارادة والعمـل : فالعمل بدون ارادة ، يعني زوال التنسيق وافتقار الجيش الى عقـل موجه ، يحوله الى مجموعة هائمة على وجهها . وفهم المؤلف فهمـاً تاماً ان القتال مع دبابات الانقضاض يتيح وضع تكتيك جديد يسمح لجيش صغير نسبيـاً من الدبابات ان يشن من جديد معارك كمعارك ايسوس ، وآربيل . فمـاذا كان السر التكتيكي لهذه المعارك ؟ بينمـا كان « فلانكس » الاسكندر مشتبكاً مع قطعات القتال الرئيسية [1] للفرس ، هاجم بخيالته المرافقة ارادة الخصم ، المتجسدة في حقيقة الامر بشخص داريوس . وعندما شلت هذه الارادة ، كانت قطعات الفرس قد فقدت كل الارتباطات القائمة فيمـا بينها .

وقد تطور هذا المفهوم في مايو (ايار) ١٩١٨ في مذكرة طويلة وضعها المؤلف تحت عنوان : « الشلل الاستراتيجي هو هدف المعركة الحاسمة » ، ثم اضحى هذا العنوان فيما بعد : « خطة ١٩١٩ » [2] . وكانت النقاط البارزة فيها هي التـالية :

تكمن القوة الهجومية لجيش من الجيوش في تنظيمه الذي يمكن تدميره بالاستنزاف ، او تحويله الى جيش عديم الفاعلية . وتتضمن الطريقة الاولى

---

(١)
Corps de bataille

(٢) راجع الخطة في كتاب اللواء . ج . ف . س . فوللر (١٩٣٦) صفحات ٣٢١ الى ٣٣٦ .

Memoirs of an unconventional soldier.

الخسائر المعادية ، والجنود المقتولين ، والجرحى او الاسرى : حرب الافراد . امـــا الطريقة الثانية فتجعل قوة قيادته غير فعالة : حرب شل الادمغة . ولنأخذ كمثال رجلا منفرداً : فمن الممكن مقارنة الطريقة الاولى بسلسلة من الجروح يتعرض لهـــا تكون من نتيجتها ان ينزف دمه حتى يموت . اما الثانية فتشبه طلقة نارية في المخ .

ويتألف عقل (دماغ) كل جيش من الجيوش من هيئات أركان الجيش ، وأركان الفيالق والفرق . فاذا مـــا نزعناها بغتة من قطاع واسع من قطاعات الجبهة الالمانية فإن اندحار القوات التي كانت تحت قيادتهم لن تكون سوى مسألة ساعات .

وبمـــا ان نظريتنا الحالية هي تدمير الافراد ، فان نظريتنـــا الجديدة ستكون تدمير القيادة ، لا بعد تفكيك تنظيم الافراد المعادين ، بـــل قبل الهجوم لكي يجد الخصم نفسه في وضع التفكك في لحظة الانقضاض .

وكانت الوسائل المقترحة هي التسلل المفاجىء لدبابات الانقضاض السريعة[١]

---

(١) كانت الخصائص المميزة لدبابة الانقضاض هذه هي التالية : السرعة القصوى : ٣٢ كم في الساعة ، مدى العمل : ٢٥٠ ـــ ٣٢٠ كم ، والقدرة على اجتياز مقطع من الارض عرضه ٤٫٢٠م . وقد انتجت هذه الدبابة فيما بعد ودعيت دبابة انقضاض متوسطة . D وقد ظهر النموذج الاول في عام ١٩١٩ ، الا انه لم يجمع هذه الخصائص .

التي تتسلل دون ان يحس بها الخصم الى مختلف مقرات القيادة المعادية [١] ، وتطوقهـــا او تشتتها . وفي هذه الغضون تتركز كل وسائل القصف الجاهزة على عقد الطرق ومراكز التموين . ولا تهاجم الجبهة المعادية بصورة طبيعية الا بعد ان يتاح الوقت الكافي لتطوير هذه العمليات ، ومتى تم الخرق ، تليه عملية المطاردة .

وعالجت المذكرة مهمات كل صنوف الاسلحة . وكانت مهمات القوة الجوية الملكية هي المهمات التالية :

١) ان تكون بمثابة طليعة للدبابات .

٢) توجيه الدبابات نحو اهدافها .

٣) حماية الدبابات ضد رمايات المدفعية المعادية .

٤) مساعدة الدبابات في تفكيك تنظيم المقرات العامة المعادية .

٥) تموين سرايا الدبابات المتقدمة بالمحزوقات والذخائر الخ ...

٦) ان تقوم بواجب عمال الارتباط بين سرايا الدبابات وقواعدها .

٧) نقل قواد ألوية الدبابات فوق قطاعاتهم ليتاح لهم متابعة العمليات ، وترتيب قواتهم الاحتياطية بناء على مجرى العمليات .

وقد اختبرت هذه النظرية التكتيكية للمرة الاولى بشكل معدل في عام ١٩٣٩ ، وعرفت تحت اسم **الحرب الخاطفة** .

كانت نظريات دوهيه ونظريات المؤلف مستندة الى الهجوم ، ويتطلب

---

(١) في هذه الفترة ، كان هناك تسعة مقرات عامة للجيوش الالمانية على الجبهة الغربية ، على مسافة من خط النار يبلغ متوسطها ٣٠ كم. وكانت المقرات العامة للفيالق والفرق على مسافة اقرب بالطبع .

تنفيذها استراتيجية هجومية ، تحتاج بدورها ، الى نوايا سياسية هجومية . وبناء على ذلك ، ينبغي ان نفتش عن مفتاح قبولها ، ورفضها او تعديلها في سياسة السلم التي يطبقها المتنازعون في المستقبل .

لكن سياسة فرنسا ، وبريطانيا العظمى كانتا الحفاظ على **الوضع الراهن** تحت اشراف عصبة الامم . ولم يكن امامهما شيء تربحانه في حرب اخرى . ولما كان شعبا هذين البلدين شعبين ديموقراطيين سلميين ، كان الوضع كذلك بالنسبة لحكومتهما . وبالمقابل ، وكما في وسع اي قارىء لكتاب **كفاحي** ان يقدر ، كانت سياسة هتلر اكثر من عدوانية ، وكانت حكومته حكومة اوتوقراطية ، وليس هناك من وزن للشعب الالماني وما اذا كان مسالماً او عدوانياً . وقد سوت هذه الاهداف المتباعدة سياسة المتصارعين الثلاثة في عام ١٩٣٩ ، في مادة التكتيك .

كان هتلر واسع البصيرة كصاحب نظرية في التكتيك ، كما كان واسع الحيلة كرجل سياسي . فقد رأى الحرب الاخيرة عن قرب ، وتمثل تمثلا كاملا دروسها التكتيكية ، وهو شيء رائع بالنسبة لعريف في الجيش الالماني . ولكن ما هو اروع من هضم هذه الدروس ، وتمثلها هو انه وضعها ضمن اطار المستقبل ، وبنى على اساسها طاقته العسكرية . وفي عام ١٩٣٩ ، لم يكن تفوق الجيش الالماني على كل الجيوش الاخرى مستنداً الى تفوقه العددي فقط ، ولا على تفوقه في التسليح والتجهيز ، بل كان تفوقه مستنداً ايضاً الى تكتيكه الذي ، لو لم يتخيله هذا الجيش بنفسه ، لفرضه هتلر على أركانه العامة .

فقد كتب في كتابه كفاحي ان المكننة MOTORISATION «ستظهر بشكل لا يقاوم ، وبصورة حاسمة » في الحرب المقبلة (ص ٦٥٨) . وكان يميل الى السيارات السريعة ، و « الاوتوسترادات » والطائرات . وبناء على ذلك ، كانت الحرب المستندة الى الحركية الكبيرة والى قوة الصدمة تسحره

وتفتته . فقد نظم الطيران (اللوفتواف) والجيش الالمانيين لتنمية السرعة ، لكن مهمة الطيران لم تكن كسب الحرب لوحده ، كما اكد دوهيه في نظريته ، بل كانت التعاون مع الجيش في المقام الاول ، فقد كانت مهمة قاذفاته الاعداد لتقدم القوات البرية . كما كان على قاذفاته المنقضة ان تقوم بدور مدفعية ميدان طائرة . وان تحمي انقضاض القطعات الآلية من الجيش : وهي فرقه المدرعة . ولم يكن على « اللفتواف » ان يعمل كطيران مستقل الا في المقام الثاني .

وكان هتلر لا يقبل ان تكون القوة لوحدها هي الوسيلة الوحيدة الفعالة . فقد كان يقول الى هرمان روشنينغ : « لقد تعلمت ذلك من البلاشفة .. اننا نتعلم دوماً من اعدائنا . » .

« ان ما يمثله تمهيد المدفعية في هذا العصر بالنسبة لهجوم المشاة في حرب الخنادق ، سيحل محله في المستقبل التفكيك البسيكولوجي للخصم بواسطة الدعاية الثورية . وسيحدث هذا قبل ان تتدخل الجيوش بقوتها ... فهل سنحصل على الهزيمة المعنوية للخصم قبل الحرب ؟ هذا هو السؤال الذي يعنيني . فالذي حارب في الجبهة لا يستطيع ان يقبل تضحيات دموية جديدة اذا كان من الممكن تجنبها ... فاختلاط المشاعر وتبلبلها ، والصراعات المعنوية ، والتردد ، والارجاف ، تلك هي الاسلحة التي سنستخدمها ... تعاليم الثورة ، هذا هو كل سر الاستراتيجية الجديدة ... وستكون كل الوسائل حسنة بالنسبة لي ... وما اريده ، هو تدمير (الخصم) بكل الوسائل [١] » .

ان التكتيك النظري الفرنسي كان دفاعياً صرفاً . وكان مستنداً الى بناء جهاز دفاعي ضخم وجبار مؤلف من التحصينات ، اطلق عليه اسم خط ماجينو ،

---

(١) روشنينغ – المرجع المذكور سابقاً ص ٢٥ .

يمتد من بـال الى فيسمبورغ ، ومنهـا الى لونغفي LONGWY أي على طول الحدود الفرنسية الالمانية ، – وهدفه حماية الالزاس واللورين ، التي كان ينبغي على الطيران القاذف ان يعمل منهـا كمدفعية ذات مدى بعيد .

والنقد الذي يمكن توجيهه هنا نقد ضعيف ، لان تعداد القوات الفرنسية كان اقـل من نصف تعداد القوات الالمانية . اذن ، فنحن عندما ننتقد وجود جبهة الالزاس – اللورين ، فذلك لان في وسع الفرنسيين ان يحشدوا الجزء الاكبر من جيشهم الذي هو اقل قوة من الجيش الالمـاني على الحدود البلجيكية وقد ادعى النقاد في كثير من المرات انه لكي نحول فرنسا الى دولة لا تقهر ، كان من الواجب استمرار خط ماجينو من لونغفي الى المـانش ، ولكن مثل هذا الدفاع كان سيمتص بالتأكيد وبصورة عملية كل الجيش الفرنسي المناور ، ويصبح كل شكل هجومي مستحيلا بالنسبة اليه وكما قال نابليون في : Le Souper de Beau caire « **ان من يبقى خلف خنادقه مهزوم ، والتجربة والنظرية متفقتان حول هذه النقطة** » .

لقد كان خطأ الفرنسيين انهم اهملوا حشد كل قواتهم المدرعة على الحدود البلجيكية . فقد كانت لديهم كل الوسائل للقيام بهذا الحشد ، لان مدرعاتهم كانت متفوقة على مدرعات الالمان ، سواء من ناحية عددها ، او من ناحية تقنيتهـا . ولكنهم بدلا من ان يجمعوها في فرق مدرعة ، وزعوها الى وحدات دعم للمشاة . وكانت هذه الخطيئة خطيئة تكتيكية فاصلة تكفي لوحدها لتفسير الهزيمة الفرنسية .

حتى ان التكتيك النظري في بريطانيا العظمى كان متخلفـاً كثيراً عن التكتيك النظري في فرنسا . فقد نامت الحكومة البريطانية وهيئة الاركان العامة

آمنتين خلف خطهمـــا « الماجينو » الطبيعي ، المماثل لحاجز المانش عشرين عاماً ، ولم تستيقظا الا عندما هاجم هتلر بولونيا . وفي ٢٦ من ابريل (نيسان) ١٩٣٩ ، اعادا التجنيد ، فكان التكتيك النظري يريد تكرار المرحلة الاولى من الحرب العالمية الاولى . وعندئذ يتاح لهم الوقت الضروري ليغدو حصار المانيـــا حقيقة واقعة . وفي هذه الغضون ، يهاجم الطيران المدن الصناعية في المانيا وسكانها المدنيين ، وهذا مـــا أسموه ، لاسباب مجهولة « القصف الاستراتيجي » والذي كان مستنداً الى نظريات دوهيه . امـــا الفرق المدرعة ، فلم يكن لديهم منهـــا الا فرقة واحدة جاهزة ، كانت عناصرها موجودة في انجلترا عندما اجتاح الالمان فرنسا .

اما الروس فلم يطبقوا نظريات دوهيه ولا نظريات مؤلف هذا الكتاب بالرغم من انهم درسوا بعناية بالغة النظريات التكتيكية للأثنين ، ولم يفهموا نظريات الثاني . وفي مايو (ايـــار) ١٩٣٧ كتب المارشـــال توخاتشفسكي في مجلة « **البولشفيك** » ، قبل شهر من تطهيره خلال عملية التطهير الضخمة التي قام بها ستالين في عـــام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ والتي افرغت الجيش من كـــل كفاءاته [١] ، كتب يقول :

« ان النمو السريع لطيراننا ولتشكيلاتنا المدرعة والآلية قد قدم للنظرية في بادىء الامر بعض التغييرات المماثلة لافكار فوللر . وقد برزت هذه التغيرات

---

(١) كان عدد ضحايا عملية التطهير ٣٥٠٠٠ ، اي مـــا يعادل نصف تعداد الضباط : ٣ مارشالات من اصل ٥ ، ١٣ قائد جيش من اصل ١٥ ، ٥٧ قائد فيلق من اصل ٨٥ ، ١١٠ قواد فرق من اصل ١٩٥ ، ٢٢٠ قائد لواء من اصل ٤٠٦ ، و ٣٠,٠٠٠ ضابط من مستوى ادنى من رتبة عقيد (راجع ليونارد شابيرو : (١٩٦٠) ص ٤٢٠ .
The Communist Party of the Soviet Union.

تحت شكل نظرية جديدة « للمناورة » تعتبر ان السرعة الكبرى لدبابة الانقضاض لا تسمح باستعمالها بفائدة في عمليات مشتركة مع المشاة . وكانت نتيجة ذلك مطالبة البعض باستقلال كامل لتشكيلات الدبابات .. ولم يفهموا هذا الشرط الالزامي ، وهو ان الدبابات ، كالمشاة ، لا تستطيع ان تعمل بنجاح في قتال تخوضه كل صنوف الاسلحة دون دعم مدفعية قوية [١] . »

وهناك نقد آخر يقول :

« يقال في روسيا ان مفكرين عسكريين غربيين كفوللر وليدل هارت يخشون استخدام الكتل في الحرب المقبلة . ان رغبتهم في تحديد ضخامة الجيوش بالتعويض عن الاعداد الهائلة بتسليح محسن الى اقصى حد ، من وجهة النظر التقنية ، ليس الا عقلنة للخوف البورجوازي من الجماهير [٢] » .

هذه الحماقة كلفت الروس غالياً . ففي عام ١٩٤١ ، بقي تكتيكهم على ما كان عليه ، من بطء في حركات التقدم ، وانسحاب جنود لايفكرون ولا يعون : جماعات من الجنود تنسحب او تتقدم كالقطعان وتشكل فريسة مغرية لدبابات النمر الالمانية .

---

(١) ذكر ذلك ريمون ل. غارتهوف :

How Russia Makes War, p. 85.

(٢) د. فيدوتوف هوايت :

«La Philosophie Soviétique de la Guerre » Political Science Quartely, Vol. 51, No. 3 (1936) p. 349.

الفصل الثالث عشر

ادارة الحرب العالمية الثانية

١ ـ طابع الحرب العالمية الثانية

لكي تصبح الحرب أداة من أدوات السياسة الفعالة ، عليهـا ان تعتمد على شروط عسكرية حقيقية . ويمكن القول ان هذه الشروط كانت شروطاً طبيعية في عـام ١٩٤١ . فقد بدأت الحرب على حدود موضوعة منذ وقت طويل ، وطبقـاً للقواعد التقليدية للنزاع بين جيوش متماثلة في تجهيزاتها ، وكانت كلهـا تطبق الطرق الاعتيادية في خوض الحرب . ولكن ، في مرحلة الحرب الاخيرة ، وخلال مرحلة مـا بعد الحرب بكثير ، نمت وتطورت شروط مختلفة كل الاختلاف عن الشروط السابقة . فمن الناحية العسكرية : كان مرد هذا التغيير الى ظهور اسلحة جديدة . ومن الناحية السياسية ، كان مرده الى سلسلة من الثورات المؤلمة وضعت حضارة القرن التاسع عشر موضع الجدل والحوار ، وبدلت طابع الحرب تبديلاً عميقاً .

وكمـا رأينا ، فان اهم هذه الثورات الثورتان اللتان قلبتا روسيا والمانيا . فقد استندت الاولى الى ايديولوجية ماركس ، كمـا فسرها لينين وستالين . امـا الاخرى فقد استندت الى ايديولوجية هتلر التي عبر عنهـا الميثاق الوطني ـ الاشتراكي . وكلا الايديولوجيتين ايديولوجية شمولية (جماعية) ،

تشمل كل اشكال الحرب ، ولا تستهدف كما في الماضي ، اجبار خصومها بقوة السلاح على انتهاج سياسة كانوا يرفضونها فحسب ، بل انها تهدف ايضاً الى تبديل بنية خصومها القومية على المستويات الايديولوجية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . وكانت هذه النوايا تعني ان الحرب المقبلة ستكون صراعاً بين ايديولوجيات مختلفة ، بين الديموقراطية ، والماركسية ، والوطنية الاشتراكية ، وبين القوى التي هي تحت السلاح . وقد اعترفت ايديولوجية الدول الديموقراطية بسيادة الدول ، كل منها على انفراد ، وبالارادة الحرة والمتحررة لسكانها . وكذلك اعترفت ايضاً بان خصومها الحقيقيين ليسوا هم الشعب الالماني ولا الشعب الروسي . كان هؤلاء الخصوم الحقيقيون بالاحرى ، هم الوطنيون – الاشتراكيون الذين يدعون التفوق العنصري ، وكانت ادعاءاتهم تطبق على سكان خارج حدود الرايخ . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، كانت هناك الفلسفة المادية الماركسية لروسيا السوفييتية التي كانت تشمل كل شعوب العالم . والخلاصة ، كانت الافكار تُقدَم على الشعوب وعلى الجيوش . ولكي يحصلوا على اقصى ما يمكن من الفاعلية عند القضاء على فكرة من الافكار ، كان لا بد لهم من تدمير الفكرة تدميراً تاماً وشاملاً . وهذا يعني انه لا يمكن التخلص منها الا بفكرة مقبولة اكثر منها.

وانتهت هذه الايديولوجيات المتصارعة الى ثلاثة مفاهيم عن الحرب : المفهوم الديموقراطي الذي كان يهدف الى تحرير الشعوب المستعبدة او يمنع خضوعها للعبودية . ومفهوم الحزب الوطني – الاشتراكي الذي كان يهدف الى توسيع الرايخ على المستوى العنصري والاقليمي ، ومفهوم روسيا السوفييتية الذي يهدف الى بذر بذور الثورة العالمية بفضل انتشار متزايد ومزيد من الانتشار للصراع الطبقي في كل بلد . وكان السلم بحد ذاته ، بالنسبة للديموقراطيات غاية ونهاية ، وبالنسبة للوطنيين – الاشتراكيين مرحلة « تفريخ » للحرب . اما بالنسبة للماركسيين الروس فلم يكن السلم الا شكلاً آخر من أشكال

الحرب (١) . ومن بين المفهومين الروسي والالماني عن الحرب ، كان الاول اوسع انتشاراً لان ايديولوجيته عالمية ، وعمله مستمر . ولهذا كانت هذه الايديولوجية اكثر الايديولوجيتين خطراً على الديموقراطيات . ولا يهمنا ان نعرف ما اذا كان هتلر شريراً اكثر من ستالين ، او ما اذا كان ستالين اكثر شراً من هتلر ، انما الذي يهمنا معرفته هو اهدافهم التي كانت اكثر خطورة على طراز حياة الديموقراطيات .

ففي عام ١٩١٤ ، كان المتنازعون شعوباً موحدة في كل النواحي ، وكانت الشعوب تدعم حكوماتها باخلاص . ولكن في عام ١٩٣٩ ، وبخاصة في البلدان التي اقيمت فيها حكومات ثورية ، كانت هناك جبهات داخلية رجعية ، تتمتع ببعض الاهمية . وفي عدد كبير من البلدان الاخرى ، كانت هناك حركات شيوعية ، وفاشستيه ، ووطنية — اشتراكية قامت كلها ، تتحدى الديموقراطية . وتسمح هذه الجبهات وهذه الحركات لعدو يتعاون معها بمهاجمة خصمه من الداخل ، وهي عملية تعادل في اهميتها ، في الصراع الايديولوجي ، اهمية هزيمة الجيوش المعادية في المعركة المادية . وقد بقيت الحرب هي الحرب ، الا انها اصبحت اكثر تعقيداً . ومع ذلك ، ورغم

---

(١) هنا لا بد من تعليق بسيط ، بالاضافة الى تعليقاتنا السابقة . فمن عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٤ اغتصبت ست دول « كبرى » ٢٥ مليون كيلو متر مربع ، اي ما يعادل مساحة اوروبا كلها مرتين ونصف المرة . واستعبدت ست دول اكثر من نصف مليار (٥٢٣ مليون نسمة) من سكان المستعمرات . ان المؤلف نفسه قد اورد في فصل خاص عن التوسع الاستعماري فيما وراء البحار ما يثبت بين السطور ان الديموقراطية الغربية المزيفة تزعم انها تخوض الحرب في سبيل حرية الشعوب ... ولكن كل الشعوب وطلائعها الوطنية والتقدمية المثقفة وجماهيرها تعرف ان هذا الادعاء محض افتراء .. — المعرّب —

تعقيداتها ، بقيت حكمة كلاوزفيتز ثابتة ، وهي القائلة : « بان الحرب ليست الا استمراراً لسياسة الدولة بوسائل اخرى » .

٢ ــ سياسة حرب الحلفاء في عام ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠

عندما اصبح نيفيل تشامبرلان رئيساً للوزراء في ٢٨ من مايو (ايار) ١٩٣٧ ، كان يؤمن ، بما لم يكن قد قبل به احد من اسلافه ، وهو ان مصير اوروبا مرتبط بالتعاون الانجلو ــ الماني . ومن عام ١٩٢٥ ــ ١٩٣٠ حاول سترسمان ، وزير خارجية الفيلد مارشال هندنبورغ ، بدون جدوى احياء هذه الفكرة وبعثها . ومنذ ذلك الوقت ، رفضت الحكومات الانجليزية المتعاقبة بان تتبنى هذا المبدأ وتأخذه بعين الاعتبار . ومما يؤسف له ايضاً ان حكومة بالدوين لم تأخذ مسألة الدفاع القومي على محمل الجد والمسؤولية بعد وصول هتلر الى السلطة . وقد حدث اذن ، ان تشامبرلان ، عندما تسلم وظائفه لم يكن لديه اية قوة عسكرية تدعم سياسته : من هنا نجمت سياسة التهدئة ازاء هتلر . اما الحل الآخر فهو التحالف مع روسيا [١] وهو الحل الذي

---

(١) ونستون تشرشل : مذكرات عن الحرب العالمية الثانية ، الطبعة الفرنسية (١٩٤٨) ، الجزء الاول . في مارس (آذار) ١٩٣٨ : « ألححت على احتمالات مشروع تحالف مع روسيا ، وانجلترا وفرنسا » (ص ٢٧٩) . وفي سبتمبر (ايلول) ١٩٣٨ : « منذ بعض الوقت ، كنت شخصياً على اتصال اخوي مع السيد ميسكي ، سفير السوفييت في لندن » (ص ٣٠١) . وفي ٤ من مايو (ايار) ١٩٣٩ : « ينبغي علينا ان لا نقبل التعاون التام مع روسيا فحسب ، بل التعاون مع الدول البلطيقية الثلاثة .. اذ ينبغي ان تكون هذه الدول جزءاً من هذه المنظمة » (ص ٣٧٣) . وفي ١٩ من مايو (ايار) ١٩٣٩ : « .. لماذا ترغضون ان تصبحوا حلفاء لروسيا منذ الآن ؟ » (ص ٣٨٣) .

كان ينصح به تشرشل ، بحزم وقوة ، عندما كان مـــا زال عضواً بسيطاً في البرلمان ، الا ان تشامبرلان كان يشمئز من التحالف مع روسيا كمـــا يمكن ان نستنتج ذلك من رسالة كتبهـــا في ٢٦ من مارس (آذار) ١٩٣٩ :

« اني اعترف بان روسيا توحي الي بالحذر التام فاني لا اعتقد باية حال من الاحوال بانها قادرة على دعم هجوم فعلي ، حتى ولو كانت تريد ذلك . واني اشكك ايضاً في دوافعهـــا التي يبدو لي ان ارتباطاتها مع مثلنـــا الاعلى في الحرية ارتباط ضعيف ، وفي شمولها فقط للرغبة في توريط الآخرين. وبالاضافة الى هذا ، فانهـــا توحي بالحقد والحذر لكثير من الدول الصغرى كبولونيا ورومانيا وفنلندا [1] .

فلو انه كان في وسعنـــا ان نعتمد على روسيا ، لكان للحـــل الذي اقترحه تشرشل معنى من المعاني ، غير ان تشامبرلان كان قد قدر نوايا ستالين بصورة اوضح بكثير ممـــا فعله تشرشل . ومع ذلك فمن الصعب ان نفهم الاسباب التي قرر من اجلهـــا تشامبرلان اعطاء ضمانته لبولونيا ، لان هذه الضمانة لا يمكن ان تكون سوى خدعة مستورة الى حد ما . والتفسير الذي اعطاه فيلنغ هو ان قراره بالعمل كان مستنداً الى خبر يوحي بأن الهجوم المفاجىء على بولونيا وشيك الوقوع .

وقد اعلنت فرنسا وبريطانيا العظمى في ٣ من سبتمبر (ايلول) ١٩٣٩ – بعد ثلاثة ايام من غزو هتلر لبولونيا – حملة صليبية ايديولوجية ضد هتلر والهتلرية ، لانهمـــا كانتا عاجزتين عن دعم سياستهمـــا الحربية بالتوازن الدولي . وفي مجلس العموم ، حدد تشرشل اهداف الحرب بعبارات لا تحتمل الشك ، اذ قال « لن نقاتل من اجـــل دانتزيغ او بولونيا اننـــا نحارب لانقاذ العالم كله من الرائحة العفنة للديكتاتورية النـــازية ، ولندافع عن اقدس مقدسات

(١) ذكرها تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً – الجزء الاول ، ص ٣٥٧.

الانسان [١] » وبناء على هذا ينبغي ان تكون الحرب قتال المانويين [٢] بين الخير والشر [٢] مكرر .

ولم تكن هذه الحملة تسمح بالتفاؤل بان تنتهي نهاية حسنة ، الا اذا اصبحت — المعارضة المضادة — لهتلر في المانيا من القوة بحيث تكفي لتقويض النظام الوطني — الاشتراكي . ولم يكن هتلر يجهـــل ذلك . اذ كان يعرف ان المعارضة مدعومة بعدد من جنرالات هتلر . وفي اغسطس (آب) ، وفي سبتمبر (ايلول) ١٩٣٨ [٣] ايضاً اتصلت هذه المعارضة بوزارة الشؤون الخارجية البريطانية بواسطة عملائها . وبناء على هذا ، شن تشامبرلان ، في سبتمبر (ايلول) ١٩٣٩ الهجوم الايديولوجي بواسطة رسالة اذاعية وجهها الى الشعب الالمـــاني . وقال فيها : « اننا لا نقاتل في هذه الحرب ضدكم ، يا ابناء الشعب الالماني ، اذ اننا لا نكن لكم اي حقد ، وانمـــا نحارب ضد نظام استبدادي نقض العهود والمواثيق [٤]» وكان هدفه واضحاً وهو تحريك المعارضة . ومنذ ذلك الوقت ، اصبح تمزيق الشعب الالماني الهدف الاول لسياسته

وبعد هزيمة بولونيا ، صرح تشامبرلان رداً على مقترحات هتلر السلمية ، التي رفضتها الحكومتان الفرنسية والبريطانية :

---

(١)
Parliamentary Debates, 5e série, Vol. 351, Col. 295.

(٢) مكرر ، لمقارنته مع « القاعدة الاولى » « لحق الامم الإرادي » لفاتيل ، الفصل الاول .

(٣) الطبعة الفرنسية (١٩٥٦)
Gerhard Ritter : Echec au Dictateur
Histoire de la Résistance Allemande

(٤) الوثائق المتعلقة بـ : **German Polish Relations**
٦١٠٦ (١٩٣٩) رقم ١٤٤ ، ص ٩٥ .

« اننـــا لا ننوي ان ننتزع من المانيا التي تريد ان تعيش ودياً ، وفي جو تسوده الثقـــة بالامم الاخرى ، المكان الذي لها الحق فيه في اوروبا » . وسنقبل « عندما تحين الفرصة » الحلول التي يمكن الحصول عليهـــا « بالمفاوضات والاتفاقات .. » « اننـــا لم ندخل الحرب بنوايا انتقامية ، بل دخلناها فقط للدفاع عن الحرية . ولن نفتش لانفسنا عن اية فائدة مادية ، فنحن لا نطلب من الشعب الالماني شيئـــاً يمكن ان يجرح كرامته »[١] .

وفي منتصف فبراير (شباط) ١٩٤٠ ، اجتمع مندوبان عن وزارة الخارجية البريطانية في اوشي OUCHY ، في سويسرا ، بعضو من اعضاء المعارضة الالمانية وقدما عروضاً مكتوبة مؤلفة من خمس نقاط للبدء بمفاوضات وهذه ترجمة هذه العروض :

١) تؤكد الحكومة البريطانية انها لن تستخدم ، ضد مصلحة المانيا العسكرية ، مثلاً ، بواسطة هجوم على الجبهة الغربية أية ازمة سياسية عارضة ناتجة عن عمـــل تقوم به المعارضة الالمانية .

٢) تعترف الحكومة البريطانية وتعلن استعدادها للتعاون مع حكومة المانية جديدة ، يكون في وسعهـــا ان تمنحها الثقة بغرض تحقيق سلم دائم ، ومنح المانيا المعونة الاقتصادية التي تحتاج اليها .

٣) لا تستطيع الحكومة البريطانية اعطاء اية ضمانات اخرى قبـــل ان تتفاهم مسبقـــاً مع الحكومة الفرنسية . فاذا كانت فرنسا قادرة على العزم بمنح الثقة ايضاً لحكومة المانية جديدة يصبح من الممكن اعطاء تأكيدات اكثر وضوحـــاً .

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٧٩ RITTER

٤) في حالة مساهمة فرنسا في المفاوضات ، يصبح من المستحسن الإعلام بالتاريخ التقريبي لعمل المعارضة الالمانية .

٥) في حالة مـا اذا كانت المعارضة الالمانية ترغب بان تقوم الدول الغربية بعمل تشتيتي ، بهدف تسهيل عملهـا ، فان الحكومة البريطانيـة مستعدة لتلبية هذه الرغبة ضمن حدود الامكان [١] .

وقد كتب ريتر : « ان الادعاء بان المعارضة الالمانية كانت منذ البدء داخلة ضمن مخطط الانجليز ، اسطورة من الاساطير . فعملهـا لا علاقة له ابداً « بالحرب العجيبة » التي دارت في شتاء ١٩٣٩ — ١٩٤٠ ؛ ولا بموقف حكومة تشامبرلان [٢] » .

وفي ٣ من سبتمبر (ايلول) ١٩٣٩ ، اصبح تشرشل اللورد الاول في الاميرالية البريطانية ، مع تسلمه منصب وزارة الحرب ، واندفع فوراً في عملية اشغال وقته السابقة بتخيـل عمليات تشتيتية ذات اهمية ثانوية . وفي ٧ ، اوصى هيئة اركان البحرية بتحضير خطة « لاختراق البلطيق بالقوة » . وقد عمّدَ هذه الخطة باسم « كاترين » ، تيمنـاً بكاترين الكبرى لان « روسيا ترقد في اعماق تفكيري [٣] » . كمـا قال هو بنفسه . وبعد عشرة ايام هاجم الروس ، الذين لم يمنحوا ميزة قراءة خطة البلطيق ، بولونيا وابتلعوا نصفها [٤] .

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٩٩ . RITTER

(٢) المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٠٦ . RITTER

(٣) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الاول ص ٦٦ الملحق ب.

(٤) وقد كتب تشرشل حول هذا الضم مـا يلي : « انني لم انخدع ، ولم اكن واهمـاً حول هذا الموضوع (الروس) فقد كنت اعرف ان هؤلاء الناس لا يعترفون بأي قانون اخلاقي ، ولا يرون في كل الظروف الا مصلحتهم الخاصة » (تشرشل ، المرجع المذكور ، الجزء ـ ١ ، ص ٤٩) . فلماذا غازلهم ذلك الغزل الشديد ؟

وتعليقـاً على هذا قال تشرشل في برقية وجهها في الاذاعة ، يوم ١ من اكتوبر (تشرين الاول) : « اني لا استطيع ان اتنبـأ لكم بلعبة روسيا . انها لغز مغلف بالغموض ضمن احجية من الاحاجي [١] » . ولو انه رجع الى اي مؤلف من المؤلفات عن السياسة الخارجية الروسية ، لتعلم ان هذه السياسة بقيت خلال اكثر من عشرين عاماً : ان سياستهم هي السلم في الداخل والحرب في الخـارج .

وكان يسمي عمليته التشتيتية الصغيرة التي قـام بهـا فيما بعد « هدف حبه المفضل » واندفع « في ثقة متزايدة بهذه العملية الجريئة » [٢] ، وهي حملة نارفيك في ابريل (نيسان) ١٩٤٠ ، التي انتهت باخفاق ذريع ، وقلبت حكومة تشامبرلان . وفي ١٠ من مايو (ايار) ١٩٤٠ اصبح تشرشل رئيس الوزراء ووزير الدفاع القومي . وبهذه الصفة المزدوجة انتقلت ادارة مساهمة بريطانيا العظمى في الحرب بين يديه .

كان تشرشل رجلا من العجينة التي تصنع الابطال ، ومجنوناً مستعداً دوماً للوقوف على رأس مغامرة يائسة ، او الانقضاض على ثغرة مفتوحة ، وبالتفصيل عندما تكون الامور في اسوأ حالاتها . فقد كانت بلاغته الساحرة ، ومزاجه العدواني ، وعناده وتصميمه على تدمير العدو ، كل هذه الصفات كانت تتوجه الى غرائز الرجال ، لتجعل منه قائداً حربياً لا مثيل له . وقد كان هذا العمل هو اكبر الخدمات التي أداها لبلاده . ومع ذلك وكمـا قال نابليون ذات يوم من الايام :

---

(١) تشرشل ، المصدر المذكور سابقاً ، الجزء ـ ١ ، ص ٥٢ .
(٢) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ١ ـ ٢ ، ص ٢٤٠ .

« ان الصفة الاولى لقائد عـــام هي ان يتمتع برأس بارد ، ويتلقى انطباعات صحيحة عن الاشياء ، لا ينفعل ابداً ، ولا يفتتن ، ولا تسكره الاخبار الحسنة او السيئة .. انه من الرجال الذي يصنع لنفسه من كل شيء جدولا ، بحكم تكوينه البدني والمعنوي .. الا ان الطبيعة لم تدعوه ابداً الى قيادة الجيوش ، ولا الى إدارة عمليات حربية كبرى »[١] .

فإلى أي نقطة من النقاط كان يلبي تشرشل هذه المطالب ؟ يمكن الحكم على ذلك تبعـــاً لمـــا ينبغي ان يقول عنه اقرب معاونيه :

« كتب الجنرال ايسمي ISMAY : « انك لا تستطيع الحكم على رئيس الوزراء تبعـــاً لمقاييس عادية . فهو لا يشبه ابداً فرداً اتيحت لي ولك فرصة لقائه . انه مجموعة متناقضات . فهو في قمة الموجة ، او في الحفرة التي تصنعها عندما ترتفع ، يغالي في المديح الى حد التطرف او يغالي في النقد الى حد الشراسة بمزاج ملائكي او غضب لا يطاق . انه بركان ، عندما لا يكون قد هدأ تماماً . وليس هناك من حلّ وسط في سلوكه . انه ابن للطبيعة يتمتع بأهواء متبدلة كتبدل يوم من ايام ابريل (نيسان) ....[٢] .

وقد كتب المارشال فيكونت الانبروك ما يلي : « لم يشك ونستون ابداً انه ورث كل العبقرية العسكرية لجده البعيد مارلبورو . فكانت مشروعاته العسكرية تتراوح بين اروع التصورات والتصميمات الى اكثر المبادرات غرابة

---

(١) نابليون :
Correspondance, Vol. XXXII, pp. 182-183

(٢) ذكر ذلك جون كونويل في اوكينلك Auchinleck (١٩٥٩) ص ٤٧٢ — ٤٧٣ . فمن مايو (ايار) ١٩٤٠ الى يوليو (تموز) ١٩٤٥ كان ايسمي رئيساً لاركان تشرشل . الذي كان وزيراً للدفاع .

وخطورة .. » « ويحدث له في كثير من الاحيان ، عندما يلقى خطاباً ان يتحول الى موقف تترقرق فيه الدموع على وجهه عندما يتحدث عن المآسي التي يصفها ويصورها .. « وربما كان ابرز عجز ظاهر فيه هو عجزه عن وعي كل المعضلة الاستراتيجية دفعة واحدة . ويتركز انتباهه دوماً على نقطة خاصة من التصميم ، اما بقية لوحة التصميم فهي مفقودة بالنسبة اليه ... وتزداد حدة هذه السيئة لديه لانه يحدث له احياناً ان يرفض رؤية اللوحة العامة ، وخاصة عندما يخشى بأن يؤثر التصميم الواسع العام على العملية التي تحظى ببركاته موقتاً » (١) .

وقد كتب اللواء (ميجور جنرال) السير جون كينيدي : « انه عنيد الى درجة غريبة . فهو كالطفل الذي يشتهي لعبة خطرة . فلا فائدة ابداً من افهامه بانه سيقطع اصابعه او انه سيحرق نفسه بها . فكلما اعطيته التفسيرات . كلما ثابر في عناده واصر على فكرته .. » « ففي كل مرة يستبعد فيها اي مشروع ، حتى ولو كان مشروعاً سخيفاً ، يأمر تشرشل بأن يزود في اقصر فترة ممكنة بدراسة مفصلة او خطة ، او بالاثنتين معاً .. لكي يجابه الموقف بجدارة ويستحق مثل هذا الوضع ان يكون لديه هيئتا اركان تهتمان ، الاولى برئيس الوزراء ، والاخرى ، بالحرب » ... « كل الناس كانوا يعترفون ويقدرون الصفات الكبرى لتشرشل ، ولكن كان هناك عدد قليل من الافراد يتساءلون

---

(١) السيد آرثر بريان : L'Espoir change de camp,
Carnets de guerre du Maréchal Vicompte ALAN BROOKE
الطبعة الفرنسية (١٩٥٩) صفحات ٣١٥ و ٥٥٦ وهو هامش ص ٥٠٢ من الطبعة الانجليزية (١٩٥٧) .

احياناً عما اذا كانت هذه الصفات تعوض وسائله في ادارة آلة الحرب .. »[١].

وبعد ثلاثة ايام من استلامه وظائف رئيس الوزراء ، دعى تشرشل مجلس العموم للتصويت على الثقة بحكومته الجديدة ، وبعد ان قدم لاعضائه « الدم ، والجهد ، والدموع ، والعرق » ، عرض عليهم سياسته :

« ستسألونني ماذا تنوي ان تفعل ؟ واجيبكم : الحرب فوق البحار ، وفي البر ، وفي الاجواء بكل القوة التي يمنحنا الله اياها ، سنحارب ضد الاستبداد الشيطاني ، الذي لم يكن له مثيل في قائمة جرائم الانسان ، هذا ما ننوي عمله . وستسألونني : ما هو هدفك ؟ اني لا استطيع ان اجيبكم الا بكلمة واحدة : النصر بأي ثمن ، النصر بالرغم من كل الاهوال ، النصر مهما كان الطريق لتحقيقه طويلا وصعباً .. تعالوا اذن معنا ، ولنوحد قوانا ولنسر معاً »[٢] .

وفي الحرب ، لا يكون النصر الا وسيلة للوصول الى هدف . وبالنسبة لرجل الدولة ، فان نهاية الحرب هي السلم . ولكن تشرشل لم يفهم ذلك الا عندما دقت الساعة الحادية عشرة ، وكان الوقت متأخراً جداً لاصلاح الأضرار ، واعتباراً من ١٣ من مايو (ايار) اعتبر تشرشل ان الحرب ينبغي ان تؤدي الى « الهزيمة » ، والى دمار هتلر واختفائه ، باستثناء اية امور اخرى ، من وفاء للالتزامات او للأهداف »[٣] . غير انه في مارس (آذار) ١٩٤٨ ، عندما كتب مقدمة كتابه التاريخي ، وصف بامانة رائعة النهاية التي قاد العالم المعتوه اليها شعار « النصر مهما كان الثمن » .

---

(١) السير جون كينيدي : The Business of War (١٩٥٧) صفحات ٦١ و ١٧٣ ، و ٢٧٥ ، كان كينيدي مديراً للعمليات في وزارة الحرب البريطانية من اكتوبر (تشرين الاول ١٩٤٠) الى نهاية ١٩٤٤ .

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء الثاني ، ص ٢٧ .

(٣) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً .

«وتبلغ مأساة البشرية هذه ذروتها عندما ينبغي ان نلاحظ ان جهود وتضحيات مئات الملايين من الرجال ، التي سمحت بانتصار قضية عادلة ، لم تسمح لنا حتى الآن بالحصول على السلم ، والامن ، واننا بقينا معرضين لاخطار أسوأ من الاخطار التي تغلبنا عليها . » .

٣ ـ الحرب الخاطفة في عام ١٩٤٠

طبقت نظرية الشلل الاستراتيجي من قبل الجنرال هاينز غودريان . وقد ولد غودريان في عام ١٨٨٨ . واهتم بعد الحرب العالمية الاولى اهتماماً كبيراً بحرب المدرعات ، فانكب على قراءة الكتب والمقالات الانجليزية عن دبابات الانقضاض وتكتيكها ، كما قرأ كل مؤلفات الجنرال ديغول . وكان مفهوم شلل القيادة المعادية قد تكون في عام ١٩١٨ . وتطورت الدبابات وتطور الطيران ، وتطور استخدام نماذج مختلفة من الاسلحة المضادة للدبابات ، بعد تكون هذا المفهوم فكان لزاماً ان يتعدل . فلم يكن من الممكن التفكير بسحق المقرات العامة المعادية قبل المعركة الرئيسية الا اذا تمكنت الدبابات من التنقل بسرعة تحت ستار الليل ، وفي منتهى الامن والثقة ، وهذا ما لم يكن في وسعها ، بل انها لا تستطيع ان تقوم به دوماً [١] . وقدم غودريان مساهمته في نظرية استخدام الدبابات وذلك بفهمه ان في الامكان احداث شلل للقيادة المعادية بهجوم مباغت وسريع يزعزع جبهتها . والخلاصة ، يعتمد مفهومه على ما كان يسميه ب. هـ. ليدل هارت « بالتقرب غير المباشر ».

---

(١) تخيل البعض اثناء الحرب العالمية الثانية دبابة تفي بهذا الغرض ، الا انها لم تستعمل ابداً . انظر ملحق هذا الكتاب :

The Second World War (1948)

وهكذا نرى ان الهدف لا يتبدل ابداً ، بل ان الطريقة هي التي تتعرض للتبديل والتغيير .

وفي فبراير (شباط) ١٩٤٠ عقد مؤتمر برئاسة هتلر ، نوقش فيه غزو فرنسا المقبـــل . فبعد ان تحدث قادة الجيوش ومجموعات الجيوش ، فسر غودريان الذي كان يقود الفيلق التاسع عشر ، مدعوماً بقوة من قبـــل الجنرال مانشتين ، فسر لهتلر انه ينوي نقل فيلقه الى الموز في اليوم الرابع وعبور النهر في اليوم التـــالي . عندئذ سأله هتلر : « وماذا تنوي ان تفعل فيما بعد ؟ » وهنا يعلق غودريان شخصياً على هذا السؤال : « كان هتلر اول من طرح عليّ هذا السؤال الحاسم » . فأجابه غودريان :

« اذا لم أتلق اي امر معاكس ، فإنني ساتابع في اليوم التالي اندفاعي نحو الغرب . وسيكون على القيادة العليا ان تقرر ما اذا كان من الضروري ان اندفع نحو اميان اونحو باريس . وفي رأيي ان الاندفاع الاكثر فعالية يمر باميان الى المـــانش » . وقد وافق هتلر بحركة من رأسه دون ان يضيف شيئـــاً . وصاح الجنرال بوش BUSCH الذي كان يقود الجيش السادس عشر المشتبك الى يساري قائلا : « اني لا اعتقد بانك ستعبر النهر ! » وكان هتلر يبدو متوتر الاعصاب ، يراقب جوابي ، اذ اني اجبته على الفور : « لا تتعب نفسك في اعتقاد ذلك » . ولم يعلق هتلر بشيء حول هذا الموضوع [١] » .

فقد كان المـــانش هو الهدف القريب لغودريان ! وهو هدف يقع على خط النظر على ٢٦٠ كم غرب الموز وسيدان . وليس من المدهش ان يفاجأ الجنرال بوش ، لان جنرلا من النموذج الكلاسيكي لم يكن ليحدد هذا الهدف

---

(٢) الجنرال هاينز غودريان ، مذكرات جندي ، الطبعة الفرنسية (١٩٤٥) ص : ٧٧ . Souvenirs d'un soldat

على اكثر من عشرين كيلومتراً غرب النهر . فهدف يبعد هذا الهدف يفسر سر **الحرب الخاطفة** لغودريان .

كان سر الحرب الخاطفة هو استعمال السرعة كسلاح بسيكولوجي ، لا للقتل ولكن للتنقل ، لا بهدف القتل ، بل بهدف تعريض الخصم للجنون : وبغرض التضليل ، وزرع الاضطراب ، وخلق الفوضى والشك ، والغموض في مؤخرات الخصم ، بشكل تضخمه الاشاعة العامة حتى يصبح الارجاف (الذعر) عظيماً وكبيراً . والخلاصة كان هدف غودريان هو احداث الشلل ، لا في اجهزة القيادة المعادية فحسب ، بل شل الحكومة ايضاً . ويرتبط الجمود الذي يصيب كل هذه الاجهزة مباشرة بالسرعة . وقد قال دانتون ما يشبه هذا : « السرعة ، والسرعة ايضاً ، ومزيد من السرعة دائماً . » : هذا هو السر . وكان دانتون يطالب ايضاً بما يلي : « **الجرأة ، والجرأة ايضاً ، ومزيداً من الجرأة** » .

كانت القوات المسلحة الالمانية التي غزت فرنسا في مايو (ايار) ١٩٤٠ منظمة في ثلاث مجموعات من الجيوش ، آ ، ب ، جـ . وكانت مجموعة الجيوش جـ منتشرة امام خط ماجينو لاحتوائه ، مع مجموعتي آ و ب في الشمال . وكانت جبهة المجموعة ب تمتد من وينترسويجك ، على الحدود الهولندية ، الى ايكس لاشابل . والمجموعة آ من ايكس لاشابل الى الجناح الايمن للمجموعة جـ . وكانت المجموعة آ تشتمل على ثلاثة جيوش ، الجيش الرابع الى اليمين ، والجيش الثاني عشر في الوسط ، والجيش السادس عشر الى اليسار . ومن اصل عشر فرق مدرعة كانت الفرقتان الخامسة والسابعة منضمتين الى الجيش الرابع . وتشكل الفرقتان السادسة والثامنة الفيلق الـ ٤١ المدرع بقيادة الجنرال رينهاردت ، والفرق ١ و ٢ و ١٠ ، الفيلق التاسع عشر المدرع الذي كان يقوده غودريان . وكان الفيلقان المدرعان مجموعين

تحت قيادة الجنرال فون كليست ومجتمعين في منطقة الجيش الثاني عشر . وتشكل هذه المجموعة مع الفرقة ٧ المدرعة التي يقودها الجنرال روميل ، التي هي الى يمين المجموعة القوة الضاربة .

وكان دور فيلق غودريان التقدم عبر الأردين ، واجتياز الموز بين دينان وسيدان وخرق الجبهة المعادية . ويكفي لتفسير **الحرب الخاطفة بالذات** ، ان نتابع فيلق غودريان في تقدمه وهجومه .

انطلق الهجوم في ١٠ من مايو (ايار) ، وفي ١١ صدت القطعات الفرنسية التي تقدمت الى الأردين ودفعت الى الغرب . وفي ١٢ ، هاجم غودريان واستولى على بويون Bouillon . وقبل حلول الليــل احتلت فرقتان الشاطىء الشرقي للموز في سيدان ، على حين كان فيلق رينهاردت المدرع يطوق مونترمه Monthermé من مسافة قريبة ، في حين وصلت فرقة روميل هو Houx . وفي ١٣ ، كانوا قد عبروا الموز تحت حماية القاذفات المنقضة ، واقيم جسر على الموز . وعند حلول الليل ، كانت قرية شيمري Chémery ، الواقعة على ١٧ كم جنوب سيدان قد وقعت بين يدي الالمان . وفي ليلة ١٤ — ١٥ ، اوقف كليست السير الى امــام ، بالرغم من احتجاجات غودريان . وقد استمر المسير في الصباح الباكر ليوم ١٦ ليوقف من جديد يوم ١٧ . ومنذ ذلك الوقت تحول المسير الى سباق نحو المــانش . فقد بلغوا كانتان Quentin في ١٨ ، وعبروا قناة الشمال بين دوي وبيرون في ١٩ ، واحتلوا مونتروي ، ودولان وأميان وآبفيل في ٢٠ . وفي هذا الوقت كانت كل قسيمة الارض الواقعة بين السكارب والسوم بين يدي الالمان ، وقطعت كل خطوط المواصلات البريطانية ، وفتح طريق مرافىء المــانش . وفي خلال احد عشر يوماً ، كان الالمان قد تقدموا ٣٥٠ كم : تلك كانت **الحرب الخاطفة** ! ! ، ولكن ما هي آثارها المدمرة للمعنويات ؟ .

ونجد افضل القصص التي روت ، في بضع كلمات ، ما حدث في الجانب الآخر ، في كتيب مجهول المؤلف عنوانه: The Diary of a Staff Officer

طبع في عام ١٩٤١ . وقد كتبه ضابط الاستخبارات والارتباط الجوي المفرز الى هيئة اركان القائد العــام للطيران البريطاني في فرنسا . واليكم بعض خلاصات هذا المؤلف :

١٤ مايو (ايار) : « اجتاز الالمان ثمانية كيلومترات من التحصينات في العمق ، بخسارة ٥٥٠ جندياً ، احتمالاً ... وعندما انقضت القاذفات المنقضة عليهم « اي على الفرنسيين » ، لم يتحملوا هذا الصخب — ولم تحدث اية خسائر — الا ساعتين ، وخرجوا فيمــا بعد فجأة ، وهم يستسلمون . » .

١٥ مايو (ايار) : « وقعت سيدان بيد الالمان بعد قصف جوي .. كان سقوطهــا مثلاً للوصفة العسكرية التي تسمى المفاجأة . » .

١٦ مايو (ايار): « كان كل تطور الجبهة الجنوبية في الايام السبعة الاخيرة سريعــاً جداً ، وكان يتم طبقاً لمبادىء مرنة الى حد ما — المغامرة بكل شيء للحصول على كل شيء حتى آخر درجة من الدرجات — ويحتاج المرء الى جهد كبير حتى يصدق ان الوضع قد اصبح بمثل هذا التدهور ، وهو كذلك في الحقيقة » .

١٧ مايو (ايار) : « انها معركة بولونيا من جديد » (ان هيئة الاركان العامة الفرنسية كانت تعتبر ان تكتيك **الحرب الخاطفة** الذي طبق في بولونيا لا يمكن ان يطبق على الارض الفرنسية لانها اكثر تضرساً من بولونيا) .

١٨ مايو (ايار) : « كانوا يريدون ان نؤمن بان معركة المارن ستنشب من جديد ، ولكن هــل يعتقدون هم انفسهم بهذا ؟ ... ان ايقاع المعركة سريع جداً . وقد استعادت حرب الحركة مكانها ... انه التعاون بين القاذفات المنقضة والفرق المدرعة ، الذي يربح الحرب حالياً لصالح المانيا » .

١٩ مايو (ايار) : « علمنا ان **البانزر** في اميان الآن (انها حتمـاً كتيبة من كتائب الاستطلاع) . ويشبه هذا الخبر كابوساً مضحكـاً .. فقد غامر الالمان بكل شيء . والاخطار التي يقتحمونهـا مخـاطر جنون اجـرامي ، ومع ذلك تخاصوا منهـا سالمين .. لقد شلت هيئة الاركان العامة الفرنسية من جراء حرب الحركة هذه ، التي لا تتفق مع الانظمة العسكرية المعروفة . فانظمة القتال التي درستهـا لم تبحث ابداً ولم تعالج مثل هذه القدرة على الحركة ، وان ادمغة الجنرالات الفرنسيين من نموذج حرب ١٩١٤ . الذين وضعوا خطط الحرب للجيوش الحليفة عاجزون عن العمل في هذه الشروط الجديدة والمدهشة » [١] .

٢٢ مايو (ايار) : « ان فرقتنا المدرعة الوحيدة نزلت امس على اليابسة في فرنسا .. اين المشاة الالمانية ؟ واين مكان تشكيلات الجيوش الرئيسية ؟ وهل نحن على حق في تقدير مكانهـا على ١٥٠ كم خلف هذا الرعد المؤلف من ٥٠٠٠ دبابة ؟ (كان العدد الحقيقي اقل من نصف هذا الرقم) .

ان الشائعات تنتشر بسرعة ، ويزيد الفزع ويتضاعف مع بعد المسافة . وفي ١٥ من مايو (ايار) في الساعة ٧,٣٠ اوقظ تشرشل بالهاتف الموجود على

---

(١) من المهم ان نشير الى ان هناك برقيات اذيعت باللغة الفرنسية ، طيلة الهجوم الالماني ، بثتهـا ادارة الاذاعة الالمانية ، زرعت الفزع والفوضى في نفوس السكان المدنيين الفرنسيين ، وسببت ازدحام الطرق بافواج اللاجئين الذين اعـاقوا بقوافلهم حركات القطعات خلف الجبهة الفرنسية التي خرقت ، وجعلوها مستحيلة .

(ذكر ذلك :

SCHELLENBERG Mémoirs, par Desmond FLOWER, et par james REEYES dans : The War (1960), page 74).

مقربة من سريره . وكان الصوت الذي يناديه هو صوت بول رينو ، فقد بادره بالحديث قائلاً : « لقد هزمنـــا ، وقد خرقت الجبهة على مقربة من سيدان . انهم يهاجمون بكتـــل من الدبابات والعربات المدرعة . » وسكت تشرشل هنيهة واحدة ثم اجاب قائلاً : «برهنت التجربة ان الهجوم سينطفىء من تلقاء ذاته خلال بعض الوقت . واني اتذكر يوم ٢١ من مارس (آذار) ١٩١٨ . ففي خلال خمسة او ستة ايام سيضطرون الى التـــوقف بانتظار تموينهـــم ، اوسيحين عندئذ وقت الهجوم المعاكس » . ولكن في مـــارس (آذار) ١٩١٨ لم يكن لدى الالمان دبابات . وهذا الامر لم يخطر على بال تشرشل ، وقد اعتذر عن كلامه هذا عندما كتب فيمـــا بعد ما يلي : « نظراً لانه لم يكن ليتسنى لي الحصول على معلومات رسمية منذ عدد من السنين ، لم انتبه الى عنف الثورة التي حدثت منذ الحرب الاخيرة الناتجة عن تسلل كتلة سريعة من المدرعـــات الثقيلة » (١) . وكان في وسع تشرشل ان يجد المعلومات الضرورية في ذاكرته الرائعة : « الخطط البديلة للهجوم » للحرب العالمية الاولى ، لان مصادر المعلومات الرئيسية كانت آخر مكان يمكن التفتيش فيه عن هذه المعلومات .

وفي ١٦ من مايو (ايار) وجد ان من الضروري ان يذهب الى باريس . وفي الساعة ١٦,٠٠ ، هبطت طائرته في مطار بورجيه ، فقالت له شخصية فرنسية كانت في استقباله « انهم يتوقعون وصول الالمان الى باريس خلال بضعة ايام على الاكثر » . ثم ذهب الى الكي دورسيه ليلتقي برينو ودالادييه وغاملان . وقد شرح غاملان في هذه المقابلة الوضع باختصار ، وعندما انتهى من العرض توجه اليه تشرشل بالسؤال التالي : « اين مكان القوات الاحتياطية الاستراتيجية ؟ .. **اين كتلة المناورة ؟** » فالتفت الجنرال نحوي ، وبإيماءة من رأسه ، وبحركة استخفاف من كتفيه اجابني قائلاً : « ليس هناك

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ١ــ٢ ، صفحات ٤٥ــ٤٦

اية وحدة استراتيجية احتياطية .. » وفي الخارج كانت سحب الدخان ترتفع من نيران مشتعلة في حدائق الكي دورسيه ، وقد لمحت من النافذة موظفين محترفين يدفعون بحُزم من المصنفات وسط لهيب هذه النيران.ان اخلاء باريس كان محضراً اذن » (١) .

ويقص بول بودوان ، وهو وزير في الحكومة الفرنسية ، رواية هذا اليوم المسبب للجنون بشكل آخر اذ يقول :

« كان المستر تشرشل محاطاً بدخان السيكار الذي يدخنه ، كالبركان تحيط به سحب الدخان من كل جانب ، وهو يشير الى زميله ان انجلترا ستواصل القتال ، حتى وان اجتيحت فرنسا واحتلت .. وحتى الساعة الواحدة صباحاً يتخيـــل الصورة الدامية لنهاية الحرب . وكان يرى نفسه ، من اعماق كندا ، فوق انجلترا التي حلقتهـــا القنابل المتفجرة ، وفوق فرنسا التي ما زالت خرائبهـــا باردة ، كان يرى نفسه يقود القتال بالطائرات من العالم الجديد ضد العالم القديم الذي تتحكم به المانيا . » (٢)

ففي انجلترا ، كان المواطنون الانجليز يحسون بالامن خلف حاجزهم البحري ولا ينفعلون كثيراً من جراء التقدم الالماني . ومع ذلك فقدت الحكومة عقلها ، وارتمت البلاد في الفوضى بسلسلة من التدابير السريعة التي املاها الفزع . واقيمت الحواجز بصورة سخيفة على الطرق ، ونزعت اعمدة الاشارة ، ورفعت اسماء محطات السكك الحديدية ، واسماء الفنادق والقرى ، ومسحت اسماء المدن ، وبالاضافة الى ذلك ، في ١٨ من مايو (ايار) اعطى تشرشل التعليمات التالية الى رئيس اركانه : « .. من المناسب ايضاً ملاحقة الشيوعيين ،

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٢ ، صفحات ٤٨ و ٤٩ .
(٢) بول بودوان .
PAUL BAUDOIN : Neuf mois au gouvernement (1948) p. 57.

والفاشيست ، وحبس عدد كبير منهم بصورة ادارية او قضائية » [١] . وقد ادت هذه التعليمات الى اجراء عمليات توقيف بالجملة . فقد اوقف مئات من المواطنين ، كانت « جريمتهم » الوحيدة اعتبار الحرب خطيئة من الاخطاء[٢] دون توجيه اي اتهام لهم او دون محاكمة وفي شروط لا يمكن وصفهـا الا بأنها شروط غير انسانية .

وفي ١٣ من يونيو (حزيران) اي قبل اربعة ايام من اعلان المـارشال بيتـان طلب فرنسا الهدنة مع المانيا ، ارسل تشرشل « برقية تشجيع » للحكومة الفرنسية ، يقترح فيهـا اقامة وحدة اخوية لا تنفصم بين شعوب الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية [٣] . وبعد ثلاثة اسابيع اعطى تعليماته الى الاميرال السير جيمس سومرفيل بإغراق المراكب الحربية الفرنسية في اوران وفي المرسى

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٢ ص ٥٨ .

(٢) لقد ذكر لوفتوس LOFTUS في مجلس العموم حالة مواطن اوقف لانه عضو في اتحاد الفاشستيين البريطانيين التابعين للسير ارسفالد موزلي ، وها هي قصته : « تصادف انه يملك زورقـاً بمحرك ، وكان موجوداً في نهر التايمز عندما حدثت كارثة دونكرك ، ووجهت الرسائل بالاذاعة لمساعدة المنسحبين . فذهب اليهـا متطوعاً وانقذ ٤٥٠ رجلا . وقد اصيب مركبه ببعض طلقات الرشاشات . وعند عودته الى انجلترا اوقف » .

Parliamentary Debates, 5e Série, Vol. 373, Vol. 383, 23 Juillet 1941.

(٣) راجع تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٢ ص ٢١٩ ، فيما يتعلق بهذا المشروع الخيالي .

الكبير [٢] . وفي هذا « الفصل المتعب » كما يسميه تشرشل ، لم ينتج اي أثر للفزع الذي اثارته الحرب الخاطفة .

٤ — الجبهتان الداخليتان الالمانية والروسية

كان الدافع الاساسي لغزو الالمان لفرنسا هو القيام بضربة حظ استراتيجية : فقد كان هتلر يتوقع عند حلول الهزيمة بفرنسا ان تقبل انجلترا البدء بمفاوضات السلام . فلم يقم ابداً باستعدادات لغزوها ، إما لانه تعجل موضوع الدخول في الحرب ، او لانه ، وهو ما يبدو محتملا ، يعتبر ان غزوها على نطاق كبير مشروع لا يمكن تحقيقه . فلم يكن قد قضى اذن على الجبهة الغربية قبل ان يهاجم روسيا . فكل ما فعله لم يكن سوى تخدير هذه الجبهة تخديراً موقتاً . وكان يعلم تمام العلم في هذا الوقت ان الرئيس روزفلت الذي ساعد بريطانيا العظمى دون تحفظ ، يتهيأ بكل طاقته لادخال الولايات المتحدة في الحرب . وقد تبددت كل الشكوك في هذا المجال منذ ان تم التصويت في الكونغرس على قانون الإعارة والتأجير . فقد كان صدور هذا القانون حدثاً مصيرياً في تاريخ العالم مثله مثل اعلان الحرب الذي اصدرته الولايات المتحدة الامريكية في ١٦ من ابريل (نيسان) ١٩١٧ . ولولا هذا القانون ، لما استطاعت بريطانيا العظمى متابعة الحرب لمدة طويلة .

---

(١) وصف سومرفيل هذه العملية بانها « عملية قبيحة » و « عمل قذر » وانها تدل ايضاً على « اكبر حمق سياسي في العصور الحديثة »

Sunday Times, Londres في ٧ اغسطس (آب) ١٩٦٠ .

وازاء روسيا ، كانت المشكلة بالنسبة لهتلر مسألة وقت : فهل كان في وسعه ان يتغلب عليها ويقيم فيها **مداه الحيوي** ، قبل ان تتدخل الولايات المتحدة في الحرب ؟ في حالة السلب ، فان جبهة الغرب النائمة تعود مرة اخرى جبهة حقيقية ، وما كان يخشاه بصورة اكثر هو ان يجد نفسه مشتبكاً على جبهتين . وكان الحل يتضمن اختيار مركز الثقل الاستراتيجي في روسيا بصورة جيدة ، ولو انه قرأ كلاوزفيتز لتعلّم اين كان مكانه . أفلم يشر كلاوزفيتز الى ان روسيا بلد لا يمكن القضاء عليه « الا بواسطة خلافاتها الداخلية ؟ » (١) أفلم يقارن تيودور مومسن Théodore Momssen فيما بعد الامبراطورية الروسية بعلبة من القاذورات تحافظ عليها دائرة القيصرية الفاسدة ؟ وفي تاريخ سابق ، ألم يصرح لينين :

« لا يوجد مكان في العالم ، اكثرية سكانه مضطهدة بقدر الاضطهاد الواقع على اكثرية السكان في روسيا . فالروس الكبار لا يشكلون سوى ٤٣ ٪ من السكان ، اي أقل من نصف عدد السكان . اما الباقون فلا يتمتعون بأي حق من الحقوق لأنهم ينتمون الى قوميات اخرى . ومن اصل ١٧٠ مليون من السكان الروس ، هناك ١٠٠ مليون مضطهد ومحروم من الحقوق (٢) »

وفي عام ١٩٤١ كان الاضطهاد الستاليني اسوأ بشكل لا يقدر من أي اضطهاد قام به أي قيصر من القياصرة . فالاوكرانيون ، والروس البيض والبالطيقيون ، والقوزاق ، والقفقاسيون وعدد آخر من القوميات لم ينسوا اهوال عشر سنوات من جماعية الزراعة في عهد ستالين (١٩٢٨ — ١٩٣٨) ، والتي ذبح خلالها او نفي او مات جوعاً ما يعادل عشرة ملايين . وفي عام

---

(١) انظر للاستزادة في هذا البحث ، الفصل الرابع ، ص ...

(٢)

Lénine : Collected Works, Vol. XVIII, pp. 225 - 226

١٩٤١ تنفس الصعداء ما يعادل ٤٠ مليوناً من الرجـــال بعد تحريرهم في اوكرانيا وروسيا البيضاء وفي دول البلطيق فقط . فكل مـــا كان على هتلر ان يفعله اذن هو اختراق الحدود الروسية كمحرر ووضع حد لجماعية الارض. ولو فعل ذلك لمـــا كسب لقضيته الاقليات فحسب ، بل لجزأ جيوش ستالين لانها كانت تضم جزء كبيراً من الاقنان الذين شملتهم جماعية الارض . ولهذا كان ستالين يخشى الغزو الالمـــاني ، وكان لا يعتقد بان الالمان سيرتكبون حماقة الحرب « باسلحتهم » فقط (١) .

وقد كتب ريتلنغر ما يلي : « لو ان الالمـــان حملوا معهم الى روسيا شيئاً مشابهاً للنقاط الاربع عشرة لعام ١٩١٨ التي وضعهـــا الرئيس ويلسون ، لتجزأت روسيا كمـــا تجزأت المانيا في ذلك الوقت » . ويضيف ريتلنغر وهو يتابع هذه المحاكمة قائلاً : « لو فعـــل هتلر ذلك لمـــا احتاج ابداً الى نقل جيوشه من موسكو ليضمن اوكرانيا ، لان الاوكرانيين في هذه الحالة سيقدمون له هذه الضمانة » (٢) . غير ان هتلر اعلن ان سكان الاتحاد السوفييتي هم بشر اقـــل قيمة من غيرهم من الاجناس وقرر القيام بحرب الابادة (٣) .

وقد بدأ الغزو في ٢٢ من يونيو (حزيران) ١٩٤١ . وفي المعارك التي دارت حتى ٢٦ من سبتمبر (ايلول) وهو التاريخ الذي انتهت فيه معركة كييف الكبرى ، لم يكن عدد الاسرى يقـــل عن ١,٥٠٠,٠٠٠ اسير ، وفي عيد الميلاد ، التحق بهم مليون اسير آخر . وقد كتب الجنرال اندرز

---

(١) هذا مـــا كان يقوله الجنرال فالسوف لهملر . راجع :
The House Built on Sand (1960) p. 361.

(٢) ريتلنغر : REITLINGER. OP. IT. 22.

(٣) حول هذه السياسة وتنفيذها ، راجع :
ALAN BULLOCK : Hitler a Study of Tyranny, pp. 663 à 664.

معللاً سبب هذه الارقام المرتفعة بقوله : « كان عدد كبير من الجنود يرون في الحرب فرصة لتغيير النظـــام في روسيا . وكانوا يرغبون في انتصار المانيا . ولهذا كانوا يستسلمون باعداد كبيرة ... وفر عدد كبير من الضباط السوفييت الكبار وانضموا الى الالمان وعرضوا ان يقاتلوا ضد السوفييت . » (١)

وقد استقبل الشعب الصغير الالمان في كل مكان كمحررين . وكـــان الاوكرانيون يعتبرون هتلر « منقذ اوروبا » (٢) ، وكان الروس البيض راغبين كـــل الرغبة في القتال الى جانب الالمان . ويروي غودريان ان « نساء احدى قرى منطقة القتال أتين بالخبز والزبدة والبيض على اطباق خشبية ولم يتركنني حتى اكلت منهـــا » (٣) . وفي روستوف ، كتب ايريخ كيرن مـــا يلي : « كان هناك في كـــل انحاء المدينة اناس ينتظرون في الشارع ، ومستعدين لتحيتنا وللترحيب بمقدمنا ... ولم أرى قبل ذلك ابداً تغييراً مفاجئاً بمثل هذا الشكل . لم يكن للبلشفية وجود . فقد ذهب العدو .. وفي كـــل مكان ذهبنا اليه ، كنا نصادف اناساً كانوا يضحكون ويؤشرون لنا .. وكانت مفاصل الامبراطورية السوفييتية تتداعى في كل مكان » (٤) .

ثم جاء هملر ومصلحة الأمن المخجلة ، وفي مطلع عام ١٩٤٢ ، كان

---

(١) كان الجنرال اندرز القائد العام للجيش البولوني الحر .
Général ANDERS : Hitler's Defeat in Russia (1953).

(٢)
The GOEBBELS DIAIRIES, p. 153.

(٣) جنرال غودريان ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٧٩ .

(٤)
ERICH KERN: Dance of Death (1948) pp. 102, 94, 86.
كان كيرن ضابط صف في حرس هتلر .

الدكتور برتهولد مدير الادارة الالمانية في بولونيا يقول لفون هاسيل ان عنف المعاملة التي عومل بهـا الروس والاوكرانيون « تتجاوز كل مـا عرف حتى الآن » [١] . ويؤكد ايريخ كيرن هذه المعاملة ويشير انه في الوقت الذي كانت فيه الباشفية قد افلست على المستوى السياسي ، انقذها هتلر واعوانه من القتلة . وقد كتب كيرن ما يلي : « لقد وضعنـا البلاشفة في موقف يعزز مواقعهم السياسية الى ابعد من احلامهم الخيالية ، وزودنا قضيتهم باكليل « الحرب الوطنية » [٢] لاننا ايقظنا لدى الشعب الروسي حمية نابوليونية أما غورليتز فقد كتب ما يلي : « نظراً لان القضاء » على البلشفية قد بدأ فوراً وبكل بساطة يتخذ معنى التصميم على اقتلاع واستعباد السلافيين ، فان هذا العمل كان من اسوأ اخطاء الحملة كلها » [٣] .

وكانت الديموقراطيات معادية للبلشفية بقدر عدائها للوطنية ـ الاشتراكية ، وكان هتلر يستهدف اقامة مدى حيوي في اوروبا الشرقية ، وهو امر لا بد من ان يسبب له مشاكل مع روسيا . فلم يكن هناك اذن من سبب للشك بان

---

(١) مذكرات فون هاسيل ١٩٣٨ ـ ١٩٤٤ (١٩٤٨) ص ٢١٩ .

(٢) كيرن ، المرجع المذكور سابقاً .. ص ١٠٨ .

(٣) كيرن ، المرجع المذكور سابقاً .. ص ١٠٨ .

ص ٣٩٧

GORLITZ : The German General Staff, p. 397.

« سأل ضابط الماني صحفيـاً امريكياً : هل تعرف اين خسرنا الحرب في روسيا ؟ فأجابه الامريكي فوراً : « « في ستالينغراد » ، فأجابه قائلا : « كلا ، لقد خسرناها قبـل ذلك بكثير ، خسرناها في كييف ، عندما رفعنـا علم الصليب المعقوف بدلا من العلم الاوكراني ! » .

ذكرها اوجين ليون في :

Our Secret Allies : The Peoples of Russia (1954) p. 332.

افضل سياسة كان لا بد من ان تنتهجهــا فرنسا وبريطانيا العظمى في عام ١٩٣٩ هي الامتناع عن الدخول في الحرب وترك الدولتــين الكبريتين الديكتاتوريتين تتصارعــان الواحدة ضد الاخرى ، وان تعيد فرنسا وبريطانيا تسليحهما فوراً . فلو انهمــا انتهجتا هذا السبيــل لسنحت الفرصة التي كان تدخلهمــا فيها مفيداً . فلو خرجت روسيا من الحرب منتصرة ، يفقد هتلر قيمته واعتباره ، وكان من المستطاع مساعدة المانيا . وفي الحالة المعاكسة ، كان من الممكن غزو المانيا انطلاقــاً من الغرب في ظروف ملائمة . فالتعهدات التي قدمها تشامبرلان لبولونيا حولت سياسته في النتيجة الى سياسة غير ممكنة التحقيق .

وقد سنحت فرصة سلم ملائم عندما اجتاحت المانيا روسيا . اذ كان في مكنة السياسة الانجلو ــ امريكية بناء على هذا الغزو ان لا تعزز « احدى الدول ذات الحكم الشمولي على حساب الاخرى وعلى حساب **الديموقراطيات** » كمــا اقترح هانسون بالدوين . وكان عليهــا بالاحرى ان تنتهج سياسة لا تقدم بموجبهــا لروسيا إلا عوناً يكفي بالكاد للسماح لها بمتابعة الحرب ، وان لا تعرض المانيا لاضرار هامة تضطرها الى ايقاف الحرب [١] .

فقد فاتت هذه الفرصة الملائمة على المزاج القتالي للمستر تشرشل . وفي مساء ٢١ من يونيو (حزيران) ١٩٤١ ، وقبــل اجتياز الالمان للحدود الروسية ببضع ساعات ، اشار تشرشل الى المستر فينانت **Winant** سفير الولايات المتحدة الامريكية ، الذي كان يتناول طعام العشاء معه ان هجوماً المانياً ضد روسيا وشيك الوقوع . فطلب اليه فينانت عندئذ « ما اذا كان عمله هذا ، وهو المعروف بعدائه للشيوعية ، يعتبر مذلة وخضوعاً ؟ » فاجابه

---

(١) هانسون بالدوين :

Hanson W. Baldwin : Great Mistakes of the War (1950) p.10.

تشرشل : « ابداً ، ليس لي إلا هدف واحد وهو تدمير هتلر ، وهذا العمل يبسط وجودي الى حد كبير . فلو ان هتلر هاجم الجحيم ، فإني سأقول كلمة تعاطف مع الشيطان في مجاس العموم » [١] . ولكن لم يخطر في باله ابداً ، على ما يبدو ، اننا نخوض الحرب ، لا لتبسيط وجوده ، بل لربح سام مميز .

وفي اليوم التالي ، كان يوجه للشعب الانجليزي رسالة مفجعة ، قال فيها :

« ليس لنا إلا هدف واحد ، وغرض وحيد لا رجعة فيه . فقد صممنا على تدمير هتلر ، ومحو كل آثار النظام النازي . ولا شيء سيحولنا عن هذا الهدف ، لا شيء أبداً . فنحن لن نتفاوض مع هتلر ابداً ، ولن نتحادث معه ابداً ، ولا مع اي شخص من جماعته .. فكل رجل ، وكل شعب ، سيتابع المعركة ضد النازية ، سيحظى بدعمنا . وكل رجل ، وكل أمة تسير مع هتلر ستكون خصماً انا .. هذا هو خط سلوكنا وهذا هو قرارنا . وبناء على هذا ، فاننا سنقدم كل العون الممكن لروسيا وللشعب الروسي » [٢] .

وفي ٧ من يوليو (تموز) كان تشرشل يعرض تقديم كل العون الممكن في برقية موجهة الى « السيد ستالين » . وبعد خمسة ايام ، وقعت بريطانيا العظمى — والاتحاد السوفييتي معاهدة تعهد فيها الطرفان بتقديم المساعدات المتبادلة « دون تحديد نوع هذه المساعدات او كميتها » ، وأكد الطرفان فيها ارادتهما في عدم عقد صلح منفرد . وفي ١٨ من يوليو (تموز) اجاب ستالين على عرض تشرشل طالباً اليه فتح جبهة ثانية « في الغرب (في شمال فرنسا) وفي الشمال (في المناطق القطبية الشمالية) ، واضاف الى طلبه قائلاً ان « فتح هذه الجبهة الآن هو افضل فرصة » [٣] .

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٣ ، ١ ، ص ٣٩١ .

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٣ ، ١ ، ص ٣٩٢ .

(٣)

Stalin's Correspondance with Churchill, Attlee, Roosvelt and Truman 1941-1945 (1957), vol. I, p. 12.

وقد ادى هذا التعاون ، في ٢٦ من مايو (ايار) ١٩٤٢ الى توقيع معاهدة تحالف انجلو — سوفييتي « لم يكن يتضمن اي شرط اقليمي » . وقد كتب تشرشل : « لقد احسست بارتياح كبير عند توقيع هذا التحالف لانني لم اكن اجرأ على الطموح في حل مناسب كهذا الحل » (١) وقد اعطى الزمن فيما بعد الدليل على ان هذه المعاهدة كانت خطيئة اكبر بكثير من الضمانات من الضمانات التي اعطتها فرنسا وانجلترا لبولونيا في ٣١ من مارس (آذار) ١٩٣٩ .

ان كل تفسير ، حتى ولو كان تفسيراً مبتذلا عمل شاق :

ففي اول الامر ، عندما صرح تشرشل في برقيته الاذاعية ان بريطانيا العظمى ستمنح دعمها لكل رجل ، ولكل امة تحارب هتلر ، كان في وسعه ان يسعى جهده ، كما فعل سلفه ، لتشجيع المعارضة المعادية لهتلر في المانيا . فاعتباراً من عام ١٩٤٠ ، قام اعضاء هذه المعارضة بمحاولات متعددة للحصول على دعم الانجليز ، وصدت محاولاتهم في كل مرة ، او اهملت (٣) . فقد كان تشرشل يعتبر الالمان حيوانات كحيوانات الفريسة ، نظراً لان حقده على هتلر اعمى بصيرته ، ولهذا ارتكب نفس الحماقة التي ارتكبها هتلر عندما رفض التمييز هذا الاخير بين الشعوب الموالية لستالين ، والشعوب المعادية له في الاتحاد السوفييتي . فبدلاً من ان يقدم العروض لهذه المعارضة ، سعى جهده لتحطيم معنويات الشعب الالماني مستخدماً القصف الاستراتيجي تبعاً لمبادىء دوهيه (٤) .

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٤ ، ١ ، ص ٣٥٤ .
(٢) المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٢٩ — ريتر .
(٣) راجع القسم ٧ .

ثم تعهد تشرشل ازاء بولونيا ، كما تعهدت الحكومة البريطانية بالمعاهدة الانجلو ـ بولونية . ولكن بما انه كان عليه ان يأخذ الاعتبار تجزئة هذه البلد ، الذي كان ستالين مسؤولا عنه بقدر مسؤولية هتلر ، كان من واجبه ان لا يلقي بباده عفوياً بين ذراعي الاتحاد السوفييتي . كان في وسعه بالأحرى انتظار ان يعلن ستالين دعمه وان لا يمنح تشرشل هذا الدعم الا بشرط الغاء المعاهدة الجرمانية ـ الروسية التي وقعت في ٢٣ من اغسطس (آب) ١٩٣٩ ، وان يخلي سبيل كل الاسرى والمنفيين البولونيين الموجودين في قبضة الروس .

واخيراً ، كان من واجب تشرشل ان يفهم انه لم يكن هناك أية ميزة معنوية او سياسية بتبديل هتلر بستالين ، واذا كان لا بد من تحقيق هذه الفرضية ، فإن الحرب خاسرة لا على المستوى السياسي فقط ، بل ان التوازن الدولي في اوروبا سيتحول لصالح السوفييت .

وكان رئيس الولايات المتحدة الامريكية شريكه في هذا الرفض للسياسة .

٥ ـ سياسة الرئيس روزفلت المعادية لليابان والموالية للروس

كتب مؤرخ امريكي فكر طويلاً بمصير العالم في ١٨ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٩ في جريدته ايام الحرب ما يلي :

« ان الحرب الحالية ، بالنسبة لانجلترا ليست حرباً بحرية ! كما انها ليست حرب جيوش ابداً بالنسبة لفرنسا . لقد اصبحت الحرب حرباً ايديولوجية . انها حرب الستالينية ضد الفكرة الاوروبية ، وسيفهم قواد الجيوش الغربية المتحالفة هذا قريباً . وذلك افضل بالنسبة اليهم . فما يجري في اوروبا اليوم أسوأ من الحرب » (١) .

---

(١)

Francis Neilson : The Tragedy of Europe: A day by day commentary on the second World War (1940), vol I, p. 156.

ان هذا التنبؤ الرائع لطبيعة الحرب ، التي مـا ان تعلن حتى تتجاوز اطار الصراع بين القوات لتصبح صراعاً بين ثقافتين متعارضتين ، همـا الفكر الغربي الحر ، والطغيان الشرقي . هذا التنبوء لم يتوقعه المستر تشرشل والرئيس روزفلت . ومع ذلك فان تشرشل انتبه الى هذا في المرحلة الاخيرة من الحرب ، عندما لم يكن في وسعه ابداً ان يعدل الاتجاه الذي كان قد حدده . اما روزفلت فانه لم يشك في ذلك ابداً ، وهذا ما صنع مأساة اوروبا . فاي نوع من الرجال كان رئيس الولايات المتحدة ؟ .

ويصفه روبرت شيروود ، الذي كان واحداً من معاونيه المقربين ، وكتب عدداً من خطبه ، بهذا الشكل :

« كتبت فرانسيس بيركينز عن روزفلت : « انه اكثر البشر الذين عرفتهم في حياتي تعقيداً . » وكتب هنري مورجانتهو : « روزفلت انسان من الصعب جداً وصفه ... فهو في الوقت نفسه كسول ، ويتمتع بكثير من الحيوية ، انه تافه وخطير ، باطني ومنفتح .. انه رجل تحيرك عقد مزاجه ودوافعه . » وكانت السيدة بيركينز ومورجانتهو اعضاء في مكتب روزفلت وعرفوه وقتاً أطول وافضل مني . ولكنني عاشرته بمـا فيه الكفاية ، وبخاصة في اوقات الاسترخاء ، التي كان لا يحس فيها بتمثيل منصبه ليكون مستعداً للرد عليهم بالايجاب عندما يتحدثون عن تعقيده . وكنت احاول ، بصفتي ككاتب دراسته دوماً ، واسعى الى اكتشاف مـا كان مخبوء وراء مظهره الفاتن والمسلي ، والاخوي الدافىء ، وكنت اجهد للتسلل في هذه الغابة المنيعة . ولكني لم استطع ابداً ان افهم حقيقة مـا يجري خلف هذا البرقع . فلم تكن شخصيته متعددة الجوانب فقط ، بـل انه كان متناقضاً الى درجة تبلبـل الذهن وتحيره . وكان روزفلت قاسياً ، وكان رقيقاً ، في الوقت ذاته . فقد كان تارة يظهر استعداده للحقد الى حد الدناءة ، وتارة اخرى يتظاهر بشعور

الغفران المسيحي والشفقة بشكله الطاهر البريء . وكان يسلك احياناً سلوك سياسي بلا قلب . وفي احيـــان اخرى يعتبر نفسه البطل الذي يحمي اصدقاءه ومعاونيه ، حتى ولو كانوا تافهين ولا قيمة لهم — ومنهم هوبكنز اكثر من اي شخص آخر — وكان يدافع عن قضايا يؤكد له مستشاروه المهرة ان دعمها يساوي انتحاراً سياسياً . وكان في وسع المرء ان يعتقد بانه كثير الشكوك ، واجتماعي ، ليس للاوهام مكان في مخيلته : ومع ذلك فقد كان ايمانه الديني اكبر قوة واكثرها غموضاً في شخصه .. فقد كان يحب ان يتخيل نفسه تحت ملامح رجل عملي ، وهب حساً سليماً عالياً — وكان يقول غالباً : « اننــا على وفاق تام ، ونستون ، العم جو ، وانا ، لاننا واقعيون » ، ولكن الحق يقال ، لم يكن مثله الاعلى اقل ارتفاعاً في عليين عن عن مثل وردرو ويلسون الاعلى . »(١) .

فاذا كان هذا الوصف صحيحاً ، فان رئيس الولايات المتحدة الامريكية لا يملك صفة من الصفات التي اشترطها نابليون لمن يأخذون على عاتقهم ادارة العمليات الحربية .

ففي فترة الصفقة الجديدة New Deal اعتبر عدد كبير من الشيوعيين هذه السياسة وسيلة لدعمهم . وتعاون روزفلت معهم لانهم بسيطرتهم على الحزب العمالي الامريكي كانوا يضمنون التوازن السياسي في دولة نيويورك ويشكلون ايضاً عنصراً هاماً في الدول الصناعية لاوهيو ، وايللينوا وبانسيلفانيا . وقد كافؤوه على ذلك عندما انتخب للمرة الثالثة في عـــام ١٩٤٠ ، الا ان هذا التعاون جلب الى جواره بعض الشخصيات الغريبة التي كان هـــاري

---

(١) ROBERT E. SHERWOOD: Le mémorial de ROOSVELT, d'après les papiers de HARRY HOPKINKS, édition française (1950) Vol. I, p. 370.

هوبكنز [١] واحداً منهـا . فقد كان هوبكنز مديراً سابقاً للاعمال الاجتماعية مشرفاً على الموت ، متعجرفاً ، وطموحاً وسريع التصديق . وقد دعي في ١٠ من مايو (ايار) ١٩٤٠ ليقيم في البيت الابيض ، وليعينه الرئيس بعد عام واحد مديراً الاعارة والتأجير ، وهي وظيفة كانت تتيح اه سلطة نائب الرئيس بصورة فعلية [٢] . وقد كتب الجنرال البرت ويدماير ما يلي : « كان الرئيس محاطاً بالمتآمرين وبمفكرين مثاليين مرتبطين بالشيوعية ، وكانوا يتمتعون بحماية زوجته ، وتلقوا من هاري هوبكنز ومن بعض الافراد الآخرين الذين يتمتعون بثقة الرئيس سلطات كبرى » . وكان هناك مخدوع آخر هو الجنرال جورج مارشال رئيس اركان جيش الولايات المتحدة ، وهو رجل شريف وساذج « اصبح فريسة سهلة للتعليمات الشيوعية السرية او للوشاة المتعاطفين مع الشيوعيين الذين كانوا يؤثرون عليه عن طريق كبريائه » [٣] . وبهذا الشكل كان ستالين وشركاؤه « مطلعين تمـام الاطلاع على مشاعر الحكومـة الامريكية ونواياها بواسطة عملائهم الشيوعيين من واشنطن ... وهنـاك بعض الموالين للشيوعيين ، وعملاء للسوفييت تسللوا في بعض الادارات [٤] » .

---

(١) كان تشرشل يصنفه « في مستوى أعلى بين رجال القصر » . وكان يسميه ممثل ميسوري ديوي شورت « راسبوتين البيت الابيض » .

(٢) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ١ ص ١٥١ .

(٣) ويدماير — تقارير (١٩٥٨)

Weydemeyer : Reports (1958) p. 370.

(٤) « وكانوا يشغلون وظائف مؤثرة على البيت الابيض ، في وزارات الخارجية والخزانة ، والحرب ، وإدارات الانتاج والاقتصاد الحربي ، ومكاتب الخدمات الاستراتيجية ، ومراقبة الاسعار ، والاستعلامات الحربية وفي عدد من الادارات الاخرى » .

Chesley Manley : The Twenty Years Revolution from Roosvelt to Eisenhower (1954) p. 42.

ولم يمارسوا نفوذهم وتأثيرهم على سياسة الولايات المتحدة ، وعلى خطط العمليات ، وعلى التظاهرات الرسمية فحسب ، بل انهم مارسوا اثرهم ايضاً بإعلامهم موسكو فوراً بكل ما يجري » [١] .

ويبدو ان هذا الوضع لم يقلق الرئيس ابداً لان « عقيدة روزفلت كانت تعلمنا ، في حالة اشتراك امريكا في حرب من الحروب ، ان ننقل الحرب الى ابعد ما يمكن عن شواطئنا ، ومع اكبر عدد من الحلفاء ، دون ان نهتم كثيراً بالايديولوجيات » [٢] كما كتب شيروود . ويبدو ان هذا الرأي يبرر ملاحظة الجنرال ويدماير الذي اخبر روزفلت في مارس (آذار) ١٩٤٥ باعتقاده بان الشيوعيين سيثيرون الاضطرابات في الصين فور انتهاء الحرب وقد قال ويدماير معقباً على ذلك : « لم يبد لي انه فهم ما كنت اقوله له . » .

كان كل حقد روزفلت منصباً على هتلر . فقد كان هوبكنز يقول : « ان الشيء الوحيد الهام في العالم بالنسبة للرئيس ، في هذا الوقت ، هو الانتصار على هتلر » [٣] .

ولكن روزفلت لم يقتنع قناعة تامة بان هتلر قد يغزو نصف الكرة الغربي ، الا عندما انهارت فرنسا « وكان اكثر ما يخشاه في هذا الوقت ، وفيما بعد ايضاً ، هو محادثات السلام [٤] وعندما اجتاح هتلر روسيا بعد عام واحد ، ارسل هوبكنز بمهمة الى موسكو ، بناء على طلبها . وفي الوقت

---

(١) ويدماير ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٣٤٨ . راجع ايضاً :
J. Edgar Hoover : Masters of deceit (1958).

(٢) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ١ ، ص ٤٠ .

(٣) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ١ ، ص ٨٤ .

(٤) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ١ ، ص ٣٣ .

ذاته ، اعلن روزفلت تجميد رؤوس الاموال اليابانية في امريكا ، وفرض الحظر على تصدير محروقات الطائرات والماكينات والآلات الى اليابان . وكان هذا العمل اعلاناً بالحرب الاقتصادية .

وصل هوبكنز الى موسكو في ٣١ من يوليو (تموز) ١٩٤١ ، وقد سحره ستالين [١] . وانضم بصورة عمياء الى قضية السوفييت ووجه فوراً ، ودون تحفظ ، تيار البضائع بموجب قانون الاعارة والتأجير الى روسيا . وقد كتب الجنرال جون.ر. دين رئيس البعثة العسكرية الامريكية في موسكو ان هوبكنز نفذ برنامج المعونة لروسيا « بحماس يقرب من التعصب » [٢] . وغادر موسكو بعد ان نفذ مهمته ليلتقي بالرئيس ، وبتشرشل في مؤتمر الاطلنطي الذي انعقد في بلاسنتيا — بي ، في الارض الجديدة بين ٨ ، ١٣ اغسطس (اب) .

وصرح تشرشل حول موضوع اليابان ، تعليقاً على المؤتمر :

« لقد صرحت لحاشيته (حاشية روزفلت) انني افضل اعلان امريكا للحرب فوراً مع ايقاف العتاد المرسل الى انجلترا لمدة ستة اشهر ، على مضاعفة العتاد دون اعلان الحرب . وعندما كرروا اليه هذا الرأي (لروزفلت) قال لي : « من الممكن ان لا اعلن الحرب ابداً ، وان اخوضها . فاذا كان من الواجب علي ان اطلب الى الكونغرس اعلانهـا ، فقد يناقشها لمدة ثلاثة

---

(١) في عام ١٩٤٣ ، تحدث روزفلت مع سفير بولونيا سيشانوفسكي موجهاً الملاحظة التالية عن هوبكنز « ان هاري يحترق من اجل ستالين كبيت من البيوت . ويبدو انهمـا اصبحا صديقين »

Jean Ciechanowski : Defeat in Victory (1948) p. 244.

(٢)

Général John R. Deane : The Strange Alliance (1947) p. 90.

اشهر » (١) . وبالاضافة الى هذا وعد تشرشل « بان تدخل الولايات المتحدة الحرب في الشرق الاقصى ، حتى ولو لم تهاجم ، واكد بهذا الشكل الثقة في النصر النهائي » (٢) . ووعد ايضاً بتوجيه مذكرة تصاغ بعبارات قاسية ، لدى عودته ، الى واشنطن ، وتسلم الى سفير اليابان المعتمد لـــدى البيت الابيض ، وقد فعل هذا في ١٧ من اغسطس (آب) .

وبالاضافة الى هذه التعهدات السرية صدر تصريح جماعي يضم « بعض المبادىء المشتركة » لسياستي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ، قـــام تشرشل بصياغتهـــا بناء على اقتراح الرئيس ، وصلحّت وطبعت تحت عنوان : « ميثاق الاطلنطي » (٣) . وكانت وثيقة هذا الميثاق مثالية الى حد كبير ، وكان من المستحيل تطبيقهـــا اذا روعيت بدقة . وكانت مع ذلك عملا دعائياً من الطراز الاول ، الى ان وضعت جانباً في مؤتمر طهران في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٣ .

ومنذ ذلك الوقت كانت المفاوضات قائمة بين طوكيو وواشنطن ، وكان كل طرف من الاطراف يسعى الى ربح الوقت . وفي ٥ من نوفمبر (تشرين الثاني) كتب تشرشل الى روزفلت : « لم يتخذ اليابانيون حتى الآن اي قرار

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٣ و ٢ ، ص ٢٣١ . رسالة الى الجنرال سمطس ، بتاريخ ٩ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤١ .

(٢)

Parliamentary Debates, 5e série, Vol. 377, Col. 607

(٣) راجع الملحق رقم ٣ . في مؤتمر للحلفاء انعقد في لندن ، في ٢٤ من سبتمبر (ايلول) ١٩٤١ تبنت حكومات بلجيكا ، وتشيكوسلوفاكيا ، واليونان ، واللوكسمبورغ والبلاد الواطئة والنرويج وبولونيا وروسياويوغوسلافيا وفرنسا الحرة ، الميثاق بصورة رسمية .

لا ينقض ، ويبدو ان الامبراطور يتمهل . وعندما تحدثنا عن هذا الموضوع في بلاسنتيا كان رأيكم ان نكسب الوقت . وقد حصلت هذه الطريقة على نجاح رائع حتى الآن . غير ان الخطر الذي فرضناه على التصدير سيضطر اليابانيين بالتأكيد الى الاختيار بين السلم والحرب »[1] .

وقد اتخذت الحكومة اليابانية قرارها بعد ١٥ يوماً . وتلقت واشنطن اقتراحات بتسوية عامة تقوم على الاسس التالية في ٢٠ من نوفمبر (تشرين الثاني) :

انسحاب القطعات اليابانية من الهند ــ الصينية الفرنسية بعد توقيع معاهدة متكافئة لمنطقة الباسيفيكي ، اعادة العلاقات التجارية المتبادلة بين اليابان والولايات المتحدة الامريكية ، قبول الولايات المتحدة بتموين اليابان بالبترول . وتعهد الولايات المتحدة بالامتناع عن اتخاذ اية تدابير او اعمال تسيء الى عودة السلام بين اليابان والصين .

وقد درس الرئيس ووزارته الحربية هذه الاقتراحات يوم الاثنين الموافق ٥٢ من نوفمبر (تشرين الثاني) ويعطي هنري ل. سيمون ، وزير الحرب تقريراً عن هذه الجلسة في يومياته ، ويلخصها بالعبارات التالية :

« عند الظهيرة ، ذهبنا (الجنرال مارشال وأنا) الى البيت الابيض.. وابتدأ الرئيس .. بمعالجة موضوع العلاقات مع اليابان . وقد اثار احتمال مهاجمة اليابان لنا ، وامكانية تحقق هذا الاحتمال (اعتباراً من) يوم الاثنين المقبل .. وكانت المسألة هي معرفة ماذا سنفعل . وكيف سنجرهم الى اطلاق الطلقة

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٣ و ٢ ص ٢٢٩ .

الاولى دون ان نورط انفسنا في وضع خطر جداً » [١] .

وبالرغم من ان الامريكيين عرفوا بواسطة الرسائل السرية الالمانية الملتقطة [٢] ان اقتراحات ٢٠ نوفمبر كانت الاقتراحات الاخيرة ، فان كوردل هول وزير الشؤون الخارجية الامريكية اعد مذكرة مؤلفة من عشرة نقاط قدمها في واشنطن الى السفيرين اليابانيين ، وها هو محتواها :

مقابل معاهدة جديدة للتجارة ، ولرفع الحظر عن ارصدة الشعبين ، تتعهد اليابان بتوقيع معاهدة عدم اعتداء مع واشنطن وموسكو والبلاد الواطئة ، وتشونغ كينغ ، وبانغوك وتتعهد بسحب قواتها المسلحة من الصين والهند الصينية وبعدم مساعدة اية حكومة في الصين غير حكومة تشانغ – كاي – تشيك

واعتبرت الحكومة اليابانية هذه المذكرة كانذار ، واجابت عليها في ٧ من ديسمبر (كانون الثاني) بهجمات مفاجئة على كولد – هاربور ، وماليزيا ، وتايلاند ، وهونغ كونغ . وبهذا الشكل اخذت الحرب التي كانت مقتصرة حتى الآن على اوروبا مستويات نزاع على المستوى العالمي . وعندما وصلت هذه الاخبار الى تشرشل ، قال لنا :

« انتصرنا اخيراً .. لقد ختم مصير هتلر . وختم مصير موسوليني . اما

---

(١) كونغرس الولايات المتحدة :

Hearings before committee on the Pearl Harbour attack (1946), 2e partie, p. 5433.

(٢) فكت رموز الجيفرة اليابانية من قبل مصلحة استعلامات الجيش وبحرية الولايات المتحدة ، وطيلة مدة المفاوضات ، كانت البرقيات المتبادلة بين طوكيو وواشنطن ، تحل رموزها فوراً وترسل الى البيت الابيض مباشرة . وقد بقيت رموز الجفرة (الكود) محلولة ومعروفة طيلة مدة الحرب .

اليابانيون فسيتحولون الى رماد ... وذهبت لأنام ، ونمت نوم رجل ضمنت سلامته ، وقلبه مشبع بالعرفان ، بعد ان امتلأت وشبعت من الانفعالات والاحاسيس ... » [١] .

ونظراً لان الولايات المتحدة الامريكية هي اكبر دولة صناعية في العالم ، فقد غدت حقيقة وعملا الامة الحربية الراجحة ، منذ دخولها الحرب . ومن سوء حظ العالم ان قادتها كانوا يفتقرون الى الحس بالتاريخ ، ويعتبرون الحرب كلعبة مميتة اكثر من اعتبارها أداة للسياسة . وكذلك فقد بدأت المعارك تخسر كل قيمتها السياسية ، حتى انه خلال الجزء الثاني من الحرب شلت القرارات السياسية النتائج التي حصلت عليها المعارك وابطلت مفعولها في معظم الاحيان . وبهذا الشكل كانت المؤتمرات اكثر حسماً من المعارك .

وانعقد اول هذه المؤتمرات الحاسمة في واشنطن ، في نهاية ديسمبر (كانون الثاني) ١٩٤١ . وكان اسمها الكودي (اركاديا) «Arcadia» . وغادر تشرشل انجلترا في ١٢ لحضور هذا المؤتمر . وبينما كان في البحر في طريقه الى الولايات المتحدة تلقى من وزير خارجيته السيد انطوني ايدن تقريراً عن الاجتماع الاول الذي عقده مع ستالين ، رجل الدولة هذا ، الذي لم يرتكب ابداً خطيئة اعتبار الحرب شيئاً مغايراً لكون الحرب اداة من ادوات السياسة .

ولدى قراءة تقرير ايدن ، عرف تشرشل ان ستالين قد جهر بما كان يقدره انه هو كيان المستقبل لاوروبا ما بعد الحرب . واقترح تقسيم المانيا الى عدد من الدول الصغيرة المستقلة ، واعادة دول البلطيق الى الاتحاد السوفييتي فنلندا وبسارابيا كما كانت قبل ان يغزو هتلر الاتحاد السوفييتي ، والاعتراف

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور ، الجزء ٣ و ٢ ، ص ٢٤٥ .

« بخط كورزون » حداً بين روسيا وبولونيا [١] .

كانت المسائل الرئيسية المناقشة في المؤتمر هي ادارة الحرب واهدافهـــا . ولتأمين ادارة الاستراتيجية الواجب اتباعها ، اجتمع رؤساء الاركان العامة البريطانيون ، مع رؤساء الاركان العامة الامريكيين ، او ممثليهم لتشكيل لجنة سميت بلجنة رؤساء الاركان المشتركة ، التي اقيم مقرها في واشنطن . وكان القرار بتشكيل اللجنة قراراً يتسم بأهمية خاصة ، ولكن اسلوب الاشراف الذي طبقه رئيسا الدولتين ، طيلة مدة الحرب كان يضع العراقيل في الغالب امـــام اجماع هذه اللجنة . فعلى حين كان تشرشل يعتبر رؤساء أركانه ادوات لتنفيذ ارادته ، كان روزفلت يعاملهم كعملاء مستقلين . ونتج عن ذلك ان شغل جزء كبير من وقت رؤساء الاركان البريطانيين بمناقشاتهم مع تشرشل ، على حين كان زملاؤهم الامريكيون يتمتعون بحرية كاملة كان من نتيجتها ان التفاهم لم يكن يسود فيمـــا بينهم بصورة طبيعية . وكانوا يعملون بالأحرى كقواد للجيش اكثر من عملهم كهيئة اركان مشتركة .

ثم صدرت تأكيدات جديدة تحتم اعطاء الاولوية للهجوم في اوروبا على الحرب في الباسيفيكي [٢] ، وان من الواجب ان تتعرض المانيا خلال عام ١٩٤٢ الى قصف جوي يتزايد باستمرار وان يقدم كل العون الممكن لروسيا .

---

(١) بالنسبة للتقرير المذكور ، راجع تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٣ ـ ١ صفحات ٢٧٦ و ٢٦٨ ؛

(٢) وقد تأكد هذا للمرة الاولى اثناء محادثات رؤساء الاركان الانجلو ـ امريكيين التي تمت في ٢٧ من مارس (آذار) ١٩٤١ .

وقد اجل الرئيس المسألة الاساسية لتحديد اهداف الحرب ، التي بدونها تجد استراتيجيته العليا ذاتها محرومة من غرض محدد . وبدلا من ان يقدم لأعضاء المؤتمر هدفاً سياسياً واقعياً ، ومفهوماً وسياسة لتحقيق هذا الهدف ، عرض عليهم ما يسميه « هدفه الكبير » ، وهو رؤية طوباوية لنظام عالمي جديد . وكان هذا الجديد الذي كان يتصوره في خطوطه الكبرى عودة الى الحلم المسيحي لوودرو ويلسون في نقاطه الاربعة عشرة الى ألف سنة الى وراء .

واقترح عند النصر ، وحدة الامم المسالمة [1] في أخوة كبرى بهدف إقرار السلام في العالم . واقترح ان تطبق منظمة الدول صاحبة السيادة ، النموذج « الفيدرالي » الامريكي ، مع اعتماد مبادىء ميثاق الاطلنطي ، كأسس لهذا التنظيم . وكانوا سيطلقون على هذه المنظمة منظمة الامم المتحدة .

وقد قبل المؤتمر هذا التحالف المقدس الجديد كهدف للحرب بالنسبة للدول المتحالفة . وفي الاول من يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢ ، وقعت الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، و ٢٦ دولة اخرى ، بما فيها الاتحاد السوفييتي تصريحاً جماعياً يتضمن الميثاق [2] .

وبما انه تبعاً لاحكام الميثاق ، تعتبر الهزيمة التامة لالمانيا واليابان شيئاً اساسياً ، فقد اصبح الانتصار مهما كان الثمن هو الهدف السياسي . وبما ان هذا الانتصار يتطلب بالضرورة التعاون التام مع روسيا ، فإن الميثاق يعني ان تحل الستالينية محل الهتلرية في اوروبا ما بعد الحرب ، الا اذا تحول ستالين

---

(١) الامة المسالمة هي كما عرفها مؤتمر يالطا في ابريل (نيسان) ١٩٤٥ ، الامة التي اعلنت الحرب على المانيا في تاريخ معين .

(٢) انظر الملحق ٤ ...

الى النظام الجمهوري الامريكي قبل نهاية الحرب .

فهل كان روزفلت مؤمناً بقدرته على اجراء هذا التحول السحري في النظام السوفييتي ؟ يؤكد ويليام بووليت السفير السابق للولايات المتحدة الامريكية في الاتحاد السوفييتي وفرنسا ، هذا الاعتقاد . وفي مقال تحت عنوان : « كيف ربحنا الحرب وخسرنا السلم » الذي ظهر في مجلة « لايف » LIFE عدد ٣٠ اغسطس (آب) ١٩٤٨ ، يشهد ان روزفلت ، الذي كان يعمل طبقاً لنصائح هاري هوبكنز كان يأمل في ارتداد ستالين عن خطه ، باعطائه كل ما كان يطلب دون حدود ، ودون اية تحفظات ، وبدفعه الى الانضمام الى اهداف ميثاق الاطلنطي ، وذلك بالالتقاء به بصورة شخصية ، وباقناعه بتطبيق « الطرق المسيحية والمبادىء الديموقراطية » (١) .

وبناء على طلب الرئيس ، أعد بووليت مذكرة عرض فيها الاسباب التي تدفعه الى الايمان بفشل هذه السياسة . وبعد ان ناقشه روزفلت في محتوياتها مدة ثلاث ساعات ، التفت نحوه وقال له :

« بيل ، انني لا أنكر الوقائع . انها صحيحة . ولا انكر منطقية تفكيرك . اني أحس بان ستالين ليس رجلا من هذا النوع . وهاري يؤكد بانه ليس كذلك ، وانه لا يفتش الا عن أمن بلاده . واعتقد انني لو اعطيته كل ما في وسعي اعطاؤه ، ولم اطلب منه مقابل ذلك أي شيء — اذ أن الاصالة تفرض ذلك — فهو لن يحاول ابداً ضم اي بلد من البلدان ، وسيعمل معي على صنع عالم تسود فيه الديموقراطية والسلام . » .

كان هذا « الاحساس » هو محور موضوع سياسة الرئيس الموالية للروس ، والتي ادت الى اخفاق كل الانتصارات التي حصلت عليهـا الدولتان الغربيتان

(١) راجع ايضاً :
William C. Bullitt : The Great Globe Itself (1947) p. 17.

الكبيرتان ، وجلبت العناصر السلافية الى الالب وبدلت هتار بستالين [١] .

٦ – المرحلة الحرجة الكبرى للاستراتيجية

لقد بلغ الحلفاء المرحلة الحرجة الكبرى من الحرب في النصف الثاني من عام ١٩٤٢ . ومن ٤ الى ٦ يونيو (حزيران) وجهت ضربة ساحقة الى حاملات الطائرات اليابانية في المعركة البحرية الحاسمة التي جرت في جزيرة ميدوي . وفي الوقت ذاته انتقلت المبادرة في الباسيفيكي من يدي اليابانيين الى الامريكيين . وفي ٣٠ من يونيو (حزيران) كان جيش الجنرال روميل ، المستنزف القوى في مصر يتقدم ، وقد وصل الى مسافة ١٠٠ كم من الاسكندرية وهزم في العلمين بصورة حاسمة بين ٢٣ اكتوبر (تشرين الاول) و ٤ نوفمبر (تشرين الثاني) . وقد عجل الانتصار البريطاني بانهيار ايطاليا ، عندما اضيف اليه غزو الحلفاء لافريقيا الشمالية الغربية في ٧ من نوفمبر . وفي ٢٨ من يونيو (حزيران) شن هجوم الصيف الالماني في روسيا ، وحوالي نصف سبتمبر (ايلول) ، وصل الجيش الالماني السادس ، الذي يقوده الجنرال فريدريك فون باولوس الى تخوم ستالينغراد على الفولغا . وتلى ذلك شهران من الانقضاضات التي لا جدوى منها . وفي ١٩ من نوفمبر (تشرين الثاني) ، شن الروس هجوماً معاكساً مزدوجاً ضد الجيش الثالث الروماني ،

---

(١) هنا لا بد من تعليق بسيط على الحرب العالمية الثانية . إن من الثابت الآن ان الاتحاد السوفييتي هو الذي تحمل القسط الاكبر من عملية تدمير القوات النازية العسكرية في هذه الحرب ، ولم تكن عمليات الحلفاء بالمقارنة مع ما دار على الجبهة الشرقية سوى مناوشات بسيطة . فالجهد العسكري الرئيسي للالمان كان موجهاً ضد الاتحاد السوفييتي . وقد فقدت شعوبه حوالي ٢٠ مليون قتيل . — المعرب —

والجيش الثامن الايطالي ، والجيش الثاني الهنغاري ، هذه الجيوش التي كانت تمسك الدون شمال غربي ستالينغراد ، وضد الجيش الرابع الروماني جنوب هذه المدينة . وقد وضع نجاح هذا الهجوم الجيش السادس في موقف حرج جداً ، اضطر هذا الجيش الى القتال التراجعي فوراً ، الا ان هتلر عارض ذلك ، ولم يكن باولوس يملك الحزم الكافي كي يعصي اوامره . وكانت نتيجة ذلك تطويق جيش باولوس ، وفي ٢ من فبراير (شباط) استسلمت بقايا هذا الجيش . وانتقلت المبادرة عندئذ الى الروس ولم تنتزع منهم المبادرة ابداً فيما بعد .

وبسبب هذا الضعف الفكري لدى الدول الغربية ، والذي جعلهم لا يعتبرون الحرب أداة من ادوات السياسة ، لم تلاحظ هذه الدول مدلول معركة ستالينغراد . ومع ذلك ، كان هناك رجل واحد فقط ادرك مغزاها ومعناها هو الجنرال فرانكو . فقد ادعى بان رحى حربين كانتا تدوران بصورة منعزلة : الاولى في الشرق ضد الشيوعية ، والاخرى في الغرب ضد الهتلرية ، وان ربح الاخيرة وخسارة الاولى جنون على المستوى السياسي . ولإقناعه بان هاتين الحربين حرب واحدة ، اتصل السير صامويل هوار ، سفير انجلترا في مدريد بالكونت جوردانا وزير خارجية اسبانيا . وافهمه بان ستالين صرح في ٦ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٢ : « بانه ليس من صلب سياسة روسيا في المستقبل ان تتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاخرى » وبناء على هذا فان الانتصار النهائي سيكون انتصاراً للحلفاء وقد رد جوردانا على ذلك قائلاً :

« اذا تطورت الاحداث في المستقبل كما جرت حتى الآن ، فان روسيا هي التي ستحتل اكبر مساحة من الارض الالمانية . وهذا يقودنا الى طرح السؤال التالي : اذا ما تجسدت مثل هذه النظرية ، من اين ينبعث الخطر

الاكبر ، لا على القارة الاوروبية فحسب ، بل على بريطانيا العظمى ذاتها ؟ هل ينبعث من المانيا الدولة التي لن يكون مقضياً عليهـــا بصورة نهائية ، والتي ما تزال تملك قوة كافية تكون بمثابة حاجز امـــام الشيوعية ... او ان الخطر ، على العكس ، سينبعث من المانيا سوفييتية تقدم لروسيا بالتأكيد قوة اضافية تضاف الى قوتهـــا في التحضيرات للحرب والاستعداد لهـــا ... وتسمح لهـــا بتوطيد هيبتهـــا على امبراطورية لا مثيـــل لها وبشكل يتجاوز الحد ، تمتد من شواطىء الاطلنطي الى شواطىء الباسيفيكي ... ؟ » .

« وكذلك فلنخاطر بطرح هذا السؤال الثاني : هـــل بقيت دولة من الدول في وسط اوروبا ، داخـــل هذا الفسيفساء » الذي تشكله دول لا مضمون لها ولا وحدة لها ، استنزفت الحرب والسيطرة الاجنبية دماءها ، هـــل بقي فيها دولة قادرة احتمالاً على احتواء مطامح ستالين وايقافها عند حدها ؟ اني اقول لك ، لم يبق اية دولة ، ... اليس هذا صحيحاً ؟ .. ومن الواضح ايضاً ان هذه البلدان المختلفة عندما تتخلص من السيطرة الالمانية ، فذلك لكي تقع تحت قبضة الشيوعيين ، وهم الوحيدون القادرون على البقاء في السلطة بصورة دائمة . لهذه الاسباب فاننا نعتبر الوضع خطيراً جداً ، ونعتقد بان من واجب الرأي العام ، في بريطانيا العظمى ، ان يقوم بدراسة هذا الوضع دون انفعال ، لأنه اذا ما توصل الروس في يوم من الايام الى الاستيلاء على المانيا ، فانه لن يكون هناك احـــد فيمـــا بعد لايقافهم .. واذا زالـــت المانيا فان اوروبا ستكون مضطرة لاعادتها ، وسيكون من الجنون الاعتقاد بامكانية تبديلهـــا بشبه اتحاد بين الدول « كونفيدراسيون » يجمع مثلا ، ليتوانيا ، وبولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ورومانيا . اذ ان هذه الدول لن تتأخر عن

التحول الى عدد من الجمهوريات السوفيتية .. » [١] .

وكانت السياسة التي طبقها الرئيس روزفلت والمستر تشرشل اثناء لقائهما في مؤتمر كازابلانكا ، في منتصف يناير سنة ١٩٤٣ ، مختلفة جداً ، في الوقت الذي كان فيه الجيش السادس الالماني يحاول ان يتخلص من اهوال الموت . وقد اتفقا على تحضير غزو صقلية ، وزيادة تحضيرات الانزال في شمال فرنسا ، وهي العملية التي اطلق عليها فيما بعد الاسم الكودي « اوفرلورد » . وقد قررا ، فيما يتعلق بالمانيا اعداد « اقوى هجوم جوي ممكن ضد الاقتصاد الحربي الالماني [٢] وضد تنظيمها الصناعي ، وضد معنويات شعبها » واصدرا تصريحاً اعلنت بموجبه الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية تصميمها التام على متابعة الحرب بعناد حتى « استسلام المانيا واليابان دون قيد ولا شرط » . وقد اهملا ذكر ايطاليا حتى يحدثا الفرقة بينها وبين المانيا ، حسب قول تشرشل . وقد اعجبت هذه الفكرة الرئيس الى حد كبير . ومن المؤكد ان هذه الفكرة شجعت اصدقائنا في العالم كله [٣] . وبهذا الشكل فان « الاستسلام بلا قيد او شرط »

---

(١) السير صامويل هوار Samuel Hoare « اللورد تامبلوود » : سفير في مهمة خاصة

Ambassadeur en mission spéciale française

وفي مؤتمر ادنه في ٣٠ من يناير (كانون الثاني) ١٩٤٣ قال رئيس وزراء تركيا الشيء ذاته الى المستر تشرشل ، وبالعبارات التالية : « في حالة هزيمة المانيا ، « ستتبلشف » كل الدول المغلوبة . او تتحول الى السلافية » (تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، Vol IV - 21 p. 311

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٢ ــ ٤ ، ص ٢٩٣ .

(٣) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٢ ــ ٤ ، ص ٢٨٥ . ضمنت سلامة ايطاليا في النص النهائي للتصريح .

« قد حرك المقاومة الالمانية واجـّجـهـا ، واثبط عزيمة المعارضة الهتلرية » ، واطال مدة الحرب بالتالي .

وبحسب رأي ايليوت روزفلت ابن الرئيس ، استخدم ابوه تعبير « الاستسلام غير المشروط » لاول مرة اثناء عشاء كانا يحضرانه مع تشرشل وهوبكنز ، وقد تكلم تشرشل تعقيباً على هذا التعبير فوراً وبسرعة قائلاً : « جميل ! يبدو لي انني اسمع الآن غوبلز وعصابته يصرخون عالياً ! » وكتب ايليوت ايضاً ان ابـاه قدم التفسير التالي : « بالتأكيد هذا ما يحتاج اليه الروس . فهم لا يرغبون افضل من هذا . استسلام دون شرط ! سيقولون ان هذا التعبير هو للعم جو ! » [١] .

وتختلف رواية الرئيس عمـا ذكرناه اختلافاً كبيراً . فهو يعطي الكلمات التالية : « قفزت فكرة الاستسلام دون قيد او شرط في ذهني [٢] . وكانت رواية تشرشل اكثر غموضاً [٣] . وعلى كل فليس هناك حقاً ، شيء جديد في هذا التعبير ، فهو ترجمة لقول تشرشل : « الانتصار مهمـا كان الثمن » لا اكثر ولا اقل . وكان الاحرى بالرئيس ان يعمل بحكمة اكثر لو انه تذكر ما قاله ، اثناء حديث جرى في ركن دافيء ، في ٢٩ من ديسمبر (كانون

---

(١) ايليوت روزفلت :
Mon père m'a dit... » édition française (1947) p. 147.

(٢) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، الجزء ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) تشرشل ، المرجع المذكور ٢ — ٤ ص ٢٨٦ . وقد قال تشرشل في ١١ من فبراير (شباط) ١٩٤٣ في مجلس العموم « ان الرئيس لم يقرر ، بموافقتي التامة كعضو في وزراة الحرب ، ان يكون قرار مؤتمر كازابلانكا هو الاستسلام دون قيد او شرط لكـل اعدائنا الا بعد ان فكرنا بعمق وبعقل بارد ، وبهدوء ، وانضجنا هذه الحقائق التي تتعلق حياتنا وحرياتنا بها بالتأكيد .

الثاني) ١٩٤٠ : « لا تستطيع امة من الامم ان تبرم اتفاقية للسلام مع النازيين الا مقابل تنازلها التام .. فمثـل هذا السلم المفروض لن يكون سلماً ، بل هدنة جديدة فقط ، تؤدي بصورة حتمية الى اضخم سباق للتسلح ، والى اكثر الحروب تدميراً في التاريخ » [١] . ورغم هذا الحديث فانه طبق هذه السياسة النازية المشكوك فيهـا ، وكانت نتائجها ، كما سنرى ، مماثلة للنتائج التي توقعهـا .

فاذا كان اليوت روزفلت يقول الحقيقة ، فان غوبلز لم يصرخ بصوت عال ، فقد كان لزاماً ان يطير من الفرح ، وفي ٢٧ من مارس (آذار) ١٩٤٢ كتب في جريدته يقول : « لوكنت في الجانب المعادي ، لكنت طبقت منذ اليوم الاول شعار الكفاح ضد النازية لا ضد الشعب الالماني . وهذا ما بدأ بعمله تشامبرلان في اليوم الاول من الحرب ، ولكن نحمد الله على ان الانجليز لم يستمروا في هذا الطريق » [٢] ، وفي ١٢ من ابريـل (نيسان) ١٩٤٣ كتب ما يلي : « ولكن بعد كل هذا ، ان الانجليز يرتكبون الخطيئة ذاتها ، وبتحريض من تشرشل بدون شك . وهم يمتنعون بكل الوسائل عن الافصاح عن كل ما يمس اهدافهم في الحرب . واني لا أستطيع الا ان اقول : احمد الله ، لانهم لو حاولوا ان يقترحوا مشروع سلام مماثل للاربع عشرة نقطة لويلسون ، فممـا لا شك فيه انهم لن يثيروا اية صعوبات » [٣] امـا فيما يتعلق « بالعم جو » فبالرغم من انه لم يكن له اي هدف الا تدمير المانيا ، الا انه لم يكن من السذاجة بحيث يعلم عدوه به ، وقد ادلى بتصريح عـام في ٢٣ من فبراير (شباط) ١٩٤٣ قال فيه : « سيكون من المضحك ان نخلط

---

(١) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، مؤلف ١ ، ص ١١٣ .

(٢) غوبلز ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٠٢ .

(٣) غوبلز ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٥١ .

مـــا بين جماعة هتلر والشعب الالماني .. فقد علمنـــا التاريخ ان رجالا كهتلر يظهرون ويختفون ، الا ان الشعب الالماني ، والدولة الالمانية باقيان » [١] .

وقد كتب ريتر ان مأساة ستالينغراد ، قد اثارت لدى المعارضة المضادة لهتلر « نشاطاً قوياً » . والتقت المجموعتان الرئيسيتان المتمردتان في ٢٢ من يناير (كانون الثاني) في برلين للاتفاق معاً . وفي اليوم التالي : قبـــل ان تقررا اذا كان من الواجب اغتيال هتلر ام لا ، كانت الاذاعة تنقـــل اليهم على موجات الاثير تصريح الاستسلام دون قيد او شرط الذي اعلنه روزفلت وتشرشل . وقد صرح غورليتز قائلاً : « ان هذه الصيغة وجهت ضربة قاتلة للآمال التي استطاعت ان تغذيها « حكومة الظـــل » او عناصر المعارضة الموجودة في هيئة الاركان العامة الالمـــانية عن نوايا عدوهم في التفاوض مع حكومة « مشرفة » [٢] . واضاف ريتر الى ذلك قائلاً : وبما ان الاستسلام دون قيد او شرط قد اصبح الوسيلة الوحيدة للحصول على السلام لذا « لم يمتنع معظم الجنرالات عن تسنم المسؤولية المعنوية في الهزيمة بطردهم للديكتاتور الطاغية والحلول محله فحسب ، بـــل احجم عن ذلك كثير من المعارضين ..» [٣] وبهذا الشكل افلتت الفرصة السانحة في وضع حد للحرب قبل ان يستفيد الروس من انتصارهم في ستالينغراد .

٧ ــ القصف الاستراتيجي لالمانيا

وصف المستر تشرشل في ٢١ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٧ في مذكرة كتبهـــا الدور الذي يلعبه الطيران في الحرب ، قال تشرشل في هذه المذكره ما يلي :

---

(١) ذكرها تشامبرلان ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٢٨٠ .

(٢) غورليتز ، CORLITZ المرجع المذكور ، ص ١٣٤ .

(٣) ريتر ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٩ .

« ترتبط كل الهجمات على القواعد وخطوط المواصلات بالمعركة الرئيسية . ومن غير المنطقي الادعاء بأن الهجوم الجوي سينهي الحرب لوحده . وهناك احتمال ضعيف في ان يضطر الفزع الذي يسببه الهجوم الجوي في صفوف السكان المدنيين حكومة امة كبرى الى الاستسلام . فالاعتياد على الغارات الجوية ، ومنظومة من الخنادق والملاجىء الجيدة ، ورقابة حازمة تقوم بها الشرطة والسلطة العسكرية كافية للمحافظة على سلامة القوة الهجومية والدفاعية لشعب من الشعوب ، وفيما يتعلق بنا ، فاننا لاحظنا ان الغارات الجوية الالمانية قد أججت الروح القتالية لشعبنا بدلا من ان تحطمها . ونحن لا نعرف شيئاً عن قوة احتمال الشعب الالماني للمشاق بشكل تسمح لنا هذه المعرفة في الادعاء بان قوة الاحتمال هذه ستتعرض للذبول باستخدام طرق معينة ، او انها تتأكد وتقوى ، ويزداد تصميمها عناداً عند اليأس . لذا ينبغي ان توجه هجماتنا الجوية ، بناء على هذا ، ضد القواعد وطرق ومواصلات البنيان الذي ترتبط به القوة الهجومية والدفاعية لجيوشها ، واساطيلها ، وطيرانها . وكل اذى يلحق بالسكان المدنيين ، ناجم عن هجوم جوي ، ينبغي ان يعتبر ضرراً طارئاً ولا يمكن تحاشيه » (١) .

وفي ٢ من سبتمبر ١٩٣٩ ، في اليوم التالي للهجوم الالماني على بولونيا ، كانت الحكومات الفرنسية ، والانجليزية ، والالمانية ، متجاوبة مع نداء وجهه الرئيس روزفلت ، قد صرحت بانها ستقتصر الغارات على الاهداف العسكرية ، وفي ١٥ من فبراير (شباط) ١٩٤٠ ، كان المستر تشامبرلان قد صرح في مجلس العموم : « انه مهما كانت المبالغات واعمال التطرف التي سيلجأ اليها البعض ، فان الحكومة البريطانية لن تلجأ ابداً الى هجمات

---

(١)

H. A. JONES : The War in the Air, Appendices (1937), Appendice IV, p. 19.

دنيئة ضد النساء وضد المدنيين بقصد تخويفهم فقط »[١] . وبالرغم من هذه التأكيدات افتتح هتلر ، في اليوم التالي لتعيينه في مناصب رئيس الوزراء ما كان قد وصفه سابقاً بانه « تقدم رهيب حققه القصف الجوي للمدن المفتوحة[٢] وسمح بقصف مدينة فريبورغ — آن — بريسغو Fribourg-en-brisgau . وبحسب رأي سبايت M. J. M. SPAIGHT نحن (الانجليز) الذين بدأنا بقصف أهداف في الارض الالمانية قبل ان يبدأ الالمان بقصف اهداف في الارض البريطانية . وهذا الواقع واقع تاريخي »[٣] . وبهذا الشكل بدأ القصف الاستراتيجي او بالأحرى ، بدأ القصف اللااستراتيجي ، لانه لم يكن هناك اي مكسب تجنيه ، على المستوى الاستراتيجي ، من قصف مدينة جامعية .

وفي ٣ من سبتمبر (ايلول) ١٩٤٠ ، كتب تشرشل مذكرة اخرى يختلف مضمونها اختلافاً كبيراً عن مذكرته بتاريخ ٢١ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٧ ، قال فيها : « ان الطائرات المطاردة هي ضمانتنا ، لكن القاذفات اهي التي تزودنا لوحدها بوسائل الغلبة على خصمنا . بناء على هذا ، يجب ن نزيد من وسائلنا لنقل اكبر حمولة من المتفجرات ، في اجواء المانيا لسحق صناعتها سحقاً تاماً وبنيتها العلمية التي يرتبط بها الجهد الحربي والتنظيم الاقتصادي للعدو .... »[٤] .

---

(١)
Parliamentary Debates, 5e Série, Vol. 357, Col. 924.

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ١ ، ١ ، ص ١٦ .

(٣) كانت الاهداف اهدافاً مدنية . وكان المستر سبايت المدير المساعد لمكتب وزارة الحرب .

SPAIGHT : Bombing vindicated (1914), p. 68.

(٤) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ — ٢ ، ص ١٥١ .

ومنذ ذلك الوقت ، غدا السلاح الجوي الذي انتقل الى القيادة المباشرة لوزير الدفاع الوطني ، الجيش الخاص لتشرشل .

وقد سنده بقوة اللورد ترانشارد ، من المتعصبين لآراء دوهيه والمؤيدين لهـا . وقد كتب ترانشارد في ٢٩ من اغسطس (آب) ١٩٤٢ « مذكرة أمعن فيها التفكير .. تقترح تركيز الجهود على الغارات الجوية » . وقد قال فيهـا : « عندما نقرر العمل بتصميم ، وبتركيز جهودنا (على السيطرة الجوية) . لا نستطيع ان نوفر حياة الملايين فحسب ، بل يكون في وسعنا ايضاً تقصير مدة الحرب عدة اشهر ، وربما امكننا تقصيرها عدة سنوات ايضاً ... وكمـا استطاع العدو بحرب خاطفة قوامهـا المدرعات الانتصار على بولونيا وفرنسا ، فاننا نستطيع ، نحن ، ان نسحق آلة الحرب الالمانية بحرب خاطفة تقوم بها القاذفات » (١) .

ومهمـا كانت هذه النظرة مريبة ومبهمة ، الا انها كانت استراتيجية . غير انهـا كانت استراتيجية خدع بهـا تشرشل ، وترانشارد . وبعض انصار القصف الاستراتيجي . ذلك لانه ، حتى ولو قبلنـا بامكانية تطبيق نظرية دوهيه ، فان القصف الجوي ، لم يكن يملك ابداً في اي يوم من الايام ، القوة التدميرية الكافية ، قبل ظهور القنبلة الذرية ، لإنهاء الحرب بسرعة ، الا اذا ركزنا القصف التدميري على اهداف تتمتع بأهمية كبرى . وهناك خمسة انواع رئيسية من القصف :

١) **النوع العسكري** : وهو نوع لن نتوقف عنده لانه يرتبط بالقصف التكتيكـي .

٢) **النوع الصناعي** : وهو قصف المصانع المنتشرة في الرايخ على اختلاف

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٤ ــ ٢ ، ص ١٤٧ .

انواعها والتي قدرت مساحتهـــا بحوالي ٣٤٠ كم٢ . فتدمير هدف بهذه المساحة والسعة ، منتشرة بهذا الشكـــل ، وابقاؤه في حالة التدمير وذلك بمنع ترميمه او نقله او اقامته من جديد ، لا يشكـــل بأي حال من الاحوال نوعاً من الحرب الخاطفة . ان مثـــل هذه النتيجة تحتاج الى سنوات للوصول اليهـــا ، كما ثبت فعلاً ، وكانت تتطلب رقماً خيالياً من الطائرات .

٣) **النوع الحضري** : وهو قصف المدن وسكانها ، لاثباط عزيمتهم وتحطيم معنوياتهم ودفعهم الى التمرد .

٤) **نوع منابع الطاقة** : الفحم والبترول . فالاقتصاد الالماني مزود بالفحم بصورة جيدة ، غير ان القوات المسلحة بدون بترول لا تستطيع ان تعمل . ومن الصعب تدمير مناجم الفحم بهجوم جوي . وكل مـــا نجده متاحاً امامنا لشلها وتعطيلهـــا هو القيام بغارات مستمرة على خطوط السكك الحديدية التي تؤدي اليهـــا ، او تنطلق منها .

٥) **نوع النقـــل** ، وبخاصة السكك الحديدية التي ستشل المانيا شللا كاملا اذا ما ادى القصف الى جعلها غير قابلة للاستخدام .

من بين كل هذه الانواع ، كان النوعان الاخيران اهم انواع القصف الجوي . ومع ذلك لم تصبح هذه الاهداف ــ الاهداف الاولى في الحرب الا في العام الاخير من الحرب . امـــا من مايو (ايار) ١٩٤٠ الى مايو (ايار) ١٩٤٤ ، فكانت هذه الاهداف ، نادراً مـــا تقصف ، على حين كان من الواجب تركيز الهجمات الجوية كلهـــا عليها . وقد استمر قصف المدن بعنف متزايد الى نهـــاية الحرب .

وبالرغم من الغارات الجوية الكثيرة ، فان انتاج مصانع الحرب ازداد بصورة منتظمة بدلاً من ان يتضاءل . وكان احد اسباب هذه الزيادة هو : « ان تدمير المباني .. اي تدمير مباني المصانع لم يؤدي الى تدمير للماكينات

والآلات الاساسية ، تدميراً يتناسب مع التدمير الذي لحق بالمباني ، وبهذا الشكل استطاع العدو ان يرفعهـــا او يعوض عنها ، كما استطاع متابعة الانتاج بايقاع اسرع ممـــا كان مقدراً من قبلنا » (ص ١٨) (١) .

وقد سببت الهجمات على اهداف مدنية اضراراً مادية كبيرة . « فاثناء الفترة من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٩ الى مايو (ايار) ١٩٤٥ ، صبت القوات الجوية الحليفة ، والقوة الجوية الملكية البريطانية ، بصورة خاصة ، اكثر من نصف مليون طن من القنابل المتفجرة ذات الطاقة العالية ، الحارقة والمهشمة Brisante ... على ٦١ مدينة ... وكان تعداد سكان هذه المدن ٢٥ مليون نسمة ... وهناك تقدير بان الهجمات الجوية قد دمرت او الحقت اضراراً كبيرة في ٣,٦٠٠,٠٠٠ مجموعة سكنية تمثل ٢٠ ٪ من المساكن الالمانية ، وشردت ٧,٥٠٠,٠٠٠ شخصاً . وقد قتلت منهم ٣٠٠,٠٠٠ تقريباً ، وجرحت حوالي ٧٨٠,٠٠٠ (ص ٧٢) . « وقد قدر ان نسبة ٦٠ الى ٧٠ ٪ من برلين قد دمر .. وكانت ثلاثة ارباع الاضرار قد نجمت عن الحريق » (ص ٩٣) . وفضلا عن ان المعنويات هبطت هبوطاً مرعباً ، الا ان انحطاطها لم يكن له اي اثر من الناحية العملية على انتاج الاسلحة (ص ٩٧) ، ووصف ردّ الفعل النفسي للسكان ضد الهجمات الجوية ، كما يلي في التقرير :

« قاوم السكان الخاضعون لسيطرة نازية لا تعرف الشفقة ولا الرحمة ،

---

(١)

Strategic Bombing Survey, Overall report, European War.

ان هذه المعلومات مستقاة من (الدراسات عن الطيران الاستراتيجي القاذف للولايات المتحدة الامريكية . وهو التقدير العام عن الحرب في اوروبا) وقد طبع في عام ١٩٤٥ .

الفزع ، واظهروا مقاومتهم للاختبارات التي سببتهـا الغارات الجويـة المتكررة ، ولتدمير مساكنهم وممتلكاتهم ، ولشروط الحياة التي فرضت عليهم من جراء هذه الغارات . وقد قلت ثقتهم بقادتهم ، وانخفضت معنوياتهم وتضاءل ايمانهم بالنصر النهائي ... الا انهم استمروا في العمل بصورة فعالة طيلة الوقت الذي بقيت فيه وسائل الانتاج سليمة . فقوة الدولة البوليسية على شعبهـا ، لا يمكن التقليل من قيمتهـا » (ص ١٠٨) .

وفي مطلع عام ١٩٤٤ ، عندما كانت اعدادات غزو النورماندي في حيز التنفيذ ، طرح سؤال يتضمن معرفة افضل الاهداف التي ينبغي ان توجه اليها ضربات الطيران القاذف للقوة الجوية الملكية ، وللطيران الاستراتيجي الامريكي وقد توصلوا الى الاستنتاج بمنح هذه الافضلية لوسائل النقـل ، ولمنشآت انتاج المحروقات التركيبية . وبهذا الشكل اصبح القصف الاستراتيجي اخيراً استراتيجياً حقاً ، وتحققت فيه الشروط التي عرضها تشرشل في مذكرته في ٢١ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٧ .

واثناء هذه المرحلة التحضيرية للغزو ، كان الهدف الرئيسي للطيران هو تقويض كل حركة تتم بالسكك الحديدية بين المانيا والنورماندي ، ومن ثم عندما تحركت الجبهة الى الشرق ، كان هذا الهدف هو مهاجمة السكك الحديدية والقنوات المتجهة الى المانيا . وفي اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٤ كانت حركة السير قد شلت شللا كاملاً في المانيا الغربية . وكانت نتائج هذا الشلل سيئة جداً في توزيع الفحم . ونقرأ في التقرير الامريكي ما يلي :

« نقص عدد عربات السكك الحديدية المحملة بالفحم ، في منطقة ايسن من ٢١,٤٠٠ عربة يومياً في يناير (كانون الثاني) ١٩٤٤ الى ١٢,٠٠٠ في سبتمبر (ايلول) ... وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ، نقص عدد العربات

المشحونة بالفحم لمصانع بافيير الى ٥٠ ٪ ... وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٤٥ ، هبط التموين بالفحم في منطقة الروهر الى ٩٠٠٠ عربة يوميـــاً . وقد توقف في النهاية في فبراير (شباط) توقفاً تاماً . فقد صادرت هيئة السكك الحديدية الفحم المشحون لتستخدمه كمحروقات لقاطراتها .. وفي الفترة ذاتهـــا ، ارتفع استثمار المناجم الى مستوى أعلى من استثمار وسائل النقل ، فقد بلغ احتياطي الفحم في مناجم الروهر ٢,٢١٧,٠٠٠ طن بعد ان كان ٤١٥,٠٠٠ طن في نفس الفترة (صفحات ٦٣ ، ٦٤) .

وقد جرت هجمات اولية تمهيدية في مايو (ايار) ١٩٤٤ على اكبر مصانع المحروقات التركيبية ، ولكن الهجوم الرئيسي لم يشن الا ، بعد الانزال في النورماندي في يونيو (حزيران) . في يوليو (تموز) توصل الطيران الى اصابة كل المؤسسات الهـــامة . فقد انتجت هذه المؤسسات ٣١٦,٠٠٠ طن شهرياً . وفي يونيو (حزيران) نقص مردودها في محروقات الطيران من ١٧٥,٠٠٠ طن في ابريل (نيسان) الى ٣٠,٠٠٠ في يوليو (تموز) والى ٥٠٠٠ في سبتمبر (ايلول) . وقد شلت هذه الهجمات ايضاً صناعات الذخائر والمتفجرات ، وخفضت من صناعة المطاط التركيبي الذي نقص الى سدس حده الاقصى الذي وصل اليه ايـــام الحرب تقريباً ، وهو ١٢,٠٠٠ طن شهريـــاً .

وتبعـــاً لهذه الارقام ، نرى ان الهجوم الجوي ضد المانيا لم يصبح عملية استراتيجية حقـــاً الا عندما وجه ضد منابع الطاقة وضد وسائل التوزيع . ولو انهم ، اقتصروا منذ البدء ، عمليـــات القصف على هذه الاهداف فقط ، لكان من الممكن القيام بعمليات توفير كبرى ، ولأمكنهم استثمار الاموال المصروفة على ضرب هذه الاهداف في انتاج زوارق الانزال ، وطائرات النقـــل ، التي كانت تعاني نقصاً في الانتاج طيلة مدة الحرب .

وتبعاً للتقرير الامريكي Survey ، كان الوزن العام لعدد القنابل التي القيت في اوروبا من قبل الطيرانين الانجليزي والامريكي ٢,٧٠٠,٠٠٠ طن ، سقط منها ٣٠,٥ ٪ على اهداف عسكرية و ١٣,٥ ٪ على مراكز صناعية ، و ٢٤ ٪ على مدن ، و ٣٢ ٪ على السكك الحديدية ، والقنوات ومصانع انتاج المحروقات التركيبية (ص ٧١) . بناء على ذلك ، لو استثنينا الاهداف العسكرية لاحظنا ان اكبر حمولة من اطنان القنابل القيت على اهداف من الدرجة الثانية (صناعات ومدن) اكثر من اهداف الدرجة الاولى (سكك حديدية ومصانع المحروقات التركيبية) . وتعزى هذه النتيجة الى الرغبة المجنونة لتشرشل في قتل الالمان ، او ، بحسب الكلمة التي نسبوا اليه قولها : « ان نفعل كل شيء حتى يحترق العدو وينزف دمه » [(١)] .

وبحسب التقرير الامريكي Survey ، خصصت انجلترا من ٤٠ الى ٥٠ ٪ من انتاجها الحربي لقواتها الجوية ، وخصصت الولايات المتحدة ٣٥ ٪ . ولم يكن هناك بالتالي إلا نسبة ٥٠ الى ٦٠ ٪ كانت مخصصة للقوات البرية والبحرية البريطانية مجتمعين . وبصورة تماثل هذه النسب أعلم السير جيمس غريغ James Grigg وزير الحرب مجلس العموم عندما كان يقدم ميزانية الجيش في ٢ من مارس (آذار) ١٩٤٤ ان « خطة انتاج الطائرات للقوة الجوية الملكية البريطانية تستخدم ، منذ الآن ، يداً عاملة اكبر من اليد العاملة المستخدمة في خطة الجيش البري ، واني أراهن انه سيكون هناك عمال مستخدمون في انتاج القاذفات الثقيلة ، اكثر بكثير من العمال الموجودين في خطة الجيش كلها » [(٢)] . وكيفما كانت هذه الارقام ، فقد بُدِّدت

---

(١) التايمز اللندنية ، ٢ فبراير (شباط) ١٩٤٣ . The times

(٢)

Parliamentary Debates, 50 série, vol. 397, col. 1602.

بكرم في عملية كان تشرشل قد وصفها من قبل « الرعب التجريبي » [١] .

مهندسوا المأساة

لم تكن هزيمة قوات المحور في معركة تونس من ٦ الى ١٢ مايو (ايار) اقل في اهميتها الا من مأساة الالمان في ستالينغراد . فقد انهت معركة تونس الحرب في افريقيا الشمالية وفتحت طريق صقلية التي غزتها القوات الانجلو ـ امريكية في ١٠ من يوليو (تموز) . وبعد خمسة عشر يوماً ، حدث تمرد في القصر الملكي الايطالي ادى الى سقوط موسوليني في روما ، ومنذ ذلك الوقت ، وحتى ٢ من سبتمبر (ايلول) ، اتاحت المناقشات المحتدمة بين خلفه المارشال بيترو بادوغليو ، والحلفاء الغربيين حول تعبير « الاستسلام غير المشروط » ، لهتلر الوقت الكافي كي ينقل ١٣ فرقة الى ايطاليا وليحول ما اطلق عليه تشرشل « البطن الرخو » للمحور الى ظهر تمساح [٢] .

وفي ١٧ من اغسطس (آب) ، في الوقت الذي كانت فيه المناقشات محتدمة في ذروتها ، انعقد المؤتمر الاول في كيبك . واعطى الافضلية لعملية « اوفرلورد » وحدد ١ من مايو (ايار) ١٩٤٤ كموعد لغزو شمال فرنسا .

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ١ ـ ١ ، ص ٢١٩ .

(٢) كان تشرشل قد اعلن في كازابلانكا ان « الاستسلام غير المشروط » كان « عظيماً » ، ولكنه في ٩ من اغسطس (آب) غير فكره ، وفي برقية وجهها الى وزير خارجيته ، كان يعارض قائلا : « اننا بتصميمنا على الحصول على « استسلام غير مشروط » دون ان نولد اصلا بمعاملة اكثر كرماً .. لا نحصل على استسلام الكل » .
(تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً . جزء ١ ، ص ٩٩) .

وبالرغم من معارضة الانجليز ، قُبِلَ موقتاً اقتراح امريكي جديد . وينص هذا الاقتراح على القيام بعلمية انزال على شاطىء بروفانس بقوات تسحب من جيش ايطاليا . وقد تلقت هذه العملية الاسم الكودي « آنفيل » .

وهناك خبر تفصيلي لم يشر اليه تشرشل ، كما لم يتطرق اليه المارشال آلانبروك ، ولكنه مذكور في تقرير المؤتمر الذي وضعه شيروود ، وهذا الخبر وهو « وثيقة بعنوان » : « وضع روسيا » ، مستقى من دراسة استراتيجية وضعت في الدوائر العليا للقيادة الامريكية » . وقد قدمه هوبكنز الى المؤتمر ، وأنّى كانت مصادر هذا التقرير [1] فان فكرته العامة كما اشار شيروود ، تصوغ « السياسة التي كان ينبغي ان توحي بالقرارات المتخذة في طهران ، وفي مالطا ، فيما بعد » .

ويعطي شيروود من هذا التقرير المقاطع التالية :

« سيكون موقف روسيا بعد الحرب في اوروبا موقفاً راجحاً . فبعد سحق المانيا ، لن يكون هناك دولة في اوروبا قادرة على موازنة طاقتها العسكرية . حقاً ، ان بريطانيا العظمى في طريقهـا الى تشكيل موقع في البحر الابيض المتوسط قبالة روسيا ، قد تفيد منه للمحافظة على توازن السلطة في اوروبا . ومع ذلك فانها لن تكون قادرة على الوقوف في وجه روسيا ، حتى في هذه النقطة ، الا اذا كانت مدعومة من دولة اخرى » .

---

(١) ان الافكار التي يعبر عنها هذا التقرير تتشابه بصورة ملحوظة مع افكار المذكرة السابقة التي اعدها الجنرال جيمس ه. بيرنز **James H. BURNS** لهوبكنز . ويرى شيروود ان هذه المذكرة « كانت عرضاً رائعـاً للآراء الشخصية لهوبكنز فيما يتعلق بالعلاقات مع الاتحاد السوفييتي » (شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ١٧٩) .

ويبدو ، بالتأكيد ، ان هوبكنز هو الذي اوحى بافكار هذه الوثيقة ، على الاقل ، ان لم يكن هو الذي صاغها .

والاستنتاج الذي يفرض ذاته هو : بما ان روسيا هي العامل الحاسم في هذه الحرب ، اذن ينبغي اعطاؤها كل الدعم الممكن واستخدام كل الوسائل للحصول على صداقتها . وبما انها ستسيطر من غير شك على اوروبا بعد هزيمة المحور ، فمن الحيوي ايضاً ان نقيم معها فيما بعد افضل علاقات الصداقة ، وأن نحافظ عليها » .

« واخيراً ، **فان أهم اعتبار بالنسبة للولايات المتحدة فيما يتعلق بروسيا ، هو متابعة الحرب في الباسيفيكي**. فاذا اصبحت روسيا حليفتنا ضد اليابان ، أمكن انهاء الحرب بسرعة اكبر ، وتخف بهذا الشكل الخسائر في الارواح البشرية وفي العتاد . اما اذا اتخذت روسيا موقفاً غير ودي او سلبي ازاءنا ، تزداد مصاعب الحرب ومشاقها في الباسيفيكي ، وقد تتعرض العمليات للاخفاق [١] .

وكيفما كانت جذور هذه الافكار ، فانها تتطابق وتتفق تماماً مع « شعور » الرئيس . فهي تنصح باتباع سياسة تهدئة الى اقصى الحدود . وليست هذه السياسة سياسة دولتين اخذتا على حين غرة ، مهددتين بدولة ثالثة افضل منهما استعداداً وعدة ، كما جرى في ميونيخ . انها كانت سياسة اكبر دولتين صناعيتين في العالم ، كانتا تقتربان في ذلك الوقت من انهاء إعادة تسليحهما ، ازاء شريك مشكوك ، فيه أعيته الحيلة خلال اكثر من عامين خاض خلالهما حرباً شرسة . خاضع لمساعدتهما للمحافظة على جيوشه في الميدان . والواقع ان وضع روسيا في اغسطس (آب) ١٩٤٣ كان مخالفاً تماماً للوضع الذي وصفته وثيقة هوبكنز .

---

(١) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ٢٨٢ .

وان قبول الرئيس لسياسة الخضوع ، هذه دون روية أمر مفهوم ، ولكن الامر الذي لا يمكن تفسيره ان تشرشل لم يرفضها بعنف . فقد قال تشرشل في ٢١ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٢ لوزير خارجيته ان مأساة لا حدود لها ستقع ! اذا ما سيطرت البربرية الروسية على اوروبا ، واغرقت ثقافة الدول الاوروبية القديمة وقضت على استقلالها » (١) . ومع ذلك ، وبعد ثلاثة اشهر ،طار تشرشل من كازبلانكا الى اضنه،وذهب لاقناع سرار كوغلو رئيس وزراء تركيا ، بالدخول في الحرب بحجة ان نوايا روسيا سلمية واخوية ، وانه لن يكون صديقه اذا ما فكر بتقليد المانيا (٢) .

وبعد مؤتمر كيبك ، بدأ البلقان يحتــل مكاناً هاماً في ذهن تشرشل . وقد روي انه لم يكن يريد ابداً ارسال جيش الى البلقان (٣) ، كمـــا انه لم ينوي ابداً منع احتلال روسيا المحتمل للبلقان ، لانه قال للمستر فيتزروي ماكلين ، عضو البرلمان الذي ارسله الى يوغوسلافيا على رأس بعثة رسمية : « طالما بقيت الحضارة الغربية مهددة بالنازيين ، لن نستطيع ان نسمح لأنفسنا بتحويل انتباهنـــا عن النتيجة المباشرة باعتبارات سياسية ذات امد طويل ... وينبغي ان نعتبر السياسة كأداة ذات اهمية ثانوية » (٤) ومع ذلك فقد كانت تلميحاته الدائمة عن البلقان ترعب رؤساء هيئات الاركان الامريكية . وبحسب رأي

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٤ — ٢ ، ص ١٥٧ .

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٤ — ٢ ، ص ٣٤ .

(٣) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٥ — ١ ، صفحات ١٢٦ — ٢١٠ وجزء ٥ — ٢ ، ص ٧ .

(٤)

FIIZROY MACLEAN : Eastern Approches (1950) p. 281.

شيروود ، قبـــل اول مؤتمر من المؤتمرات الثلاثة الكبرى التي تمت في طهران ، حوالي أواخر نوفمبر ١٩٤٣ « كان الامريكيون يستعدون لشن معارك ... يشكل فيهـــا الامريكيون والروس جبهة موحدة » [١] وينبغي بناء على ذلك ان نحمل الرئيس ومستشاريه اكبر جزء من خيانة اوروبا [٢] .

وها هي اهم المسائل التي نوقشت في هذه الاجتماعات :

١ — « اوفرلورد » و « آنفيل » . وقد صرح ستالين بأن « اوفرلورد » كانت اهم كل المسائل العسكرية واكثرها حسمـــاً وبأنه لن يتساهل أبداً في معارضته لاقتراح تشرشل بالتقدم الى فيينا عن طريق ثغرة ليوبليانا ، ولكل محاولة اخرى تتم عن طريق البلقان او في تركيا .

٢ — بولونيا ، وقد صرح تشرشل قائلا : « ليس هناك اهم من امن الحدود الغربية لروسيا وينبغي على بولونيا ان تتنازل عن كل الارض الواقعة الى الشرق من خط كورزون Curzon وان تنتقـــل حدودها الى الغرب في المانيا . « فاذا ما سحقت بولونيا بعض الاصابع الالمانية ، فتلك خســارة مقبولة » [٣] . ولن يتحطم قلبه ايضاً لانضمام جزء من المانيا الى بولونيا ، حتى ولو كان هذا الضم يعني نقل ما يوازي من ٩ الى ١٠ مليون من الاشخاص. ان مثل هذه التدابير تبطل ميثاق الاطلنطي والضمانة المعطاة من انجلـــترا لبولونيا في عام ١٩٣٩ .

٣ — البلقان — وقد أبرز تشرشل أهمية البلقان ، والح على ان تمنح كل

---

(١) شيروود ، المرجع المذكور ، جزء ٢ ، ص ٣١١ .

(٢) كان كوردل هول وزيراً للخارجية ، لانه كان معتبراً ضد الروس ، غير ان هوبكنز كان يعمل في الواقع لصالحهم ، وكان موجوداً في طهران .

(٣) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ٣٧ .

المساعدات لأنصار تيتو في يوعوسلافيا ، وان تسحب من انصار ميخائيلوفيتش الذين كانوا معادين للبلاشفة . وقبل هذا الاقتراح ونفذ في ديسمبر (كانون الثاني) [١] .

٤ — فنلندا — واعطى تشرشل الحق « لروسيا في الحصول على ضمانات لأمن لينينغراد وكل مناطق التقرب منهـــا » ، كما أيد « تدعيم موقف الاتحاد السوفييتي كقوة بحرية وجوية دائمة في بحر البلطيق » [٢] . وكمـــا جرى بالنسبة لبولونيا ، لم يلمح ابداً . الى الهجوم الروسي الذي تم في عام ١٩٣٩ ضد فنلندا ، دون ان ترتكب فنلندا اي عمل من اعمال الإثارة والتحريض ، وكان ستالين يطالب بعودة اتفاقية ١٩٤٠ ، وبالتخلي عن هانغو **HANGO** وبتسانو **PETSANO** وبتعويضات عينية لا تقل عن ٥٠ ٪ عن اضرار الحرب.

٥ — المانيا — وقد درست مشكلة المانيا مطولا وبامعان . وكان ستالين يريد تقطيع اوصالها ، الامر الذي وافق عليه الرئيس بحمية وحماسة . وقد اقترح تقسيمها الى خمسة اجزاء مستقلة ، الا انه استثنى كييل ، وقناة كييل ، وهامبورغ ، والروهر ، والسار وطالب بوضعهـــا تحت ادارة الامم المتحدة . اما تشرشل فكان يعتبر بروسيا ، والجيش البروسي ، وهيئة الاركان العامة مصدراً لكل الشرور . وقد بدا انه نسي ان هيئة الاركان العامة الالمانية كانت

---

(١) وبعد اربعة اشهر كتب تشرشل الى وزير خارجية انجلترا يقول : « منذ ان ناقشنا هذه المسائل في القاهرة ، رأينـــا وصول وفد روسي ضخم الى المقر العام لتيتو وربمـــا كان من المحتمل ايضاً ان السوفييت سيعملون بحزم في خلق يوغوسلافيا شيوعية بزعامة تيتو ، وسيشنون الهجوم ، ويتهمون كل من سيحاول منعهم من تحقيق ذلك « بالمعاداة للديموقراطية » (تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٥ — ٢ ، ص ١٥٣) .

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٥ — ٢ ، ص ٧٢ .

دوماً معارضة للنظام الهتلري . وطالب بعزل بروسيا ، وبانفصال البافيير ، وفيرتنبرغ ، والبالاتينا ، والساكس ، وبلاد باد ، وبإنشاء (كونفيدراسيون » سلمي يجمع بين البافيير ، والنمسا ، وهنغاريا . وقد استنكر ستالين وعارض انشاء هذه المنظمة لدول الدانوب ، ووافقه الرئيس على ذلك .

٦ — اليابان — وقد طمأن ستالين الرئيس بان الولايات المتحدة لن تخشى أحداً في الباسيفيكي ، نظراً لان الاتحاد السوفييتي سيعلن الحرب على اليابان عند هزيمة هتلر . وقد اعجب هذا الوعد الرئيس ورؤساء اركانه كثيراً ، حتى أن الرئيس ، اعترافاً بذلك ، وبدون ان يعلم تشرشل ، ناقش مع ستالين امكانية اقامة جبهـــة مشتركة ضد الانجليز ، واقترح عليه دعم مطالب تشانغ — كاي — تشيك ، في هونغ كونغ وشانغاي، ازاء رئيس الوزراء البريطاني . وتذاكر بالاضافة الى ذلك مع ستالين« بامكانية حصول روسيا على حق المرور في ميناء داريان ، في منشوريا » [١] ، مع أنه كان ارضاً صينية بين قوسين .

وفي النهاية ، لم يتفقوا بصورة رسمية الا على بعض الاشياء . الا انهم مع ذلك وضعوا بذور الخراب في اوروبا .

وقد كتب شيستر فيلموت : « ولا يقل عن ذلك صحة ان الدول الغربية ، التي كان الروس يدفعونها ، والامريكيون يجرونها ، كانت تملك استراتيجيتها العامة البعيدة عن منطقة المطامح الروسية . وحتى قبل مؤتمر طهران ، كان توسع الاتحاد السوفييتي حقيقة تتضمن كل معـــاني التهديد . فمؤتمر طهران لم يحدد اذن الاستراتيجية العسكرية لعـــام ١٩٤٤ فحسب ، بل انه ايضاً ،

---

(١) شيروود ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٢ ، ص ٣٣١ .

رجح الميزان على الارض السياسية لاوروبا ما بعد الحرب ، لصالح الاتحاد السوفييتي » [١] .

٩ ــ الاستسلام امام الروس

ومن ٣ سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ ، وهو التاريخ الذي قام فيه الحلفاء بالانزال في احد اصابع « الجزمة » الايطالية ، كان صعود الجزيرة الايطالية بطيئاً جداً . حتى ان روما لم تحتل الا قبل يومين من الانزال الذي تم في النورماندي في ٦ من يونيو (حزيران) ١٩٤٤ . وبسبب النقص في مراكب الانزال ، تأخر غزو جنوب فرنسا (عملية « آنفيل ») حتى ١٥ من اغسطس (آب) ، في الوقت الذي لم يكن لها اية فائدة للعملية الرئيسية (اوفرلورد) . وفي هذا الوقت ، كان الالمان سيهزمون بصورة حاسمة في النورماندي في معركة فاليز . وفضلاً عن ان عملية التشتيت هذه كادت تؤدي الى اخفاق معركة السير هارولد الكسندر في ايطاليا ، فان ايزنهاور ورؤساء الاركان الامريكيين قد الحوا على تنفيذها . وقد أيدهم الرئيس ودعمهم . واجاب عندما وجه تشرشل وجنرالاته في ايطاليا النقد لهذه العملية ، في ٢٩ من يونيو (حزيران) ١٩٤٤ قائلاً ما يلي :

« بما اننا قد اتفقنا في طهران على تنظيم عملية « آنفيل » ، فاني لا استطيع ان اقبل اية خطة عمل تتضمن استبعاد هذا الانزال دون استشارة ستالين .... واخيراً لاسباب سياسية محضة ولاسباب تتعلق بأمور داخلية « الانتخابات الرئاسية » ، فانني لن ابقى على قيد الحياة لحظة واحدة لو تعرضت عملية

---

(١) Chester Wilmot : La lutte pour l'Europe, édition Française (1953), p. 181.

« اوفرلورد » لأي اخفاق واذا ما علمت بان قوات هامة تحولت الى البلقان[١].

بهذا الشكل رفض اقتراح تشرشل — الذي لم يكن له اية صلة بالبلقان وهو الاقتراح المتضمن استخدام جيش ايطاليا « في المسير الى فيينا عن طريق ثغرة لوبليانا »[٢] ، بدلا من تحويل جزء كبير من القوات نحو جنوب فرنسا . وبهذا الاقتراح ، اضمحل آخر امل بهزيمة الالمان قبل ان يتمكن الروس من اختراق الحدود الشرقية لالمانيا .

وقد كتب الجنرال برادلي يقول : « في مطلع سبتمبر (ايلول) ، كانت القوات التي يملكها العدو في يونيو (حزيران) على الجبهة الغربية ، قد تضاءلت الى حد كبير ، تفكك تنظيمها . »[٣] ولم يكن من الممكن اجراء المطاردة للقوات المعادية ، لا لأن ايزنهاور كان يفتقر الى قطعات تقوم بها ، بل لانه لم يكن يملك محروقات كافية لتأمين حركية اعداد ضخمة كانت تحت تصرفه . فبدلاً من تقصير جبهة قتاله ، كما كان مونتغومري يضغط عليه لذلك ، قرر إبطاء تقدمه والاستعداد لشن معركة كبيرة اخرى على طول مساحة جبهته . وقد اعطت هذه المهلة الزمنية الوقت للالمان للتنفس واعادة التنظيم .

وبالاضافة الى ذلك ، قدم المستر هنري مورجانتهو وزير مالية الولايات المتحدة ، اثناء المؤتمر الثاني الذي عقد في كيبك ، بتاريخ ١٠ من سبتمبر (ايلول) ، خطة لنزع سلاح المانيا بعد الحرب ، وذلك لشل استراتيجية الحلفاء . وقد صاغ جزء كبيراً منه هنري ديكستر هوايت ، الامين العام

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٤ — ١ ، ص ٦٥ و ٤٠٩ .

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٤ ، ص ٦٦ .

(٣) الجنرال عمر برادلي : تاريخ جندي

Histoire d'un soldat, édition française (1952) p. 330.

المساعد لمورجانتهو . الذي مثـــل امام اللجنة الفرعية للامن في مجلس الشيوخ ، ويشك بانه عميل للسوفييت [١] . وكان هدف هذه الخطة هدم او تدمير كل المنشآت الصناعية التي بقيت سليمة رغم العمليات العسكرية ، وتوقيف استثمار مناجم الروهر والسار وتحويل المانيا من دولة كانت صناعية الى دولة زراعية ، والى دولة تربي المواشي . وقد قبل الرئيس والمستر تشرشل الخطة ، ونشرت في ٢٤ من سبتمبر (ايلول) [٢] . ويبدو ان هذه الخطة قدمت تعريفاً مفصلاً لمعنى الاستسلام غير المشروط كمـــا ان هذه الخطة حظيت بمكانتهـــا لانها اقنعت ملايين الالمان المعارضين للنظام النازي ، بان من الافضل لهم ان يموتوا وهم يقاتلون تحت اوامر هتلر ، بدلا من ان يقبلوا سلماً قرطاجنيـــاً .

وادى نقـــل الدم المجاني هذا ، والذي لايتضمن اي محتوى ، ويسير بالتوازي مع استراتيجية الجبهة المتسعة لايزنهـــاور ، الى سلسلة من الاشتباكات اليائسة على طول ٥٥٠ كم جبهـــة من نيميغ الى كولمـــار ، عندما كشف الهجوم المضاد لهتلر في الأردين بوضوح في منتصف ديسمبر (كانون ثاني) افتقار الجنرال ايزنهاور الى الكفاءة . وبالرغم من ان هذا الهجوم المضاد اخفق ،

---

(١)

CHESLEY MANLY: The Twenty year révolution, pp. 102-103.

(٢) وجه لهذه الخطة نقد كبير ، ثم عدلت . ويحكي ستيمسون وزير حربية الولايات المتحدة انه عندما قرأ للرئيس المقاطع المتعلقة بتحويـــل المانيا الى بلد زراعي : « اهتز لذلك وصرح بانه لا يعرف كيف استطاع اتخاذ هذه المبادرة ، وبالطبع ، اتخذها دون ان يفكر فيهـــا ملياً :

Henry L. STIMSON et MACGEORGE BUNDY : Faut-il recommencer la Guerre ? (édition Française (1949) p. 377.

ويقول تشرشل الشيء ذاته عن نفسه (تشرشل المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٤ — ١ ص ١٦١) .

غير انه كلف الحلفاء ٧٧,٠٠٠ جندي ، وخسارة هيبتهم ، واثر ذلك على ستالين فاستغـــل الفرصة لقبول اجتماع آخر للثلاثة الكبار ، في حين كان الانجليز والامريكيون في وضع حرج ، وكان الرئيس روزفلت يرجوه دوماً وبالحاح لحضوره بعد اعـــادة انتخابه للمرة الثالثة . وبمـــا ان هتار قد زج بكل قواته الاحتياطية في هجوم الاردين ، قرر ستالين البدء بحملة الشتاء للجيوش الروسية في منتصف يناير (كانون الثاني) . وكان يـــأمل في وقت اجتماع الثلاثة الكبار ان تكون جيوشه قد اجتاحت كل بولونيا لكي يصبح قادراً على المثول امام حلفائه مع الامر الواقع . وهذا مـــا حدث لانه في ٤ من فبراير (شباط) ١٩٤٥ ، وهو اليوم الذي اجتمع فيه الثلاثة الكبار في يالطا ، في شبه جزيرة القرم ، كان المارشالات الروس قد وصلوا بجيوشهم الى الأودر .

غادر الرئيس امريكا الى القرم وهو مشبع بكثير من الامل ، وبقلة من التحضيرات [١] . وكانت الحرب تقترب من نهايتهـــا ، وقد حانت اللحظة للتأكد من التعاون الصادق لستالين في منظمة الامم المتحدة . وقد بدا لروزفلت ان هذا التعاون سهـــل المنال ، لانه لم يكن يرى تضارباً اساسياً في المصالح بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية . وكذلك ، اذا كان تشرشل امبرياليـــاً في دمه ، فان ستالين لم يكن من هذا الطراز كمـــا كان ستالين نفسه يؤكد ذلك بمنتهى السذاجة ، ولكي يستطيع الرئيس تصفيـــة الامبراطوريات الانجليزية ، والفرنسية ، وامبراطوريات البلاد الواطئة في آسيا ، كان محتاجاً لمعونة الاتحاد السوفييتي . وكان محتاجاً ايضاً لدعم ستالين للخلاص من اليابانيين ، لان رؤساء اركانه قد انذروه بان احتلال اليابان ،

---

(١) راجع :

James F. Byrns : Speaking Frankly p. 23.

بدون معونة الروس ، سيكلف الولايات المتحدة « اكثر من مليون جندي خارج القتال » [١] . وبناء على هذا ، كان قد قرر قبـــل انعقاد المؤتمر ، ان يمنح ستالين حرية العمل الكاملة في اوروبا **تعويضاً عن ذلك** .

ونظراً لواقعية ستالين ومثالية الرئيس — كان الرئيس محاطاً بهـــاري هوبكنز كمستشار وبالغار هيس ، من وزارة الشؤون الخارجية ، وهو عميل سري للسوفييت ، من بين عدد آخر من المستشارين — انتهى مؤتمر يالطا الى « سوبر مونيخ » .

اذ تقرر في هذا المؤتمر تقسيم المانيا الى مناطق محتلة ، يتمركز في كل منهـــا جيش حليف [٢] ، ينفذون الاستسلام غير المشروط ، ويفرضون العمل الاجباري ويستدركون ٢٠ مليار دولار من التعويضات التي ستتسلم روسيا نصفهـــا .

وعندما قبـــل ستالين المشاركة في مؤتمر الامم المتحدة الذي انعقد في سان

---

(١) المرجع المذكور سابقاً ص ٤١٤ . Stimson et Bundy

(٢) فبرلين ، التي كانت في صلب المنطقة السوفييتية « ينبغي ان تدار من هيئـــة قيادة مؤلفة من ضباط يعينهم القواد العامون لمناطقهم ، ليقودوا معـــاً » . وبناء على هذا فمن حق الامريكيين والانجليز والفرنسيين ان يدخلوا الى المدينة في حرية تامة ، وبقدر مـــا يحتاجون الى ذلك . « الا ان ... وزارة الحرب الامريكية (او فرعـــاً منها على الاقل) فكر بعدم فائدة تحديد طرق الدخول والخروج ... (و) انها ستحدد بصورة افضل .. من قبل قواد المناطق ، عندما ستكون المعلومات عن حالة الطرق ، والسكك الحديدية والاشياء الاخرى من النوع ذاته . وقد بقي هذا الموضوع معلقاً » .
(Herbert Feis: Churchill, Roosvelt and Stalin (1957) p. 533.

فرانسيسكو في ابريل (نيسان) ، كان الروس قد بلعوا بولونيا التي دخلت بريطانيا العظمى الحرب حفاظاً على سلامتها . وكانت حدودها الشرقية قد حددت بالتقريب على خط كورزون . اما حدودها الغربية فقد قدمت موقتاً الى الاودر والى النيس الغربي . واضطر الحلفاء للاعتراف بلجنة لو بلان التي كان اعضاؤها صنائع للسوفييت ، والتي اعلنت روسيا تشكيلها ، في ٣١ من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٤ « كحكومة موقتة لبولونيا الديموقراطية المتحررة » . وذلك بعد ان اعيد تشكيلها من جديد بعد ابعاد بعض اعضائها . وبعض اعضاء حكومة المنفى ، وقد قبلوا الاعتراف بها شريطة اجراء انتخابات حرة ، الا ان هذه الانتخابات لن تتم تحت اشراف مراقبين حياديين .

ثم ضمن الرئيس في مفاوضات سرية استبعد عن حضورها تشرشل مساعده ستالين في المعركة ضد اليابان . وبالمقابل ، قبل الاعتراف **بالوضع القائم** لمنغوليا الخارجية وعودة كل الاراضي التي خسرتها روسيا في عام ١٩٠٤ ١٩٠٥ ، والجزء الجنوبي من جزيرة سخالين وجزر الكوريل . ووافق على اشراف روسيا مع الصين على السكك الحديدية والشرقية ، وجنوب منشوريا . ويبدو ان الرئيس نسي مفهوم الامبريالية كما نسي ميثاق الاطلنطي لان كثيراً من هذه الاراضي كانت صينية .

كانت جيوش ايزنهاور تتقدم الى الراين اثناء المؤتمر ، ولكن لم تعبره الا في ٢٣ من مارس (آذار) . عندما قام بعبوره الجيش الامريكي الثالث ، بقيادة الجنرال جورج س. باتون في اوبنهايم . وفي اليوم التالي ، عبرته مجموعة الجيوش البريطانية ٢١ والجيش الامريكي التاسع في ويسل .

وفي ١٣ من ابريل (نيسان) عندما استسلم المارشال مودل و ٣٢٥,٠٠٠ ضابط وجندي في الروهر ، كان طريق برلين مفتوحاً . وكان المارشالان

جوكوف وكونييف مـــا زالا على الاودر والنيس ، الا ان فيينا كانت قد سقطت بين يدي المارشال مالينوفسكي . وكانت الضرورة تلح على ان يتقدم الجنرال ايزنهاور باسرع ما يمكن ، نظراً لان الروس قد خرقوا كـــل الشروط الهامة لاتفاق يالطا او تجاهلوها ، وكان هذا الاتفاق قد وضع موضع الاختبار . فاذا احتلوا الانجلو امريكيون براغ وبرلين ، فان الولايات المتحدة وبريطانيا تصبحان في وضع يسمح لهمـــا بالالحاح بحزم كي يحترم الروس تعهداتهم . وقد قال تشرشل مـــا يلي : « اذا لم نرمم الوضع ، فان العالم لن يتأخر عن فهم ان المستر روزفلت وانـــا وقعنا بياناً مزوراً ووضعنا امضاءاتنا في آخر الاتفاق الذي تم في القرم » [١] .

وقد كان ايزنهاور ، هذا الجندي الذي لم يكن ابداً تلميذاً لكلاوزفيتز يفكر بصورة مختلفة كل الاختلاف . فقد كتب في تقريره ما يلي : ان العوامل العسكرية ، في الوقت الذي كان العدو فيه على ابواب الهزيمة النهائية ، كانت في نظري اهم بكثير من الاعتبارات السياسية التي يضمنهـــا استيلاء الحلفاء على العاصمة . فقد كان الدور الذي ينبغي ان تقوم به قطعاتنـــا هو سحق الجيوش الالمانية بدلا من تبديد قواتنا في احتلال مدن فارغة تحولت الى خرائب » [٢] . وكانت النتيجة ، في ١٤ من ابريل (نيسان) ١٩٤٥ ، اي بعد موت روزفلت بيومين ، ان اوصى هاري ترومان خليفـــة روزفلت ، ايزنهاور بايقاف قطعاته على الالب ، وبالتخلي عن برلين وبراغ للروس .

---

(١) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٤ ــ ٢ ، ص ٧٧ .

(٢) الجنرال دوايت ايزنهاور :
Les opérations en Europe du corps expéditionaire allié du 6 juin 1944 au 8 mai 1945. Rapports aux chefs d'états-majors alliés, édition française (1947), p. 202.

فاحتـــل الروس اولى هذه المدن في ٢ من مايو (ايار) ، وفي اليوم التالي على ايقاف القتال ، في ٨ من مايو (ايار) احتلوا براغ في منتصف الليل .

« وبالنسبة للولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى ، كانت ثمـــار معركة النورماندي فاكهة محرمة ، ما ان يقطفوها حتى تتحول الى رماد . فقد ابيد هتلر ، وأبيدت فرقه ، وحـــل محله ستالين ، وقبائله الآسيوية . لان « الانتصار مهمـــا كـــان الثمن » كان هـــدف الحلفاء الغربيـــين ، لانهـــم الحوا « على ان مضمون الهزيمة هي خراب وزوال هتلر ، باستثناء كل الامور الاخرى ، من ولاءات او اهداف » ، امـــا ستالين ، الواقعي الى اقصى الدرجات ، والذي كانت استراتيجيته متناسقة كـــل التناسق دوماً مع سياسته ، فقد استطاع فرض دينه المسيحي على ايستونيا ، وليتوانيا ، وليتونيا ، وعلى جزء من فنلندا ، وبولونيا ، والمانيا الوسطى والشرقية ، وعلى ثلث النمسا ، وعلى يوغوسلافيا ، وهنغاريا ، ورومانيا ، وبلغاريا . وكانت فيينا وبراغ وبرلين ، المفاصل الفقرية لاوروبا تحت سيطرته ، وباستثناء اثينا ، كان يسيطر على كل عواصم اوروبا الشرقية . فقد قدمت الحدود الغربية لروسيا من مستنقعات البريبت الى التورنجيروالد ، اي الى مسافة ١٢٠٠ كم ، ووجد السلافيون انفسهم ، كمـــا كانوا ايام شارلمان عـــلى نهر الالب والبوهمروالد . وبذلك امّحى الف عام من تاريخ اوروبا » [١] .

١٠ ــ المرحلة الحرجة الكبرى من التكتيك

ان المعركة البحرية الكبرى لخليج لايت ، التي قـــام بهـــا وربحهـــا

---

(١)

Major general Fuller : The Decisive Battles of the World (1956) vol. III. p. 589.

الاسطولان الثالث والسابع الامريكيان ، من ٢٣ الى ٢٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٤ ، وضعت الخاتمة لمصير اليابان . فقد انتهى امر بحريتهـــا ، اذا استثنينا بعض المراكب الحربية المتفرقة . وصرح الاميرال ميتسومازا جوناي وزير البحرية في حكومة كوازو فيمـــا بعد : « فهمت جيداً ان هزيمتنـــا ستؤدي الى خسارتنا للفيليبين ، واذا مـــا طلبتم مني الانعكاسات ذات المدى الطويل التي ادت اليها معركة لايت بالنسبة الينـــا ، فسأجيب بكل بساطة : « لقد احسست باقتراب النهاية » [١] .

غير ان الرئيس روزفلت ومستشاريه لم يلاحظوا هذه « الانعكاسات الطويلة الأمد » . فلم يكن الموضوع الاساسي هو معرفة كيفية قهر اليابان والتغلب عليها ، بل كيف يمكن ان نستخلص اكبر مزية سياسية من هزيمتهـــا . وكان هذا الموضوع مشكلة ابسط من المشكلة التي كان علينـــا مواجهتها في اوروبا ٥ ففي اوروبا كان لا بد من اخذ الحلفاء بعين الاعتبار ، غير ان الحرب مع اليابان كانت حربـــاً امريكية ٩٥ ٪ ، وكان من الحيوي والاساسي ان تربح الولايات المتحدة هذه الحرب وحدها ، كي تتجنب التعقيدات . ولو انهم فهموا هذا ، لأدركوا ان مصلحة الولايات المتحدة كانت تقتضي ان ينهوا حربهم مع اليابان قبـــل انهيار المانيا او بعده فوراً ، اي في الوقت الذي تكون فيه روسيا مـــا تزال مشتبكة في اوروبا . نظراً لان روسيا هي الدولة الوحيدة التي كان في وسعهـــا تعقيد نهاية الحرب ضد اليابان . فهل كان ذلك ممكناً ؟ والجواب على ذلك هو « نعم » دون تحفظ ، برغم قلة ما في ذهننا من مراكز الثقل الاستراتيجية او السياسية للمشكلة .

---

(١)

C. VANN Woodward : La bataille de Leyte, édition française (1947) p. 257.

ففيما يتعلق بمراكز الثقل الاستراتيجية ، كان وضع اليابان هشاً جداً على المستوى الاستراتيجي ، لان طاقتها الاقتصادية لا تزيد عن ١٠ ٪ من طاقة الولايات المتحدة ، ولا تتجاوز مساحة اراضيها الصالحة للزراعة عن ٣ ٪ من ارض الولايات المتحدة . وكان عليها ان تهتم بشعب يبلغ تعداده اكثر من نصف تعداد سكان امريكا . وبما ان اليابان ترتبط بمنشوريا وكوريا في الجزء الاكبر من احتياجاتها في المواد الاولية ، وجزء كبير من الحبوب ، وكان من الواجب شحن هذه البضائع عن طريق بحر اليابان والبحر الاصفر ، لهذا كانت بحريتها التجارية هي مركز ثقل استراتيجيتها فقد كانت المهمة الرئيسية للغواصات الامريكية ، هي الهجوم على الملاحة اليابانية ومن الصعب المبالغة في تقدير الدور الذي لعبته الغواصات الامريكية في تحديد هزيمة اليابان : فمن اصل ٨,٩٠٠,٠٠٠ طن من المراكب اليابانية التي اغرقت ، لا يمكن ان نعزو الى الغواصات اكثر من ٥٤,٧ ٪ [١] .

فبدلا من ان تتجه الاستراتيجية الامريكية التي طبقها رؤساء هيئات الاركان المشتركة الى الملاحة اليابانية وتضطر هذا البلد الى الاستسلام بالانهيار الاقتصادي ، استندت هذه الاستراتيجية الى غزو الارض الوطنية لليابان . ولاعداد هذا الغزو والتحضير له ، انطلقت هجمات هجومية قامت بها القاذفات ذات المدى الكبير ، من جزر ماريان بعد معركة خليج لايت بقليل . وقد القي ١٠٤,٠٠٠ طن من القنابل على ٦٦ مدينة، ٤٢٩٠٠ طن على مناطق صناعية [٢] . ومع ان هذه الغارات قد جعلت الانتاج يتدنى ويتناقص ، الا ان الخسائر في الملاحة بقيت العامل الحاسم في الانهيار الاقتصادي لليابان ،

---

(١) United States Stratégic Bombing Survey, Summary report (guerre du Pacifique), p. 11.

(٢) United States Strategic Bombing Survey, op. cit., p. 17.

لأنها كانت تعني منع استيراد الفحم ، والبترول والمواد الاولية الاخرى ، والحبوب ايضاً . اذن فلم يكن تدمير المراكز الحضرية ، وتدمير المصانع هو الذي وجه الضربة المميتة لصناعة اليابان .

ويشير تقرير Survey الذي تحدثنا عنه سابقاً الى ان عدداً كبيراً من هذه الغارات كان ذا هدف مزدوج ، لان معظم المصانع اليابانية ، ومصافي البترول ، ومصانع الصلب ، ومعامل الذخائر افتقدت المواد الاولية ، وبالتالي ، فإن تدمير الاقتصاد الياباني كان مضاعفاً ، اولا بسبب إيقاف الاستيراد ، ومن ثم من جراء الهجمات الجوية . واشار التقرير بالاضافة الى ذلك الى ان الهجمات على الشبكة الحديدية ، الحساسة جداً في اليابان ، زادت من قيمة النتائج التي حصلت عليها الهجمات ضد الملاحة وتمت مفعولها . « ونقرأ في التقرير ، انه يتفق في الرأي ان هجوماً من هذا النوع (على عدد محدد من المراكب المخصصة لشحن القطارات ، والانفاق ، والجسور) كان في وسعه ، لو درس دراسة جيدة مسبقاً ، ان يبدأ في ... اغسطس (آب) ١٩٤٤ ... وقد قدر التقرير المذكور ان الاحتياجات في الافراد والعتاد — للقيام بتعطيل كامل للشبكة الحديدية ، كان ٦٥٠ طلعة طيران برؤية [١] لطائرات ب — ٢٩ ، تحمل ٥٢٠٠ طن من القنابل المتفجرة القوية »[٢] .

وعندما تطرح هذه المطالب من ١٥٠٠٠ طلعة جوية تمت ومن ١٠٤,٠٠٠ طن من القنابل اسقطت على ٦٦ مدينة ، نرى ان الفرق يشكل تفسيراً رائعاً للخطأ الاستراتيجي الذي ارتكبه رؤساء هيئات الاركان العامة المشتركة .

---

(١) Vols à vue

(٢) المرجع المذكور في الملحوظة رقم ١ ، ص ١٩ .

وقد توارى مركز الثقل السياسي ايضاً عن ذهن الرئيس ومستشاريه . فقد كان هذا المركز هو شخص امبراطور اليابان ، لانه كان آلة القوات المسلحة ، وكان مقدساً في نظر شعبه . غير ان الشيء الوحيد الذي لم يكن في وسعه ان يعمله ، هو ان يأمر شعبه بالاستسلام دون قيد او شرط ، ويقبل بالتالي ، ان يصبح مجرم حرب ، يحاكم او يعدم رمياً بالرصاص لدى اول وهلة [١] .

وفي مطلع عام ١٩٤٤ توصل العميد البحري سوكيش تاكاجي من هيئة اركان البحرية اليابانية الى الاستنتاج ، بأن على اليابان ، كي تنهي الحرب ان تفتش عن سلم يتضمن حلا وسطاً . ومع ان الاميرال كانتارو ، قد خلف الجنرال كويناكي كوازو ، لهذا الهدف ، في ١٥ من ابريل (نيسان) ١٩٤٥ ، الا ان استعداده لم يكن كبيراً بقبول هذا السلم الوسط طالما كان وضع الامبراطور متأثراً بهذا الاستسلام غير المشروط . واخيراً في يونيو (حزيران) قرر الامبراطور ، الذي ازدادت قناعته بضرورة انهاء الحرب ، منذ يناير (كانون الثاني) ارسال الامير فوميمارو كونوي في مهمة الى موسكو ليرجو تدخل الحكومة السوفييتية . وفي الوقت ذاته ، تلقى نا اوتاكه ساتو سفير اليابان في موسكو ، تعليمات من حكومته لإبلاغها الى الحكومة السوفييتية بأن اليابان لن تقبل الاستسلام دون قيد او شرط . مهما كانت الظروف ، وكان المطلوب منه هو اقناع الكرملين بالتوسط لتوقيع معاهدة على هذا الاساس.

في هذه الغضون ، كانت واشنطن تدرس ايضاً طرق ووسائل إنهاء الحرب.

---

(١) وذلك تبعاً لخطة مورجانتهو ، التي ينبغي ان يعدم بموجبها كل الأسرى الذين وضعت اسماؤهم على لائحة مجرمي الحرب الكبار ، رمياً بالرصاص ، وقد « وافق الرئيس على اعدامهم بدون محاكمة » .
Stimson et Bundy, op. cit., pp. 338 et 339.

وبالرغم من ان وزارة الحرب الحت على غزو اليابان ، وعلى قصفها بغارات جوية ضخمة ، كان رأي بعض الشخصيات الاخرى ان تطبق « ترجمة عقلانية » للاستسلام غير المشروط ، وفي هذه الحالة قد يقبله اليابانيون وان « الشك الوحيد الذي ما زال يتصدر صدور قرارهم هو وضع الامبراطور في المستقبل » (١) وكان الرأي المكون من استجواب الاسرى اليابانيين من ذوي الرتب العالية يؤكد « ان اليابانيين مستعدين للرضوخ ، غير انهم يخافون ان يقضي على النظام الامبراطوري ، وان يعاقب الامبراطور ذاته كمجرم حرب » (٢) .

وخلال فحص هذه المشروعات ، كان صنع القنبلة الذرية قد وصل الى النقطة التي تأكد فيها نجاحها (٣) . وفي ابريل (نيسان) ١٩٤٥ شكل ستيمسون لجنة مكلفة باعلامه عن استخدامها ، وفي ٢ من يونيو (حزيران) ، عرض وجهة نظره في مذكرة وجهها الى الرئيس ترومان . واقترح الاختيار بين غزو اليابان واستخدام القنبلة الذرية ، اذا تكللت التجارب الاخيرة ، التي ما زالت جارية بالنجاح ، واقترح ان يسبق استخدامها انذار يشير الى « طبيعة قوتها الساحقة والمختلفة عن قوى القنابل الاخرى التي نسقطها على الجزر » و « حتمية التدمير والاتساع الذي يسببه الاستخدام

---

(١) RAY S. Staline : United States Army in World War II. (1951) pp. 333 à 347.

(٢) N. CURRENT : Secretary Stimson : a study in state craft (1954), p. 224.

(٣) المح المستر تشرشل الى القنبلة لاول مرة في ٣٠ من اغسطس (آب) ١٩٤١ ، تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٢ — ٢ ، ص ٣٧٩ (والمح الى ذلك الدكتور غوبلز في ٢١ من مارس (آذار) ١٩٤٢ (غوبلز ، المرجع المذكو سابقاً ، ص ٩٦) .

الشامل لهذه القوة » . وكان هو شخصيـاً متفقاً مع الرأي القائل « باننا اذا اضفنـا الى ذلك عدم استبعادنا لامكانية ملكية دستورية ، مع وجود السلالة الملكية الحالية على رأسهـا ، فاننا انما نزيد من فرصنا في تقبل اليابانيين هذا العرض بصورة حسنة » [١] .

وانعقد مؤتمر بوتسدام في ١٧ من يوليو (تموز) . وفي اليوم ذاته ، اعلم ستيمسون الرئيس بالخبر الجديد الذي يتضمن النجاح التام بالأمس لتجارب القنبلة وبناء على هذا قرر ترومان وتشرشل استخدامهـا كي يتجنبا الخسائر التي يؤدي اليهـا غزو اليابان . وقد كتب تشرشل ما يلي : « لقد تبدد الكابوس منذ ذلك اليوم . وحـل محله ، على ما يبدو ، حلم لامع وبراق في إنهـاء كل الحرب بقنبلة او قنبلتين عنيفتين جداً ... وبالاضافة الى هذا ، فاننا لن نحتاج الى الروس ابداً . » [٢] .

كان تشرشل مخدوعـاً في هذا ، لان المستر ستيتينيوس يخبرنا بأن : « العسكريين الامريكيين اصروا على دخول الاتحاد السوفييتي في الحرب ضد اليابان ، حتى فيمـا بعد ، في مؤتمر بوتسدام ، بعد انفجار القنبلة الذرية الاولى ... وفي يالطا ، وبوتسدام ، كانت هيئات الاركان قلقة بصورة خاصة من وجود قطعات يابانية في منشوريا . وقيـل ان هذه القطعات هي زبدة الجيش الياباني ، بقيادتهـا المستقلة وقاعدتها الصناعية ، التي كانوا

---

(١) ستيمسون Stimson ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٣٦٨ .

(٢) تشرشل ، المرجع المذكور سابقاً ، جزء ٤ ـ ٢ ، ص ٢٩٥ .
ويصرح تشرشل بالاضافة الى ذلك بانه لن يشك ابداً بان ترومان كان على حق في استخدام القنبلة ، وكتب بعد ست صفحات من هذا الكلام ما يلي : « كانت هزيمة اليابان مؤكدة ، قبل ان تسقط عليها القنبلة الاولى » .

يعتقدون بوجودها ، قادرة لوحدها على متابعة الحرب ، الا اذا تدخلت روسيا وزجت بجيشها في هذه المنطقة . » (١)

وقبل ان يجتمع المؤتمر ، كانت كل البرقيات المتبادلة بين طوكيو وساتو في موسكو قد فكت رموزها في واشنطن . وفي ١٣ من يوليو (تموز) انكشفت البرقية التالية الموجهة من وزير الشؤون الخارجية لليابان الى ساتو : « قابل مولوتوف قبل سفره الى بوتسدام ... واعلمه بالرغبة الاكيدة لجلالته بإنهاء الحرب ... فالاستسلام دون شرط هو الحاجز الوحيد امام السلام » (٣) وفضلاً عن ان هذه البرقية توضح موقف اليابانيين اليائس وتلقي عليه ضوءً كضوء النهار ، وتفتح الطريق امام نهاية فورية للحرب ، فقد قدم الى اليابان الانذر التالي في ٢٦ من يوليو (تموز) : « نطلب الى حكومة اليابان ان تصدر مرسوماً منذ الآن باستسلام كل القوت المسلحة اليابانية دون قيد أو شرط ... فليس هناك من حل آخر لليابان إلا التدمير الكامل

(١)

Edward R. Stellinius : Yalta : Roosvelt et les russes

الطبعة الفرنسية (١٩٥١) ص ٩٧ . في هذه الفترة ، كانت الزبدة « منزوعة الزبدة » وقد نقل من هذه القطعات الجنود المدربون منذ وقت طويل ، كما انها لم تكن تملك محروقات .

(٢) فكت رموز الحفرة اليابانية قبل بيرل هاربور ، وبقيت كذلك طيلة مدة الحرب .

(٣)

Robert J. C. Butow : Japan's decision to Surrender (1954), p. 130.

والمطلق »[١] ، وفي هذا لانذار لم ترد اية كلمة تتعلق بالامبر طور .

وبعد يومين ، رفض سوزاكي الانذار واعلن « بانه لا يستحق النشر على الرأي العام لإطلاعه عليه »[٢] ولحماية دخول روسيا الحرب الذي كان مقرراً في ٨ من اغسطس (آب) ، قرر الامريكيون اسقاط قنبلتين ذريتين ، الاولى فوق هيروشيما يوم ٦ من غسطس (آب) ؛ والاخرى فوق ناغازاكي في ٩ من اغسطس (آب) . وبهذا الشكل ، وفي صباح الاثنين ٦ من اغسطس (آب) وفي الساعة الثامنة صباحاً ظهرت كتلة نارية فوق الجزء الشمالي الغربي من هيروشيما . وكانت قوتها المتفجرة تعادل ٢٠,٠٠٠ طن من ال ت. ن. ت. وكانت حرارة هذه الكتلة في المركز تعادل ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ سنتيغراد — « اي ما يعادل اكثر من حرارة مركز الشمس مضروباً بسبعة امثال »[٣] ، وقدر الضغط الذي احدثته بمئات الآلاف من الاطنان في السم٢ وقد نتج عن الانفجار « عاصفة نارية » احدثت مئات الحرائق بآن واحد . وكان ابعد حريق حدث على بعد ٤٢٠٠ م من مركز الانفجار . وقد حرقت المدينة تماماً على مساحة قدرها ١٢ كم٢ . ووقع بين ٧٠ الى ٨٠,٠٠٠ قتيل و ٥٠,٠٠٠ جريح . ومع ذلك فان المدن الواقعة في اطراف المدينة « كانت سالمة تماماً » و « قدر انه كان في وسعها ان تتابع انتاجاً طبيعياً حقيقياً لو استمرت الحرب بعد قيام الغارة بأقل من ثلاثين يوماً »[٤] .

وفي ٩ من اغسطس (آب) قبل مجلس الادارة العليا لليابان اعلام

---

(١) راجع « اعلان بوتسدام » في بوتوف Butow ، المرجع المذكور ، صفحات ٢٤٣ ، ٤٤ .

(٢) ستيمسون وباندي ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٤٢٠ .

(٣) Fred Hoyle : The nature of the universe. (1960), p. 36.

(٤) U.S. Strateging Bombing Survey (guerre du Pacifique), p. 24.

الامبراطور بنشر الاستسلام واعلانه . ووافق الامبراطور على ذلك ، وفي ١٠ ، اذاع راديو طوكيو برقية اعلنت فيهـا الحكومة اليابانية استعدادها لقبول شروط بيان بوتسدام الصادر في ٢٦ يوليو (تموز) « شريطة ان لا يتضمن البيان اي مطالب يسيء الى صلاحيات صاحب الجلالة كحاكم صاحب سيادة » [١] .

وكان جواب الحلفاء بتاريخ ١١ من اغسطس (آب) يتضمن المقطع التالي ، كي يتجنبوا تجمع عدة جيوش يابانية متفرقة لا تعترف بسلطة اخرى غير سلطة الامبراطور : « منذ اللحظة التي يتم فيهـا الاستسلام ، تخضع السلطة التي يمـارسها الامبراطور والحكومة اليابانية في ادارة الدولة الى سلطة القائد الاعلى للقوات الحليفة » [٢] . وقد قبـل الامبراطور هذا الشرط في ١٤ من اغسطس (آب) . وضرب بوق ايقاف القتال ، ووقع المندوبون اليابانيون وثيقة الاستسلام في ٢ من سبتمبر (ايلول) .

ان التفسير الذي وضعه ستيمسون واضح جداً :

« لم تكن المسألة الحقيقية بالنسبة اليه هي معرفة مـا اذا كان من الممكن الحصول على الاستسلام دون استخدام القنبلة ، بل كانت المسألة هي معرفة مـا اذا كانت الوسائل الديبلوماسية والعسكرية تستطيع ان تعجل بالاستسلام . وهنا تبرز مسؤولية ادارة المخابرات واضحة كل الوضوح . فقـد دلت المقابلات التي جرت بعد الحرب بوضوح على ان جزء كبيراً من الحكومة اليابانية كان مستعداً ، في الربيع ، لقبول نفس التعابير التي وافق عليهـا اخيراً . وقد وصل هذا الاستعداد العـام لمعظم الوزراء الى علم الحكومة ،

---

(١) راجع الرد الموجود هنا في بوتوف ، المرجع المذكور ، ملحق د ، ص ٢٤٤ .

(٢) بوتوف ، المرجع المذكور ، ملحق هـ . ، ص ٢٤٥ .

بل ان الرؤساء الامريكيين لم يكونوا يفكرون بالتأكيد ان اليابانيين يعتبرون انفسهم قد غلبوا ، كما يبرز انذار ستيمسون بتاريخ ٢ من يونيو (حزيران) . وهذا ما يسمح لنا بالتفكير ، على ضوء الاستسلام النهائي الذي تم بانه كان من الممكن ان تنتهي الحرب بسرعة اكبر لو ان اليابانيين عرفوا في وقت ملائم ان الامريكيين مستعدون للمحافظة على الامبراطور . وقد طالب غرو ومعاونوه . المباشرون في مايو (ايار) ١٩٤٥ باتباع هذا السبيل »[١] .

ولا يمكن ان يكون هناك اي شك . فلو لم يكن هناك هذه الرؤية السياسية والاستراتيجية الضعيفة التي وضعت سياسة الاستسلام دون قيد او شرط ، لكان من الممكن ان تنتهي الحرب في مايو (ايار) ١٩٤٥ ، وكان من الرئيسي ان تنتهي في مايو (ايار) كي يبرم الحلفاء سلماً مميزاً في الشرق الاقصى . فلو ان الحرب انتهت بهذه الطريقة ، لما استطاعت روسيا التدخل ، ولكنا تجنبنا كل النتائج المؤلمة لتدخلها . ولو تم الامر بهذا الشكل ، لكنا تحاشينا ضرورة قصف قنبلتين ذريتين ، لم تستعملا الا لتحقيق هدف واحد ، كما قال ذلك هانسون بالدوين عن حق : « لا لضمان سلم طبيعي اكبر ، بل للتعجيل بالنصر »[٢] .

ومع ذلك ، يبقى واقع قصف القنبلتين حدثاً قائماً لاقلاق الانسانية وايلامها . فقد التقط المنبع الحقيقي للطاقة الخلاقة وتحول الى اداة لاحداث المآسي . وتوصلت البشرية الى آخر تعبير عسكري عن الثورة الصناعية هو

---

(١) ستيمسون وباندي ، المرجع المذكور ، ص ٤٢٣ . جوزيف . . غرو كان وزيراً للخارجية .

(٢) Hanson W. Baldwin : Great Mistakes of the War (1950), p. 101.

الطاقة الذرية وادت هذه الطاقة التي ارتدت شكل مادة متفجرة ، الى تصعيد النزاعات البشرية تكتيكياً درجة اثر درجة . وقضت على الحرب المادية كأداة لسياسة سلمية .

١١ ــ الهزيمة بالانتصار

عندما اصبح تشرشل واعيـــاً كل الوعي التهديد الروسي لاوروبا بعد مؤتمر كيبك الاول كان مشلولا بالقوة المتزايدة للولايات المتحدة ، مضافاً اليهـــا ارتباط الاقتصاد البريطاني بقانون الاعارة والتأجير . فمـــا كادت ساعة غزو النورماندي تدق الا وكانت ادارة الحرب قد انتقلت تماماً بين يدي الرئيس الامريكي ورؤساء اركانه المشتركة . ثم حان الاستسلام الالماني . وبحلول هذا الاستسلام كتب تشرشل يقول : « كان التهديد السوفييتي ، في نظري ، قد حل مكان العدو النازي ... فلم أكن أستطيع إلا أن الاحظ التظاهرة الساحقة للامبريالية الروسية والسوفييتية المنقضة على بلدان تعيسة لا تملك أي دفاع »[١] . وبعد أربعة أيام ، في ١٢ من مايو (ايار) ١٩٤٥ ، أبرق تشرشل الى الرئيس ترومان يقول :

« ان الوضع الاوروبي يقلقني كثيراً ... ماذا يحدث في هذه الغضون في الجانب الروسي ؟ ... ان ستاراً حديدياً قد اسدل على جبهتهم . ونحن نجهل كل مـــا يجري خلف هذا الستار . ويبدو من المحتمـــل ان يصبح مجموع المناطق الواقعة شرق خط لوبيك ــ تريست ــ كورفو قريباً بين ايديهم .... وخلال هذا الوقت ، يتوجه اهتمام شعوبنـــا الى العقوبات المفروضة على المانيا المدمرة والمغلوبة على امرها ، لا حول لهـــا ولا قوة . وبعد وقت قليل ،

(١) تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٦ ــ ٢ ، ص ٢٢٦ .

يصبح مسموحاً للروس بالتقدم ، اذا ارادوا ، حتى شواطىء بحر الشمال والاطلنطي ... والخلاصة يبدو لي ان مسألة اجراء تسوية مع روسيا ، قبل أن تضمحل قوتنا ، مسألة تكشف كل المسائل الاخرى »[1] .

كان تشرشل على حق في هذه النقطة ، لكنه نسي بدون شك الدور الذي لعبه بخلقه هذ الوضع المحزن . فقد صرح ان هدفه هو « النصر مهما كان الثمن » عندما كانت ادارة الحرب مرتبطة به . فعمله بهذا الشكل كان غير مفهوم ، لان حكمه على الحرب العالمية الاولى كان حكماً تسلطياً جائراً ، فقد كتب ما يلي :

« لقد تأقلمت الحكومات والافراد مع ايقاع المأساة ، مستسلمين لعنف لا دواء له ، يذبحون ويبددون مزيداً من التبديد ، الى أن نالوا من بنية المجتمع واحدثوا فيها اضراراً لا يمحوها قرن كامل ، وربما كانت هذه الاساءات الموجهة قاتلة للحضارة الحديثة ... لقد كان من الضروري شراء النصر بثمن باهظ ، حتى انهم استطاعوا بصعوبة التمييز بينه وبين الهزيمة . فلم يوفر الامن حتى للمنتصرين ... ان اكمل انتصار حققته الاسلحة في تاريخها لم ينجح في حل المعضلة الاوروبية ، ولا في القضاء على الاخطار التي سببت الحرب »[2]

والآن وبعد ان ربحوا الانتصار مهما كان الثمن ، فان المسألة هي معرفة كيفية ايقاف « المظاهرة الساحقة للامبريالية السوفييتية » . لكن الامريكيين لا

---

(١) يسمي تشرشل البرقية برقية « الستار لحديدي » ويصرح بما يلي : « من بين كل الوثائق الرسمية التي كتبتها في هذا الموضوع ، احب ان يحكم علي بهذه البرقية » تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٤ ــ ٢ ، ص٢٣٠

(٢) تشرشل : الازمة العالمية ، ١٩١٥ ، الطبعة الفرنسية (١٩٢٤) ، جزء ٢ ، صفحات ٧ و ٨ . La crise mondiale

ينوون ابداً ايقافهـــا . فالتصميم على الغلبة وعلى تدمير المانيا الذي ميز حكم روزفلت ، استمر في عهد خافه ترومان ، في السلم ، بغرض تهدئة الرأي العام ، دون مراعاة للمستقبل . واستمرت « العسكريتاريا » في ادارة السياسة الامريكية بدلا عن السياسة .

لقد عمل بسمارك بصورة مختلفة كـل الاختلاف في عـام ١٨٧٠ ، ففي هذا العام ، في سبتمبر (ايلول)، اشتكت جريدة La national zeitung من المعاملة المليئـة بالمراعـاة ، التي احيط بها امبراطور الفرنسيين ، الذي كان اسيراً ، فقال بسمارك ما يلي :

« ان الشعور الشعبي ، والشعور العام همـا من هذا الرأي دوماً . ويلح الشعب ، في النزاعات بين الدول ، ان يقف الغالب من المغلوب موقف الحـاكم ، وبيديه قانون الاخلاق ، ويفرض عليه العقاب على مـا فعل .... ان مثل هذا التفكير غريب وغير منطقي . فالعقاب والثـأر لا علاقة لهما بالسياسة ولا ينبغي على السياسة ان تتدخل في شؤون آلهة الثأر اليونانية نيميسيس او تتطلع الى ممارسة وظائف الحاكم ... ففي حالة كالحالة التي نتحدث عنهـا ، تتلخص المسألة في معرفة : « اي الاسلوبين سيكون اكثر فائدة لنا : نابليون أُسيئت معاملته او نابليون أُحسنت معاملته ؟ » فليس من المستحيل ابداً ان يعود ليطفو من جديد على السطح » [١] .

ولم يكن الاستسلام المشروط كافيـاً . اذ كان لا بد من تدمير الاقتصاد الالماني تدميراً كاملاً ، وقد تتابع جزء كبير من خطـة مورجانتهو في السلم . ولكن كيف يستطيعون بناء السلام والرخـاء في اوروبا حول مركز اصابه الخراب ، وخيمت فيه المجاعة ، والمرض والفوضى ؟ يبدو ان هذه الفكرة لم تتبادر ابداً الى ذهن ترومان .

---

(١) Moritz Busch : Our chancellor (1884), vol. I., pp. 98-99.

وقبل نهاية الحرب ، اتخذ تدبيران لتنفيذ هذا المنهـاج : التدبير الاول هو : « خطة تسوية الصناعة » والتدبير الثاني هو « توجيه الاحتلال » . وكلا التدبيرين طويلان جداً لا يمكن ذكرهمـا بتفاصيلهما ، الا ان الخلاصات التالية توضح الغرض منهمـا :

« خطة تسوية الصناعة » ، وكان هدفهـا تقليص الآلة الصناعية الالمانية الى اقـل حد ممكن ، واعطاء كل فائضهـا الجاهز مقابل التعويضات ، ومنع كل العتاد الحربي . ومنعت نماذج الطائرات ، ومراكب اعالي البحار ، كمـا منع انتاج المحروقات ، والمطاط التركيبيين واجهزة اللاسلكي المرسلة وعدد من المواد الاخرى .

وكان من الواجب ان لا يزيد الانتاج السنوي للصلب عن ٥,٨٠٠,٠٠٠ طن ، كمـا كان من الواجب انقاص انتاج المعادن غير الحديدية والمواد الكيماوية الاساسية ، وماكينات الادوات ، والادوات الكهربائية ، والسيارات والقاطرات ، والمقطورات ، وعربات شحن البضائع ، الى اقصى حد ممكن . ونقرأ في هذه الخطة : « تستهدف الخطة إعادة مستوى الصناعة بصورة عامة ، الى مستوى من ٥٠ الى ٥٥ ٪ من مستوى ما قبل الحرب في عام ١٩٣٨ » (١) .

وكانت هذه التدابير تعني المجاعة لملايين من الالمان ، وكان ينبغي على امريكا ان تتوقع بان لا يتسامح معهـا العالم المتمدن ابداً من جراء هذه الخطة .

« توجيه الاحتلال : كان هذا التوجيه يرسم الخطوط الكبرى للسياسة التي ينبغي ان يتبعهـا الجنرال ايزنهاور ، وكان يتوجب عليه الالحاح على تطبيقها من قبـل دول الاحتلال الاخرى ، بصفته عضواً في لجنة الاشراف . وكان

---

(١) لقراء هذه الخطة راجع :

GUSTAN STOPLER : German Réalities (1948), annexe D, pp. 294-299.

من الواجب تطبيق اللامركزية في البنية السياسية والادارية لالمانيا . وكان التآخي مع الالمان ممنوعـــاً . وكان من الواجب طرد اعضاء الحزب النازي وزعماء النازية واستبعادهم من الوظائف العامة والمشروعات الخاصة . وينبغي حل كل المنظمات العسكرية ، بمـــا فيها هيئة الضباط الالمان . كمـــا كان من الواجب ايقاف كل موظفي الحزب النازي ، واعضاء البوليس السياسي ، وقطعات العاصفة S.S. ، وهيئة الاركان العامة ، والموظفين من المراتب العليا ، وحكام المدن والقرى ، وانصار النازيين . ولا يجوز السماح بأي نشاط سياسي. وكان يترتب اغلاق المحاكم المدنية والجنائية ، واغلاق مؤسسات التعليم ، ومنع دفع الرواتب المدنية والعسكرية ، ومصادرة كل العملات الذهبية والفضية وذات القيمة . ولا يجوز اتخاذ اي تدبير يستهدف النهوض بالاقتصاد الالماني ، ولا الشروع بأي عمـــل من شأنه رفع مستوى الحياة الاساسي في المانيا الى درجة أعلى من المستوى القائم في اي بلد مجاور [١] . والخلاصة ، لابد من تحويل المانيا الى معسكر اعتقال ممتاز .

وقد صُدِّق على كـــل هذه التدابير ووقعت ومهرت بخاتم مؤتمر بوتسدام الذي انعقد في سيسيلينهوف Cecilien hof في ١٧ من يوليو (تموز) ، والذي وجد فيه ستالين نفسه وقد عـــاد الى سرج حصانه ثابت الجـــأش ، حتى أن المندوبين لم يفعلوا شيئـــاً سوى الترحيب بانتصاره .

وكان الموضوعان الرئيسيان في جدول الاعمال هما المانيا وبولونيا . ففيما يتعلق بالموضوع الاول ، صدقت قرارات مؤتمر يالطا ، واكدت من جديد كمـــا صدق على التوجيهات التي تتضمن التوجيهين المذكورين اعلاه . ووزعت التعويضات ، وبخاصة لحساب روسيا ، ووضعت طريقة محاكمة

---

(١) Stopler, op. cit., annexe C, pp. 293-294.

مجرمي الحرب الكبار ، واتفق ايضاً على تحويل كونيفسبرغ والمنطقة المجاورة الى المنطقة السوفييتية .

امـــا فيما يتعلق بالموضوع الثاني (بولونيا) ، فقد عقد اتفاق في موضوع حدودهـــا الغربية ، الذي لا بد من انتظار عودة السلم حتى تحدد بصورة نهـــائية . وبانتظار ذلك ، توضع الاراضي الالمانية الواقعة الى الشرق من الاودر والنيس الغربي ، والجزء الاكبر من بروسيا الشرقية ، والممر البولوني القديم تحت ادارة الدولة البولونية [1] .

بالاضافة الى هذا ، وافق المؤتمر على نقل السكان الالمان من بولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وهنغاريا ، الى المانيا الغربية « بنظام تام وبصورة انسانية »[2]

---

(١) يفسر المستر تشرشل عملية ضم هذه الاراضي فيقول : « هنا يكمن تهديد السلام الاوروبي في المستقبل وتصبح مشكلات الالزاس واللورين وممر دانتريغ بالنسبة اليه ترهات، لا قيمة لها » (تشرشل ، المرجع المذكور ٤ ـــ ٢ ، ص ٣٠٥) .

وقد قال تشرشل في مؤتمر طهران انه : « اذا سحقت بولونيا بعض الاصابع الالمانية ، فذلك لا قيمة له » وانه لن يحطم قلبه لضم جزء من المانيا الى بولونيا (تشرشل ، المرجع المذكور ، جزء ٥ ـــ ٢ ، ص ٣٧) .

ادى هذا القرار الى ابعاد خمسة عشر مليوناً من المواطنين ، كانوا قاطنين في هذه المناطق عندما انعقد المؤتمر ذاته . ونفذ هذا القرار بعنف وشراسة ، حتى ان ستوبلر STOPLER (المرجع المذكور ، ص ٢٦) يقول ، انه تم ابعاد ستة ملايين شخصاً آخرين .

(٢) فيما يتعلق بالتقرير المذكور ، راجع ستوبلر :

Stopler, op. cit., annexe E, pp. 311.

وخلال مـــا يقارب العامين ولفائدة الاتحاد السوفييتي ، غرقت اوروبا في الفوضى ، واصبح الوضع محفوفاً بالتهديدات لدرجة اضطر معهـــا الرئيس ترومان الى تكليف الرئيس السابق هربرت هوفر برئاسة وفد اقتصادي مكلف برسم مـــا ينبغي ان يعمل لاصلاح هذا الوضع . وهو ما فعله الوفد في ١٨ من مارس (آذار) ١٩٤٧ .

واننـــا نقرأ حالياً « ان المكلفين بدفع الضرائب ، في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى يدفعون ما يقارب من ٦٠٠ مليون دولار سنوياً لمنع الالمان من الموت جوعاً في المناطق الأمريكية والانجليزية ... وليس هناك سوى طريق واحد يؤدي الى نهوض اوروبا . ان هذا الطريق هو الانتاج . فكل اوروبا مرتبطة بالاقتصاد الالماني ... ولا يمكن اصلاح الانتاج الاوروبي بدون أصلاح الوضع في المانيا كدولة مشتركة في هذا المعدل الانتاجي ... ومن العبث ان نفكر ان من الممكن ان تتقلص المانيا الجديدة التي ستعيش بعد اقتطاع جزء من اراضيهـــا وضمها الى بلدان اخرى الى « دولة يقيم فيهـــا الرعاة وتنتشر فيهـــا المراعي » . فمثل هذه النتيجة لا يمكن الحصول عليها الا اذا قضينـــا على ٢٥ مليون الماني او نقلناهم الى بلدان اخرى ... فنحن نتوهم حول « الطاقة الحربية » . فكـــل صناعات العالم تقريباً تشكل « طاقة حربية » في الحرب الحديثة ... وانه لوهم تام ان نعتقد بان المانيا قادرة في يوم من الايام على ان تصبح دولة مستقلة من الناحية الاقتصادية « بخطة تسوية الصناعة » ضمن الحدود التي رسمت لهـــا حالياً . وسيكون وهماً اكبر التفكير بان اوروبا قادرة على النهوض بدون اصلاح اقتصادي لالمانيا ... ان في وسعنا ابقاء المانيا مكبلة بالسلاسل الاقتصادية هذه ، غير ان هذا يعني المحافظة على اوروبا ممزقة » [١] .

---

(١) فيما يتعلق بالتقرير المذكور راجع ستوبلر

Stopler, op, cit, Animexe Ei p.p. 311.

كان هذا هو الصوت الحقيقي لامريكا ، غير ان اكبر الاوهام قوة وعنفاً هو « شعور » الرئيس روزفلت .

وعندما نمعن النظر بعودة الى وراء في مأساة اوروبا ، يمكننا القول دون ان نخشى المعارضة ، ان يوم ١٦ ابريل (نيسان) ١٩١٧ ، وهو اليوم الذي دخلت فيه الولايات المتحدة اول حرب عالمية ، كان يوماً تاريخياً حزينـــاً في تاريخ اوروبا . فقد ادى دخولهـــا الى السلم الذي املته معاهدة فرساي ، التي كانت تشبه علبة باندور الحقيقية والتي يتصاعد منهـــا الخير والشر ، والتي انبعثت منهـــا حرب عالمية اخرى . وكان تدخلهم الثاني مشبعـــاً بكل معاني المآسي . فلم يؤدي الى اي سلم ، بل أدى بالأحرى الى حالة أبدية من « دوام الحرب » ، ومن الخوف على طريقة هوبس [1] .

ان سبب هذه الحالة لا علاقة له ابداً بالجشع الذي عجل باندلاع كثير من الحروب الاوروبية ، لان الامريكيين لم يطمحوا ابداً بشبر مـــن الارض الاوروبية . ويرجع ذلك ، بالأحرى الى خطـــأ في فهمهم للحرب كأداة للسياسة . فهم لم يعرفوا ابداً كيف يحاربون ، وبالتالي ، فانهم لم يعرفوا كيف يصنعون السلم . فقد كانوا يواجهون الحرب كلعبة مميتة ، قمتها هي الانتصار .

واتخذ القرار القاتل الاول في مؤتمر اركاديا ، اذ استبدلت بلد الخير الوفير « لمشروع » الرئيس روزفلت « الكبير » بسياسة حكيمة من الاستراتيجية العليا ، ومع ذلك ، وانه لشيء غريب ان يقال ذلك ، وفي الفترة نفسهـــا تقريباً ، وضع الاستاذ في جامعة يـــال ، نيقولا ج. سبيكمان خطيـــاً ما ينبغي ان تكون عليه هذه السياسة ، يقول سبيكمان ما يلي :

---

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن هوبس في اول فصول هذا الكتاب .
— المعرّب —

« اذا كان لا بد للسياسة الخارجية لدولة من الدول ان تكون عملية ، فينبغي ان لا تصمم تبعــاً لعالم من عوالم الاحلام ، بل ان تصمم تبعــاً لحقائق العلاقات الدولية . اي تبعــاً لسياسة القوة » . وقد ذكر سبيكمان ان هدفي سياسة الولايات المتحدة همــا في نظره التفوق في العالم الجديد ، وتوازن الدول في العالم القديم . وبمــا ان هذا التوازن قد تزعزع على الشواطىء المقابلة للاطلنطي وللباسيفيكي ، ينبغي ان يكون هدف الحرب بالنسبة للولايات المتحدة هو إعادة هذا التوازن . ويضيف قائلا : ان هذا الهدف لا يتطلب تدمير المانيا واليابان ، خوفــاً من ان تسيطر روسيا على اوروبا وعلى الشرق الأقصى . « فدولة روسية تمتد من الأورال الى بحر الشمال لا يمكن ان تتفوق على دولة المانية تمتد من بحر الشمال الى الاورال . » ومن الممكن تطبيق نفس المحاكمة المنطقية على الشرق الاقصى . « ينبغي القضاء على احتمال غزو اليابان من جديد لآسيا ، غير ان هذا لا يعني بالتأكيد القضاء عــلى القوة العسكرية اليابانية ، وخضوع غرب الباسيفيكي الى الصين وروسيا »(١) .

وتتعلق الخطيئتان الحاسمتان اللتان ارتكبهمــا البريطانيون بحساب اللحظة والهدف الواجب بلوغه . وقد عرضهما استاذ من كامبردج ، هو هربرت بترفيلد ، بدوره بوضوح تام ، قال بترفيلد ما يلي :

« هناك سابقة تاريخية حسنة ، لنظرية ترتقي الى افضل التقاليد الديبلوماسية ، لأفضل الأزمان ... وهي نظرية تقول ، بانه اذا هدد عملاقان متنافسان سياق الامور الطبيعي القائم فوق القارة ، بالتناوب ، وكنت لا تريد ان يحسم هذان الجروان لوحدهمــا الشجار القائم فيما بينهما ، عليك ان تنتقي باعتناء اللحظة

Nicholas J. Spykman : America's strategy in World Politics : The United States and the Balance of power (1942) pp. 446 - 460.

التي ينبغي ان تتدخل فيها في المشاجرة ، وان تسهر على عدم التوسط بين الطرفين الا لكي تساعد الطرف الذي تجعلك الظروف مؤمناً بانه سيكون مغلوباً من الطرف الآخر . فطالما بقي هذان العملاقان الاثنان على القارة ، يستطيع العالم كله ان يتنفس . ولكن اذا بذلت جهدك لشن الحرب بهدف القضاء على احد الخصمين ، فانك انما تستخدم دمك ومالك لتجعل من الطرف الآخر وحشاً مخيفاً جداً ، وسيكون لزاماً عليك ان تواجهه في مرحلة ثانية من مراحل التاريخ. وبعبارات اخرى ، ان السياسة التي تتضمن تسليم العالم المعقد بطريقة الحرب الشاملة ، — وحرب الحق — تساوي استخدام الشيطان لطرد الشيطان ان مثل هذه السياسة لا تستحق بان توصف بسياسة عملية » [١] .

ويبدو اذن ان في وسعنا ان نعيش اليوم في عالم مختلف جداً ، لو كان رجال الدولة متنورين كالاساتذة عن الحرب كأداة من أدوات السياسة .

Herbert Butterfield : Christianity and History (1950), p. 142.

الفصل الرابع عشر

مشكلة السلم

١ — نظرة عبر الماضي

قبل مناقشة انعكاسات الحرب العالمية الثانية ، سنسهل للقارىء جمع تأملاته وتركيزها ، بالعودة في بادىء الامر الى بعض الاحداث البارزة في المرحلة التاريخية المنتهية بهذه المأساة .

ونرى في المقام الاول بروز شكل حضاري جديد ، نابع عن وحدة تفكير « الارادة العامة » لروسو ، ومن الطاقة التي ولدتها آلة وات البخارية . ونرى ان مؤسسات هذه الحضارة ما زالت مؤسسات النظام الزراعي القديم للمجتمع ، ونشاطاته المتجهة نحو نظام صناعي جديد ، وهي تتعثر متحسسة وقع اقدامها ، وعلى غير هدى . ويسبب التباعد بين النظامين تبدلات عنيفة . ويحدث لدى الشعوب انقلابات اجتماعية داخلية ، واحقاداً خارجية متصاعدة . ونلاحظ هذا الشكل الحضاري الجديد في حالته الجنينية في الحروب النابوليونية ، وتتنبأ نظريتان قطعيتان بمستقبله هما : نظرية الحرب كما عرضها كلاوزفيتز ، ونظرية الاقتصاد كما عرضها ماركس . وكلا النظريتين طوباويتين ، ومع ان مقدماتهما صحيحة ، الا ان استنتاجاتهما خاطئة . فالحاح كلاوزفيتز على تعريف الحرب كأداة للسياسة هو المبدأ الاول في كل ديبلوماسية على المستوى العسكري ، الا ان الحاحه المساوي

لهذا الالحاح على سحق العدو سحقاً شاملاً ، ينقض هدف الاستراتيجية العليا التي لا تطالب بتدمير الخصم من اجل الحصول على سلم مميز . وكان ماركس على حق عندما اكد ان الانسان . يستخدم الآلات بصفته حيواناً ، كما ان الادوات التي يصنعها ينبغي بالضرورة ان تمارس نفوذها على تطور المجتمع والاشكال التي يتخذها هذا المجتمع . لكنه كان على خطأ ، عندما استنتج من ذلك انه لا يمكن تبديل هذه الاشكال الا بالنضال الطبقي . فعلى حين لم يستطع كلاوزفيتز معرفة ان السلم هو الهدف النهائي للحرب ، فان ماركس لم ير ان الاهداف الاجتماعية والاقتصادية الاساسية في عصر البخار هي خلق مجتمع صناعي ، بأسلوب ثوري ، وبأسلوب غير ثوري لان المستخدمين (بكسر الدال) المدراء والاطارات الخ ... والعمال هم عملاء الانتاج الذين يتكاملون فيما بينهم يتعارضون ، كالرجال والنساء . وكلا الاثنين اعطى للعنف القادر على الفرض لا على خلق وزن اكبر .

وكانت الحرب الأهلية الامريكية اول حرب من حروب الثورة الصناعية القائمة . وقد رأينا ان جذورها عائدة لاسباب اقتصادية ، وان مجراها كشف الارتباط المتزايد بين الاسلحة والصناعة ، وانهياراً اخلاقياً ، لان لا اخلاقية المادية المتقدمة فككت الاربطة الثقافية القديمة . وقد بدأت الحرب كصراع حضري ريفي للمصنع ضد المزرعة ، وانتهت باعلان رجل الاعمال كمنتصر .

وقد شهدت الاعوام التي انصرمت بين حرب الانفصال ونهاية القرن ، على التطور الهائل للصناعة ، في الولايات المتحدة الامريكية وفي اوروبا الغربية . وقد تصنعت البلدان ، بلداً إثر بلد ، واشتبكت في صراع كان في اتساع مستمر ادى الى استعمار على مستوى لا سابقة له ، كما ادى في الوقت ذاته الى نزاعات دولية . ومع ذلك فان التبدلات الطارئة على المؤسسات

الاجتماعية لم تلحق بالتقدم الذي حققته الصناعة ، على حساب الهدوء الداخلي . وبالرغم من الآثار المميتة المتزايدة للاسلحة التي صنعتها الصناعة ، بقيت نظرية الفن العسكري في جزء كبير منها على ما كانت، عليه في زمن البندقية التي تلقم من سبطانتها . واستمر رجال الدولة كما استمر العسكريون بالتفكير استناداً الى السيوف والحراب ، ولم يتبادر الى ذهنهم ان المصنع قد اصبح ، في عصر الصناعة ، المحطة المولدة للشكنة ، كما كان الريف منبع القوة المسلحة ، في العصر الزراعي . وفي حوالي نهاية القرن ، عندما اعلن البترول المنبع الجديد للطاقة واعلنت الاختراعات في المجال العلمي للكهرباء ، وبدء مرحلة جديدة من الثروة الصناعية ، لم يوجهوا مزيداً من الاهتمام الى التبدلات الجذرية التي احدثتها في فن الحرب .

هكذا حدث في عام ١٩١٤ ، ان كانت اسباب الحرب العالمية الاولى ، في جزء كبير منها ، صناعية وتجارية . على حين كانت كذلك ، ذهبت جيوش كل المتحاربين للقتال دون ان يكون لديها فكرة واضحة عن نوع النزاع الذي دعيت الى المشاركة فيه . وبعد ان تجمد الوضع تماماً ، هرعوا الى الصناعة ، والعلم واستجدوا بهما لانقاذهم من وحل خنادقهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب بسبب استنزاف الطاقة الصناعية الالمانية ، والانتاج الزراعي بسبب الحصار ، لم يفتش المنتصرون عن سلم يتخلصون بموجبه من كل الاسباب الاقتصادية التي ادت الى الحرب . فقد تجاهلوا هذه الاسباب ، وعادوا الى ادارة اعمالهم تبعاً لطرق عام ١٩١٣ ، وعاد معظمهم بالتالي الى التنظيم العسكري ، الذي قادهم بصورة اولية الى الجمود .

وبعودتهم الى ادارة الاعمال ومزجها ، عادت الذبذبات والتقلبات التي عجلت بالحرب الى التجدد مرة اخرى . ففي حين كانت الشعوب في اوروبا غارقة في اضطراب ثوري ، تطور التركيز الصناعي في امريكا بسرعة

هائلة ، حتى ان نصف ثروة الولايات المتحدة انتقلت بين يدي ٢٠٠ شركة كبيرة . وقد زاد تركيز الثروة من الانتاج ، من جهة ، الا انه من جهة اخرى ، اخفق هذا التركيز في زيادة القوة الشرائية للمواطنين ، الذين سيستهلكونه . وانهارت هذه الثروة من جراء الازمة المالية لعام ١٩٢٩ ، وعندما خرج رجال الاعمال من انقاضها ، انتقلت الثروة بين يدي الحكومات .

وفي روسيا ، حدث هذا الوضع من قبل ، عندما خربت تجارب لينين في تطبيق الماركسية الانتاج ، واجبرته على تطبيق نظام رأسمالية الدولة ، وسياسته الاقتصادية الجديدة . وفي ايطاليا حاول موسوليني زيادة القوة الشرائية في دولته النقابية . ثم في عام ١٩٣٣ ، انكبَّ هتلر في المانيا كما انكبَّ روزفلت في امريكا على حل مشكلة مماثلة ، الاول بواسطة نظامه الجديد والآخر بالصفقة الجديدة . ولكن ، بما ان احداً من هؤلاء الانبياء الاقتصاديين المدعين لم يفلح في اكتشاف طريقة موازنة الاستهلاك والانتاج ، فانهم اضطروا الى شن الحرب وذلك للسبب التالي ، كما اشار الى ذلك مومفورد ، عندما كتب يقول : « ان الجيش كتلة من المستهلكين الخالصين ... وهو يميل الى اعادة الفاصلة الزمنية القائمة بين الانتاج الرابح وبديله الى الصفر .... فلكي يكلل الانتاج الكبير بالنجاح عليه ان يعتمد على استهلاك مماثل ، ولا شيء يضمن التعويض والبديل الا التدمير المنظم »[1] .

وفي نهاية المطاف ، جاءت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ . وقتل فيها عدد كبير ، ولكن لم يكن هناك عاطلون عن العمل . فقد شغّل

---

(١) لويس مومفورد :

Lewis Mumford : Technics and Civilisation, pp. 93-94.

الاستهلاك الانتاج ، وادى الدفع الذي اعطي للتدمير الى سيل من الاختراعات المميتة . وكان اهم هذه الاختراعات تطوير الطاقة الذرية كمنبع جديد للطاقة وادخال اجهزة الرقابة الالكترونية التي خرجت منها فنون التوجيه الميكانيكي الذاتي . والغرض من التوجيه الميكانيكي الذاتي هو حلول الماكينات مكان الدماغ البشري . كالغرض من آلة وات البخارية ، ومحرك الاشتعال الداخلي لديملر ، وهو حلول الماكينات مكان العضلات البشرية والحيوانية . ومع التوجيه الذاتي الميكانيكي والطاقة الذرية ، دخلت الثورة الصناعية مرحلتها الثالثة .

ومع ذلك ، عندما توقف القتال في عام ١٩٤٥ مع انفجار اول قنبلة ذرية ، بقيت مشكلة السلام دون حل ، واستمر نظام حالة الحرب . بناء على هذا ، فان السؤال المطروح هو السؤال التالي : هل يؤدي مجتمع الحرب الصناعية اليوم الى مجتمع الغد السلمي ؟

٢ ـ انعكاسات الطاقة الذرية على الحرب

شبه البعض تحول الطاقة الذرية الى قوة متفجرة باكتشاف بارود المدافع . والاستنتاج الذي نستخلصه من ذلك ، انه فضلا عن ان البارود استنكر بعنف ، في تلك الايام ، كما تستنكر الطاقة الذرية في ايامنا هذه ، الا ان هذا السبب لم يكن كافياً لاستبعاد استخدامها تماماً . فقد دخلت المتفجرات الذرية اذن وبصورة نهائية في صلب اخلاقنا . وهذا منطقي ، لان احداً لا يستطيع ان يمنع بروز « لماذا » و « كيف » عندما تطرحان بصدد تقدم جديد للعالم ، ولكن ينبغي ان لا يقبل هذا التقدم العلمي الا بتحفظات كبيرة . ذلك لان من واجبنا تحديد وسائل التدمير المستخدمة للوصول الى نتيجة مفيدة ، ذلك منذ ان ندخل العامل السياسي في كل الحروب ، فيما عدا الحروب

البدائية . فمثلاً ، عندما كان ملك من الملوك يريد ان يعيد باروناته القساة الى صوابهم ، في العهد الذي كان يسود فيه الاقطاع ، كانت المدفعية البدائية لتلك الحقبة ذات قيمة لا تقدر في انتزاع طاقتهم على المقاومة وتدمير قصورهم او احتلالها . ولكن اذا كانت آثار هذه المدفعية المدمرة من القوة والعنف بحيث لم تقتلع قصورهم فحسب ، بل دمرت معها ايضاً خدمهم واقنانهم ، وبساتينهم ومواشيهم في مدى عدة كيلومترات اذا كان مفعول المدفعية وآثارها بهذا الشكل فما الذي يبقى لاعادته الى جادة الصواب . هنا نرى ان الوسائل امتصت الهدف .

وينطبق التفكير ذاته على كل حروب الشعوب المتمدنة ، لان هناك دوماً علاقة بين القوة والهدف . غير انه لا ينبغي ان تكون مبالغاً فيها الى الدرجة التي تقضي عليه قضاء تاماً . وهنا تكمن النقطة الرئيسية للحرب الذرية .

فمنذ ان القيت القنبلة الذرية فوق هيروشيما ، والتي كانت قوتها المتفجرة تعادل ٢٠,٠٠٠ طن من الـ ت. ن. ت. (٢٠ كيلو طن) اخترعت اسلحة حرارية — ذرية ، كالقنبلة الهيدروجينية التي تملك قوة متفجرة تعادل ٢٠,٠٠٠ طن من الـ ت. ن. ت. (ميكاطون) ، حتى انه لم يعد هناك أي حدود لازدياد قوة هذه الاسلحة . وبالاضافة الى هذا ، توصل العالم الى اختراع قذائف ذرية « تكتيكية » حسب ادعائهم ، توازي قوتها ١٠٠ طن من الـ ت. ن. ت. (١) ، الامر الذي يبلبل الفكر . ذلك لان من الصعب تحديد الحد الفاصل بين القذائف الذرية الكبيرة والصغيرة ، فاين يقع هذا الحد ؟

---

(١) Henri A. Kissinger : Nuclear Weapons and Foreign Policy (1957), p. 13.

ويجيبنـــا الحس السليم على هذا السؤال ، بان خط الفصل بينهمـــا هو في وضع الوسائل الخاصة بالهدف الواجب تحقيقه . لكن الحس السليم ، وللأسف ، هو اندر الاحساسات وجوداً في الحرب . فعندما نستخدم سلاحـــاً ذرياً ، لا يمكننـــا الاعتماد على اي مانع يمنعه من النمو في قوته التدميرية الى ان يبلغ حجم الميكاطون . غير اننـــا قدرنا ان هجومـــاً بالقنابل الهيدروجينية « مدته ثلاثون ساعة » يكفي « لكي يقتـــل او يجرح جرحاً بليغـــاً ٣٠ ٪ من سكان الولايات المتحدة » [١] . وهكذا نرى اننا اذا نظرنا الى الحرب الذرية من خلال كـــل هدف معقول على المستوى السياسي ، نرى ان الحرب الذرية المندفعة الى اقصى مداها حرب غير معقولة .

ومع ذلك قبلت الاستراتيجية الامريكية فرضية اساسية تتضمن ان الحرب المقبلة ستبدأ بهجوم ذري من نموذج الهجوم الذي تم على بيرل هاربور . فعلى الولايات المتحدة ان تكون في وضع يمكنها من تدمير الاتحاد السوفييتي قبل ان يتمكن هذا الاخير من تدميرها . وسيكون الامر منطقياً ، اذا كانت السياسة الامريكية تبحث اللجوء الى هجوم ذري بالمفاجأة ، لكن الامر على العكس : فقد اعلنت الحكومة الامريكية جهاراً انهـــا لن تكون اول دولة تستخدم اسلحتها الذرية الى اقصى مدى . ويكمن خطـــأ هذا التصميم في قبول الفكرة القائلة بأن الحرب حرب مطلقة في ايامنا هذه ، وانه ، لكي نربح حرباً من الحروب ، ينبغي ان نقضي على العدو في المستوى السياسي ، ولكي يكون هذا العمل فعالا ، فانه يتطلب احتلال بلاده . ان هذا المفهوم مفهوم رجعي مغرق في رجعيته . فهو عودة الى معارك المدفعية الكبرى للحرب

---

(١)

Frntz Sternberg : The Military and Industrial Revolution of our Time (1959), p. 6.

العالمية الاولى ، حيث كان كل طرف من الاطراف ، يخلق حاجزاً آخر لكي يقضي على حاجز موجود . فليس الهدف هو اجتياز منطقة مليئة بحفر المدفعية قبل ان نستطيع الاستيلاء على الموقع المعادي بل ان نحتل البلد المعادي احتلالاً تاماً وان نديره وهو في حالة لايمكن تخيلها من الفوضى والاضطراب. والخطر في هذه الاستراتيجية القديمة الميتة انها تفتح الباب بصورة واسعة امام الاتحاد السوفييتي لاستغلالها نظراً لاستبعادها كل الاعتبارات السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية . ومع ذلك فان المستر اسحاق دويتشر يرى انه : « ليس هناك على سبيل الاحتمال شعب يعيش في جزء كبير من الحرب الذرية كالشعب الروسي »[١] ، وهذا صحيح بالتأكيد ، اذا لم يكن هناك سبب آخر ينزع من الحرب معناها السياسي ، هذا المعنى الذي هو روح الاستراتيجية الروسية .

ولا يعني هذا الاعتبار ان خروتشوف وزملاءه يخشون من ان تلغي حرب ذرية تخاض الى اقصى مداها الهدف النهائي للشيوعية . فهم يدعون ، في الواقع ، كما يدعي ماركس انه ليس هناك من اكتشاف تقني ، مهما كان قوياً ، يستطيع ان يلغي قوانين التاريخ . ان ما يخشونه هو ان يؤخر حالياً ظهوره بشل الاسس الصناعية التي بني عليها كل مفهوم الجنة الارضية الشيوعية . فسواء أكانت الحرب ذرية أم غير ذرية ، فهي حقيقة من حقائق الثورة الماركسية التي كانت في ذهن خروتشيف . عندما قال : في ذروة « هجوم السلم » ... « ان من يعتقد اننا نسينا ماركس . وآنجلس ولينين يخطىء خطأ

---

(١)

Isaac Deutscher : The great contest : Russia and the West (1966), p. 43.

كبيراً . ان هذا النسيان لن يحدث ابداً ، فهو ضرب من المستحيل (١) » ... وقد فكر في نفس الموضوع ، اثناء حفلة اقامتهـــا سفارة بولونيا في موسكو في عـــام ١٩٥٦ ، عندما قال وهو يتحدث عن الديموقراطية : « اننـــا سنقبركم (٢) » ، فالثرثرات الكثيرة عن الصواريخ لا ينبغي ان تخدع احداً . فهي مجرد تلويح باجهزة اطفاء الحريق ، وموهبته « كرجل – على حافة – الهاوية » هي نوع من الخداع والمزايدة السياسية . وقد كان دويتشر بالتأكيد على حق حينما قال عنه : ليس هناك رجل يخشى الحرب الذرية اكثر منه .

وهذا ما يجعل المعسكرين الذين يتقاسمان عالم الحرب المستترة منفصلين بعضهمـــا عن بعض ، كما في ايام حرب الخنادق ، بمساحة قفراء لا يجرؤ احدهما على اجتيازها . ونصل بهذا الشكل الى نوع من الجمود يخشى الطرفان خرقه ، ويدفع الطرفين المتنازعين الى مضاعفة اسلحتهمـــا الذرية بصورة خارقة للعادة ، ليؤجلا الى ما شاء الله يوم الحساب الاخير ، وذلك لان كل طرف منهمـــا يخشى ان يجرأ الطرف المعادي له على زرع الاضطراب في هذا الجمود .

ونظراً لان الحرب الذرية حرب غير محتملة ، يتبادر الينـــا هنا سؤال ملح ، هـــل سيعود العالم الى الحروب التقليدية ، اي الى هذه الحروب التي تستبعد منهـــا الاسلحة الذرية ؟ والجواب على ذلك بالتأكيد ، اذ لن ينتج عن ذلك تبدلات كبيرة ، فالحرب ستبقى حربـــاً شاملة ، كما كانت الحال في الحرب العالمية الاخيرة . ولا يجب ان نفتش عن جوهر السؤال في نماذج

---

(١)

Denis Healy : à Duand les crevettes apprendront à siffler 4.
International Affairs, Janvier 1956, vol. 32, p. 2.

(٢) كيتسيتغر ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٦ .

الاسلحة ، بل في الهدف الذي يتحكم في استخدامها . ومرة اخرى ، لكي اكرر ما الححت عليه من اول هذا الكتاب الى آخره ، اقول ينبغي ان نتذكر ان الحرب المحدودة هي الحرب التي نشنهـــا لتحقيق هدف سياسي محدود ، محدد بوضوح ، يتناسب تبديد القوة فيه ووضعها في خدمته مع قيمته . وعلى الاستراتيجية بالتالي ان تكون تابعة للسياسة . وقد كتب الدكتور كيسنغر لصالح مواطنيه الامريكيين ما يلي :

« ان الشرط الاولي المسبق لسياسة الحرب المحدودة هو اعادة تضمين العنصر السياسي في مفهومنا عن الحرب . والتخلي عن المفهوم القائل بان السياسة تنتهي عندما تبدأ الحرب او ان الحرب قد تملك اهدافاً متميزة عن اهداف سياسة الامة [١] .

ان مثل هذا التفكير تفكير كلاوزفيتزي خالص .

ففي مطلع هذا القسم اشرنا ، الى خطر دخول الاسلحة الذرية في المجال التكتيكي . ومع ذلك فان هذا هو مـــا حدث حالياً في القوات المسلحة لمنظمة حلف شمال الاطلسي O.T.A.N. وذلك لمقابلة القوة العسكرية التقليدية الروسية المتفوقة الى حد كبير . ويشير الجنرال سير جون كاولي **John Cowley** ان الاسلحة التكتيكية التي ادخلت « تستطيع ان تحمـــل مخروط حشوة متفجرة اقوى بكثير من القنابل التي دمرت هيروشيما او ناغازاكي » [٢] . بناء على هذا فان الروس منطقيون ، بصرف النظر عن دوافعهم اللاحقة ، عندما

---

(١) كيسينغر ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ١٤١ .

(٢)

« Tendances de la guerre future », journal of the Royal united service Institution, février 1960, vol. CV. p. 8.

يؤكدون على عدم وجود حرب ذرية محدودة ، وان استخدام الاسلحة الذرية التكتيكية سيقود بالتأكيد لهجوم جوي كبير [١] . وينتج عن ذلك بالتالي ، ان هذه الاسلحة ستصبح اسلحة للردع ، عندما يتزود الطرفان بها ، الامر الذي يحول فكرة حرب ذرية محدودة الى حرب سخيفة . ولنضع جانبـــاً الحروب التي لا تورط المعسكرين الذريين بصورة مباشرة ، كالحروب بالوكالة او العمليات البوليسية . ويبدو ان الحرب الطبيعية ، سواء أكانت أداة سياسة او تدمير تسير بسرعة الى متحف الاشياء التي تغير نموذجها . لتستأنس برفقة السحر ، وأكل اللحوم البشرية ، والعادات الاخرى التي بطلت في المجتمع وسقطت نهائياً .

وقد رأينا في الفصل السابع ، انه في حوالي نهاية القرن الاخير ، تنبـــأ بلوغ ، صراف فارسوفيا ، بهذه الفرضية . وقد توقع . عندما استخدمت بندقية التكرار ، بان تجعل آثارها التدميرية في الحروب ضعيفة المردود ،حتى يصبح من غير المفيد التفكير فيهـــا . وكان من الممكن ان تكون هذه النظرية صحيحة لو كان الانسان محروماً من العقل . ان استخدام الاسلحة الذرية يشجعه الآن حالة فكرية عقلانية [٢] ، واذا كان من الواجب على الانسان ان يستمر في القتال ، فان عليه ان يفتش عن ساحات لمعاركه في دوائر للنزاع غير الدوائر البدنية . وفي هذا المجال ، نرجو القارىء ان لا ينسى ان مسألة

---

(١) كيسنغر (المرجع المذكور ص ١٧٦) ، يذكر كيسينغر هنا ان هناك انواعاً من الاسلحة الذرية يصعب استبعادها ، كالصواريخ الذرية لمقذوفات الدفاع ضد الطائرات .

(٢) ان اروع استثناء ، هو الانسان السلمي ، الذي تعقلت ثقته اللامنطقية في القضاء على الحرب بالامتناع عن القيام بها ، وهو سياق بسيط ، بتطبيق الاسلحة الذرية واستخدامها .

جمود الحرب العالمية الاولى قد حلت بشكل نهائي بوسائل لم تكن بدنية ، بل كانت وسائل اقتصادية : وهي حصار القوى المركزية .

فمن بين كل الافراد ، ينبغي ان يكون هو الذي يستقبل بفرح اسلحة الردع هذه . الا انه عى العكس يعاديها بتعصب وحماس .

٣ ـ السياسة والحرب الباردة

ماذا نفهم من كلمة « الحرب الباردة » ؟ لقد اعطانا توماس هوبس الجواب منذ زمن بعيد ، في عام ١٦٥١ ، في الفصل الثالث عشر من كتابه Le Léviathan (١)

يقول هوبس : « ان الحرب لا تشتمل في الواقع على المعركة فقط ، او الاشتباك بالايدي ان الحرب قائمة ما دام الطرفان يملكان ارادة القتال بصورة كافية ، ويعبّران عنها بصورة مختلفة. اذن فمفهوم الزمن مفهوم ينبغي اخذه بعين الاعتبار في طبيعة الحرب ، كما نأخذه بعين الاعتبار في الطبيعة عندما يكون الطقس حسناً او سيئاً . وذلك لان طبيعة الطقس السيء لا تكمن في زخة مطر او زختين ، بل عندما يستمر الإمطار عدة ايام متتالية . وكذلك فان طبيعة الحرب لا تتضمن حدث التقاتل الحالي فحسب ، بل انها تتضمن الاستعداد للقتال طيلة الوقت الذي لا نضمن فيه العكس . وكل زمن آخر غير زمن الحرب هو السلم » (٢) .

---

(١) هو كتاب لهوبس ، يشرح فيه مبادئه وهي : الحس ، المادية ، النفعية ، الطغيان ، وكلمة Léviathan تعني وحشاً ضخماً وغريباً .

ـ المعرب ـ

Thomas HOBBES : LEVIATHAN,

(٢) الطبعة الفرنسية (١٩٢١) ص ٢٠٤ .

ان الفرق الوحيد الموجود في ايامنا هو دخول مفهوم القتال بدءً من هذا العصر بعمق في المجال المعنوي والاقتصادي للمعركة . الذي كان درماً اساس كل صراع مادي . وهو امر لا ينكره هوبس ولا يتجاهله . فالهدف الرئيسي من الحرب الباردة ، بالرغم من انها تحدد ساحة الصراع البدني ، اكثر من استبعاده نهائياً ، هو تخريب هذا الاساس ، وكلما ازدادت قوة التخريب ، قلت ضرورة هدم البناء الذي يحمله ، وليس هذا بالشيء الجديد كما سيوضحه مثل موجز . فمن الممكن مهاجمة مدينة محصنة بصورة مادية بفتح ثغرات في اسوارها ، ومن الناحية الاقتصادية بتجويع حاميتها ، ومن الناحية المعنوية بتخريبها . وفي عصر بارود المدافع عندما كان من الصعب جداً تدمير الاسوار ، كانوا كثيراً ما يلجؤون الى الطريقة الثانية والثالثة . وهم يعودون اليوم الى هذه الطرق ، في عصر الانفجارات الذرية ، لان لأسلوب فتح الثغرات نفس الآثار التدميرية المتبدلة المتبادلة .

وقد وعى لينين هذا الموضوع ، كما رأينا ، في محادثات سلم برست ليتوفسك عندما كان شعبه جائعاً ، وكان انصاره منقسمين ، وجيشه عاجزاً عن القتال . ومنذ ذلك الوقت اصبح الاتحاد السوفييتي الدولة الصناعية الثانية في العالم ، واول دولة عسكرية في العالم ، ولكن كما خلقت الاسلحة الذرية جموداً مادياً ، من المحتمل ان تستمر الحرب الباردة ما دام الوضع السياسي مضطرباً . ونستنتج من هذا ، بما ان طبيعة النزاع القائم بين الشرق والغرب هو نزاع بين ايديولوجيتين مماثلتين للايديولوجيتين اللتين فجرتا الحرب الاهلية الامريكية من الممكن ان نعلن في الوقت الراهن على العالم كله بيان لينكولن المشهور لمواطنيه . اذ يمكننا اليوم ان نقول : « ان عالماً منقسماً ومجزءً لا يمكن ان يبقى وان يبقى نصفه على الدوام عبداً ونصفه الآخر حراً . ونحن لا نعتقد ان العالم سينهار ، ولكننا نأمل ان يتوحد . وان يكون

كله متبينـــاً لايديولوجية احد المعسكريين » فماذا سيصبح هذا العالم ؟ ان الجواب يتعلق بسياسات المتنازعين .

ويتكون الفرق الاساسي للسياسات المتبعة من قبل الديموقراطيات وروسيا السوفييتية في مفاهيمهـــا المتعلقة بالسلم . فبالنسبة للأولى يبدأ السلم عندما تنتهي الحرب . وبالنسبة للاخرى فان السلم هو متابعة الحرب بكل الوسائل باستثناء القتال الحقيقي . وبالنسبة للدول الأولى ، تحـــل الخلافات الدولية بالمناقشات . أما بالنسبة لروسيا ، فان المناقشات تزيد من حدتها . فعلى حين تعتمد الحكومة في الدول الديموقراطية على الجماعية ، والتصويت ، ورأي الجماهير تستند الحكومة السوفييتية على الفردية ، وعلى سلطة شخص واحد او اوليغارشية صغيرة (١) والنتيجة لكل هذا ، ان من السهـــل بالنسبة لروسيا ان تعبىء قواتها من اجـــل الحرب لان الادارة فيها ادارة مطلقة لا تتأثر السياسة فيهـــا بالرأي العام الا تأثراً طفيفاً ، بينما يستحيل ، تحقيق هذه الشروط لدى الدول الديموقراطية في غير وقت الحرب . وتتراجع الديموقراطيات امام القوة السوفييتية وتخشى من استغلال صعوباتها لانها كالجمهرة الغفيرة التي تواجه قطعة من العسكريين المنضبطين . فهي تعمل كالديموقراطيات الآثينية عندما هددها الحاكم المطلق فيليب المقدوني .

---

(١) ان رأي المؤلف هنا واضح جداً ، وهو مغالطة كبرى للتاريخ ، ويتناقض كل التناقض مع محتوى تحليلاته في الصفحات الماضية . فالدول التي تسمي نفسها دولاً ديموقراطية هي التي تستعبد الشعوب ، وتقهرها . والسلم بالنسبة اليها سلسلة من الحروب المحدودة تنفجر هنا وهناك لحماية مصالحها . اما السوفييت فدورهم معروف في مكافحة الامبريالية والاستعمار ودعم كل حركات التحرر الوطنية . — المعرب —

« حسناً ! قال ديموستين بصوت جمهوري عندما تعلمون ان فيليب في شيرزونيز CHERSONESE تسارعون فوراً بالامر لارسال النجدات الى هناك . واذا كان في الترموبايلز THERMOPYLES تتعجاون المسير نحوه . واذا كان في مكان آخر ، وأينمـــا كان فانتم تغذون السير خلفه هنا وهناك.انه يلعب بكم في مناوراته ، فأنتم لا تقررون بأنفسكم شيئاً يتعلق بالحرب أنتم لا تفعلون شيئاً ابداً قبل ان تعلموا ان الشيء قد تم او هو في طريقه الى التنفيذ ... لانه لا يمكن ابداً الآن ان نسألكم ماذا سيحدث . وينبغي ان تعلموا جيداً ، انكم اذا لم تركزوا كل اهتمامكم ولم تصمموا على القيام بواجبكم تماماً ، فان الوضع سيكون سيئاً جداً . » (١) .

وكان كيسنغر على صواب حينما قال : « ... من العبث ان نحاول التفاوض مع امة ثورية بحسب الطرق الديبلوماسية « العادية »(٢).وينبغي على الديموقراطيات التي تعرف ان « اكثر اعمال الحكم حسماً التي يستطيع رجل الدولة تنفيذها هو ان يفهم جيداً ... الحرب التي يشرع فيها . » ، وقد الح كلاوزفيتز ذاته على هذه النقطة . وتنطبق هذه الحكمة ايضاً على زمن السلم ، لاننا نعيش عصر ازمة دائمة . وقد الح كلاوزفيتز ايضاً على هذه النقطة فقال : « وينبغي على رجل الدولة ان لا يأخذ الحرب على ما هي ليست عليه ، او يجعل منها شيئاً تمنعه طبيعة الظروف » (٣) . ومن المؤسف بالنسبة للعالم الحر ان رجال الدولة فيه عملوا بهذا الشكل منذ عام ١٩٤٥ .

ينبغي على رجال الدولة في العالم الغربي ان يفهموا انه لا وجود لحل وسط

---

(١)

Demosthènes : Première Philippique, 41-50.

(٢) كيسينغر ، المرجع المذكور ، ص ٣٣٧ .

(٣) راجع الفصل ٤ ، ص ٥٩ .

ممكن مع السوفييت ، ما داموا لا ينفكون عن الأدعاء بان التاريخ يحتم الثورة العالمية . وعليهم ان يتهربوا . بناء على هذا ، من كل المؤتمرات ويفروا منها كما يفر الانسان من وباء الطاعون . ان هذا المؤتمرات لا تتيح منبراً للدعاية الشيوعية فحسب ، بل اننا كما أوضح المستر سافالدور دومادارياكا : « عندما نقبل المناقشة مع هؤلاء الافراد ، الاعداء للحرية .. نخون خط جبهتنا الاول وهو شعوب اوروبا الشرقية ، مقابل « سلم » ليس هو بالسلم الحقيقي »[١]

هذه هي الجبهة الداخلية التي تشكل عقب أخيل في الامبراطورية السوفييتية ، اكثر من الخط الاول . فنصف سكان الاتحاد السوفييتي ليسوا من الروس . ولعدد كبير منهم فكر قومي معارض لنظام موسكو ، ليس هذا فحسب ، بل لقد قدر البعض ايضاً ان اقل من ٥ ٪ من السكان الموجودين خلف الستار الحديدي ، هم الذين يظهرون الولاء والتعاطف فقط لانظمتهم الشيوعية القاسية . وقد رأينا انه كلما حدثت ازمة في الامبراطورية الروسية ، سواء أكان ذلك في زمن القياصرة او في عهد الشيوعية ، كانت الاقليات القومية تتمرد[٢] . وفي كل مرة يبدو فيها ان التعسف والاضطهاد قد لان وتراخى

---

(١)

SALVADOR DE MADARIAGA : The blowing up of the Parthenoon (1960) pp. 91 et 92.

(٢) ان هذا الكلام مجرد هرطقة لا معنى لها من المؤلف . فقد انتهت الطبقية في الاتحاد السوفييتي بعد نصف قرن من الثورة الى غير رجعة . وتتمتع القوميات فيه بحقوق متكافئة . والثورة السوفييتية هي اعظم ثورة انسانية في هذ العصر . بالرغم من أننا لا نقر ما حدث فيها من إرهاب وقسر في عهد ستالين . وهي تعضد حالياً كل حركات التحرر الوطنية في العالم . وفي الحرب الوطنية الكبرى حاربت كل القوميات ضد الفاشيست والمحتلين ولم تتمرد . — المعرب

تقوم الاضطرابات راعمال العصيان في البلدان الواقعة وراء الستار الحديدي . وعلينـــا ان لا ننسى ، انه ابان التمرد الهنغاري لعام ١٩٥٦ ، كان العصاة الوحيدون الذين لم يكونوا هنغاريين وقاتلوا الى جانب المتمردين جنوداً روس فارين من الجيش الروسي .

اذن في الحرب الباردة ، ينبغي ان نفتش عن مركز الثقل البسيكولوجي للامبراطورية السوفييتية ، ويكمن هذا المركز في قلب الشعوب المستعبدة داخل الاتحاد السوفييتي وخلف الستار الحديدي . وينبغي ان نفكر ، بالاضافة الى هذا ، وهذا ما لا نفعله الا نادراً ، ان هذه « القنبلة » البسيكولوجية هي بالنسبة للسوفييت عنصر ردع من عناصر الحرب الحقيقية ، تعادل اهميته اهمية القنبلة الهيدروجينية ذاتها . ان ضعف روسيا قوة لنا ، وقوتها هي جهلنا . وليس هناك رجل فهم ذلك بصورة افضل من نيكيتا خروتشيف . فمـــا هي سياسته في الحرب الباردة ؟

تشتمـــل سياسته على التخلص من مفهوم لينين القائل بان الحرب بين الدول الشيوعية والرأسمالية أمر حتمي ، وعلى استبدال الهجوم بالسلاح بالهجوم الاقتصادي . وكان تبديل التكتيك هو الموضوع الرئيسي للخطباء الرئيسيين في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الذي انعقد في فبراير (شباط) ١٩٥٦ . وكانوا متفقين على القول ، بان اقتصاد الاتحاد السوفييتي والديموقراطيات الشعبية يتطور وينمو تدريجياً . فليس من الضروري اذن ان نعتمد على الحرب كأداة رئيسية من ادوات السياسة . وقد اصبح « التدخل المسلح » كمـــا قال خروتشيف غير ذي جدوى ، لان « حتمية انتصار الشيوعية » مستندة الى الاقتناع بان اسلوب الانتاج الاشتراكي يملك ميزات حاسمة تفضل الاساوب الرأسمالي . وقد اشار ميكويان الى ان الحرب لا تفيد الاتحاد السوفييتي ، لانه

لا نصر لأي طرف من الاطراف في الحرب المقبلة وان « ميزات بناء شيوعية مكللة بالنجاح » و « الصراع من اجل رفع مستوى الحياة » تتناقض تناقضاً مباشراً مع سياسة سباق التسلح واستخدام الموارد في الرجال والمواد الاولية لاهداف حربية ... » والخلاصة ، ان سياسة التعايش الذي اعلنت اليوم رسمياً كمبدأ اول في العلاقات السوفييتية مع الخارج ، تتلاءم في الوقت ذاته مع الضرورات الداخلية ومع الوضع العالمي الراهن ، كمـــا تتلاءم مع مطالب المعركة الطويلة المدى ضد الرأسمالية . » (١) .

بناء على هذا ، فان خروتشيف وزملاءه وجدوا ان من الاجدى لهم محاصرة الرأسمالية وحاميتهـــا ، وتجويعها للقضاء عليها بواسطة التنافس على المستوى الاقتصادي بدلا من الانقضاض عليهـــا بالسلاح ، نظراً لايمانهم بانها سائرة الى الاضمحلال بسبب عدم فاعليتهـــا الداخلية . وبحسب قول بلوخ : « ان الجندي ينزل ، والاقتصادي يصعد . ليس هناك من شك في هذا الموضوع . وقد اجتازت الانسانية المرحلة التي لا يجوز اعتبار الحرب فيها كمحكمة استئناف عرضية » (٢) .

٤ ــ الحرب العالمية الثالثة

في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٨ وضع خروتشوف خطة السبع سنوات الاقتصادية بالاستناد الى هذه السياسة في الفترة ١٩٥٩ ــ ١٩٦٥ . ووصف هذه الخطة « بانها مرحلة حاسمة لجعل مهمـــة الاتحاد السوفييتي مهمة فعلية :

---

(١)

Geoffrey Barraclough et Rachel F. Wall:
Survey of international affairs 1955-1956 (1960), p. 226.

(٢) راجع الفصل ٧ ، ص ...

اللحاق بانتاج اكثر البلدان الرأسمالية تطوراً وتجاوزه في اقصر فترة عرفها وتوفير معدل أعلى من البضائع للفرد الواحد »[١] وأقر المؤتمر الواحد والعشرون للحزب الخطة ، وصادق عليها ٨١ حزباً من الاحزاب الشيوعية والعمالية المجتمعين في موسكو[٢] في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٠ . وأكد خروتشيف في المؤتمر ان السنوات السبع القادمة ستكون حاسمة وان الاتحاد السوفييتي سينتج ، في عام ١٩٦٥ ، بضائع صناعية للفرد الواحد اكثر مما تنتجه المملكة المتحدة او المانيا الغربية . وانه حوالي عام ١٩٧٠ وربما قبل هذا التاريخ، سيتجاوز انتاجه انتاج الولايات المتحدة بالنسبة للفرد الواحد[٣] .

كان هذا اعلاناً بالحرب ، بحرب يكون فيها الهجوم الاقتصادي الأداة البينة للسياسة السوفييتية . فبفضل الرعب الذي اثاره الخوف من حرب ذرية شاملة ، تمحي الجيوش امام المصانع ، وتزول الاسلحة امام المواد المصنوعة ، وتصبح الاسواق ساحات معارك للمستقبل . وتحت شكل مختلف ، كان هذا القول عودة الى الحرب دون اهراق دم الملوك المطلقين ، التي تستهدف الافلاس المالي للخصم بدلاً من تدمير جيوشه . وعلى القارىء ان يرجع الى الفصل ٧ من هذا الكتاب وليعيد قراءة ما كان يقوله اندرو أور في عام ١٨٣٥ عن المنافسة القائمة بين الصناعيين في المرحلة الاولى من الثورة الصناعية لغزو اسواق اجنبية ، والذي كانوا يسمونه « اسلوب النزاع الجديد » . فاذا اعاد القارىء قراءة ما قاله تكونت لديه فكرة عن نوع الحرب التي كان ينوي الاتحاد السوفييتي شنها .

---

(١) ذكر ذلك المؤلف المجهول لكتاب :
The Soviet seven years plan (1960) p. 110.

(٢) انظر الملحق ٧ .

(٣) يستند هذا الادعاء على حتمية بقاء انتاج الغرب في مستوى عام ١٩٥٨

فمنذ عام ١٩٣٩ وصل التصنيع في الاتحاد السوفييتي الى ما يشبه المعجزة . وقد ارتفع معدل ازدياد الانتاج في الولايات المتحدة ، وقد بلغ نسبة ٤٥ ٪ من انتاج امريكا في عام ١٩٥٩ . وتعزى هذه النتيجة في جزء كبير منهـــا الى نفس السبب الذي احدث الزيادة السريعة في انتاج بريطانيا العظمى اثناء المرحلة الاولى من الثورة الصناعية ، اي ان السبب في ذلك هو في اعادة استثمار الارباح في آلات الصناعات بدلا من اقتسامها مع العمال . فعلى حين ، كان فقر العمال البريطانيين ، في هذه المرحلة الاولى ، نتيجة طارئة للمزاحمة بين الصناعيين [١] ، كان هذا الفقر مخططاً في الاتحاد السوفييتي ومن الممكن وصفه بانه « فقر منظم » . وبناء على هذا ، فان المواد الاستهلاكية قليلة ، لانه ليس هناك بالنسبة اليهم الا سوق محدود ، وكمـــا سنرى في الفصل التالي ، كان هذا الفقر المخطط المتعمد جرح الصراع الرأسمالي — الصناعي ، هذا الجرح الموجود في شكله العارض الآن ، والذي لن يدوم الى ما لانهاية .

وبالرغم من النمو السريع للانتاجية السوفييتية ، لا يبدو ان وضع الكتلة الاقتصادية الغربية سيصبح حرجاً ، طالما ان الصين لن تصبح صناعية اكثر مما هي عليه حالياً ، حتى ولو انها استطاعت ايضاً تشكيل كتلة اقتصادية آسيوية خاصة بها ، وخارج نطاق الاتحاد السوفييتي . وعندما نضع الصين جانباً فان المزاحمة السوفييتية لن تشكل الخطر الاساسي ، بل ان افتقار الكتلة الغربية الى التكامل الاقتصادي هو الذي يشكل هذا الخطر .

ان موارد الكتلة الغربية من المواد الاولية كبيرة جداً ، وفي المادة البشرية ايضاً ، التي تعتبر احد العناصر الرئيسية في الانتاج الصناعي — فهي تتجاوز تعداد خصومهـــا بكثير كما نستطيع ان نتبين ذلك من احصاءات تعداد السكان

---

(١) انظر للاستزادة ، الفصل ٧ ، ص ٨٠ .

التالية : الكتلة الغربية : الولايات المتحدة : ١٧٧,٣٩٩,٠٠٠ ، اوروبا الغربية : ٣١٩,٢٢٥,٠٠٠ ؛ كندا — اوستراليا — زيلاندا الجديدة : ٢٩,٧٠٨,٠٠٠ ، الكتلة السوفييتية : ٢٠٨,٨٢٦,٠٠٠ ، والدول التابعة لها : ٨٦,٠٧٩,٠٠٠ اي ان المجموع هو : ٥٢٦,٣٣٢,٠٠٠ مقابل ٢٩٤,٩٠٥,٠٠٠ ، اي ان لديها فائضاً يقدر عدده ٢٣١,٤٢٧,٠٠٠ [١] .

وفي الوقت الحالي ، يكمن تفوق الكتلة السوفييتية على الكتلة الغربية في تنظيمهـــا شبه العسكري . فهيئة الرئاسة العليا (البريزيديوم) هي لجنة رؤساء الاركان ، ويشكـــل الحزب هيئة ضباطها وعمالهـــا في الصناعة ، أمـــا الآخرون فهم جنودها الاقتصاديون . وكمـــا في جيش من الجيوش ، يستطيع « البريزيديوم » بناء خطط دون ان يأخذ الجنود بعين الاعتبار ، ويعتمد على ان ضباطه سيطيعون اوامره بصورة عمياء . هذا هو الفرق الاساسي القائم بين الاسلوبين الاقتصاديين المتعارضين .

ويتطلب الهجوم الاقتصادي تركيز وسائل الهجوم ، كمـــا في الحرب الحقيقية ، وهذا التركيز هو تكامل اقتصاديات الكتلة السوفييتية . وقد كان هذا الموضوع ، بالطبع ، مدرجاً في منهاج المؤتمر العشرين للحزب الذي وضع مخططه خروتشيف في خطوطه العامة بالطريقة التالية :

« يتيح التعاون الاقتصادي الوثيق فرصاً استثنائية لاستخدام الموارد في المواد المصنوعة والمواد الاولية ، بافضل طريقة ممكنة . ويربط مصالح كل بلد من البلدان بمصالح المعسكر الاشتراكي .. وليس من الضروري ابداً اليوم ان

---

(١) مستقى من احصاءات تعداد السكان المعطاة في
The World almanach 1960
وتقع تركيا ضمن اطار الكتلة الغربية ، امـــا يوغوسلافيا فليست موضوعة لا في كتلة الاتحاد السوفييتي ولا في الكتلة الغربية .

ينمي كل بلد اشتراكي مختلف فروع صناعته الثقيلة ، كما فعل الاتحـــاد السوفييتي .... فباعتبار ان هناك الآن وحدة قوية للبلدان الاشتراكية ... تستطيع كـــل ديموقراطية شعبية اوروبية ان تتخصص بتطوير الصناعات وانتاج المواد التي تملك لصناعتهـــا افضل الشروط الطبيعية والاقتصادية ملاءمة . ويخلق مثل هذا التخصص في الوقت ذاته الشروط الاولية الضرورية لتحرير موارد هامة لتطوير الزراعة والصناعات الخفيفة ، ويشبع على اساس هذه القاعدة . ويلبي مزيداً من التلبية المطالب المادية والثقافية للشعوب (١) » .

يعني هذا التصريح انه ينبغي تنظيم اقتصاديات البلدان الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي بشكل لا تقوم فيه باستخدام مزدوج مع اقتصاد الاتحاد السوفييتي ، وان تتحول تدريجياً الى اقسام من ورشة ضخمة . وبما ان لوائح الاسعار غير مقبولة ، من الناحية العملية ، فان الهدف المطلوب هو تشكيل مصنع مولد مشترك ، وفي الوقت ذاته ، اقامة سوق مشتركة . ويستخدم كل الانتاج الذي لن يمتصه ويستهلكه هذا السوق « كذخائر » لقصف الغرب . ويقدر اسحاق دويتشر انه لو انضمت الصين الى هذه الكتلة الاقتصادية ، يولد عندئذ كيان اقتصادي واحد يتمتع بسوق مشتركة اكبر باربع او خمس مرات من سوق امريكا الشمالية ، ويعادل على الاقل ضعف سوق امريكا الشمالية واوروبا الغربية مجتمعين (٢) .

ومما لا شك فيه ان تبديل السياسة هذا يستهدف تخريب اقتصاد الدول الرأسمالية ، لان طليعة الهجوم الاقتصادي السوفييتي ، حتى قبـــل ان يبت

---

(١) ذكرها باراكلو ووول

Cité par Barracloug et WALL dans :
Survey of International Affairs, 1955-1956, pp. 243-244.

(٢) دويتشر ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٥١ .

بأمره بصورة نهاية ، كانت قد قد دخلت الميدان . ففي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٥ ، اثناء حفلة استقبال جرت في موسكو ، قال خروتشيف الى ممثل الصحافة البريطانية ما يلي : « ان اسلوبكم سينهار في المنافسة الاقتصادية مع الشيوعية » [١] . وكتب المستر ويلتون في العام ذاته : « ... هناك بضائع مصدرها روسيا ، وبولونيا ، وهنغاريا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الغربية تدخل الى الشرق الاوسط في شروط تتجاوز قدرة الغرب على منافستهـــا . » واضاف قائلاً : « هذه البلدان ليست مستعدة فقط لاخذ مواد من الشرق الاوسط ، سواء أكانت محتاجة لهـــا ام لا ، بل انها مستعدة ايضاً لمنح تسهيلات في الدفع والإقراض لا تملك ديموقراطية مسؤولة امام المكلفين بدفع الضرائب ، وامام اتحادات حرية التبادل ، وسائل المنافسة فيها . » [٢] .

ويذكر ويلتون ايضاً مـــا قاله المستر جون ديفينيكر ، رئيس وزراء كندا حول هذه المسألة اثناء لقاء انجليزي – كندي في لندن ، بتاريخ ٤ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٨ :

« اصبحت التجارة سلاحاً هاماً من اسلحة الهجوم الذي يشنه العالم الشيوعي . وكان هذا السلاح يقتصر في بادىء الامر على تجارة الاتحاد السوفييتي . اما الآن فيشتمل هذا السلاح على تجارة الصين الحمراء التي تشارك في هجوم التجارة الآسيوية ، وتنوي الاستيلاء على الاسواق . وبهذه الاسواق وبواسطتها تحاول غزو عقول الاحرار في العالم . ان المناورة الشيوعية مخصصة لتدمير

---

(١) ذكر ذلك هاري ويلتون في كتابه :
.The Third World War (1959) p. 6

(٢) ويلتون ، المرجع المذكور ، ص ١٧١ . ومن عام ١٩٥٥ الى عام ١٩٥٩ ، وقد ازدادت التجارة مع البلدان الواقعة خارج الكتلة السوفييتية بحوالي ٧٠ ٪ .

اقتصاد وقوة العالم الحر . » (١) .

والغريب في هذا الهجوم ، ان التنافر الذي يدعي الشيوعيون وجوده في النظام الرأسمالي ، والذي يؤكد ماركس انه سيدمر نفسه بنفسه بدفع داخلي ، قد طبق بشكل « فقر منظم » كقاعدة لتدميره من الخارج بحرمان الدول الرأسمالية من أسواقها .

واذا ربح هذا الهجوم الارض بصورة تدريجية ، تقـل قدرة الدول الغربية على مجابهة التوسع السوفييتي الايديولوجي او المادي . ان هدف لينين من توحيد المانيا والاتحاد السوفييتي ، وان يخلق من هذه الوحدة منظمة جبارة زراعية وصناعية ، هدف يبدو انه سيتحقق قريباً (٢) .

ان انشاء هذه المنظمة هو محور عمـل السياسة الالمانية لخروتشيف . واذا نجح في انشاء هذا العملاق ، فان مـا يبقى من اوروبا الحرة سيقع تحت

---

(١) ويلتون ، المرجع المذكر ، ص ٣١٣ .

(٢) اهداف حرب لينين ، كمـا صاغها عندما وقعت معاهدة برست ليتوفسك السلمية . وقد طبعهـا في عام ١٩٢٤ كارل راديك بشكل مكثف في العدد ٣ من الدولية الشيوعية . ونقرأ في هذا الصدد : « وستنشيء بروليتاريا المانيا الصناعية ، والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ، باتحادها مع روسيا، منظمات زراعية وصناعية قوية تمتد من فلاديفوستوك الى الراين ... قادرة على تأمين حاجاتهـا ، وقادرة على مواجهة الرأسمالية الرجعية في بريطانيا العظمى بعملاق ثوري يزرع الاضطراب في هدوء الشيخوخة للشرق من جهة ، ومن جهة ثانية يضغط على الرأسمالية الخاصة بالبلدان الانجلو — سكسونية . فاذا كان هناك شيء قادر على اجبار الحوت الانجليزي على الرقص ، انمـا هو اتحاد روسيا الثورية مع اوروبا الوسطى الثورية .

Wladimir L. Barine dans : This Terrorism and Yoy (1948), pp. 45 et 46.

رحمة الاتحاد السوفييتي . ويصبح حلم الشيوعية العالمية عندئذ حقيقة حية .

وفي الوقت الذي نكتب فيه هذه الصفحات ، اعلنت وزارة الدفاع الوطني لجمهورية المانيا الاتحادية ان المانيا الغربية هي الساحة الرئيسية لمعارك الحرب الباردة .

« وبحسب رأي هذه الوزارة ، تدار الدعاية في المانيا الغربية من قبل مكتب للجنة المركزية لالمانيا الشرقية تعداده ١٦٠٠٠ عميل من المانيا الاتحادية ، من بينهم مئات المدربين . وقد ارتفع عدد التكتيكات الدعائية التي تجتاز الحدود شهرياً من ٣٢٠,٠٠٠ في عام ١٩٥٧ الى ١٢ مليون . وهناك الآن ٤٥ محطة اذاعة لاسلكية في المانيا الشرقية ، يصل برنامجها التليفزيوني الى عدد من الجماهير الالمانية الغربية اكبر بكثير من عدد الجماهير الالمانية الشرقية . وهناك عدد من المطبوعات الشيوعية غير الشرعية التي تطبع في المانيا الغربية ، منهـا ١ جريدة محلية ، واكثر من ١٠٠ جريدة في المصانع و ٢٥ مجلة » .

وتضيف الوزارة على تصريحها قائلة انه بالاضافة الى ذلك هناك ٨,٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مارك تصرف سنوياً في حملات الدعاية ضد الغرب ، وان هناك ٦٣ حزباً شيوعياً في البلدان الغربية والحيادية يشكل كل منهـا رتلاً خامساً نشيطاً ، ومئات من مجموعات المناضلين ، تديرهم خمس عشرة منظمة عالمية موالية للشيوعية ، تشرف عليهـا لجنة مركزية مقرها براغ ، ويمكن اعتبارها خليفة الكومنترن [١] . تلك هي خليفة « التعايش السلمي » لخروتشيف .

ولمواجهة هذا التحدي السوفييتي ، ينبغي على الدول الديموقراطية ان تفهم ان المشكلة التي لا بد من الاجابة عليها مختلفة كل الاختلاف عن المنافسات

---

(١) التايمز اللندنية العدد ــ تاريخ ٧ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٠ .

التجارية الدولية للازمان القديمة (١) . والتي كانت اهدافهـا اهدافاً اقتصادية صرفة . ان عليهـا ان تجابه اليوم حرباً اقتصادية توجه وتقاد طبقاً للمبادىء العسكرية هدفها الثورة ، وتمثل التجارة فيهـا القوة المسلحة . فنظراً لان الوضع هو على مـا هو عليه الآن ، ستبقى شعوب الدول الديموقراطية مفككة التنظيم ، متفرقة وممزقة ، تفصل بينهـا التعريفات وحصص الاستيراد والتصدير المحددة ، ويقاتل كل شعب في سبيل اسواقه الخارجية . وفي الحرب الاقتصادية الخفية التي تهددهم لا تشكل هذه المنافسات والفتن شيئاً آخر غير الحرب الاهلية الاقتصادية .

ان التكامل الاقتصادي لهذه البلدان يبدو مع ذلك مستحيلا ، الا اذا طبقت هذه البلدان اسلوباً للتبادل فيمـا بينهـا ، متحرراً من موجات ارتفاع وهبوط الاسعار ، وارتفاع وهبوط العملات القوية والضعيفة ، والموازين العامة للحسابات التي تزداد حدتهـا بصورة دورية . وهذا امر لا يمكن تنفيذه الا باسقاط قيمة الذهب ، واعتماد الثروة على منبعهـا الحقيقي : الانتاج . وكما رأينـا ، فان هتلر قدر هذا الاسلوب حق قدره في السنوات القريبة من عام ١٩٣٠ عندما وضع حداً لاضطراب العملة الالمانية مستعينـاً بأسلوب تبادلي وحيد الجانب .

وفي الفترة ذاتها ، انتبه لينين الى الموضوع ذاته ايضاً.وطبقاً لرأي **KEYNES** « قيل انه صرح بان افضل وسيلة لتدمير النظام الرأسمالي ، هو افساد العملة » . ويقدم كينز التفسير التالي:«كان لينين على حق بالتأكيد.فليس هناك من وسيلة

---

(١) باستثناء السياسة الاقتصادية الهتلرية التي كانت احد الاسباب التي عجلت بالحرب العالمية الثانية (راجع للاستزادة الفصل ٢٠ ، صفحات ٢١٨ — ٢١٩) .

أدق ولا اضمن من نشر الفوضى الكاملة في الاسس الموجودة في المجتمع من افساد العملة . وتتطلب العملية ان تستخدم كل القوى المستترة في القانون الاقتصادي لتدميره ، وتتم هذه العملية بشكل لا يكون فيه واحد من بين مليون من الافراد قادراً على تشخيص السبب » [١] .

وقد لجأ لينين الى رأسمالية الدولة التي هي في منجاة من مؤامرات الماليين ، ولا تتأثر عملياً بالعملات الاجنبية . ولا يكمن التناقض المؤكد للنظام الرأسمالي في تحويله الغني الى اكثر غنى ، والفقير الى اكثر فقراً ، بل ان التناقض الرأسمالي هو انه يحمل في ذاته بذور تفككه الذي يغرق الامم ، الواحدة بعد الاخرى ، بصورة دورية في حمى أزمة مالية تزعزع اقتصادها . واذا لم يقض على هذه البذور ، لن يكون هناك منظمة مستقرة لاقتصاديات الدول الرأسمالية ، ولا وحدة سياسية قوية فيما بينها . فاذا كان هذا التشخيص صحيحاً ، فان سلامة الغرب هي بين يديه ، واذا لم ينجح في انقاذ نفسه ، قد يحدث ، كما تنبأ خروتشيف ، ان يوقع الغرب الحكم باعدام نفسه لا شعورياً . في حوالي عام ١٩٧٠ .

٥ – انعكاسات التكنولوجيا على الحياة الاجتماعية

ان مساهمة ماركس في التاريخ الاجتماعي حول تبدل « علاقات الانتاج مع التبدلات الطارئة على « القوى المنتجة » ليس الا طريقة اخرى للقول بان المجتمع يتبدل بتأثير التبدلات التكنولوجية ... وعندما تحدث هذه التبدلات ، فان الصراع الذي ينجم عنهـا لا يقوم بين الطبقات الاجتماعية ، كما قبل ماركس ذلك ، بل يقوم بين المؤسسات الناجمة عن المجتمع الجديد والمؤسسات المقامة من المجتمع القديم .

---

(١) كينز ، المرجع المذكور سابقاً ، ص : ٢٢٠ – ٢٢١ .

عندما حدث الانعكاس الاول للثورة الصناعية ، على الحياة الاجتماعية كانت المؤسسات الاجتماعية لكل الشعوب الغربية ، الحليفة ، تتماثل وتتشابه كثيراً ، نظراً لانهـا كانت تتمتع بحضارة زراعية متطورة تماماً ، غير انها ليست كذلك اليوم . ونرى في الغرب مجتمعـاً حراً من الناحية الاجتماعية ، وفي الشرق مجتمعاً خاضعـاً لرقابة قاسية من الدولة . وفي الغرب اتبع انعكاس الصناعة ورد فعلهـا خطاً تطورياً . وادى ازدياد الانتاجية تدريجيـاً الى ارتفاع في مستوى الحياة . اما في الاتحاد السوفييتي ، فبالرغم من انتاجيته الرائعة ، ونظراً لان سياسته الاقتصادية الثورية تستند الى الفقر المنظم ، فان مستوى حياة الغالبية العظمى من شعوبه قد تحددت بصورة مصطنعة . وينبغي ان نضيف الى ان المشكلة قد تعقدت فضلاً عن ذلك بانعكاس الشيوعية على الصين ، التي هي اليوم ايضاً في نفس المرحلة التي وجد فيهـا الاتحاد السوفييتي منذ جيل كامل .

ومنذ مطلع القرن الحالي ، اخذ تطور الصناعة في الولايات المتحدة ، وتطورها بدرجة اقـل في بريطانيا العظمى ، وفي اوروبا الغربية يتجه اتجاهاً مضاداً لمـا تنبأ به ماركس ، وهو الاتجاه القائل بزيادة غنى الاغنياء ، وزيادة فقر الفقراء ، فبدلاً من ذلك اتجه ماركس الى العكس تماماً . ويتجه اليوم في هذا الاتجاه ايضاً اكثر من اي يوم مضى . فقد زادت دخول الجماهير العمالية زيادة منتظمة ، وتقلصت دخول الاغنياء . وفي امريكا بلغت اجور العمال في كثير من الحالات دخول الطبقات المتوسطة . وليس هناك من مؤشرات تدل على ان هذا التوزيع الجديد للثروة سيتوقف . وفي مستقبل من الممكـن توقعه ، سيقضي على الفقر ، في الولايات المتحدة اولا ، وفي اوروبا الغربية فيما بعد ، وسيزول في الوقت ذاته مفهوم بروليتاريا ماركس التي بنى عليها نظامه الاقتصادي الافتراضي ، في جزء كبير منه .

وقد زادت حدة تطور مشروع الدولة الذي تبدى في الولايات المتحدة اثناء مرحلة الصفقة الجديدة New deal ، متطابقاً مع هذا التطور الذي لا يعتبر ماركسياً البتة ، نقول لم تزد حدته في هذا البلد فحسب ، بل في اوروبا الغربية ايضاً . وتعزى هذه النتيجة الى التدخل المتزايد للدولة في المشروعات الصناعية ، التي يتجاوز تمويلهـا وسائل المشروعات الخاصة ، وتعزى ايضاً الى الحكومات الغربية المضطرة لاعالة اعداد كبيرة في زمن السلم ولتمويل الجزء الاكبر من عتاد البحث العلمي الذي ترتبط فيه . وبناء على ذلك فان الاتجاه الحالي هو تنمية مشروع الدولة ، والاقلال من المشاريع الخاصة . وقد زاد التقدم التكنولوجي الذي يتم يومياً ، من سرعة حركة هذين التحولين في التطور ، وهما القضاء على الفقر من جهة ، وتقوية اشراف الدولة علـى الصناعة من جهة اخرى .

اما في الاتحاد السوفييتي فيلاحظ تبدل مختلف تمام الاختلاف . فليس هناك تطوير للماركسية سواء اكان تطورياً او ثورياً . ان ما نحس به انما هـو انحدارها المتواصل .

فعندما خلف خروتشيف ستالين ، لم يكن يجهـل ابداً ان الرعب يحول دون تحقيق الهدف المقصود . فلقد كان هو وزملاؤه ، لا يعيشون في خوف دائم من التصفية المفاجئة طيلة حكم الاستبداد الستاليني فحسب ، بـل ان الرعب كان يشل ايضاً المبادأة الضرورية للحفاظ على قوة التصنيع وجودته . ولم يكن هو وزملاؤه هم الذين بادروا الى تعديل الماركسية ، دينهم ، ان لم نقل التخلي عنها ، بل ان تقدم التقنية اضطرهم الى تخفيف الاستبداد القائم بإتاحة اكبر حرية للشعوب الروسية .

وفي منتصف القرن ، ولد التصنيع في روسيا ، تحت ضغط مطالبها واحتياجاتها الداخلية طبقة وسطى من العلماء والفنيين ، والاطارات الادارية الخ .... شحذت كفاءاتها الاجور العالية الى حد كبير ، كما في البلدان الرأسمالية . ويصل مكسب البعض منهم اليوم الى مليون روبل (٢٧٥,٠٠٠ فرنك) في العام الواحد ، وهناك عدد هائل آخر يصل الى عدة مئات الالوف . ويشكل هؤلاء الاغنياء الجدد باوتوقراطية إدارية وتكنولوجية ، ويمثلون بالتأكيد نماذج للجيل الصاعد من الشبيبة الروسية المتعلمة .

ان الماركسية تقيد هؤلاء الشباب ، ولا يستطيعون ان يجدوا منافذ لتحقيق طموحهم بفضل مؤسسات ديموقراطية ، على عكس الشبيبة الغربية . وهم يبدؤون في التفكير تبعاً للمنحة التي يتقاضونها نظراً لانهم قد تكونوا على التفكير تبعاً للبيان الشيوعي . وكلما تقاضوا مزيداً من الروبلات اجراً لهم ، كلما زادت مطالبهم منها . فماذا سينتج عن هذا ؟ لن ينتج عن ذلك تمرد مضاد للشيوعية ، بل رد فعل ضد « الفقر المنظم » . ومع رد الفعل هذا ، ينهار المفهوم القائل بان البروليتاريا تستطيع ان تتحول الى طبقة حاكمة . والآن ، بما ان الروس يتعلمون ، فان الطبيعة البشرية ستتأكد من جديد . وستصبح اكثر العناصر تعليماً من الجماهير ،المشتل الذي تنمو فيه بورجوارية جديدة ستقوض الماركسية .

وقد اكد هذه الفرضية المستر افريل هاريمان والسير فيتزوف ماكلين ، في الوقت ذاته . ووجد الاول ان الاكاديميين من اساتذة التعليم واعضاء اسرة التعليم بدؤوا « يعبرون عن شكوكهم في بعض المبادىء العلمية المدعاة للماركسية » ، وفي الجامعات وفي المدارس الفنية الكبرى « هناك ايضاً نوع من اللامبالاة إزاء العقيدة الماركسية » ، « وحتى الشؤون الخارجية ، اصبح توفيق العقيدة الماركسية فيما يتعلق بالانحطاط الحتمي للرأسمالية مع الوضع في

الخارج من اصعب الاوضاع . ويزداد تشاؤم الطلاب السوفييت بصورة مؤكدة، لانهم يحصلون على مزيد من المعلومات عن الحياة خارج حدودهم»[١].

ويقارن فيتزوف ماكلين بدوره الدولة الحالية للاتحاد السوفييتي بانجلترا في العصر الفيكتوري اثناء المرحلة الاولى من الثورة الصناعية : تصنيعهـــا السريع ، توسعهـــا الاقتصادي المفاجىء ، تضحية عمالها ، وظهور طبقة بورجوارية غنية مرتبطة بحقوقها المكتسبة . فقد كتب يقول .

« ولكن ، سيقول القارىء ؛ هؤلاء الافراد المحترمون ، اليسوا كلهم شيوعيين ؟ انهم شيوعيون كالمسيحيين الذين عاصروا الملكة فيكتوريا . وهم يحضرون اجتماعات الحزب الشيوعي ، والمؤتمرات التي تنعقد لبحث الماركسية — اللينينية بفواصل منتظمة ، تماماً وبنفس الطريقة التي كان فيهـــا افراد العصر الفيكتوري يذهبون الى القداس يوم الاحد من كل اسبوع . فهم يؤمنون بالثورة العالمية بصورة عمياء مثل اولئك الاشخاص الذين كانوا يؤمنون بعودة المسيح الى الارض ، ويطبقون مبادىء الماركسية على حياتهم الخاصة تقريبـــاً ، كما كان معاصروا عهد الملكة فيكتوريا ينفذون عملياً وصايا الموعظة على الجهل »[٢] .

فاذا كانت هذه الانتقادات صحيحة ، وليس هناك اي مبرر للشك فيها ، يبدو اذن ان التكنولوجيا في طريقهـــا الى تحويل الماركسية الثورية الى بعث للبورجوارية . فعلى حين تتخلى الشعوب الغربية عن المشروع الخاص وتتمسك

---

(١) افريل هاريمان ، وسير فيتزوف ماكلين :
Peace with Soviet Russia ? (1960) pp. 130-131.

(٢)
Fitzov Maclean : Black to Bokhara pp. 62-63.

بمشروع الدولة ، يبتعد الاتحاد السوفييتي عن رقابة الدولة واشرافها ويتحول الى نظام اجتماعي جديد فيه حرية اكبر .

فهل تتلاقى هاتان الحركتان ام انهما ستتقاتلان حتى الموت ؟ ! !

٦ – مشكلة الصين

قد يكون من المحتمل لبحث مشكلة الصين ان نجد الرد عليهـا في العلاقات التي ستقوم في المستقبل بين الصين والاتحاد السوفييتي .

فالصين ليست دولة تابعة للاتحاد السوفييتي . انها شريك عقائدي له ، ولكن مع فرق واحد . فعلى حين خرج الاتحاد السوفييتي من مرحلة التصنيع التي تمت بالقسر والتي قام بهـا ستالين ، ما زالت الصين تعاني اهوال مرحلة مماثلة ، وهي ميالة بناء على ذلك الى العمل المباشر . وهي اليوم يائسة من حرب اقتصادية لا امل منهـا . وقد دخل ماوتسي تونغ ايضاً ، ستالين الثورة الصينية ، في نزاع مع شريكه خروتشيف ، حول موضوع سياسته في التعايش السلمي التي تستبعد كل امكانية للحرب . وعبر عن ازدرائه لها عندما صرح بان الصين لا ترعبهـا ابداً اخطار حرب ذرية شاملة ، وان في وسعها احتمالها ولو خسرت فيها ١٠٠ مليون صيني . وفضلا عن وجود لغو تبجحي في هذا التصريح نظراً لافتقار الصين الى الاسلحة الذرية [1] ، الا ان هذا التصريح يكشف مع ذلك وجود ضرورة بيولوجية هائلة للحرب تتأتى من الفرق الاساسي بين الصين وروسيا .

---

(١) اصبحت الصين الآن دولة تملك القنبلة الهيدروجينية بالاضافة الى القنبلة الذرية . وفي عام ١٩٦١ تاريخ المرحلة التي انتهت فيها دراسة المؤلف التاريخية لادارة الحرب ، لم تكن الصين قد دخلت بعد في عداد الدول الذرية .

– المعرّب –

فعلى حين لم تعاني روسيا ابداً من صغر رقعة الارض بالنسبة لعدد السكان الذين يتزايد عددهم ، نجد ان الصين بلد مشبع من الناحية الديموغرافية ، وعليه ان يتوسع او ينفجر . وفي روسيا ، سكان يتألفون من ٢١٠ مليون مواطن يملكون ٢٢ مليون كم٢ من الارض ، بينما يبلغ تعداد سكان الصين ٨٦٠ مليون ، ويملكون ما يقارب من ١٠ مليون كم٢ من الارض . وبالاضافة الى ذلك يتزايد عدد سكان الصين بمعدل سنوي يبلغ ١٢ مليون ، اي ٤ اضعاف معدل زيادة عدد السكان في الاتحاد السوفييتي .

ان هذا الفرق البيولوجي الاساسي ، المقترن بتطور الاقتصاد الصيني ، ينبغي ان يعطي لخروتشيف ولرفاقه مشاغل جدية ، لانهم يرون على حدودهم الشرقية شبح عملاق صغير ، يستطيع ان يذهب للتفتيش عن ارضه الموعودة في اراضي روسيا الآسيوية التي ينتشر فيها السكان هنا وهناك بصورة غير منتظمة ، وذلك قبل ان ينهي نموه تماماً .

ويؤكد المستر آلدي ستيفانسون ما قلناه حتى الآن ، فيمـــا كتبه في **النيويورك تايمز** عدد ٢ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٥٨ ، اثر عودته من رحلة قام بها الى الاتحاد السوفييتي :

« ذات يوم طلبت الى موظف كبير .. (ما هي ارقام الولادات في الصين ؟) واضفت الى سؤالي ، ان شعب الصين اذا مـــا استمر في الزيادة بمعدل زيادته الحالية ، يبدو الاتحاد السوفييتي في يوم من الايام لجارته اكبر ارض صحراوية في العالم . فرد الموظف الكبير دون تردد قائلا : « آه ! ها هنا يكمن الشاغل الاول » .. وقد لاحظت انه في كل مرة تقدر فيها لجنة من الامم المتحدة سكان الصين في عام ٢٠٠٠ بـ ١,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من السكان ، كانت علائم الدهشة تبدو بشكل آلي على وجوه الروس ، ولم افاجأ ، في مناسبتين اثنتين ، عندما

رفع الموظفون الروس بمهارة اقداحهم المليئة بالفودكا واجابوا : « انه سبب آخر لتحسين العلاقات الامريكية السوفييتية » .

وبحكم الموقع الذي يحتاه الاتحاد السوفييتي بين جبهتين ، الن يجد نفسه مضطراً اذا ما هددته الصين في يوم من الايام بقوة ساحقة ، ان يستبدل بسياسة التعايش السلمي الشيطانية مع الغرب ، تحالفاً دفاعياً مع الغرب يستهدف منه المحافظة على بقائه ؟ مثل هذا التحالف يرتبط بالطبع بطريقة احساس الدول الغربية ذاتها بالخطر الاصفر ، واذا مـــا كان الاتحاد السوفييتي سيخضع امام قوة الصين . ولكن ليس هناك من شيء يجافي المنطق لو ادعينا ان في وسع الغربيين عندئذ ان يوافقوا على مثل هذا التحالف اذا كانت شروطه هي تحرير اوروبا الشرقية واعادة توحيد المانيا (١) .

ان مثل هذه التحالفات وهذه الانقلابات التي تبدو غير متطابقة ليست مجهولة من التاريخ .

وهناك حل بديل ممكن يتحاشى ان يجعل من روسيا عدواً للصين .

فبدلا من ان يتوسع الصينيون في روسيا الآسيوية في وسعهم ان يتوسعوا في الجنوب الشرقي الآسيوي وفي اندونيسيا التي تقل كثافة السكان فيها عن الصين ، ومنها تتوسع الصين الى غينيا الجديدة واوستراليا ، وزيلاندا الجديدة

---

(١) ان الانجلو سكسون والغربيين يضعون اهدافهم في احتواء روسيا في المستقبل بقيام حرب بينهـــا وبين الصين . وهم يبذلون كل جهودهم لنشر بذور الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتي . وفي كليات الاركان ومدارس الحرب العليا في انجلترا وامريكا واوروبا يضعون هذا الاحتمال كحل وحيد امامهم لتصحيح السلم حسب ادعائهم — في شرق اوروبا — وفي العالم كله .
— المعرب —

التي تملك مجتمعة ما يعادل مساحة الصين كلها ويقطنها ١٣,٦٠٠,٠٠٠ مواطن ، اي جزء من خمسين من عدد السكان الحاليين للصين ! .

وقد تجد الصين ان من الافضل لها ان تتوسع بدلا من ان تنفجر عندما يصبح التضخم السكاني فيها ، وهو السبب البيولوجي للحرب ، امراً لا يمكن احتماله ، وعندما ستجد نفسها مالكة للاسلحة الذرية ، وهو سلاح لا بد من ان تحصل عليه في يوم من الايام . وبهذا الشكل تفجر حرباً تقليدية في جنوب شرق آسيا . وستضطر هذه السياسة الدول الغربية وروسيا الى التدخل . وعندئذ تضع ماوتسي تونغ موضع الاختبار باللجوء الى الحرب الذرية .

ان مثل هذا الاحتمال ينبغي ان يقلق خروتشيف ،لانه فضلا عن ان الصين تستطيع ان تتحمل خسارة ١٠٠ مليون من شعبها المسكين ، وهي خسارة ستشكل ميزة بالنسبة اليها ، على المستوى البيولوجي ، الا ان مثل هذا العمل ايضاً سيكون من الناحية البيولوجية مأساة للاتحاد السوفييتي .

* * *

ملحق ١

لينين والفلاحين

يقترب تقدير لينين للفلاحين كثيراً من تقدير ماركس الذي كان يزدريهم ويلقبهم بـ « الريفيين البلداء » . وقد أبرز ذلك بوضوح في مقال طويل كتبه في عام ١٩٠٥ ، بعنوان : « تكتيكا الاشتراكية الديموقراطية » ، وفي مقال بعنوان : « موقف الاشتراكية — الديموقراطية ازاء الحركة الفلاحية » طبعه في العام ذاته . وقد استعرنا التفاصيل التالية من مقاله الاخير :

« ... لنفترض ان عصيان الفلاحين قد انتصر . تستطيع لجان الفلاحين الثورية .. ان تقوم بمصادرة الملكيات الزراعية الكبرى ، على مشيئتها . ونحن نقف الى جانب المصادرة ... ولكن لِمَنْ ننصح باعطاء الاراضي المصادرة ؟ نحن لا نقيد ايدينا حول هذه النقطة ابداً ، كما اننا لسنا مقيدي الايدي ... فسيكون هناك دوماً تحالفات رجعية في الحركة الفلاحية ، ونحن نعلن عليها الحرب مقدماً ... فمسألة معرفة لمن وكيف توزع الاراضي المصادرة ، مسألة يمكن ان تصبح احد اسباب هذا الصراع . ونحن لا نحاول ان نخفي هذه المسألة ، ولا نعد بتوزيع متكافىء و « بالجماعية » الخ .. وسنقول ان علينا هنا ان نقاتل ايضاً ، وان نقاتل من جديد ، وسنقاتل على ارض جديدة ومع حلفاء جدد . وينبغي ان لا يساوركم اي شك ، لاننا سنسير مع البروليتاريا الفلاحية ، ومع كل الطبقة العاملة ضد **البورجوازية الفلاحية** .. »

« وسنبدأ بدعم الفلاح بصورة عامة حتى النهاية ، وبكل الوسائل ، بما

فيهـــا وسيلة مصادرة الارض ضد ملاك الارض . وسندعم فيمـــا بعد (او بالأحرى في الوقت ذاته) البروليتاريا ضد الفلاح بصورة عامة .. وليس في وسعنا ان نقول ، ولن نقول . **إلا شيئاً واحداً** : سنساعد بكل قوانـــا الفلاحين للقيام بالثورة الديموقراطية ، **حتى يسهل علينا** نحـــن ، حزب البروليتاريا ، الانتقال باسرع ما يمكن لتنفيذ مهمة جديدة واكبر للثورة الاشتراكية .. » .

« وستكون بروليتاريا المدن ، والبروليتاريا الصناعية حتمـــاً النواة المركزية لحزبنا العمالي الاشتراكي الديموقراطي ، غير ان علينـــا ان نجذب الى حزبنا كل العمال وكـــل المستغَلين (بفتح الغين) دون استثناء ، ونعلمهم وننظمهم : الصناع الفقراء ، والشحاذون ، والخدم ، والمتشردون ، والعاهرات ، شريطة ان ينضموا الى الحزب الاشتراكي ـــ الديموقراطي ، لا العكس ، وان يكونوا هم الذين يتبنون وجهة نظر البروليتاريا ، لا ان تطبق البروليتاريا وجهة نظرهم . » (١) .

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، الطبعة الفرنسية (١٩٤٨) ، جزء ١ ص ٥٤٠ .

ملحق ٢

النقاط الاربعة عشرة ، والمبادىء الاربعة والتوجيهات الخمسة للرئيس ويلسون

النقاط الاربعة عشرة (٨ يناير ١٩١٨)

١) « تبرم معاهدات السلام بصورة علنية ، ولا يعقد بعدها اية اتفاقات دولية خاصة ، مهما كانت طبيعتها ، غير ان على الديبلوماسية ان تلجأ إلى المفاوضات بصورة علنية وصريحة . » .

٢) « احترام الحرية المطلقة للملاحة في البحار خارج المياه الاقليمية ، في السلم وفي الحرب ... » .

٣) « ازالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب بقدر الامكان ... » .

٤) « اتخاذ كل الضمانات الكافية لخفض التسلح الى القدر الكافي للمحافظة على الامن الداخلي للبلاد » .

٥) « تسوية المنافسات الاستعماريةمع مراعاة رغبات السكان ومصالحهم ، بصورة متجردة » .

٦) « الجلاء عن كل الاراضي الروسية .. وردها الى روسيا ، ومنح روسيا فرصة تثبيت استقلال تطورها الخاص السياسي والوطني دون حواجز او معوقات ... واستقبالها بصورة صادقة في منظمة الامم الحرة .. واتاحة اكبر عون لها مهما كانت طبيعته ار اذا كانت راغبة فيه .. » .

٧) « الجلاء عن بلجيكا .. والمحافظة على سيادتها .. » .

٨) « تحرير كل الاراضي الفرنسية ، واعادة كل الاجزاء التي تم احتلالها » « اعادة الالزاس واللورين الى فرنسا » .

٩) « تعديل » الحدود الايطالية بما يتفق مع توزيع القوميات الايطالية » .

١٠) « تقسيم النمسا والمجر تقسيماً يتفق مع توزيع قوميات الامبراطورية »

١١) « الجلاء عن رومانيا ، وصربيا ، ومونتينغرو ، واعادة الاجزاء المحتلة منهـا . ومنح صربيا منفذاً الى البحر » .

١٢) « منح اجزاء الامبراطورية العثمانية الحالية السيادة والامن ، وقصر حكم الاتراك على رعايا من جنسهم ، ومنح القوميات الاخرى التي تعيش في ظل الامبراطورية حق الحكم الذاتي . وتقرير حرية الملاحة في مضيق الدردنيل بضمانات دولية » .

١٣) « تشكيل دولة بولونية تشتمل على الاراضي التي يسكنهـا البولونيون وتأمين منفذ لهـا الى البحر ... » .

١٤) « انشاء جمعية عامة للامم بموجب مواثيق خاصة تستهدف اتاحة ضمانات متبادلة لتأمين الاستقلال السياسي والاقليمي لكل هذه الدول الصغيرة »

* * *

المبادىء الاربعة (١٨ فبراير) شباط (١٩١٨)

١) « تطابق كل جزء من التسوية النهاية بصورة وثيقة مع الشروط التي تفرضها العدالة في كل حالة خاصة .. » .

٢) « ينبغي ان لا تكون الشعوب ، والمقاطعات هدفاً للأخذ والرد تتبادلها الحكومات كما يتبادل الافراد الاملاك المحجوزة .. » .

٣) « لا تتم اية تسوية اقليمية في هذه الحرب لا تتجاوب مع مصالح الشعوب المعنية بهـا ، ولا تكون شرطاً بسيطاً للتسوية بين دول متنافسة .

٤) « تحقيق مطامح كل قومية من القوميات ضمن حدود الامكان ، وبشكل يتجنب اسباب الفتنة والصراع .. » .

* * *

التوجيهات الخمسة (٢٧ سبتمبر ايلول ١٩١٨)

١) يؤكد التوجيه الاول على اتباع عدالة متجردة بين الامم الصديقة والمعادية

٢) يستنكر التوجيه الثاني كل المصالح الفردية والخاصة .

٣) يوصي التوجيه الثالث بعدم إبرام اتفاقات خاصة ضمن إطار عصبة الامم .

٤) يمنع التوجيه الرابع كل تعاون اقتصادي ذي مصلحة خاصة ضمن اطار عصبة الامم .

٥) يؤكد التوجيه الخامس تحريم ابرام المعاهدات السرية .

* * *

الملحق ٣

ميثاق الأطلنطي

التصريح المشترك للرئيس ولرئيس الوزراء بتاريخ ١٢ من اغسطس (آب) ١٩٤١

اجتمع رئيس الولايات المتحدة الامريكية ورئيس وزراء بريطانيا المستر تشرشل ممثلاً عن حكومة جلالته في المملكة المتحدة ، وبعد لقائهما وجدا ان من واجبهما اعلان بعض المبادىء المشتركة لسياسة بلديهما القومية ، وهي المبادىء التي يبنيان عليها آمالهما في تهيئة مستقبل افضل للعالم :

١ — ان بلديهما لا يسعيان الى اي توسيع اقليمي او اي غرض آخر .

٢ — وهما لا يرغبان في تحقيق اي تبدل اقليمي لا يكون مطابقاً لارادة الشعوب المعنية بهذا التبدل ، تعبر عنه بمنتهى الحرية .

٣ — انهما يحترمان حق كل الشعوب في اختيار شكل الحكومة التي يريدون ان يعيشوا في ظلها . وهما يأملان بعودة حقوق السيادة ، وحق الحكم المستقل للامم التي جردت من هذه الحقوق بالقوة .

٤ — وهما يجتهدان ويسعيان ، مع احترامهم التام لالتزاماتهم الحالية ، لمساعدة كل الدول ، الكبيرة او الصغيرة ، الغالبة او المغلوبة ، وعلى قدم المساواة في الحقوق ، بان تنال حقها في التجارة ، وفي المواد الاولية الضرورية لرخائها الاقتصادي .

٥ – وان بلديهمـا يرغبان في اقامة التعاون التام بين كل الامم في الميدان الاقتصادي ، لتأمين افضل شروط العمل لهـا ، وتوفير وضع اقتصادي افضل ملاءمة ، ولتحقيق الامن الجماعي .

٦ – وهما يأملان ، بعد التدمير النهائي للطغيان النازي ، عودة سلم يتيح لكل الامم وسائل العيش بأمان داخل حدودهم الخاصة ، ولمواطني كل البلدان ضمان قضاء آخر ايامهم في ملجأ من الخوف ومن الحاجة .

٧ – وينبغي ان يسمح مثل هذا السلم لكل البشر باجتياز البحار والمحيطات دون اية معوقات .

٨ – ويؤمن البلدان بأن على كل امم العالم ، سواء لأسباب مادية صرفة ، او لأسباب روحية ، ان تتوصل الى الامتناع عن استخدام القوة . نظراً لانه لا يمكن ان يكون هناك سلم ،دائم اذا استمر استخدام السلاح في البر ، وفوق البحار ، وفي الأجواء ، من قبل دول تهدد او تستطيع ان تهدد امن هذا السلم بلجوئها الى العدوان خارج حدودها . وان هذين البلدين مقتنعان بضرورة نزع سلاح مثل هذه الدول ، الى ان تم اقامة نظام للامن العالمي اوسع واكثر ثباتاً . وسيساعد البلدان وسيشجعان ايضاً كل التدابير العملية الاخرى القادرة على تخفيف العبء الضخم الذي يسببه تسلح الشعوب المتعشقة للسلم .

* * *

ملحق ٤

ميثاق الأمم المتحدة

بيان مشترك للولايات المتحدة الامريكية ، والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى ، وايرلنده الشمالية ، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والصين ،واوستراليا ، وبلجيكا وكندا وكوستار ريكا ،وكوبا ،وتشيكوسلوفاكيا وجمهورية الدومينيكان ، والسلفادور ، واليونان وجواتيمالا وهايتي وهند وراسي ، والهند ، ولوكسمبورغ ، والبلاد الواطئة ، وزيلانده الجديدة والنيكاراجوا ، والنورويج وبناما وبولونيا وافريقيا الجنوبية ويوغوسلافيا .

نحن الحكومات الموقعة ادناه

بعد ان ارتضينا بالمنهاج المشترك للاهداف والمبادىء المتضمنة في التصريح المشترك لرئيس الولايات المتحدة الامريكية ولرئيس وزراء المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلنده الشمالية ، الصادر بتاريخ ١٤ من اغسطس (آب) ١٩٤١ ، والمعروف باسم ميثاق الاطلنطي .

وبعد اقتناعنا بضرورة تحقيق انتصار تام على اعدائنا ، للدفاع عن وجودنا ، وحريتنا ، واستقلالنا ، وحريتنا الدينية ، وللمحافظة على حقوق الانسان ، وعلى العدالة في بلداننا وفي البلدان الاخرى ، ونظراً لقناعتنا

بانـــا مشتبكون منذ الآن في معركة مشتركة ضد قوى وحشية وشرسة تستهدف استعباد العالم .

في سبيل هذه الغايات نصرح :

١ – تتعهد كل حكومة بوضع كل مواردها العسكرية او الاقتصادية ضد اعضاء الحلف الثلاثي او المنضمين اليه ، والذي تدخل هذه الحكومة في حرب ضدهم .

٢ – تتعهد كل حكومة بالتعاون مع الحكومات الموقعة على هذا التصريح بعد إبرام اي هدنة او سلم منفصل مع الاعداء .

وفي وسع الامم الاخرى التي تتعاون او تستطيع التعاون بمساعدة وبعون ماديين تقدمه للمعركة لقهر الهتلرية ، ان تنضم الى هذا البيان .

* * *

ملحق ٥

المؤتمر الشيوعي المنعقد بموسكو

المؤتمر الشيوعي المنعقد بموسكو في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٠

ان الفقرات المذكورة فيما يلي مستقاة من البيان الذي اعلنه ٨١ حزباً شيوعياً وعمالياً اثر انتهاء مؤتمرهم الذي انعقد بموسكو في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٠ ، كما لخصتها التايمز اللندنية في ٦ من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٠ .

« ان انتصار الاشتراكية التام أمر حتمي » .

وان مسيرة التطور الاجتماعي تبرهن صحة نبؤة لينين من ان البلدان الاشتراكية المنتصرة ستؤثر على تطور الثورة العالمية ، وبخاصة بسبب بنيتها الاقتصادية .

وان اللحظة التي ستلعب فيها الاشتراكية دوراً في التطور العالمي أهم من دور الرأسمالية ليست بعيدة . وستقهر الرأسمالية في الدائرة الحاسمة للمشروع البشري ، وميدان الانتاج المادي .

ان اسلوب الرأسمالية العالمية يمر بسياق عنيف من التفكك والانحطاط . إن النزاع القائم بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في البلدان الرأسمالية لم يكن ابداً أكثر حدة منه الآن . وتعوق الرأسمالية باستمرار استخدام منجزات العلم والتكنولوجيا الحديثين .

وان الطبيعة الفوضوية للانتاج الرأسمالي اصبحت اكثر وضوحاً من ذي قبل.

وان المسيرة غير المنظمة للتطور الرأسمالي تبدل باستمرار توازن القوى بين الدول الامبريالية ... وتصبح مشكلة الاسواق اكثر حدة من ذي قبل .

وان الرأسمال الذي تحتكره الولايات المتحدة عاجز كل العجز عن استخدام كل قوى الانتاج تحت تصرفه . وقد اصبح اغنى بلد من البلدان المتطورة في العالم ، بصورة خاصة ، قطراً تسود فيه البطالة المزمنة .

وان نجاح سياسة التصنيع الاشتراكي قد احدثت دفعاً اقتصادياً كبيراً في البلدان الاشتراكية التي تطور اقتصادها بسرعة اكبر من البلدان الرأسمالية .

وسيصبح الاتحاد السوفييتي القوة الصناعية الاولى في العالم ، كما ستصبح الصين دولة صناعية قوية . وسينتج النظام الاشتراكي اكثر من نصف الانتاج الصناعي في العالم .

وان الحل البديل اليوم : هو التعايش السلمي مع البلدان ذات الانظمة المختلفة ، او الحرب المدمرة .

وان التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة المختلفة لا يعني الامتناع عن الصراع الطبقي ... فتعايش الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة شكل من اشكال الصراع الطبقي بين الاشتراكية والرأسمالية .

ان التعايش السلمي بين بلدان ذات انظمة اجتماعية مختلفة لا يعني التوفيق بين الايديولوجيات الاشتراكية والبورجوازية . بل على العكس ، يتضمن زيادة حدة الصراع الطبقي العمالي لكل الاحزاب الشيوعية في سبيل انتصار الافكار الاشتراكية . ولكن لا ينبغي ان تسوى المنازعات الايديولوجية والسياسية بين الدول بواسطة الحرب . »

* * *

الفهرست